سلمى الحفار الكزبري



ميّ زيادة

أو

مأساة النّبوغ

المجلّد الأول

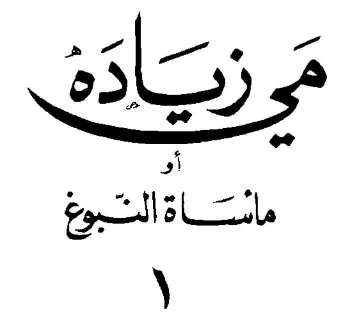


سلمى الحفار الكزبري



الجزء الأول




مي زيادة
أو
مأساة النبوغ
١

الطبعة الأولى

١٩٨٧





المقدمة

(اليس أشدّ دلائل القوة خطراً أن يظل
النسر محلقاً ولو مهشماً دامياً؟ أن يظل
محلقاً حتى بجناحين مهشمين داميين؟

ميّ)[1]

النبوغ والمأساة كلمتان تختصران حياة ميّ زيادة في شروقها وغروبها. قدر رحيم وقاسٍ رفع هذه الأديبة إلى قمة المجد ثم أرداها إلى هاوية الشقاء. كاتبة فذَّة أعطت للعلم والأدب والنهضة العربية الحديثة عمرها كله ولم تحصل على شيء اللهم إلا على أرفع مكانة في تاريخ الأدب العربي! نابغة شقيت بنبوغها كما لم يشق به أحد غيرها عبر العصور: أحاط بها عظماء عصرها، وعلقوا على هامتها أكاليل المجد وجفاها أهلوها ثم جاراهم كثير من أصدقائها بعد أن أدبر سعدها، مما يدعو إلى القول إن من المفارقات العجيبة في بلادنا أن يحارب النبوغ، ويُهان صاحبه، ولا سيما إذا تجلى في امرأة.

قصة حياة ميّ هي قصة الرِّيادة في عطائها السخيّ، وتضحياتها الجسيمة، قصة المجد والحرمان، قصة المرأة النابغة في شرقنا العربي وحتمية استشهادها في سبيل اثبات وجودها كاتبة وشاعرة، ومصلحة وخطيبة في عصر

---

(١) عائشة تيمور، شاعرة الطليعة ـ مي زيادة ـ ص: ١٠٦.

كان يفرض على المرأة الصمت والطاعة، والرضا بكونها متاعاً للرجل، ووسيلة اخصاب! معركتها شبيهة بمعارك الرائدات اللواتي سبقنها واضطررن للتخفي وراء أسماء مستعارة في مقالاتهن الداعية إلى اعتبار المرأة عضواً ذا قيمة في المجتمع والوطن، مخلوقاً من فصيلة البشر السويّ الذي له حقوق وعليه واجبات. مأساة ميّ هي مأساة ملك حفني ناصف، (باحثة البادية) التي لفتت الانتباه في مقالاتها «نسائيات» إلى جراح المرأة في عزلتها الجائرة، وإلى توقها لكي يُردُّ إليها اعتبارها كائناً مفكراً، مجدياً، تُعوّل عليه نهضة البلاد. وكما دمّرت الظروف باحثة البادية، وتحالفت التقاليد على خنق صوتها، وأسرها في بيت الزوجية كأية قطعة من المتاع فيه فقضت على حياتها وهي بعدُ في ريعان الشباب، كذلك دمّرت ظروف قاهرة حياة ميّ في أواخرها، مع الفارق بين المأساتين الذي يكمن في الاخراج فقط، وفي كون الباحثة مسلمة، وميّ مسيحية... ذلك أن ظهور ميّ صحفية وأديبة لامعة، ومثقفة متحررة فكرياً في الثلث الأول من القرن العشرين قد فرض عليها قيوداً تحملتها بصبر، وعرّضها لضغوطٍ عالجتها بحكمة وهي راضية بنصيبها من التضحية، عنيدة في صمودها بوجه العقبات، وفي الدعوة إلى احترام انسانية المرأة، وعقل المرأة! ولكن القيود والضغوط والعداوات تضافرت فحرمتها مما كانت تدعو إليه، وجعلتها «مختلة عقلياً»، عاجزةً عن تولي شؤونها بنفسها، فألقت الحجر عليها رسمياً في محاكم لبنان ومصر!!

وإذا استعرضنا تاريخ المرأة العربية عبر العصور لا نجد فيه أديبة وشاعرةً في وزن ميّ زيادة، وفي شجاعتها ومقدرتها على كسر الحصار المفروض على المرأة: (كانت ميّ المثل الأعلى للأديب العربي العامل، فالعمل الدائب في حياتها الفكرية والأدبية أوقد ذهنها، وشحن موهبتها الفطرية بتيارات الثقافة والمعرفة، فتجلى نبوغها في عالم الفكر والنهضة والمجتمع)[١] كما قال الأستاذ خليل فرحات.

---

(١) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ تاريخ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨.

ويوم كرّمتها «عصبة الأدب» في بيروت سنة ١٩٢٢ ألقى الأديب راجي الراعي خطبة أتى فيها على تحليل النبوغ فقال:

(النبوغ الأدبي هو أن يكون فيك غير ما في البشر فتملأ فراغهم بما فاض في كأسك. هو أن تجتاز بالانسان شوطاً بعيداً في مضمار حياته الفكرية، هو أن تغمس قلمك في غير الدواة، وأن تكتب به على غير القرطاس، وأن لا تقف بصريره قبل أن تخرس العاطفة الصارخة، وأن تضمّد، في كل سطر تكتبه، جرحاً من جراحات القلب البشري. هو البلوغ إلى قعر النفس لاستخراج دفائنها، وميّ نابغة أخرجت مؤلفاتها فدخلت في التاريخ)[١].

كما أن لراجي الراعي، صاحب «قطرات الندى» مقالة عن «عبقرية ميّ» تغلغل فيها إلى أعماق مأساتها فقال:

(تنافس في ميّ القلب الكبير والعقل الكبير، كل منهما يريدها له: يصعد بها التفكير إلى القمة فيردّها القلب إلى اللجّة. وقد استطاعت أن تجمع بينهما في صعيد واحد، وتلك هي عبقريتها، فأرضت الفكرة العميقة الهادئة، والصدر المائج الزخّار، تتسامى فتحوم حوماتها في الأجواء، ثم تحطّ على الأفنان في الروضة الأنيقة)[٢].

ويوم قابلناه في بيته بزحلة بتاريخ ١١ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ لتدوين ذكرياته معها، والحصول على مطالعته في دعوى الحجر التي أقامها عليها ابن عمها الخوري يوسف زيادة، إذ كان النائب العام في محكمة البداية التي نظرت فيها سنة ١٩٣٨، أتى على ذكر نبوغ ميّ، وما جرّه عليها من شقاء فقال: «لم يتضح بعد الحدّ الفاصل بين النبوغ والجنون إذ لا بد من حدوث تمزّق في أحشاء الأم لكي يلد المولود، وهذا ينطبق على الأثر الفني الذي لا يتمّ خلقه

---

(١) مي في سوريا ولبنان ـ كتاب المرأة الجديدة ـ ص: ٧٩.

(٢) جريدة العمل ـ العدد (٨١٠) ـ تاريخ ٧ ـ ١١ ـ ١٩٤٨.

بدون تمزق، وهذا التمزق هو ما نسمّيه اختلالاً في التوازن وأضاف يقول «إنَّ ميّ نابغة سبقت زمانها، وكان لا بدّ من أن تعاني من الغربة الفكرية، وحتى العاطفية في حياتها». وهذا ما يسوقنا إلى أن نقول إن النبوغ نقمة بقدر ما هو نعمة: إنه شقاء مقرون بالسعادة، يقصي صاحبه عن الناس ويرديه في عزلة موجعة عن مجتمعهم المألوف الذي قُدر له أن يعيش فيه... والنبوغ عبء يفرض على النابغة نهجاً في الحياة قاسياً يتطلب الجد والاجتهاد، وإنكار الذات، كما أنه مسؤولية تفرض عليه الدأب على العمل، والتعب والمعاناة، وتقديم ذوب فكره، وعصارة قلبه للعلم والفن دون مقابل. ولما كان النبوغ في المرأة قليل بسبب طمس مواهبها في العصور الغابرة، ولما كانت ميّ نابغة في عصرٍ كان عصر الرجال، أضحى عبء نبوغها عليها مأساة وأية مأساة! وإن ما يشدّ الانتباه في أبحاثها وكتبها أنها كانت واعية لنبوغها، مدركة تبعاته، فقد جاء في مقالة لها بعنوان: «كن سعيداً» هذا التعريف:

(... وإذا كنت عبقرياً كن سعيداً! فقد تجلى فيك شعاع ألمعيّ من المقام الأسنى، ورفعك الرحمن بنظرةٍ انعكست صورتها على جبهتك فكراً، وفي عينيك طلسماً، وفي صوتك سحراً. والألفاظ التي هي عند الآخرين أصوات ونبرات ومقاطع صارت بين شفتيك، وتحت لمسك ناراً ونوراً تلذَعُ وتضيء، وتحرق وتهنيء وتخجل وتكبر، وتذلّ وتنشط، وتوجع وتلطّف، وتسخط وتدهش، وتقول للمعنى: «كن» فيكون!)[1].

وكتبت تصف غربة النوابغ فقالت: (يهدم التطور صوراً قديمة ويبدع صوراً جديدة على يد أشخاص يخلقهم التطور نفسه، وقلّ من يفهمهم في محيطهم. وكلما تعالوا إلى المثل الأعلى أفرط العامة في الاستخفاف بهم، ودفعهم عنه لأنهم لا يشبهون جميع الناس. على أن نفوذ هؤلاء الأفراد، وفوزهم النهائي إنما يتعلق بما عندهم من شجاعة واقدام، واعتقاد بأن الحرية

---

(١) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: (٨٠).

الفردية المطلقة يجب أن تكون دعامة المدنية الجديدة الحقة)[١].

إن هذه الحرية المطلقة التي دعت إليها ميّ هي التي دقّت عنقها في نهاية المطاف!! وكأنها كانت تشعر بالمخاطرة، ولكن أنّى لها أن تحيد عنها وقد جُبلت على التفوق؟ وها هي تصف واقعه المحزن في البيئات الشرقية بهذه العبارات:

(حال محزنة حال التألّق إلى ما يعلو على العيشة الملامسة للثرى... حال محزنة حال الأديب الصميم في عصرنا. إنه سرعان ما يتصدى له من يناقض ويعاكس، ويتمطى ليقدّم له ويؤخّر، ويفصّل في قماشه ويخيط، وسرعان ما ينبري له من يقدح ويهجو لسبب أو غير سبب، وسرعان ما يسمع المدح المائع المتهدّل، لا اعترافاً بالأهلية، بل عن هوسٍ، أو حمقٍ، أو لغاية... أما تجانس الخواطر، وحبّ الآداب، وسعة الادراك في تحليل الأشياء وتقديرها، والغوص على المعاني الواسعة، وفهم مناحي الحياة كما هي، كل تلك الغبطة المعنوية التي نطلبها بأشواقنا، ولا نحسن التعبير عنها، فليست بعدُ لنا!!! وهي مفقودة في هذه البلاد، بل ندر الذين يفهمون ارتفاعها ونبلها من الأفراد، وأولئك هم المعذبون)[٢].

ويخيّل إلينا أنها كانت تصف حالها فيما كتبت لأنها كانت غريبة بين ذويها وبين الناس المحيطين بها، تعيش معهم وليست منهم. حتى أولئك الكتاب الكبار في عصرها الذين التفوا حولها فقد بارزتهم في أدب المقالة، وتفوقت عليهم بمعالجة موضوعات جديدة في أبحاثها لم يسبق أن طرقها أحد منهم، سواء في السيرة العلمية التي نشرتها عن «باحثة البادية» أو في كتابها عن «المساواة»، ناهيك عن نبوغها في الخطابة والمحاضرة، وفي إدارة جلسات ندوتها الأسبوعية خلال عشرين عاماً، فكانت حقاً كالنسر الذي يحلق ويحلق

---

(١) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) عائشة تيمور، شاعرة الطليعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٤ ـ ١٠٥.

متجاوزاً العقبات، مستهيناً بالصدمات، ذلك النسر الذي وصفته بأنه:

(يرتفع ويبدو عظيماً وكأن اسمه وحده يكفي ليقول: «إني موجود، وأثري متسرّب إلى جمودكم ليقلبهُ حركة!.. إني موجود وحميّتي ماضية في خمولكم لتثيره نهوضاً! إني موجود وعزمي متغلغل في قلقكم لينسّقه انتظاماً! ولعل الحياة تحتال على بنيها، ولا سيما الأصفياء منهم عندما توسعهم مقاومة، وتشبعهم تعذيباً؟ وما ذلك إلا لتلحّ على الفرد الموهوب أن يجني المعونة والتعزية والقوة من أعماق وحدته، من أعماق وجعه، من أعماق قنوطه! لعل لها غرضها من المنع والحرمان فيظل لابنها المختار أن يخلق لنفسه عالماً يملأه ببرايا هواجسه، وبأشباح ما يحب ويأمل وينشد. يظل له أن يبدع ما ينقصه إبداعاً ما، إبداع التخيّل والتدوين، فتكون الحياة لذاتها، عن هذه الطريق، صوراً جديدةً من لهف الحرمان، وزفرات الأسى، وتجمّد الدماء التي لا تسيل)[1].

إن من يطوف على كتابات ميّ، ويتبصّر بها يرى فيها ومضات من معاناتها، ووحدتها، وجوعها وعطشها، وأحلامها وهواجسها في حياتها الغنية بالابداع، والفقيرة في الاستمتاع. حتى في حبها الكبير لجبران نرى أنها عانت الوحدة، والجوع والعطش، فلجأت إلى عالمها الخيالي المثالي الذي نمقته بلهف الحرمان، وتجرعت فيه كؤوس الأسى، وذاقت منه لوعة تجمّد «الدماء التي لا تسيل» على حدّ قولها. ولا أدري أمام هذه الصور التي لوّنتها ميّ بأسلوبها المجنّح أيها أوجع: تجمّد الدماء أو انحباس العبرات؟؟ وهذا ما يدعوني إلى القول إن هذا الحرمان وهذا الألم في حياتها الاجتماعية والعاطفية كانا الحافزين لها على إطلاق عناوين بعض مؤلفاتها: «ظلمات وأشعة» و«بين الجزر والمدّ»، و«ابتسامات ودموع» و«الحب في العذاب».

ومما يستوقف الباحث العبارة التالية التي وردت في تأبينها لباحثة البادية:

---

(١) عائشة تيمور، شاعرة الطليعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٦ ـ ١٠٧.

(يجب أن يكون الوسط راقياً جداً ليقدّر الفرد الراقي وإلا أهمله، وعدّ نبوغه جنوناً، ورأى في توجعه من التقهقر والانحطاط وقاحةً وشروداً. . .)[1].

فرقيّ ميّ، وتطلعها إلى السموّ والكمال، وتفرّدها بمواهب عديدة اجتمعت في شخصيتها مما أدى إلى شقائها في الحياة، وهذا ما أدركته السيدة هدى شعراوي، زعيمة النهضة النسوية في مصر منذ أن عرفتها، فقالت:

(لقد عرفت مياً في ريعان شبابها، وإبان نشاطها، والقوى الجبارة تتنازع جسدها وقلبها وروحها، وكنت دائماً قلقة عليها، خائفة أن تعصف بها تلك القوى العنيفة فتذبلها قبل أوانها، أو تقضي عليها قبل حينها. كانت تتأثر لكل شيء، وتحسّ بكل شيء، وكنت أخشى أن يجني عليها ذكاؤها، أو أن يقتلها نبوغها! كنت أفزع من أن تصطلح عليها هذه القوى العنيفة فتدكها دكاً، وتحطمها تحطيماً!)[2].

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام هو أن ميّ حدثتنا بنفسها عن وصف الناس لها بالشذوذ، فقد كانت زميلاتها في مدرسة راهبات عينطورة يعتبرنها «شاذة» لعزوفها عن مشاركتهن في الثرثرة، وانفرادها اثناء الفرص إما مع كتاب تطالعه، وإما في إحدى زوايا الحديقة للتأمل ومشاهدة المناظر الطبيعية. كما كتبت رسالة إلى الأستاذ إميل زيدان، صاحب «الهلال» سنة ١٩٢٩ تعتذر عن إحجامها عن الكتابة للمجلة، وقد جاء فيها ما يلي: (... وَعَلاَمَ لم أكتب إليك مباشرة فأقول منذ اللحظة الأولى ما أقوله الساعة من أني شديدة الخجل؟ هذا ما لا أستطيع الردّ عليه، ولكنه كذلك، وقد يكون سببه في أني «شاذة» كما يروق لبعضهم أن يسموني أحياناً)[3].

ولا ريب في أن الشذوذ يجاور النبوغ، وان هذا الشذوذ تجلى في سلوك

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٦.

(٢) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٥٣.

ميّ، ولا سيما في أواخر حياتها، وإبان محنتها في لبنان بصورة خاصة، فقد كتب إليها القاضي الأستاذ خليل الخوري في ٢ ـ ٥ ـ ١٩٣٨ رسالة تقريع لما ظهر منها من عناد في رفض مقابلة الأطباء، ورفض نصائح أصدقائها المنقذين كأمين الريحاني، والأمير مختار الجزائري، والمحامي الأستاذ حبيب أبو شهلا، فقال لها:

(أنا متأكد تماماً أن الأعمال الشاذة التي نراها فيك غير ناشئة عن ضعفٍ في العقل، فأنت أعقل منا، وإني أقول لك بصراحة إننا نشتم من أعمالك كثيراً من الكبرياء والحقد، وهاتان الخلتان لا تليقان بأيّ إنسان، دع عنك بالنوابغ)[1].

لقد أوردنا هذا المقطع من رسالة الأستاذ خليل الخوري إلى ميّ لنبينّ ظهور بعض الشذوذ في سلوكها، الذي تجلى بالحقد على الذين ظلموها باتهامها بالجنون إبان مأساتها المروّعة، ولم يكن عنادها واصرارها على رفض مقابلة الأطباء والمحامين إلا بدافع عزة نفسها التي كانت تأبى عليها جعل صحتها العقلية موضع الفحص الطبي، تلو الفحص. والفارق كبير بين الكبرياء وعزة النفس، وبين الصلف والأنفة، كما أنه ليس من السهل أن يُطعن أحدنا بسلامة عقله ظلماً وبهتاناً، أي بكرامته الإنسانية، وأن يرضخ للمتآمرين عليه، ويغفر لهم إساءتهم الفظيعة بإلغائه من الوجود...

أما الدكتور منصور فهمي فقد كان من أكبر المعجبين بمي، وأوفاهم لها، وذات يوم اقتحم عزلتها بعد أن استبدّت بها الأحزان في إثر موت أبويها وجبران، وحزن حزناً شديداً على حالها، ووصفه في إحدى محاضراته التي ألقاها عن أدبها وحياتها في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة سنة ١٩٥٤، ثم أتى إلى لبنان، في أعقاب مأساتها، وقصد زيارتها في «الفريكة» حيث كانت تصطاف بجوار أمين الريحاني، سنة ١٩٣٨، ولكنها أبت أن

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٦١.

تستقبله لما وقر في ظنها أنه صدّق إشاعة جنونها، وتوانى عن السؤال عنها في محنتها، كما فعل سائر أصدقائها الكتاب في مصر ورواد ندوتها. وقد ورد في كتابه الذي جمع فيه محاضراته عن ميّ هذا التعليق على رفضها مقابلته: (وينبىء الريحاني، بعد وقتٍ طويل، أن لميّ أوقاتاً تحرص فيها على العزلة. فأدركت أنها ما زالت فريسة تلك الحالة النفسية، وفي ذلك العصاب والشذوذ الذي يلابس الجنون، وأنها ما زالت فريسة لذلك التفاعل المخيف الذي ينزل بنفوس حساسة مرهفة تتجاذبها المحاسن والفضائل، وشتى المطالب والمطامح فتتفلّت من سويتها، وتنحرف بها عن المألوف)[1]. وقد سمى الدكتور منصور فهمي ما أصاب ميّ من انحراف: (أعراضاً تشبه الجنون وتلامسه!)[2].

لقد سمعنا الكثير من الأحاديث عن هذا الشذوذ، وقرأنا ما كتبه المتجنون على ميّ الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك وعدّوه جنوناً، ولكننا سمعنا أيضاً وقرأنا الكثير مما يناهض هذا التفسير الخاطىء لكون النبوغ هو شذوذ بحدّ ذاته. إن كل نابغة في تاريخ الانسانية هو إنسان غير عاديّ، إنسان «شاذ» عن المجموعة بدافع تجسّم القدرة الابداعية في تكوينه وفي ملكاته، وإن أكثر ما يحتاج إليه هو التفهّم والرعاية من اللائذين به في حياته، ومن المؤرخين له بعد مماته. ونحن لا ننفي عن ميّ النابغة صفة الشذوذ، إنما نحرص على الاشارة إلى أن ذلك الشذوذ في سلوكها أحياناً هو «طبيعيّ»، وإلى أنه تجلى، أكثر ما تجلى، في العزلة التي فرضتها على نفسها بعد وفاة والديها وجبران، وفي اثناء المحنة التي ألمت بها سنة ١٩٣٥، وفي أعقابها، حيث وصمها أقرباؤها بالجنون، وأدخلوها مصح الأمراض النفسية والعقلية في بيروت (العصفورية). كان الزعيم الكبير الأستاذ فارس الخوري من أصدقائها، المعجبين بأدبها، المقدرين نبوغها، الذين أسهموا في رفع الحجر

---

(١) و (٢) محاضرات عن ميّ ـ الدكتور منصور فهمي ـ ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢.

عنها، وقد عثرنا على صفحة من مذكراته المخطوطة التي تعدها للنشر حفيدته الكاتبة كوليت خوري، خصّ بها ميّ، فأعطتنا صورة عنها وهي مؤرخة في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤١، تحدّث فيها عن تكريم ميّ بعد موتها فقال:

(أقامت السيدة هدى شعراوي في مصر حفلة حافلة لذكرى ميّ في الرابع من هذا الشهر خطب فيها أدباء مصر وشعراؤها، وأبنوا مياً بما هي أهل له، ولأكثر منه. فقد كانت نابغة زمانها لم يشهد العالم العربي منذ أجيال سيدة تضاهيها أو تدنو منها في سلامة التفكير، وعذوبة الحديث، وغزارة العلم، وسلاسة التعبير، ومجرى القلم. أصيبت وهي في منتصف العمر بشيءٍ من شذوذ النبوغ فنفرت من الناس، وقبعت في فراشها لا ترضى عن العزلة بديلاً، فغنم أبناء عمها، وعلى رأسهم الطبيب يوسف زيادة، هذه الظاهرة وحسبوها مجنونة، وجاؤوا بها إلى مستشفى العصفورية فأقامت فيه أكثر من سنة[1]، ثم نقلوها إلى مستشفى ربيز، ثم إلى المستشفى الأميركي حيث زرتها في شباط ١٩٣٨ فلم أجد بها أثراً للجنون سوى محبة العزلة. وسعينا بنقلها إلى مسكنٍ خاصٍ في رأس بيروت، وتعاون عدد من أصدقائها على تخفيف كربها، وتفريج همّها بعدما قاسته من الأهوال في مستشفى المجانين. ثم سعينا ونجحنا برفع الحجر الذي وضعه عليها أبناء عمّها، فنُقض في محاكم بيروت، وفي المجلس الحسبي بمصر).

وما أجمل قول الأستاذ سليم حيدر في وصف ميّ بعد أن أدهشت الناس بالمحاضرة التي ألقتها في الجامعة الأميركية ببيروت في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٣٨، بعنوان: «رسالة الأديب إلى المجتمع»، وذلك في مقالةٍ له كانت بعنوان: «كلمة العبقرية!»:

---

(١) تقدير مدّة إقامتها في العصفورية خطأ لأنها أقامت فيها عشرة أشهر ونصف الشهر، استناداً الى تقارير الأطباء المرفقة بهذه السيرة.

«إن ميّ مجنونة بعبقريتها، عبقرية بجنونها، وإنها ستبقى بسمة خالدة على شفة الشرق!»[1].

شيء آخر ينبغي أن يذكر في معرض الحديث عن نبوغ ميّ هو أن نبوغها كان عائقاً لـزواجها إذ جعل الممتازين من الشباب يتهيبـون طلبها للزواج لقناعتهم بتفوقها العلمي والأدبي عليهم. ولسنا نقول هذا بـدافع التخيّل، أو التحليل لحرمانها من الزواج، وإنما نورده استناداً إلى ما كتبه في هذا الموضوع الأستاذ عبد الله مخلص، من أدباء مدينة عكا بفلسطين، ضمن رسالة وجهها إلى الأستاذ أحمـد حسن الزيـات، صاحب «الـرسالـة» سنة ١٩٣٨، إبان محنة ميّ، ودفاعاً عنها، وقد جاء فيها قوله:

(... ومما أذكره عن ميّ أنني كنت في بيت المقدس في أوائل سنة ١٩٢٣ فجاءته الآنسة ميّ زائرة ودارسة، وراح الأدباء والفضلاء للترحيب بها، والتعرف عليها. وقصدت أنا ورفيق لي إلى زيارتها فلم نجدها، وفيما نحن عائدان قال لي صاحبي، وهو يحاورني: «أتدري أن علم ميّ جنى عليها؟» فقلت له: «أفصح عما في ضميرك فيظهر أن للكلام بقية». فقال: «أنا أحد الذين كانوا يرون السعادة، كل السعادة، في الاقتران بميّ لما وهبها الله من الخلق الجميل، والصفات الطيبة، ولكني كنت أرى أن مستـواها العلمي فوق مستواي، فلم أجرؤ على طلب يدها. وكان لي أمثال كثيرون كانوا يرون رأيي فيها، وكنا حين نلتقي بميّ النابغة نشعر بعاطفة الاكبار والاجلال لآدابها الرفيعة».

والذي قال لي هذا القول لم يكن من عامة الناس، بل هو من خريجي الجامعة الأميركية، ومن أصحاب الثروات الطائلة والذين أثـروا في الحياة الاجتماعية والمدنية، ولكنه كان يرى نفسه دونها، ويعترف بذلك. فانظر ماذا

---

(١) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ تاريخ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨.

كان مصير هذه العلوم والفضائل بين أعدائها الألداء، عاملهم الله بما يستحقون، وأذاقهم عذاب الهون!)[1].

وخلاصة القول إن الحياة ظلمت ميّ وعتت عليها عتوّاً كبيراً! فقد ظلمها أهلوها الأقربون الذين جفوها بعد موت أبويها وطمعوا بمالها، واستهانوا بقدرها، فعالجوها من الحزن الشديد، والسأم والانهيار العصبي بإدخالها مستشفى المجانين... وظلمها أصدقاؤها المقربون الذين صدّقوا إشاعة جنونها فقصّروا عن تأدية حقها عليهم بعد أن كانت ملء اسماعهم وانظارهم وأفئدتهم، وزينة مجالسهم في مجتمعهم الأدبي الناهض... وظلمت هي نفسها إذ غالت في خوض غمار العلم والأدب كأحسن ما يفعل كبار العلماء، ووهبت لهما شبابها ونفسها، فغفلت عن أنها امرأة لها متطلبات روحية وجسدية، وأن لجسمها ولروحها عليها حقوقاً، كما أن لفكرها عليها حقاً... خالطت أعلام عصرها وراسلتهم، وعقدت لهم الندوات في بيت أبويها طوال عشرين عاماً، وأهملت عقد صداقات مع أناسٍ عاديين، تستمتع بعشرتهم وتجد فيها ما يؤنس النفس، ويريح الأعصاب، ويجدد النشاط، ويقضي على الجفاف... وظلم ميّ عدد كبير من الذين كتبوا عنها في الصحف والمجلات، في أواخر حياتها وبعد موتها، إذ وجدوا في إشاعة جنونها مادة خصبة لنشر روايات ملفّقة، فجعلوا من هذه الأديبة النابغة، ومن صلاتها مع صفوة كتاب عصرها أسطورة تفوق، في غرابتها، المألوف من الأساطير... كان اكليل النبوغ الذيّ زيّن هامة ميّ يحمل في طياته أشواكاً أدمت قلبها!

لقد تخيّلت، ميّ في أثناء قراءتي كتاب طه حسين: «مع أبي العلاء في سجنه» ولا سيما عندما أورد في أحد فصوله بيت شاعر المعرة:

«لا تظلموا الموتى، وإن طال المدى
إني أخاف عليكُمُ أن تلتقوا...»[2]

---

(١) مجلة «الدوحة» ـ قطر ـ عدد يوليو ١٩٨٣ ـ ص: ٧٩.
(٢) مع ابي العلاء في سجنه ـ طه حسين ـ ص: ٢٢.

تخيّلت ميّ منتصبة أمامي بوجهها المتعب، المكلل بهالة وضاءة من الشعر الذي كان أسود يوم زجّوها في «العصفورية»، وأضحى أبيض يوم خروجها منها بشبه معجزة، وكأنها تدعوني إلى كشف اللثام عن كل غموضٍ أحاق بحياتها، في سائر مراحلها، ولا سيما بمأساتها الأليمة. وميّ بشهادة الذين عرفوها وقرأوا آثارها هي أكثر الناس حباً للحق، وأكثرهم كرهاً للظلم، فعزّ عليّ تضافر قوى الشرّ لظلمها، وآذاني تجني الذين شوّهوا صورتها بسموم أقلامهم، فنذرت نفسي بكل ما أوتيت من عزمٍ وتقدير للمناضلين، وحب للمتميّزين، لتحري الوقائع، وحسر الغموض الذي اكتنف حياتها. قصتي معها قصة مثيرة استغرقت جزءاً هاماً من حياتي، وأضحت جزءاً من اهتمامات أسرتي، لهذا استغرق العمل في إعداد سيرتها سبعة عشر عاماً، ووفّر لي فرص التعرف إلى أنسبائها، ودراسة عصرها، ومقابلة سائر الذين اتصلوا بها في الشرق وفي الغرب. أدركت، منذ البداية، أني أقوم بمغامرة طريقها محفوفة بالعقبات، ونهايتها مجهولة، ولكن من يحبّ شيئاً يستهين بالصعاب، ومن يصرّ على الوصول يبلغ الهدف في نهاية المطاف، «ومن قصد البحر استقل السواقيا»، كما قال المتنبي... فتتبعت آثارها في أماكن دانية وقاصية لربط خيوط حياتها الغنية بالعطاء، البائسة بالحب، والمفجعة في النهاية. وهنا أودّ أن أذكر فضل ميّ عليّ إذ عرّفتني بأشخاص نعمت بصداقاتهم، ودفعتني إلى دراسة أحداث وقضايا تأريخية وقومية، أدبية وقانونية كانت معرفتي بها ضئيلة، فغمرني شعور بالسعادة كبير. كنت كلما طرقت باباً وجدته مفتوحاً على مصراعيه، وكان كل باب طرقته يرشدني إلى آخر أوسع، وأرحب، حتى لكأن روح ميّ كانت تبارك خطاي من عليائها، وتشجعني على الغوص في حياتها وكفاحها ومعاناتها! سافرت إلى مصر ما بين سنة ١٩٧٣ وسنة ١٩٧٩ ثلاث مرات، وزرت ايطاليا مرتين للبحث عن مراسلاتها مع المستشرقين الايطاليين، وعما نشرته في مجلة «الشرق الحديث Oriente Moderno»، وعكفت قبل ذلك على دراسة حياة جبران خليل جبران وآثاره، فاطلعت على مجموعة رسائله المخطوطة إليها في بيت نسيبها الدكتور جوزيف زيادة سنة

١٩٧٠، ثم شاءت الظروف المواتية أن يكلفني الدكتور زيادة وأبناؤه بعقد اتفاقية معهم لتحقيق ونشر وترجمة رسائل جبران إلى ميّ، فتعاونت مع الدكتور سهيل بديع بشروئي في هذا العمل، وأصدرنا «الشعلة الزرقاء» باللغات العربية والفرنسية والانكليزية، وتُرجم هذا الكتاب إلى اللغتين الاسبانية والايطالية. ومن ثم أسعفني الحظ بالحصول على صورة عن التقارير الطبية السرية التي تتضمن تسجيلا دقيقاً لسير مرضها، إبان وجودها في «العصفورية» من تاريخ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٦ حتى غاية ٢٢ ـ ٣ ـ ١٩٣٧، وذلك بفضل مساعدة سيادة المطران أغناطيوس زيادة الذي زودني بما عنده من معلومات ووثائق ورسائل، وبارك عملي منذ بدايته سنة ١٩٦٨، وسهّل مهمتي. كما حصلت على ملفّ دعوى الحجر التي أقامها على ميّ أهلوها في بيروت، وفي مصر سنة ١٩٣٨، بفضل همّة الأستاذ أنطون متري، وذلك قبل أن يُقصف قصر العدل ببيروت سنة ١٩٧٦، إبان الفتنة فيها، وقبل أن تلتهم النيران وثائقه... ولا أحسب أنه بقي انسان في لبنان وسورية ومصر عرف ميّ، أو عرفها أهله في حياتها، إلا واتصلت به شخصياً، أو عن طريق المراسلة ما بين سنة ١٩٦٨، وسنة ١٩٨٥. كما يطيب لي أن أرسل تحية خاصة إلى الدكتور انترانيك مانوكيان الذي اتفق وجوده طبيباً متمرناً في «العصفورية» سنة ١٩٣٦، يوم أن أُدخلت ميّ إليها، لما وجدت منه من معونة في اطلاعي على حالة ميّ النفسية والصحية إبان مأساتها..

وما دمنا نتحدث عن المأساة التي هزّت وجدان أنصار الحق في لبنان وسورية ومصر فإني أعرب عن شكري العميق للمحامي الكبير الأستاذ مصطفى مرعي الذي تولى الدفاع عن ميّ أمام المجلس الحسبي في القاهرة سنة ١٩٣٩، ولزوجه السيدة نور مرعي إذ تكرما وزوداني بمعلومات هامة عن حياتها ونشاطها الأدبي في السنوات الأخيرة من عمرها، حيث كانا ملازمين لها تقريباً، وأحاطاها بما تستحق من رعاية وتقدير.

هذا غيض من فيض بيّنته لأقول إن أهلي ضاقوا ذرعاً بحماستي لميّ،

وما أسموه «تقمّصي شخصيتها»، فنهوني، أكثر من مرة، عن تلك الحماسة، والإجهاد في العمل، مع أنهم كانوا يهتمون بما كنت أرويه لهم عن سيره، ومفاجآته على اختلاف انواعها، فلا بد من شكرهم على ما أبدوه من تفهّم وصبرٍ ورعاية.

وعندما أصبح في حـوزتي ما ينوف على مئتي رسالة مخطوطة من ميّ إلى أعلام عصرها، ومنهم ومن بعض كبار المستشرقين إليها، ورسائل أخرى تفضل بتصويرها أصحابها، شعرت بأن ملامح شخصية ميّ أخذت تتضح أمامي أكثر فأكثر، ووقعت في حيرةٍ كبيرة كمن يتملّك ثروة طائلة ويرتبك في بحثـه عن أفضـل السبـل لتـوظيفهـا... تُـرى كيف ينبغي أن أتصـرف بمخطوطات ووثائق تاريخية وأدبية عن عصر برمته، وشخصيات ما زالت محور اهتمام الباحثين؟ فوجدت بعد ذلك أن أفضل طريقة هي نشرها في كتابٍ خاصٍ بها لكونها تحفةً أدبيةً بذاتها، وأن يكون هذا الكتاب مرجعاً لي في كتابة هذه السيرة، فأصدرته سنة ١٩٨٢ وكان عنوانه: «ميّ زيادة وأعلام عصرها»، واحتفظت ببضعة رسائل ووثائق لإدراجها في فصول السيرة. أما كيف، وأين تمّ العثور على هذه المخطوطات فلا بدّ من الاعتراف بأن التوفيق حالفني في بحثي عنها، في لبنان وفي مصر، سواء عند أقرباء ميّ، وفي طليعتهم ابن عمها نجيب أغناطيوس زيادة وزوجه السيدة ماري المقيمان في حيّ الفجالة بالقاهرة، واللذان يحملان لميّ حباً حقيقياً دفعهما لتزويدي بكل ما احتفظا به، عبر السنين الطوال، مشكورين، أو سواء في أقبية الوراقين في القاهرة، وصناديق مهترئة، وملفات مرمية على الرفوف المهملة عند أصدقاء ميّ، وورثة معاصريها في دمشق وبيروت والقاهرة، وبعض اللائذين بها! ولسوف آتي على ذكرهم وشكرهم في فصول هذا الكتاب.

ومنذ أن اهتديت إلى قبر ميّ المهجور في مدافن الطائفـة المارونيـة بالقاهرة، بعد بحث طويل عنه، في سنة ١٩٧٩، خُيّل إليّ أنني أسمع صوتها يهدر في أذنيّ بصفائه، وحلاوة جرسه، ويحدثني عن وقائع رحلتها المثيرة إلى

هذه الدنيا التي دامت خمسة وخمسين عاماً، مؤكداً لي أنها سعيدة هنالك، وراء الأفق الأزرق الذي رحلت إليه في إثر متاعب أنهكت قواها، ومصائب توالت عليها في السنوات العشر الأخيرة من عمرها، تتصدع لها أقوى النفوس. ومع ذلك تملكني شعور غريب برغبتها في أن أروي قصة حياتها بتفاصيلها كافةً!!

لا ريب في أن كاتب السيرة مسؤول عن تقديم ما تناهى إليه من معلومات ووثائق ومخطوطات تتصل بالشخصية التي يدرسها لتوضيح ما التبس في أذهان الناس منها، واظهار ما خفي عنها، وانصافها، وكثيراً ما تتضارب الآراء في شخصيات الأحياء من الرواد، فكيف لا تتضارب في الأموات منهم؟ والرواد، في كل زمان ومكان، ملك للانسانية وللتراث، سيرهم قدوة للأجيال، تستمد منها العزيمة على الكفاح، والتعزية في الحياة لأن الرواد، وميّ منهم بلا ريب، بشر مثلنا يضحكون ويبكون، يصيبون ويخطئون، ولكنهم يبذلون النفس والنفيس في سبيل المثل العليا التي يؤمنون بها، ولا يفكرون بأجر إذ يجدون في الجهاد سعادتهم، وفي العطاء لذتهم وأفضل تعويض. على كاتب السيرة أن يسبر أغوار نفوسهم، أن يدرس البيئة التي أنبتتهم، التربية التي تلقوها، والعصر الذي عاشوا فيه. عليه أن يتعرف إلى الناس الذين خالطوهم، والأشخاص الذين أحبوهم وتأثروا بهم، الثقافة التي نالوها، والكتب التي قرأوها، والآثار التي تركوها. كتابة السيرة تفرض على المؤلف أن يصاحب الانسان الذي اختاره فكرياً، وحسياً قدر المستطاع، وأن يتحلّى بالاخلاص وبنفس طويل للقيام بهذه المهمة الصعبة، واحراز النجاح فيها، واضعاً الأمانة التاريخية نصب عينيه. هذه هي أهمّ قواعد كتابة التراجم، وشروطها الأساسية، والتراجم هي «علم وفن» كما قال عنها كبار كتابها في الغرب أمثال: «إميل لودفيج» و«ستيفان زوايج» و«اندري موروا» و«بنوا ميشان»، وغيرهم. كان «اميل لودفيج» يضع على مكتبه صورة الشخصية التي يكتب سيرتها فيسامرها، ويناجيها، يوماً بعد يوم، قبل الشروع بالعمل، وقد كتب يقول:

(أمضيت سنين في دراسة صور غوتيه وبيتهوفن، ولينكولن ورامبرانت. كنت أضع صورة الرجل الذي أدرسه على مكتبي واتحدث إليه طويلاً. كنت أحيا معه ممثلاً في صورته، وأسعى إلى توثيق عرى الصداقة بيني وبينه بدراسة الوثائق الخاصة به، فأتمعّن بها، وباعترافاته التي أفضى بها إلى صديق يخلص له، أو امرأةٍ يحبها، فأجد فيها ما كان يختلج في نفسه من مشاعر ومطامح، وما كان يخامر وجدانه من آمال ومخاوف، وأتبينّ أسراره التي أودعها فيها، ومن ثم شخصيته سافرةً على حقيقتها. وغاية المترجم أن يصوغ إنساناً، لا أن يصنع تمثالاً، أن يظهره لنا على حقيقته كما كان في حياته قبل أن يصبح أسطورة... وفي سبيل هذه الغاية حاولت ابتكار أسلوب خاص بالتراجم قبل عشرين عاماً، شرع في اتباعه كثير من الكتاب، وهو يتلخص بعدم التفريق بين حياة العبقري العامة وحياته الخاصة، بل ببحثهما وعرضهما في آنٍ واحد، وبذلك ندرس قصة القلب الانساني ممثلةً في حياة العظماء)[1].

وقد كانت «لأندري موروا» آراء في هذا اللون من الأدب المحبّب لدى القراء تتفق وآراء «إميل لودفيج»، إلا أنه أضاف إليها قوله:

(إن من يكتب السيرة أشبه بالشاعر الذي ينفذ بحسه المرهف، وخياله المجنح إلى أعماق النفس الإنسانية منه بالمؤرخ الذي يقلّب كتباً ومخطوطات جمعها من هنا وهناك ليغربلها. لذا لا بدّ من أن يكون ذا شعور دقيق، وخيال واسع للانطلاق في عمله من المدروس إلى الملموس)[2].

وإذا استعرضنا أدبنا العربي نرى أن التراجم ليست جديدةً عليه في كتب التراث القديمة، ولكنها جديدة في الأدب الحديث بأسلوبها المتطور، ونهجها

---

(١) الهلال - ج (٤٨) عدد أبريل سنة ١٩٤٠ - من حديث لاميل لودفيج نقلاً عن مجلة انكليزية.

(٢) ملامح السيرة «Aspects De La Biographie» - «ميشيل دروا - Michel Droit» المنشورات الجامعية - باريس - ١٩٤١.

العلمي اللذين أخذ بهما كبار كتاب السيرة في القرن العشرين أمثال: «حسين هيكل» و«عباس محمود العقاد» و«طه حسين» و«ميّ زيادة» التي كانت رائدة من رواد كتابة السيرة عندما نشرت كتابيها القيّمين عن «باحثة البادية» و«عائشة تيمور» وقدّمت لنا فيهما لوحتين نابضتين بالحياة، لكل منهما.

وقبل أن أختم هذا التمهيد أتوجّه بالشكر العميق إلى جميع الذين آزروني في اعداد هذا العمل، حيثما كانوا، وأخص بالشكر الوافر الكاتبين الكبيرين أكرم زعيتر ووديع فلسطين اللذين وافياني بمعلومات هامة، وقصاصات صحف ومجلات، منذ أن شرعت بالعمل، وكذلك الآنسة ليندا صدقة، المسؤولة عن الوثائق في مكتبة يافث بالجامعة الأميركية في بيروت، وزميلتها الآنسة أرميني شوكاسيسيان، والعاملين في دار الكتب المصرية في القاهرة (بباب الخلق) والعاملين في الهيئة العامة للكتاب (بكورنيش النيل) فلن أنسى فضلهم في تسهيل اطلاعي على ما نشر عن ميّ ومعاصريها في الصحف والمجلات العربية وما كان ينشر منها في بلادنا باللغتين الفرنسية والانكليزية. كما أشكر بنتيّ خال ميّ السيدتين عبلة معمّر فريوه، وسعاد معمّر الأشقر، وأنسباءها السادة اسكندر وفريد وجان زيادة لما زودوني به من معلومات، وصور عائلية، ورسائل مخطوطة قديمة بقلم ميّ وباللغة الفرنسية إبان السنوات التي استغرقها هذا البحث.

ولا بد من أن أشير إلى أن القارىء يجد في نهاية هذه السيرة «صفحات مطوية من أدب ميّ»، مكتوبة بخطها الفارسي الجميل حالفني الحظ بالعثور عليها في مصر، بين أوراقها الشخصية، ومقالة وجدانية بعنوان «موعد مع الأقدار» نقلتها الأديبة الراحلة جهان غزاوي عوني بخطها يوم التقتا معاً في مستشفى الجامعة الاميركية ببيروت في أوائل عام ١٩٣٨. وبما أن هذه المقالات والأحاديث الاذاعية المخطوطة لم تنشر بعد، رأيت أن ألحقها بهذا الكتاب، مع صورةٍ عن الأصل لكل منها، لكي يستمتع بقراءتها محبو الأدب.

وأما الكتب والدراسات والمقالات التي نشرت عن ميّ في حياتها وآثارها فقد اعتمدت القيِّم منها مصدراً للبحث وذكرته، كما علقت على ما وجدت فيه تحريفاً أو تجنياً. وليقيني بأن الكمال في أي عمل، مهما اتقناه، أمر محال، اعتذر عما وقعت فيه من أخطاء سهواً، وأقول إن مجال البحث ما زال مفتوحاً أمام الذين يرغبون في مزيد من التنقيب والتدقيق، وأتمنى لهم التوفيق في اكتشاف وثائق ومخطوطات أخرى قد تكون مختبئة في مكان ما، تجلو معالم شخصية ميّ وحياتها بصورة أوضح وأشمل وأكمل، وتسدّ الثغرات كافةً، في سيرة كاتبةٍ عظيمة نبغت وناضلت، أحبت وشقيت، تألّق مجدها الأدبي ومنحت قبساً منه لأسرتها ووطنها وأمتها لن يخبو أبداً.

سلمى الحفار الكزبري



شخصية ميّ

لا بدّ للباحث عن شخصية الأديبة ميّ التي عاشت خمسةً وخمسين سنة فقط من الاعتراف بنبوغها في الكتابة والخطابة والثقافة، وبإسهامها في النهضة العربية الحديثة. ومع أنها ماتت قبل أقلّ من نصف قرنٍ نرى أنها شغلت الناس بعد مماتها مثلما شغلتهم في حياتها، وانها غدت أسطورة من الأساطير لكثرة ما نسجت الأقلام عما لاقت من مجدٍ وحرمانٍ وهناءٍ وشقاء سواء في حياتها العائلية، أو العاطفية، أو في مسيرتها الأدبية. لقد سبقت عصرها بخمسين عاماً باعتراف كبار معاصريها، فكان نبوغها سبب مأساتها كما سنبيّن في فصول هذه السيرة.

إن لشخصية كل عظيم جوانب مضيئة، وجوانب غامضة، كما أن له صفات متناقضه تجعله ذا شخصيات متعدّدة في صلب الشخصية الواحدة. والازدواجية في شخصيات الاعلام صفة ملازمة لهم لأنهم يعيشون حياتين في زمن واحد: الحياة العامة التي يخوضون غمارها لابلاغ رسالتهم، والحياة الخاصة التي اختاروا نمطها لأنفسهم، أو فرضتها عليهم البيئة والظروف،

وهم، في جميع الأحوال، بشر كسائر المخلوقات في قوّتهم وضعفهم، في صحتهم ومرضهم، في فرحهم وحزنهم، مع كونهم مغايرين لسائر المخلوقات في تفوّقهم ونبوغهم، وفي قدرتهم على الابداع والعطاء. انطلاقاً من هذه النظرية تحدّث الدكتور طه حسين عن الازدواجية في شخصية ميّ فقال:

(إنها تظهر في حياتها بمظهرين مختلفين أشد الاختلاف. مظهر الأديبة البارزة التي لا تحتجب ولا تستخفي، ولا تلتقي الرجال حين تقضي الظروف لقاءهم، وإنما تنظّم الاجتماعات الأدبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حرّاً، سمحاً، فيه كثير جداً من الامتياز والرقيّ. أما المظهر الثاني فهو مظهر ميّ التي آثرت الوحدة، وألحّت على نفسها في العزلة، وتدرّجت فيها تدرجاً بطيئاً في أول الأمر، لكنه سريع، ملحّ في آخر الأمر)[1].

ولا ريب في أن كتابة سيرة شخصية من هذا النوع عمل شاق، الكمال فيه محال، ولكن لا بد لمن يقدم عليه من أن يتقصى مختلف مراحل حياة تلك الشخصية، ويحيط بكل ما يتصل بنشأتها وطبيعتها وتطوّرها بعزيمة وصبرٍ وحبّ، واضعاً نصب عينيه الأمانة التاريخية لكي يتلمس ملامحها الانسانية والفكرية، ويجلو صورتها على حقيقتها.

إن ما يسترعي الاهتمام في شخصية ميّ، ويجذب الكاتب والقارىء معاً إليها هو تلك الهالة النورانية التي أحاطت بها في عصرها، وحتى بذكراها بعد وفاتها. فلندعها تحدثنا بنفسها عن نفسها إذ كتبت تقول، وهي في أوج صباها:

(من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر، ومن النساء من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة، والغنى وارتفاع القدر. أما أنا فلا هذه العطايا تغريني، ولا تلك المواهب تستهويني. شيء واحد تامّ الجمال في تقديري هو ما

---

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٨٠ ـ ١٨١.

يشترك في تركيبه قسم كبير من الفكر، وقسم أكبر من القلب. شيء واحد ينبّه إعجابي وهو ما كان مترفّعاً عن الصغاير والدنايا، هو زهرة نادرة المثال: شمسُ الذكاء والمعرفة تحييها، ومياه العواطف العذبة ترويها!)[1].

ولقد أضحت ميّ تلك الزهرة النادرة بفضل صفات موهوبة، وصفات مكتسبة: وهبتها الطبيعة الذكاء الحاد، والحافظة القوية، وطلاقة اللسان، والرقة المتناهية، والطموح والتواضع، وميل فطريّ لحب الطبيعة والموسيقى والجمال، ومنحها انتقالها إلى مصر مع أبويها في سنة ١٩٠٧ فرصة تحقيق طموحاتها، فتألقت شخصيتها الأدبية، واكتسبت في البيئة الجديدة مزايا فكرية وروحية وفنية جعلت التفوّق من أبرز صفاتها، وهذا ما حدا بأعلام عصرها إلى إطلاق لقب «النابغة ميّ» عليها! ولم يكونوا في هذا مغالين لأنها نبغت في الصحافة والكتابة والأدب، كما نبغت في اللغات والخطابة والمجتمع.

صورتها:

كانت سمراء، ربعة القوام، مستديرة الوجه، ملساء الشعر، سوداء العينين، زجّاء الحاجبين، حلوة المبسم الذي كان يسفر عن فلج في الأسنان، وذات تكوين متناسق. إذا مَشَتْ فبخطىً موزونة، وإذا تكلمت فبصوتٍ هادىء، عذب الجرس، وعبارات حلوة السبك تجذب السامع وتطربه. وكانت ضنينة بإعطاء صورها للصحف والمجلات، وحتى للأنسباء والأصدقاء إذ لم تكن من هواة الشهرة والاعلان. طلب الدكتور يعقوب صروف، صاحب المقتطف، صورة لها، أو إرسال مصوّر إلى بيتها، وكذلك فعل أصحاب كبريات الصحف والمجلات، ومنهم السيدة روز اليوسف، في رسائلهم إليها[2] ولكنها كانت تتهرّب وتحجم، ولم يفلح بصورةٍ منها سوى

---

(١) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٣٣.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ الصفحات: ١٦٤ و ١٧٨ و ٣٢٨.

الأستاذ إميل زيدان، صاحب مجلة الهلال، بعد أن ألحّ عليها في رسالةٍ كتبها بتاريخ ١٧ ـ ٤ ـ ١٩٢٤ فقال:

(. . . وإني لأغتنم هذه الفرصة لأكرّر التماساً آخر. وما أكبر جرأتي! ـ وهو أن تتفضلي على الهلال بصورتك. إني معتقد، أيتها الصديقة الكريمة، أن إحجامك من هذا القبيل مجحف بحقوق قرائك ومحبيك، وقد آن لكِ أن تنصفيهم، وإنك لفاعلة بإذن الله، وسامحة لمصوّرنا بأن يزورك في الوقت الذي تعينينه، أليس كذلك؟)[١].

ووصفت ميّ نفسها في رسالة بعثت بها سنة ١٩٢٢ إلى السيدة جوليا طعمة صاحبة «المرأة الجديدة» بهذه العبارات:

(أصحيح أنكِ لم تهتدِ بعد إلى صورتي؟ فهاكها: استحضري فتاةً سمراء كالبنّ، أو كالتمر الهندي كما يقول الشعراء، أو كالمسك، كما يقول متيّم العامرية، وضعي عليها طابعاً سديمياً ـ فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض ـ من وجدٍ وشوقٍ وذهول، وجوع فكري لا يكتفي، وعطشٍ روحيٍّ لا يرتوي، يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم ـ وهذا هو الغالب دوماً ـ واطلقي على هذا المجموع إسم «ميّ» تَرَيْ من يساجلكِ الساعة قلمها)[٢].

يجلو لنا هذا الوصف الذاتي، النافح بالصدق والظرف، صورة امرأة تعرف نفسها، ولا يعرف الغرور إليها سبيلًا، فهي تقرّ بشغفها بالعلم، وحاجتها الملحة للغذاء الروحي، وميلها للطرب والسرور، وتقرّ كذلك بأن استعدادها الفطري للشجن والألم أقوى من قابليتها للمرح والطرب.

وإذا بحثنا عن وصف معاصريها لها، الرجال منهم والنساء، نرى أنهم

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٥٢.
(٢) المرأة الجديدة ـ ج (٢) ـ ص: ١٩ ـ ٢٠.

أجمعوا على أنها كانت ذات جاذبية تفوق الجمال، بيّنت لنا سِرَّها السيدة هدى شعراوي، زعيمة النهضة النسوية في مصر، بهذه العبارات:

(... ولم تكن ميّ في وسامتها، ووضاحة وجهها، جميلة بالمعنى الصحيح للجمال، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها، وروحها أجمل من صورتها، فكانت بين الجميلات لا تبدو أقلّ منهن فتنة، ولا أضأل نصيباً من الجاذبية. لقد كان يجمّلها بين الجميلات، ويزيّنها بينهن شيء خفيّ، أو سرّ مستبهم لعله هو الذي حيّر الشاعر فقال:

شيءٌ بـه فُتن الورى غيـرُ الذي   يدعى الجمال، ولستُ أدري ما هو[1]

ووصفها عباس محمود العقاد في حفلة تأبينها بالقاهرة سنة ١٩٤١ بهذه الأبيات من قصيدة رثاءٍ لها طويلة:

شِيَمٌ غُـرٌّ رضيّـاتٌ عِـذاب،   وَحِجى ينفـذ بالـرأي الصـواب،
وذكـاءٌ ألـمعيٌّ كـالشـهـاب،   وجمـالٌ قـدسيٌّ لا يُـعـاب[2]

صفاتها وطبيعتها:

كانت ميّ، في سائر مراحل حياتها، المثال الذي يحتذى للمرأة الرصينة، الطبيعية في تعاملها مع الناس، وللأديبة اللامعة التي حافظت على أنوثتها، ونبذت التكلّف والادعاء سواءٌ في سلوكها أو في أحاديثها. أما جمال نفسها وروحها الذي تحدثت عنه السيدة هدى شعراوي، وجاذبيتها الأخاذة التي جعلتها قريبة من القلوب، وفوق الجميلات، فإنها صفات أشار إليها كلّ من الشاعر شبلي الملاط، والدكتور طه حسين، والأديبات روز شحفة،

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٦٦.
(٢) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ مجموعة الخطب والقصائد التي ألقيت في حفلة تأبينها بدار الاتحاد النسائي المصري في ٤ ـ ١١ ـ ١٩٤١ ـ ص: ٢٩.

وسلمى صائغ، وإيمي خير في أحاديثهم عنها ومقالاتهم. عندما قدم الشاعر شبلي الملاط إلى القاهرة سنة ١٩٣٧ زار مي في بيتها ثم أرسل إليها، بعد رجوعه إلى لبنان بطاقة عبّر فيها عن إعجابه الكبير بشخصيتها، هذا نصّها:

(شبلي الملاط، مندوب لبنان الأدبي في مصر، مع الألم يودّع الآنسة النابغة صديقته ميّ، ويسرّه الاعتراف بأن بدر «مايو» الذي رآه على محياها الخلاسيّ الجبلي قد رافقته أنواره في شهر نوار، ويتمنى لو أنه بقي طيلة حياته على تلك الشرفة: شرفة «إيزيس» الساحرة!)[١].

وقد دعاها «إيزيس» لكونها إنتحلت لنفسها إسم «إيزيس كوبيا» عندما نشرت ديوان شعرها باللغة الفرنسية: «أزهار حلم - Fleurs de Rêve» ، في القاهرة سنة ١٩١١.

كما ظلّ الدكتور طه حسين مسحوراً بجرس صوتها وحديثها العذب منذ أن سمعها تخطب في حفلة تكريم شاعر القطرين خليل مطران التي أقيمت بدار الأوبرا المصرية في القاهرة، في شهر نيسان سنة ١٩١٣. ثم صحبه الأستاذ أحمد لطفي السيّد لزيارتها فكانت بينها وبينه صداقة فكرية رائعة، وأضحى من رواد ندوتها الشهيرة التي عرفت باسم: «ندوة الثلاثاء». وقد عبر الدكتور طه حسين عن تأثره البالغ بصوتها، وإعجابه بأدبها وأحاديثها وشخصيتها في مذكراته[٢] وفي حديثه إلى الأستاذ محمد عبد الغني حسن الذي نُشر في المقتطف، بعد موتها، ثم في كتابٍ جُمعت فيه أحاديث كبار معاصريها وآرائهم بأدبها ونبوغها وخدماتها الجلى للنهضة الأدبية الحديثة[٣].

وهذه شهادة الأديبة الكبيرة سلمى صائغ في سحر ميّ، عقب زيارتها لها في الفندق الذي أقامت فيه ببيروت، سنة ١٩٢٢:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٧.
(٢) مذكرات طه حسين ـ ص: ٤٥ ـ ٤٨.
(٣) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد الغني حسن ـ ص: ١٦٤ ـ ١٨٢.

(مرّت ميّ في حياتنا، نحن النساء، إثر الحرب الكبرى، فلمستنا يدها السحرية، وعرّفتنا إلى ما في قلب المرأة من عوالم، كنت وصديقتي ماري ينّي في فندق «بسول» ننعم لأول مرة بذلك الملكوت، ملكوت حديثها: تفكير بعيد القرار، وأداء هو نحت العبقري الكامل، وذكاء سبق بأشواط ما سُمع وما عُرف، وَفَيْضٌ من الرعاية والدلال الأنثوي، وعطف انسانيّ حول كل جليس. كل هذا بمقدار يحفظ التوازن والانسجام، وتلكم كانت الروعة! ودّعناها فرافقتنا إلى السلّم، ووقفت في أعلاه تعيد الينا قبلات نفحناها على الأنامل، وتوارت. وقفت وصديقتي ماري ينّي، وكنا غارقتين في أمواج من الغبطة الروحية العظمى وقلنا معاً: إنها ساحرة!)[١].

وللأديبة روز شحفة رأي في شخصية ميّ الأخاذة عبّرت عنه بما يلي:

(مَنْ حادث «ميّ» ولم تسحره بطلاوة حديثها وعذوبته؟ كم أطلّت بنا على آفاق واسعة من الحكمة والمعرفة، وكم وكم سحرتنا بأسلوبها الشائق من السهل الممتنع! هي بنظري كالدائرة يحار المرء من أي جهاتها يسعى: أمن شخصيتها البارزة الجذابة؟ أم من ثقافتها العالية؟ أم من روائع كتاباتها؟ أم من إخلاصها وشعورها وحنانها؟)[٢].

أما الأديبة إيمي خير فقد تحدثت عن ذكائها فقالت:

(كانت كل حاسة من حواس ميّ، وكل جارحة من جوارحها تنمّ عن ذكائها، فعيناها اللامعتان، وتعبيرها الحار، ولطف إشاراتها، وحسن حديثها كل ذلك كان ينمّ عن ذكائها، كما ينمّ ريح المسك عن المسك. وكانت تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها، وتنقلك إلى صفّها، ولو كنت من الكلفين بالخصومة، الممعنين في المجادلة والمعارضة)[٣].

---

(١) جريدة «العمل» البيروتية ـ عدد ٧ ـ ١١ ـ ١٩٤٨، من مقالة بقلم سلمى صائغ نشرتها بمناسبة الذكرى السابعة لوفاة ميّ.

(٢) من وحي الأمومة ـ روز عطاالله ـ ص: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٩٤ ـ ١٩٥.

ولا ريب في أن أنوثة ميّ التي تميّزت بها شخصيتها، في سائر مراحل حياتها، من أهمّ صفاتها فقد أشار إليها سلامة موسى في «تربيته» فقال:

(وقد استطاعت ميّ أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية والسورية زينة أنثوية، لا استرجالاً كريهاً!)[١].

وكانت ميّ لينة العريكة في أمور، وعنيدة في أخرى، مستقلة الرأي، متحررة الفكر، ذات كبرياء لا تكبّر، شديدة الاعتزاز بنفسها، ومتواضعة. لقد نجّاها تواضعها الجمّ من الغرور بفضل عقلها الراجح إذ لم يكن يسيراً أن تسلم شابة نابغة مدللة في بيتها والمجتمع الذي عاشت فيه، ولقيت من مثقفيه كلّ تبجيل وتكريم، من مرض الغرور. كانت تعترف لصاحب العلم بعلمه، وصاحب الفضل بفضله، ولا تجد حرجاً من الاعتراف بجهلها بعض الأمور. لقد شهدت بمزاياها زعيمة النهضة النسوية في مصر السيدة هدى شعراوي فقالت: (... فما عرفتها زَهَتْ بعلم، أو تاهت بذكاء، ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضعٍ جميل، وبساطةٍ محبوبة)[٢].

أما عزّة نفسها فقد تجلت في عدة مواقف في حياتها، ولا سيما في السنوات الأخيرة المفجعة منها، حين اضطرت لقبول مساعداتٍ مالية من أصدقائها المنقذين إذ كان الحجر ملقى على أموالها في مصر ولبنان، فسارعت إلى وفاء ديونها، بعد أن ألغي الحجر على ممتلكاتها، وهي تشكر بحرارة، وتعتذر عن التأخر وتعترف بالفضل[٣].

وكانت ميّ رصينةً في سلوكها، متحفظة في أحاديثها، محتشمة في لباسها، تميل إلى المزاح اللطيف مع الأثيرين من أصدقائها، ولكنها لا تحب رفع الكلفة مع أحد منهم. كان الدكتور شبلي شميّل يحضّها على «التحرر»

---

(١) تربية سلامة موسى ـ ص: ٢١٧.

(٢) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٦٨.

(٣) يجد القارىء شرحاً وافياً لهذا الموضوع في فصول هذه السيرة المتصلة بمأساتها.

من قيود تلك الصرامة التي درجت عليها ذلك أنه كان ذا دالة كبيرة عليها، وشيخاً طاعناً في السن عندما عرفها في القاهرة، ولقد ذكر لنا الأستاذ العقاد أن الدكتور شميّل تأفّف مرة من مغالاتها في الجدّية، فصاح يقول لها مازحاً: (ما هذا يا صغيرتي؟ أنا حاضر هنا إلى صغيرة مثل بناتي، فماذا أرى؟ شيخة أناديها يا أم شبــلي؟؟!)[1].

واتصفت ميّ بالعناد، فنفعها في حياتها وأضرّ بها: نفعها في إصرارها على الأخذ بالعلم، وتحلّيها بالجلد في الدراسة لتغذية ملكاتها الفكرية، والمثابرة على العمل، والدفاع عن الحق، والتمسك بالقيم، وأضرّ بها في إحجامها عن الزواج، حباً بالعلم الذي نذرت له نفسها، وفي تشبثها في الانطواء على ذاتها، والتشدّد في أحزانها، واخفاء نوازعها عن أحبّ الناس إليها.

وكانت ميّ كريمة اليد والنفس، تحب الزهور فتهديها إلى أصدقائها في الأعياد والمناسبات، حتى أن العالم الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق كتب إليها يشكرها على باقة من الورد أرسلتها إليه يوم عيد الفطر فقال: (... وإذا كنت يا سيدتي جعلت الزهرة اللطيفة سفير تهنئتك فهل تسمحين بكل ما يحمل هذا القلب من الإخلاص أن يكون زهرة بين يديك، تعبّر عن أصدق العواطف وأعمقها، وعن الشكر كل الشكر)[2].

وكتب الدكتور فؤاد صروف عن كرمها وزهدها بالمادة ما يلي: (... فلما توليت رياسة تحرير المقتطف حرصت في نهاية السنة الأولى ـ سنة ١٩٢٨ ـ على أن أوفّر من أبواب الانفاق ما تيسّر، وأرسلت إلى ميّ تحويلاً بمبلغٍ يسير، وطويته في كتاب قلت فيه ان هذا التحويل ليس سوى عربونٍ لتقدير المقتطف وشكره، فردّت التحويل في رسالة تفيض ظرفاً ولطفاً قالت فيها:

---

(١) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقاد ـ ص: ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) مي زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٣٩.

«قبلت التحويل وما ينطوي فيه من مغزى، فاحتفظت بالمغزى، وحوّلت التحويل إلى اسمك، فأرجو أن تقبله هدية مني لك ولعروسك»[1].

ومن الصفات البارزة في شخصيتها حبُّ المسالمة، وكرهُ الخصومات. إن في مواقفها النبيلة التي سعت فيها إلى التوفيق بين ذوي النزعات المختلفة من أصدقائها، ورواد ندوتها، أمثلة كثيرة، أوردناها في فصل «ندوتها» نضيف إليها قولها للأستاذ توفيق الحكيم، في رسالة بعثت بها إليه: (إني عرفت منك بخصومتك مع صديقنا الدكتور طه حسين، وخصوصاً بمبادرتك إلى مصافاته أكثر مما عرفت من كتابيك)[2].

وكان برّها بوالديها وأساتذتها، ووفاءها لاصدقائها من أجمل صفاتها، فقد أقامت حفلات تكريم متعددة لأعلام عصرها لدى وفودهم إلى مصر، وخطّت عشرات رسائل الشكر إلى الذين كرموها في الشرق والغرب، وتحيّنت الفرص لارسال الهدايا إليهم. لم تنس فضل أحدٍ عليها من الذين درّسوها في صغرها، أو أحسنوا إليها في حياتها، ولا حتى راهباً عالماً يدعى: «الأب إرنست سارلوت Le Pére Ernest Sarloute» كان رئيس مدرسة عينطورة في لبنان، يوم كانت هي تلميذة في فرع الاناث فيها، عام ١٩٠٤، فقد قال الأب «إرنست سارلوت» للأستاذ الشاعر جورج غريّب عام ١٩٤١، حين دخل عليه حزيناً، وأعلمه بوفاتها في مصر:

(عرفتها طفلة صغيرة في الناصرة، ولمست فيها طلائع النجابة فحدثت أهلها في أمر المجيء بها إلى عينطورة فوافقوا. ورأيت، فيما بعد، أن أفق المدرسة هنا قد ضاق في وجهها فعملت على إرسالها إلى إحدى المدارس الكبرى في بيروت. وظلت ماري تحمل لي في قلبها عرفان الجميل، ولما

---

(١) على الطريق ـ الدكتور فؤاد صروف ـ ص: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٣٥ ـ وتقصد ميّ بكلمة: «بكتابيك»: «أهل الكهف وشهرزاد».

جاءت الحرب، وغادرَتْ لبنان إلى مصر، كانت تذكرني دائماً بهداياها فتبعث إليّ باللفائف المصرية)[1].

وكانت ميّ، في رأي الشاعر خليل مطران تغالي بالترحيب بأصدقائها باسم اللياقة والأدب، فكان التكلف الاجتماعي «من مساوئها، إلى جانب الانطواء على الذات، والعناد الشديد[2]». وإذا حاولنا تفسير «التكلف الاجتماعي» الذي نقله الاستاذ العقاد على لسان الشاعر مطران فإننا نلمسه في مغالاتها بالحفاوة بروّاد ندوتها، فرداً فرداً، ولا ريب في أن الاهتمام الزائد، والمديح المفرط يجاوران التكلف في العلاقات الاجتماعية، ولكن ينبغي الا ننسى أنها عاشت في عصر وبيئة كانت تغلب عليهما المجاملات الى حدّ الافراط. ولا بد من الاقرار بأن خليل مطران كان محقاً في نقده لشدة انطوائيتها، وتحرزها في علاقاتها مع الناس لأنها كانت في الواقع متحرّزة للغاية، لا تترك نفسها على سجيتها إلا لماماً، ولا تثق بأحد، فقد كتبت في هذا الموضوع تقول:

(على المرأة أن تكون وردة تحيط بها الأشواك، وما أشواك المرأة إلا التكتم والحشمة والطهارة كما قال ذلك القسّ)[3].

وكانت تعني بالقسّ: المرشد في مدرسة راهبات عينطورة بلبنان حيث قضت سني حداثتها، ومن هذا القول تستجلي تأثرها البالغ بمواعظه، وبالبيئة المغلقة التي نشأت فيها، ولا سيما بسلطان أمها عليها. ومما يؤكد طغيان تلك المؤثرات على شخصيتها، حتى عندما بلغت سن النضج وأمست أديبة مشهورة، رواية الأستاذ العقاد التالية عنها:

(... وكنت أشفق من فرط احتراسها وكلفتها فقلت لها مجترئاً على مصارحتها: «أنا على رأيك يا صديقتي في أن الناس لا يؤمنون، ولكني لست

---

(١) دراسات أدبية ـ جورج غريب ـ ص: ١٢١.

(٢) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ٢١٧ ـ ٢٢١.

(٣) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٦٠.

على رأيك في نفع الحذر، وشدة الاحتراس، بل عندي أن عناء الاحتراس أضرّ من كل عناءٍ يصيبنا به ترك الحذر، وقلة المبالاة. فلا تبالي، ولا تحترسي، وانطلقي في حياتك فذلك أخف الضررين».

قالت: «كأنك تعيد عليَّ ما قاله الأستاذ داود بركات!» قلت: «وماذا قال؟» فقصّت عليّ حديثاً جرى بينهما في السفينة وهما عائدان من أوروبا، وكانت تقام في السفينة سهرة راقصة، والليل رائقٍ، والبحر ساجٍ، والطرب غالب على المسافرين. ورآها الأستاذ داود منزوية في ركنٍ من الأركان كأنها تأبى أن تشاركهم، أو تشارك الطبيعة في فرصة صفاء، فناداها كالزاجر المندّد: ما بالك تعكفين على نفسك عكوف العجائز؟ تعالي وارقصي واطربي مع هؤلاء الفتيات والفتيان، فمنهم من هو أكبر منك، وكلهم يسبقونك في مجال السرور». قلت لميّ: «وبماذا أجبته؟» قالت: «تضايقت منه!» ثم أومأت إليّ منذرة، باسمةً وهي تقتضب الحديث: «فإن أردت أن أتضايق منك فعد إلى نصيحتك ونصيحته... وإياك أن تعود!)[1].

إن هذه الظاهرة في طبعها، وذلك الاستعداد للشجن والألم الذي يفوق استعدادها للطرب والسرور مما كان له أثر واضح في حرمانها من المتع الطبيعية وفي إرهاق أعصابها لأنها كانت متأججة العاطفة، مرهفة الشعور، مولعة بالجمال، ومحتاجة إلى الترفيه عن نفسها! أما تأجج عاطفتها فإننا نلمسه في نظرتها للصداقة، وللحب، والأمومة، وأما ولعها بالجمال فإننا نستشفه من كتاباتها، ومن تنظيم بيتها ومكتبتها. قابلها طالب مصري في بيتها عام ١٩٣٢ مندوباً عن مجلة المدرسة الخديوية فنشر حديثه معها ووصف بيتها فقال:

(قصدت الآنسة ميّ في منزلها فتبّينت في ثناياه ونظامه مثلاً يحتذى. والنظام وليد الفكر، وترجمان الذوق، فالاثاث مرتب، والنظافة بالغة، أما مكتبتها الفاخرة فإن الوصف لا يفي لما ألقته عليها من جمال الذوق، ودقة التصنيف، فكأنها صورة مصغرة من المكتبات العامة: ترى الكتب الافرنجية

(١) «الرسالة» - العدد ٤٣٥ - السنة التاسعة - ٣ - ١١ - ١٩٤١ - ص: ١٣٣٤ - ١٣٣٥.

في ناحية، والعربية في ناحية أخرى، وقد جمعت فيها كل كتاب ثمين، ومؤلّف فريد. إن مكتبتها تدلّ على ذوقها الرفيع، وعلمها وذكائها، وتملأ النفس عجباً، والفؤاد طرباً، وتحفز الفكر إلى العلم والاطلاع)[١].

كتبت ميّ في إحدى مقالاتها أن أحب الأشياء إليها: «البحر والسماء والعيون»[٢]، وقالت في الحب والمعرفة: «أليس الحب والمعرفة ماء البشرية ونورها؟»[٣] كما شهد بحسن ذوقها في العناية بالنباتات والزهور التي كانت تزيّن ردهات الدور التي سكنتها، وفي انتقاء ملابسها سائر الذين عاصروها وعرفوها عن كثب، فقد قالت عن أناقة المرأة في إحدى خطبها على النحو التالي: (ألسنا نفاخر، وجميع أمم الأرض تفاخر معنا، بزخرفة متاحفنا وكنائسنا وأثاث بيوتنا، وكل ما له صلة فينا؟ فَلِمَ إذن نعيب على المرأة زينتها، وهي التي يُطلب منها أن توجِدَ الجمال وتوزِّعَهُ في جميع مناحي الحياة؟).

وهذا ما يؤكد مجدداً ولعها بالجمال، حيثما تجلى، وحرصها على إشاعته حيثما وُجدت، حتى في حديثها وكتابتها وخطها. إن خطها الفارسيّ البديع انعكاس واضح لحسن ذوقها، وتنظيم فكرها، فلقد استرعى انتباه معاصريها فأطروه، ووجدوا فيه بعض ملامح شخصيتها. وصفه صديقها الأستاذ انطون الجميل في رسالة وجهها إليها بهذه العبارات:

(... على أنني ما أتيت إلى آخر كتابك الكريم حتى مازج شعوري شيء من الاحتجاج - الاحتجاج الشديد على ما نسبتِهِ إليّ من النقمة على خطك، والضحك من حروفك: ووالله ما رسم خطك الا كل بديع طريف،

---

(١) مجلة المدرسة الخديوية - عدد ١١ فبراير ١٩٣٢ - ص: ٩٩ - الحديث بقلم الطالب محمد فهمي القلعاوي.

(٢) الصحائف - ميّ زيادة - ص: ١٤٤.

(٣) الهلال - ج ٢٧ - عدد نيسان ١٩١٩ - ص: ٦٩٢.

ولا عبرت حروفك إلا عن كل سام شريف!)[1].

انه واضح من كلام انطون الجميل أن ميّ تجنّت عليه في إحدى رسائلها إذ نسبت إليه كلاماً عن رداءة خطها لم يقله، وما كان ذلك منها إلا على سبيل المداعبة اللطيفة، ولعلها أرادت أيضاً حثه على الثناء على خطها لاستطابتها الثناء على جماله الذي كانت واثقة منه...

وهنا تجدر الاشارة إلى أن الناشر اللبناني الأستاذ سيمون عواد أصدر في بيروت سنة ١٩٧٤ طبعةً جديدة رائعة لكتابٍ مما ترجمت ميّ عن الأدب الأوروبي هو رواية: «ابتسامات ودموع»[2] مع نصّها الأصلي الكامل بخطها، فكتب إليه الشاعر الكبير جورج صيدح يقول:

(إن طبعتكم تضفي على الكتاب رونقاً خاصاً إذ إنها من بابها إلى محرابها بخط ميّ. فهي من هذا القبيل تحفة غنية تتيح للقارىء أن يدرس ميّ في خطها، بالاضافة إلى دراستها في بيانها. وخط ميّ ينمّ عن أناقة متناهية في كل شيء. عن ذوق رفيع، وإحساس مرهف وتنظيم دقيق في الفكر والعمل، وطموح بغير حد إلى المجد وإلى الأجمل والأفضل في حياتنا، من يومٍ إلى يوم).

لقد نشر هذه الرسالة الكاتب البحاثة وديع فلسطين في إحدى مقالاته القيمة عن ميّ التي نشرتها مجلة «الأديب» في بيروت سنة ١٩٧٤، كما أن الأستاذ خليل زكريا كتب مقدمة لطبعة جديدة من كتاب ميّ «بين الجزر والمدّ» نشرتها دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٦٣، جاء فيها قوله عن خطها: (وإذا كان الخط شيئاً من دلائل الطبع فإن خط ميّ في نقاوته تجسّد عن نظيم عقلها)، وفيما يلي نقدم للقراء نموذجاً منه:

---

(١) أطياف من حياة ميّ - طاهر الطناحي - ص: ٤٨.

(٢) أول طبعة من هذه الرواية التي ترجمتها ميّ عن اللغة الألمانية صدرت في القاهرة سنة ١٩١٢.

١٦ دسمبر ١٩٢٤

أستاذي دكتور،

صبّحك الخير، وصبّحك مني الاعتذار عن هذا التأخير. والواقع أني كتبت مقالي بعد المحاضرة لأن المحاضرة التي كان موضوعها موضوع المقال تليت بلهجة الخطابة والحماسة، فرأيت في الغد أنها لا تصلح للنشر او البحث الذي أحبّ ان احتفظ له بلهجته العلمية الرائقة ولو أني أشك قطعاً في ان هذا رأيك أيضاً. وهكذا كان لهذا الجزء من البحث لهجة الأبحاث الرتيبة. ولكن لا بدّ من نشره كلّه في جزء واحد. وإذا تحتّم حذف شيء فاحذفوا ما يمكن حذفه من شعر عائشة. ليكون أستاذي راضياً. وهو الأصلح في نفسي على كل حال. والموضوع عموماً شيّق يجذب الجميع.

واليوم انتبه الى وجوب تقديم الشكر لك لأن المنة عدة التي قدّمها المقتطف للحركة النسائية في كل الشرق أعظم من مجموع الخدمات التي تقوم بها جميعنا. وقد بدأت عندي على التبشير والدعوة الى الحركة الجديدة منذ وفاة باحثة البادية يوم لم تكن تفكر سيدة بما نحن اليوم فيه. فللمقتطف فضلاً لا أنساه، وإن تأخرت عن شكره دفع التأخير تأدية الشكر شيئاً من فرضه، كأني بذلك أخاف ان مجلتنا هذه وجدت لتأدية الفضل فهي بتأديته تحيا حياتها التي خلقت لها.

ميّ - توت عنخ أمون

(نموذج من خط ميّ)

لا ريب في أن استمرار سمة الجمال والوضوح في خط ميّ بعد المأساة التي حلّت بها في آخر حياتها أكبر دليل على «نظيم عقلها» «وتنظيم فكرها» كما قال صيدح وزكريا والجميّل وغيرهم، وقد وقفنا عليها من رسائلها المخطوطة إلى أصدقائها المنقذين التي كتبتها سنة ١٩٣٩[١].

ولمي موهبة موسيقية تجلّت في اتقانها العزف على آلتيّ البيانو والعود، واجادة الغناء، وقد نمت ثقافتها الفنية، وكتبت عدة دراسات عن الموسيقى الغربية والموسيقى الشرقية وكانت تحرص على تطور الموسيقى الشرقية تطوراً علمياً، وتحذّر من التقليد للموسيقى الغربية، ومن سرقة بعض ألحانها فكتبت تقول:

(ليست الغاية من التجدّد نقل الألحان، وإنما التجدّد بالاستيحاء. بين موسيقى الغرب وموسيقى الشرق فرق أساسي: فهي في الغرب علم يتمثل في تأليفها وتوقيعها الجهاد والكفاح بين العواطف والذكاء، أما في الشرق فكل الموسيقى عذاب وشجن وأنين، ولكنها تستطيع أن ترتقي دون أن تتبدل طبيعتها إذا تعهدها الحذق الفني، والحاسة الموسيقية الدقيقة)[٢].

ومن أدهش ما وقفنا عليه أنها كانت تجيد التلحين كما تجيد العزف والغناء. ذلك أن الأستاذ خير الدين الزِّركلي، «شاعر النيربين» اكتشف موهبتها في التلحين عندما أسمعته على العود أبياتاً من قصيدته التي مطلعها.

أبتِ العينُ أن تذوق المناما
والمنايا تغتال منا الكراما

وكان الفنان الاستاذ متري المرّ قد وضع لها لحناً جميلاً أضحى بعد ذلك نشيد يوم الشهداء في مصر، ولكن الأستاذ الزركلي، رحمه الله، قد قال:

---

(١) جميع هذه الرسائل المخطوطة منشورة في كتابنا: ميّ زيادة وأعلام عصرها.
(٢) بين الجزر والمد ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٣٤ ـ ١٣٥.

(كان اللحن الذي وضعته ميّ لقصيدتي منسجماً مع المعنى، ولا يقل جمالاً عن لحن الأستاذ المرّ، ومما يؤسف له ألا يكون قد سُجّل يومئذ، مع سائر ألحانها العذبة التي كانت تجيد عزفها أو ارتجالها على آلتيّ البيانو والعود!)[1].

إن ما يؤكد هذا الاكتشاف لموهبة جديدة من مواهب ميّ قولها للأستاذ جبر ضومط، في إحدى رسائلها إليه، معقبةً على بيت شعرٍ واحد ذكره لها من قصيدة نظمها:

(. . . وكلما مرّت معانيها في خاطري قابلتها بهذا النشيد الشجيّ الذي أكرّر توقيعه على العود.

خبــرينـا يـــا نسيمـات الصبــاح عن زمانٍ قد مضى في عهد ميّ

ما أشجى هذا النشيد على قرار النهوند! غير أني آسفة إذ ليس لديّ سوى بيتٍ واحد أظل أعيده كما تعيد الأمواج حكايتها العذبة المطربة)[2].

واستكمالاً لوصف هذا الجانب الفني في شخصية ميّ تجدر الاشارة إلى أنها كانت ترحّب بكل حركة فنية جديدة تلوح تباشيرها في عصرها، وتغتبط بكل وثبة ابداعية في الأدب والشعر، والموسيقى والرسم، بمقالاتٍ تشجّع فيها ما يستحق التشجيع، وتنقد فيها ما يستدعي النقد. ولكن نقدها كان رفيقاً، رقيقاً كرفق شخصيتها، ورقة طبعها. حضرت معرضاً للرسم أقامه فنانون أقباط في القاهرة عام ١٩١٩ فأعجبتها لوحاتُه، وكتبت عنه مقالة عبّرت فيها عن أملها الكبير في أن يحتلّ الفن المكانة اللائقة به في مجتمعنا الناهض، جاء فيها هذا المقطع:

(أي شيء أجمل من الفن، وأي شيء أقدر منه على تصفية النفوس،

---

(١) من حديث عن ميّ أجريناه مع الشاعر الكبير الزِّركلي في بيته ببيروت في ٢٧ - ٥ - ١٩٧٤.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ١١٨.

وترقية الميول، وتطهير الأفكار، وتنقية العواطف؟ وإذا انفتح هذا الباب، باب الغبطة المعنوية، فهو لا يُغلق أبداً، بل يعبُرُه المرء إلى عالم جديد تملأه مسرات وآلام، تتضاءل أمامها المسرات والآلام الأخرى!)[1].

وكانت تتابع ما كان يقام في مصر من معارض للرسم والنحت بعين المواطن المدرك أهمية دور الفنون في نهضة الشعوب، وعين الأديب الرائد الواعي رسالته في الاسهام بانماء التربية الفنية، وتشجيعها. وعندما تناولت موضوع الفنون الجميلة في إحدى مقالاتها، ودور النقد في توجيهها، تحدثت عن تجربة الغرب في نهضته الفنية، ونقلت قولاً للشاعر الفرنسي «شارل بودلير» (الذي كان ناقداً ممتازاً كما كان شاعراً مطبوعاً) ثم ختمت مقالها بهذه العبارات:

(لذلك قلت إنه إذا سرّنا أن نرى هذه المعارض الابتدائية فيسرنا كذلك أن تظهر على مقربة منها موهبة النقد الذي يدرك ويشعر، ويحاسب نفسه على ما يقول. وهذا النقد العام، الناظر إلى الأمور من جميع جهاتها قليل جداً في اللغة العربية التي عني أئمتها في الغالب بالنقد اللغوي وما إليه. ولذلك كان من دواعي الابتهاج أن تبدو، مع النزعة الجديدة إلى الحرية السياسية، النزعة إلى العمل الفني، يحاذيها النقد الصادق الذكي. هذا ثالوث حيّ سعيد، بورك فيه!)[2].

كانت هذه الشخصية الفذّة في ثقافتها، التي أتقنت أربع لغاتٍ أجنبية، غير لغة بلادها: الانكليزية والفرنسية والايطالية والألمانية، وأحاطت باللغتين الإسبانية واللاتينية، وأدهشت صفوة كتّاب عصرها وشعرائه بمواهبها الخارقة نسيج وحدها في العصور، شاعرةً مطبوعة، وفيلسوفة في نظرتها للحياة والطبيعة والتاريخ والعلوم الانسانية. كانت تحب من الألوان الأبيض والأزرق

(١) بين الجزر والمد - ميّ زيادة - ص: ١٣٢.
(٢) بين الجزر والمد - ميّ زيادة - ص: ١٤٠.

والبنفسجي، وتفضل عليها اللون الأخضر، كما جاء في إحدى رسائلها للدكتور يعقوب صروف سنة ١٩١٨ حيث قالت:

(... وأُعجب باللون الأخضر الذي يريح البصر، ويزيّن الوجود. يذهلني أحياناً هذا اللون، وأسائل نفسي لماذا اختارته الطبيعة دون غيره لتقول به: «نعم». فإذا أرادت الأرض سلباً صمتت، وإذا أرادت إيجاباً كان كلامها اخضراراً في اخضرار: اخضرار الزرع، واخضرار الرجاء والحياة)[1].

وقالت له، في الرسالة ذاتها، تصف مشهداً أثّر فيها كثيراً:

(الشجيرات من حولي يرنحها النسيم فتتمايل سعيدة في الظاهر، لكن قلبي يحدثني بأن تمايلها هذا قد يكون تململاً من أحكام القدر الذي قيّدها في مكانها، فكانت حياتها معنى إرغام أكثر منها معنى اختيار. ولكن أليس المرء مثلها في ذلك؟).

إن في هذا الوصف أبلغ تعبير عن رهافة مشاعرها، وعن حزن دفين في أعماق نفسها على القدرية في حياة الانسان، وعن تململها من حكم القدر الذي قيّدها في أمورٍ شتى، وجعل حياتها محفوفةً بالارغام!

وإذا بحثنا عن الفرح في حياتها فإننا لا نقع إلا على النزر اليسير منه ذلك أنها فُجعت في طفولتها بموت أخيها الوحيد، وتألمت في المدرسة الليلية التي قضت فيها أربع سنوات من يفاعتها في عينطورة، وأصيبت بصدمةٍ عاطفيةٍ في أعقاب خطبتها التعيسة لابن عمها «نعوم»، ومن ثم صدّعها موت جبران الذي أحبته حباً جماً دام زهاء عشرين سنة، من غير أن تراه... وأخيراً فقدت أبويها وظلّت وحيدةً فاستبدّت بها الأحزان وأمرضتها، وإذا بأهليها يتهمونها بالجنون، ويستولون على أملاكها، ويلقون الحجر عليها إلى أن أنقذها المنقذون وانصفتها العدالة! ولهذا نقول إن الفرح، بمعناه الصحيح، لم

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٦

يغمر قلبها إلا في حالتين: الأولى إبان دراستها في الجامعة المصرية ما بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ حيث كتبت تصور مشاعرها بهذه العبارات:

(وكم من حلم لمحتُ خطوطه مرسومةً في جوّ قاعة الدرس، وألوانه متخللةً خطوط الأشعة المطلة علينا: أفكار وتأملات وأحلام رفرفت عليّ حيناً، وغنّت في نفسي كالأطيار!)[1] والثانية خلال مطالعاتها عندما كانت تُعجب بكتابٍ، أو فصلٍ أو عبارة، كما حدث لها ساعة وقوفها على مقطع جميل في مقالةٍ لباحثة البادية حيث وصفت الشعور الذي تملكها آنئذٍ في كتابها عن الباحثة فقالت إن قلبها وراحتيها صفّقا طرباً لعبارات المقالة، وفرحاً بها وابتهاجاً!

إننا نجد عند ميّ نزعة صوفية منذ بداية عهدها بالترجمة والتأليف، أي منذ عام ١٩١٢ حين نشرت ترجمة رواية فريدريك ماكس مولر عن الألمانية إلى العربية بعنوان: «ابتسامات ودموع»، فلقد جاء في المقدمة التي أعدتها لها ما يلي:

(. . . هنا تعرفت إلى ماكس مولر وكتابه الجميل. تعرفت إليه في الخلوة لأن الأرواح الكبيرة تنكمش في المحافل العادية، ولا تتجلى إلا في العزلة لمن كان على استعدادٍ لتلقي فيض بهائها!)[2].

كما نلحظ في بعض رسائلها إلى أصدقائها هذا النزوع إلى الصوفية إذ كانت تتحدث مع المستشرق «الكونت دي غلاررزا»، استاذها في الجامعة المصرية، ومع كلٍ من جبر ضومط والريحاني وجبران عن المتصوفة، لذا كتب إليها الأستاذ جبر ضومط في إحدى رسائله عام ١٩٢٤ عن شطحات الحلاج، وابن العربي، وكانت مكتبتها تفيض بدراساتٍ واشعار عن الصوفية

---

(١) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧٧.

(٢) ابتسامات ودموع ـ ميّ زيادة ـ الطبعة الأولى ـ ص: ٩.

والمتصوفة. ويقول الدكتور فؤاد صروف في فصل: «ميّ والمقتطف» من كتابه: «على الطريق» إن آخر عهدها بالمقتطف في النصف الأول من عام ١٩٣٥ تميّز بمقالات عن بعض أدباء الغرب المعاصرين أمثال: بيرانديللو، وأونامونو، ودوديه، ثم يستخلص من هذا المنحى ما يلي: (وكان بيّناً في هذه المقالات أن ذهنها بدأ يتجه إلى العناية بالإلهيات الغالبة على طائفة من أدباء أوروبا، ولعل الاستغراق في ذلك الاتجاه كان طليعةً من طلائع ما أصابها بعد قليل)[1].

كانت ميّ متدينة، متعبّدة، تمارس الصلاة، وتجد فيها راحة نفسية كبرى، في سائر مراحل حياتها. غير أن تديّنها «لم يكن تعصباً ولا تهوّساً» كما ذكرت الأديبة روز غريّب في كتابها عنها: «ميّ التوهّج والأفول» ذلك لأنها أخذت عن والديها روح التسامح الديني، واحترمت جميع الطوائف والأديان في حياة قضتها في مجتمع أكثر افراده مسلمون، ولأنها كانت راقية في تفكيرها، فوق كل شيء، فالرقيّ ينبذ التعصب، وما التعصب الا الدليل على التخلف في كل عصرٍ ومكان.

ولا بد من الاشارة إلى أن ميّ كانت تتصف بخفة الروح، وسرعة الخاطر ولكنها قليلاً ما كانت تمازح أحداً، ما عدا نفر قليل من أصدقائها، لفرط جدّيتها. أسمعها الدكتور شبلي شميّل قصيدة من شعره ذات يوم كان مطلعها:

هو الحب إكسير الحياة بلا مِرا ولولاه ما كان الوجود كما ترى..

فضحكت ملء جوارحها، وقالت له على الفور:

ـ صدقت... ولكن اعتراضي شديد على كلمة «مِرا» فإني أخشى أن يفتح القراءُ ميمها!

---

(١) على الطريق ـ الدكتور فؤاد صروف ـ ص: ١١٨.

وكانت لها قصة طريفة مع الشاعر السوري نوفل الياس جرت في لبنان حدثنا عنها فقال: (أعجبت بميّ كثيراً منذ أن عرفتها في دمشق سنة ١٩٢٢ وسمعتها تخطب في حفلةٍ أقامتها النوادي الأدبية في قصر البلّلور لتكريمها. كنت يومئذٍ طالباً في معهد الحقوق ثم تخرّجت وعدت لأمارس المحاماة في بيروت. وفي صيف عام ١٩٢٥ كنت أقود سيارة صغيرة في مصيف «عاليه» تشبه سيارات التكسي، فأوقفني بواب فندق شاهين، وسألني عما إذا كنت ذاهباً إلى بيروت لأن إحدى النزيلات تودّ استئجار سيارة مع والدتها، وبدت ميّ أمام باب الفندق فعرفتها، وقلت له: «على الرحب والسعة» وفي الطريق إلى بيروت سألتني عن الطرقات الجبلية في لبنان ونظام السير عليها، فأجبتها عما سألت بكثير من التأنق، وبدا لي أنها سُرّت بكوني أتحدث بلغة عربية صحيحة إذ استرسلت في الحديث تطرح بعض أسئلة كنت أجيب عليها منتحلاً شخصية السائق المهذب... لقد راقت لي التمثيلية كثيراً، ولما وصلنا إلى فندق «بسول» في بيروت فتحتُ باب السيارة لها ولوالدتها، وحملتُ حقيبتي السفر اللتين كانتا في صندوقها، وأوصلتهما إلى باب الفندق، وكنت أخشى أن ألقى أحداً يعرفني فيضيّع عليّ فرصة مفاجأتها بالتعريف بنفسي!.. قالت لي ميّ، قبل أن تدخل إلى الفندق:

- «سأقيم في بيروت شهراً واحداً وأرغب في أن تكون معنا يومياً في تنقلاتنا. سأعطيك الآن أربعة جنيهات، لا جنيهين كما كنت أدفع أجراً لسيارة تكسي من عاليه إلى بيروت، وذلك مكافأة لك وتشجيعاً لكي تكمل دراستك».

فابتسمت وشكرتها وهي تهمّ بفتح حقيبة يدها ثم قلت لها:

- «تريثي قليلاً يا سيدتي، واسمحي لي أن أدخل معكما إلى الفندق لحظة لكي آخذ ورقة وأكتب لك عليها اسمي وعنواني.

حملتُ الحقيبتين وأدخلتهما إلى بهو الفندق، ثم أخذت ورقة كبيرة وكتبت عليها الأبيات التالية التي ارتجلتها، وقدمتها لها مع بطاقتي الشخصية:

لو كنتُ أعلم أنها تبغي السفر ... تلك التي ببيانها تسبي البشر
لنسجتُ من روحي لها سيارةً ... كالطير تسرح، لا يحققها نظر،
بَنْزينُها دمعي، وقلبيَ سائقٌ، ... وكراجُها بين الضلوع له مقرّ!

بدت علامات الدهشة على ميّ عندما قرأت ابياتي واسمي: «نوفل الياس - المحامي». ودعتني لتناول فنجان قهوة معها ومع والدتها: وقد تقبلت المداعبة الشعرية بروح طيبة، ومنذ ذلك اليوم رحت أتتبع أخبارها، وأزداد إعجاباً بمؤلفاتها ونبوغها. وكانت تذكر هذه الحادثة الطريفة لأصدقائها، وتكرمني بالثناء، فنشأت بيننا صداقة جميلة، ونشر الأخطل الصغير قصة نزولها إلى بيروت في سيارتي، والأبيات البريئة التي ارتجلتها يومئذٍ في جريدة «البيرق»، على ما أذكر.

ويوم بلغني أن ميّ غادرت مستشفى العصفورية سنة ١٩٣٧ بعد أن قضت فيه عشرة أشهر سجينة التعسّف والظلم، وانتقلت منه إلى مستشفى الدكتور ربيز هالني ما سمعت عن جنونها المزعوم، فتوجهت من دمشق إلى بيروت لزيارتها مرتاعاً ومطمئناً في آنٍ واحد ليقيني بأن زميليّ الأستاذين بهيج تقي الدين وحبيب أبو شهلا خير من تولّى الدفاع عنها. أذكر جيداً أنها أذنت لي بالدخول إلى غرفتها بعدما قدّمتُ بطاقتي للممرضة، وأنها بادرتني قائلةً:

- «هل يعقل يا نوفل أن يضعوني في العصفورية، وأنت حرٌ طليق تسرح في خارجها!؟...»

فضحكنا، وتحدثنا في أمور كثيرة، وتفتّت قلبي لرؤية هذه الروح العالية، وتلك الشخصية الرائعة في حال من الألم والهزال لا توصف. وقلت لنفسي، ولإخواني بعد ذلك: (إن هذه العبقرية قد حلّقت في أجواء لا تطالها أبصار البشر البسطاء، فخالوا النبوغ جنوناً لعجزهم عن إدراك كنهه، أو ربما أثار حفيظتهم هذا التفوق والنبوغ فأرادوا أن يطمسوه، ألا بئس ما فعلوا!)[1].

وليس علينا بعد اجلاء هذه الخطوط العريضة التي تميزت بها شخصية ميّ، التي خلدتها أعمالها وآثارها في تاريخ أدبنا الحديث، والتي أضحت، بعد موتها مصدر اهتمام الباحثين والكتّاب، سوى أن نروي سيرة حياتها بأمانة، مدعومة بالوثائق المخطوطة، وشهادات الاحياء الذين عرفوها، والأدباء الذين كتبوا عنها. إن ميّ علمٌ من أعلام الأدب العربي في نهضته الحديثة، والاعلام، في كل عصر ومكان، يستحقون ما يُبذل من جهد في سبيل انصافهم وتكريمهم، وهم الذين بذلوا العمر كله لنصرة الحق ورفع شأن الأمم، وإغناء التراث.

---

(١) هذا حديث الشاعر الاستاذ نوفل الياس الذي أجريناه معه في بيته بالحازمية في بيروت بتاريخ ١١ ـ ٣ ـ ١٩٧٥.

أهلوهـا ومنبتها

(وُلدتُ في بلدٍ، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وأشباح نفسي تتنقل من بلدٍ إلى بلد، فلأيِّ هذه البلدان أنتمي؟ وعن أيٍّ من هذه البلدان أدافع؟

ميّ[1])

وردت هذه العبارات في مقالةٍ نشرتها ميّ بعنوان: «أين وطني» يوم كانت في أوج الشباب، تقيم في القاهرة مع والديها، وتتبوأ فيها مكانة مرموقة في الصحافة والأدب. والقارىء يستجلي من تلك العبارات انشغالها في قضية الانتماء آنذاك، ولكنها تجاوزت حدود الاقليمية في تفكيرها ومواقفها بعد أن بلغت سن النضج بفضل عمق مشاعرها القومية والإنسانية وشمول ثقافتها.

وُلدت في مدينة الناصرة بفلسطين في الحادي عشر من شهر شباط سنة ١٨٨٦ وسُميت: «ماري» تيمناً بالعذراء، أما اسم «ميّ» الذي اشتهرت به سنة ١٩١٢ فقد اختارته لتوقع به أولى مقالاتها وغلب عليها. إنها تنحدر من أب لبناني: الياس زخور زيادة، كان قد هاجر من كسروان في لبنان إلى الناصرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وعلّم في مدارسها، وتزوج فيها فتاة سورية الأصل، فلسطينية المولد هي نزهة خليل معمّر.

---

(١) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٧.



والد ميّ (الياس زيادة)

كان أبوها من مواليد سنة ١٨٥٨، نشأ في قرية «شحتول» بكسروان، وتعلم في «مدرسة الحكمة» ببيروت، ثم علم في بعض المدارس، ولكن طموحه دفعه للهجرة من وطنه الذي كان يومئذٍ جزءاً من الامبراطورية العثمانية، يتخبط في مشكلات سياسية وطائفية واقتصادية، فتوجه إلى الناصرة سنة ١٨٧٩ نزولاً عند نصيحة صديقٍ لأبيه يدعى: إلياس فرح باسيل[١]، بحثاً عن أفق جديد لطلب الرزق أرحب من أفق وطنه. ومن المعروف أن هجرة أبناء جبل لبنان إلى بلاد العالم الجديد، وإلى مصر وفلسطين وبعض البلاد الافريقية بدأت في تلك الحقبة من الزمن، فكان منهم من ركب البحار مغامراً، وكان منهم من رحل إلى بلادٍ أقرب لمزاولة التجاره أو للعمل في الصحافة أو للتدريس.

أصل عائلة: «زيادة» من بلدة «إهدن» في لبنان الشمالي حيث عُرفت فيها منذ القرن السابع عشر الميلادي، وقد جاء ذكر الخوري «إبراهيم زيادة» في كتابين وضعهما البطريرك مار اسطفان الدويهي، الأول بعنوان «منارة الأقداس» والثاني: «تاريخ الأزمنة من سنة ١٠٩٥ م إلى سنة ١٦٩٩ م». إننا نقرأ في الكتاب الأول ما يلي:

(ذكر لنا المطران يوسف الحصاراتي وأخوه موسى، والخوري ابراهيم زيادة الاهدني أنه في سنة ألف وستمائة وست وخمسين للرب، في الثالث والعشرين من كانون الأول، لما فتحوا مغارة القديسة «مارينا» ليدفنوا جثة البطريرك يوحنا «الصفراوي» شاهدوا بعينهم جسد البطريرك «جريس عميرة» محفوظاً كأنه حيّ، وذلك بعد مدة ثلاث عشرة سنة على وفاته)[٢].

ويؤكد سيادة المطران أغناطيوس زيادة، مطران الموارنة في بيروت حالياً

---

(١) هو جدّ سيادة المطران اغناطيوس زيادة لأبيه.

(٢) منارة الأقداس ـ تأليف مار اسطفان الدويهي، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ـ ص: ١٧٨.

أن عائلته نشأت في «إهدن» ثم نزح عنها فريق إلى جبل كسروان في القرن التاسع عشر واستوطن قرية «شحتول». ففي تلك القرية الصغيرة أقام أجداد ميّ، وكانوا إما رجال دين، وإما مزارعين، ولكنه لم ينبغ منهم أحد في الأدب قبلها.

تزوج جدها لأبيها، «زخور زيادة» فتـاةً من بلدة «عرمـون» تدعى: «بربارة حداد» ورزق منها ثلاثة أبناء هم: «حنا» البكر، و«الياس» (أبو ميّ)، و«يوسف»، وقبل أن يهاجر أبوها إلى الناصرة كان أخوه البكر «حنا» قد تزوج في شحتول قريبةً له تدعى: «منتورة زيادة» ورزق منها أربعة أبناء. أما أخوه يوسف فقد سيم كاهناً، فلم يتزوج، ولم يعمّر طويلاً.

ولا بد لنا من ذكر أبناء عمها الكبير حنا، واعطاء لمحة عن كل واحدٍ منهم إذ كانوا أبناء عمها اللّحا، أي أقرب أهليها إليها من جهة أبيها، وكان لهم أثر كبير في حياتها بعد وفاة أبيها في مصر سنة ١٩٢٩ لأنها كانت وحيدته وظلت عزبة. كان بكرهم يدعى «يوسف» باسم عمّه الكاهن[١]، فهاجر إلى أفريقيا في مستهل شبابه وتزوج فيها ولم يرزق أولاداً. وكان الثاني يدعى: «الياس» (باسم عمه الياس، أبي ميّ) فقد هاجر إلى مصر في أوائل القرن العشرين لمزاولة الأعمال التجارية، وتزوج فتاة تدعى: «ماري اندراوس» ولم يرزقا أولاداً، كما أنهما لم يكونا على صلة طيبة مع ميّ ووالديها، بل كان الجفاء هو الصفة الغالبة على علاقاتهم في مصر.

أما ابن عمها الثالث «أغناطيوس» فقد هاجر هو أيضاً إلى مصر سنة ١٩١٩، مع زوجه «سمية عويس» وولديه: نجيب ونزهة، وكذلك لم تكن العلاقات بينه وبين ميّ ووالديها ودية في يوم من الأيام.

وأما ابن عمها الرابع المعـروف باسم «الخـوري يوسف زيـادة» في

(١) يلحظ القارىء ان آل زيادة كثيراً ما كانوا يطلقون على اولادهم اسماء الأعمام وأولاد العم وهم بعد على قيد الحياة، مما يوقع الباحث وحتى الانسباء بالارتباك.

شحتول فقد سُمّي «اسكندر» بعد ولادته سنة ١٨٩٣، واتخذ اسم «يوسف» بعد أن سيم كاهناً سنة ١٩٣٤. وهو متزوج من لبنانية اسمها: «حميدة عويس»، وأب لعدة أولاد، كما أنه عُيّن مختاراً لقرية شحتول وما زال مقيماً فيها.

توفي ابن عمها «الياس» في القاهرة سنة ١٩٦٢ وتوفي أخوه «اغناطيوس» في القاهرة أيضاً سنة ١٩٦٥ ولكن ابنه «نجيب»[١] ما زال مقيماً فيها مع زوجه العراقية الأصل «ماري نعوم حنا اسحق» التي رزق منها ثلاثة أبناء هاجروا إلى افريقيا، وفتاة اسمها: «نزهة» تزوجها ابن عمها الخوري يوسف: «جان زيادة» المقيم حالياً في مدينة جونية.

إن لميّ أقرباء أخر في لبنان نذكر منهم اسكندر زيادة الذي تعيّن مديراً لناحية «الفتوح»[٢] بكسروان سنة ١٩١٤، من قبل متصرف جبل لبنان إبان الحكم العثماني، وفُصل عن وظيفته بعد انقضاء ثلاث سنواتٍ على توليها. كان «اسكندر أفندي زيادة» (كما كانوا يلقبونه آنذاك) وجيه العائلة، متزوجاً أخت المطران ديب، وأباً لثلاثة أبناء، وبنتٍ من جيل ميّ كان اسمها «ماري» أيضاً! وأبناؤه هم: «نعوم» الذي خطب ميّ سنة ١٩٠٥ ولم يفلح بالزواج منها، و«جوزيف» الذي تعلم الطب في بيروت ثم تخصص بالتوليد في فرنسا، وهو الذي كانت ميّ تميل إليه وتؤثره على أخيه نعوم، و«لويس» الذي كان محامياً مرموقاً، وأضحى نقيباً للمحامين في «حلب»، ورشح نفسه لانتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية سنة ١٩٣٣. أما ابنة اسكندر أفندي: «ماري» فقد تزوجها «فرانسوا فاعور» قبل الحرب العالمية الأولى، وهاجر معها إلى الولايات المتحدة الأميركية.

---

(١) يقيم السيد نجيب زيادة في حي «الضاهر» بالقاهرة وقد زرته مراراً وزوّدني بمعلومات ووثائق هامة متصلة بحياة ميّ وأدبها ومأساتها.

(٢) كانت «فتوح كسروان» تمتد من البحر إلى سهل البقاع ابان الحكم العثماني في بلاد الشام.

كما أن لها نسيباً آخر هو سيادة المطران اغناطيوس زيادة الذي كان اسمه «فؤاد» قبل أن يدخل سلك الكهنوت. كان «فؤاد» فتىً يافعاً يوم نبغت ميّ بالصحافة والأدب في مصر ولبنان، فأعجب بها، وتعرف إليها في بيروت سنة ١٩٢٥، وكانت بينهما مراسلة ودية، وقرابة روحية، فأفضت إليه بلواعجها بعد موت أبويها، وما برحت تثق به، وتطلعه على أحوالها ونشاطاتها الأدبية حتى آخر حياتها، فتجد لديه كل رعاية وتقدير.

أما أم ميّ فهي سوريَة الأصل، فلسطينية المولد، من آل معمّر المعروفين في منطقة حوران، وجبل الريان (جبل الدروز) ومدينة السويداء عاصمته، وقرية الحصن الأردنية، الواقعة في الجنوب الشرقي من السويداء، بالقرب من بلدة درعا. إن فريقاً من المعمّريين مسلمون، وفريقاً آخر مسيحيون من عرب الغساسنة، ويقول الأستاذ عبد المجيد النشواتي الأستاذ في جامعة اليرموك إن من بين طلابه عدداً من آل معمّر بعضهم مسلمون، والبعض الآخر مسيحيون من الروم الارثوذكس، كما أكد المحامي الأستاذ هاجم فلوح أن آل معمّر بالسويداء هم من المسيحيين الذين نزحوا إليها من قرية الحصن الأردنية قديماً. من هؤلاء تنحدر «نزهة خليل معمر» التي ولدت في بلدة الناصرة بفلسطين سنة ١٨٦٧ بعد نزوح جدها لأبيها إليها في القرن التاسع عشر، وبعد أن تزوج أبوها خليل معمّر فتاة فلسطينية من آل الخوري تدعى: عزيزة الياس الخوري. وقد ظلت أمّ ميّ الفتاة الوحيدة لأبويها بعد أن توفيت أختها «أسماء» في سن الثالثة عشرة إثر اصابتها بحمّى التيفوئيد، غير أنه كان لها أخ وحيد ولد سنة ١٨٦٩ وسمّي بولص، باسم جده لأبيه.

كانت نزهة فتاة جميلة وذكية، تعلمت في مدرسة راهبات الناصرة، وشبت في أسرةٍ ميسورة إذ كان أبوها خليل وعمها إبراهيم تاجرين مرموقين، يستوردان الحنطة من حوران ويبيعانها في متاجرهما التي كانت منتشرة في عدة مدنٍ فلسطينية.



والدة مي (نزهة خليل معمّر)

تخرجت الفتاة الجميلة ذات العينين العسليتين والبشرة البيضاء من مدرسة الراهبات دون أن ترتوي من العلم، فاستدعى أبوها «المعلم الياس زيادة» لتدريسها الأدب في البيت لأنه كان استاذاً مشهوراً في الناصرة، ومتميزاً في مدرسة «الأرض المقدسة» ولهذا غلب عليه لقب «المعلم»، واحتل منزلة رفيعة في مجتمع الناصرة.

ظلّ الياس زيادة يتردد على بيت خليل معمّر بضعة أشهر، يعطي دروساً في اللغة والأدب للفتاة الحلوة الجذابة بنت الثامنة عشرة من العمر، فأحبّها، وصادف هوىً في نفسها، مما شجعه على طلب يدها من أبيها الذي وافق على الزواج دون تردد لما وجده من تكافؤ بينه وبين ابنته. تم الزواج في احتفال عائلي سنة ١٨٨٥، ولكنه أثار ضجة في الناصرة ولغطاً لسببين: أولهما لأن الفتاة أرثوذكسية والشاب ماروني، والثاني لكثرة الطامعين بالفتاة الجميلة الثرية، وهنا تجدر الاشارة إلى أن المجتمع المسيحي في الشرق كان لا يستسيغ زواج بنات الروم من غير مذهبهم، وأنه تأثر بعادات تحكمت به، ونجمت عن الانقسام في الكنيسة الشرقية، ولكن التطور الذي طرأ عليها مؤخراً قضى على الكثير من تلك العادات. وما زال أحفاد خليل معمّر يذكرون «قرادية» أو «أنشودة» نظمها رهط من شباب الناصرة عقب ذلك الزواج، ذاعت بين الناس، وجاء في مطلعها قولهم:

«ليّا بليّا يا حبيبي ليّا   حرام لاتيني يا خد رومية![1]

وهنالك رواية ثانية تشير إلى حسد أولئك الشباب للمعلم الياس زيادة الذي ظفر بعروسٍ كان كل واحدٍ منهم يتمناها لنفسه مفادها أنهم عارضوا موشح «مرمر زماني» القديم وباتوا يغنونه في سهراتهم على النحو التالي:

مرمر زماني يا زماني مرمر   تبلى عيونه اللي ما بحب معمّر[2]!

---

(١) و (٢) هذه المعلومات مستقاة من أحاديث بنتيّ خال ميّ بولص، السيدتين: عبلة وسعاد معمّر، المقيمتين في لبنان.

كان زواج الياس زيادة ونزهة معمّر زواجاً موفقـاً، وكانت حيـاتهما هانئة، رافلة بالتفاهم والرضا رغم كل معارضة. أقاما في بيتٍ صغير بالقرب من البئر التاريخية في الناصرة، جدرانـه مطليـة بالكلس الأبيض، وأثـاثه متواضع لضآلة مورد المعلم الياس. ومع أن العروس عاشت مرفهةً في كنف أبويها، فقد كانت سعيدة في بيت الزوجية الصغير، كما أن والديها لم يقصرا في إسداء العون المادي لذلك العش الهانىء، ولرعاية ساكنيه. لقد جهزاها أحسن جهاز، وابتاعا لها ما يلزم من ثياب وأثاث، وأهديـا إليها طـاساً للاستحمام مطلياً بالذهب احتفظت به طوال حياتها، وكانت تتحدث عنه باعتزاز! وظل الزوجان مقيمين في بيتهما الصغير بالناصرة حتى تاريخ انتقالهما منها إلى القاهرة سنة ١٩٠٧[1]. ويوم رزقا بكرهما «ميّ» (التي أسميـاها «ماري») في شهر شباط سنة ١٨٨٦ استقبلاها بفرح عارم، وتعلق بها جداها لأمها اللذان كان لهما ولخالها بولص أثر كبير في نشأتها.

كان حب المعلم الياس زيادة وزوجه للأطفال كبيراً ولكنهما لم يرزقا غير «ماري» وصبي ولد بعد ولادتها بأربعة أعوام، أسمياه «الياس» باسم أبيه، ولكنه مات طفلاً وهو في مستهل الثانية من العمر. وهكذا ظلت ماري الفتاة الوحيدة المدللة فتعلقت بها الأسرة تعلقاً شديداً، وأغدقت عليها فيضاً من الحنان والرعاية.

---

(١) ورد في سائر ما كتب عن سيرة حياة ميّ انها انتقلت مع والديها من الناصرة الى القاهرة سنة ١٩٠٨، ولكن ذلك الانتقال تمّ سنة ١٩٠٧ استناداً الى شهادات بنتي خالها بولص معمّر، وابن عمها الخوري يوسف زيادة.



خال ميّ (بولص معمّر)

أحبت تلك الصغيرة خالها بولص كثيراً لوسامته، ولطفه، وولعه بالموسيقى والرياضة، وإجادته الغناء والعزف على العود. كان شاباً متعلماً، متخصصاً بالمحاسبة القانونية، يحب المرح والحياة البوهيمية، فظل عزباً إلى أن بلغ الأربعين من العمر. وقد شكلت عزوبته معضلة لأبويه واخته نزهة إذ كانوا يتمنون له الاستقرار في حياة زوجية تضمن لهم سلالة طيبة منه، وهو ابنهم الوحيد. ويوم عزم على الزواج سنة ١٩٠٩ كانت أخته نزهة قد انتقلت مع زوجها إلياس زيادة ووحيدتها ماري إلى القاهرة للسكن فيها فأتوا إلى فلسطين للمشاركة في الاحتفال بخطبته وزواجه. وقع اختياره على فتاة من أعرق عائلات حيفا هي: «راضية» ابنة المهندس «رزق الله صهيون»، و«مارتا جدعون» ومع أن الفارق في السن بين بولص وبين خطيبته راضية كان يزيد على عشرين سنة فقد كان زواجاً ناجحاً، وأضحيا أبوين لسبعة أولاد: ثلاث أبناء: خليل ولطفي وأنيس، وأربع بنات: عبلة وسعاد وفيروز وليلى، وأقاما في مدينة حيفا حيث تسلم بولص معمّر إدارة المحاسبة في مكاتب رجال أعمال فيها من آل: «سرسق» و«الريّس» و«الخوري».

وفي سنة ١٩٢١ انتقل بولص معمر مع عائلته إلى القاهرة للاقامة فيها بالقرب من اخته الوحيدة نزهة، وابنة أخته «ميّ» وتولى إدارة المحاسبة في مكاتب الوجهاء المعروفين: «جورج لطف الله، وأخويه ميشيل وحبيب لطف الله». وما زالت بنتا خال ميّ عبلة (وهي من مواليد ١٩١٣) وسعاد (وهي من مواليد ١٩١٥) تذكران رعاية ابنة عمتهما الأديبة «ميّ» لهما ولاخوتهما ما بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٩، إبان الفترة التي قضوها في القاهرة. ولكن الفتور الذي طرأ على علاقة بولص معمر وزوجه مع اخته نزهة وزوجها الياس زيادة كان من الأسباب التي حدت به للرجوع إلى فلسطين مع عائلته.

وهنالك أنسباء أخر لبولص معمّر في حيفا أضحوا من أعز أصدقاء ميّ منذ أن تعرفت إليهم إبان حفلات خطبته وزواجه. إنهم آل «صهيون»، ذوو زوجته راضية، الذين أحبوا مي وأعجبوا بها، وبادلتهم وداً بودّ، واعتزت

بمواقفهم الوطنية المشرفة. كان رزق صهيون، حمو خالها، وشقيقاه عيسى وموسى مهندسين مرموقين في حيفا، ومن كبار متعهدي البناء فيها، وهم الذين صمموا ميناء حيفا القديم، وأشرفوا على تنفيذ بنائه في أواخر القرن الماضي. وكان لرزق صهيون أربعة أبناء وست بنات، والذين يعرفون تاريخ النهضة العربية في أواخر الحكم العثماني لا يجهلون جهاد ابنيه: «إلياس وفائز»، فقد نفى الأتراك الياس صهيون إلى الأناضول، ولما يبلغ سن الرشد بعد، بسبب اتصالاته بالجمعية العربية السرية التي ناهضت السلطة العثمانية، ولكنه تمكن من الهرب من منفاه إلى لبنان، قبل الحرب العالمية الأولى، وأقام في مدينة طرابلس حيث زاول أعمالاً تجارية إلى جانب نشاطاته الوطنية، فنفاه الفرنسيون إلى السنيغال سنة ١٩٢٦ لمناهضته الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان والاحتلال الانكليزي لفلسطين ومصر والعراق، فنزح من السنيغال بعد فترة وجيزة، إلى شاطىء العاج، حيث سبقه إليها أخوه فائز الذي أبعده الانكليز عن فلسطين، فأنشآ فيه مزارع للبنّ جنيا منها ثروة كبيرة، وأضحيا السند والمعين لأخواتهما ولمن يلوذ بهما. كانا يؤمان لبنان للاصطياف فيه فتزوج «الياس» فتاة من بكفيا سنة ١٩٣٧ من عائلة سابا: «أوليفيا متري سابا» ورزق منها عدة أولاد.

سحرت ميّ آل صهيون إبان خطبة خالها بولص بشخصيتها الجذابة وثقافتها ورقة شمائلها، فأعجب بها الشيوخ والشباب على حدٍ سواء، وتقدم لخطبتها أحدهم، كما خطبها آنذاك شابان آخران من آل الأبيض وجدعون. كانت في الثالثة والعشرين من العمر ولكنها رفضت الاقتران بأحد لشدة ولعها بالعلم (على حدّ تعبيرها)(١) واصرارها على العيش في القاهرة حيث وجدت في مناخها ما يحقق طموحها الأدبي. ولكنها حفظت لتلك الرحلة إلى فلسطين، ولمدينة حيفا خاصة، وللصداقات التي عقدتها فيها أطيب

---

(١) و (٢) هذه المعلومات مستقاة من أحاديث امرأة خال ميّ السيدة راضية صهيون، =

الذكريات. كانت تلفت الأنظار بذكائها وجاذبيتها، وتأسر القلوب بحديثها العذب فأقام فائز صهيون ورفاقه حفلة لتكريمها، وحفلة أخرى لوداعها يوم رجوعها بالباخرة إلى مصر مع والديها، فتجمعوا في «ساحة الحناتير» في حيفا يحملون آلاتهم الموسيقية: العود والدف والطبلة والناي، وأخذوا يهتفون لها، ساعة مرورها فيها، ويغنون الموشح المعروف:

يا ماريّا يا مسوسحة القبطان والبحرية
يا مسوسحة القبطان!

كان يا ما كان على شط النيل
كان في صبية اسمها مارية
حبّها السكان والبحر والقبطان! الخ...

ثم رافقوها إلى أن بلغت الميناء للإبحار منه إلى الاسكندرية[٢].

وإذا رجعنا إلى آل معمّر نرى أن الذين اشتهروا منهم بالعلم والنضال الوطني كثيرون، من أبرزهم الوزير الأردني السابق «يعقوب معمّر» وشقيقه الدكتور «نبيه معمّر»، رئيس قسم الجراحة في المستشفى الملكي في عمان.
وكانت «مي» تقول لأصدقائها في مصر:

ـ أخذت حب العلم عن أبي، وحب الأدب عن أمي لشغفها به، وإجادتها رواية الشعر، ولا سيما شعر ابن الفارض، وأخذت حب الموسيقى عن خالي بولص.

= رحمها الله، فقد توفيت في بيروت سنة ١٩٧٨ بعد ان أجرينا لقاءات معها ومع بنتيها السيدتين عبلة وسعاد معمّر للتعرّف الى أهل ميّ والتزود بأخبارها.

(١) الدكتور نبيه معمّر من الأطباء البارزين الذين بقوا في القدس بعد ان احتلها الاسرائيليون في نكبة سنة ١٩٦٧، فحطمت السلطات المحتلّة عيادته، وسجنته، ولكنها أفرجت عنه بعد بضعة أشهر بفضل مساعي لجنة الصليب الأحمر الدولي، فاستقرّ في المملكة الأردنية الهاشمية بعمان.

سألها صديقها الكبير الأستاذ لطفي السيِّد ذات يوم:

- من أين لكِ يا ميّ هذه الاطلالة العريقة؟

فأجابت:

- من الغساسنة الذين أنتسب إليهم من جهة أمي «المعمّـرية» فهي سليلة تلك الأسرة السورية القديمة، المعروفة في حوران! أوَلاَ تذكر المثل القائل: «إذا الولد مال فثلثاه للخال؟»

ومع أن الجبل الأخضر في لبنان، وجبل الريان أو الجبل الأشم في سورية قد انبتا الأديبة ميّ من أسرتين لم تظهر على أفرادهما أية مواهب أدبية وفنية، فإن في تميّزها بالصحافة والخطابة والأدب أرفع وسام تعتز به هاتان الأسرتان جيلاً بعد جيل، ولقد كرم نبوغ ميّ أعلام عصرها، وتغنى به الكتاب والشعراء، وكان من أبلغ ما قيل في وصفه ما جاء في مطلع قصيدة الشاعر شفيق معلوف، صاحب «عبقر» التي ألقاها في حفل تكريمها بدمشق سنة ١٩٢٢:

بنت الجبال، ربيبة الهرم   هيهات يجهلُ اسمها حيٌّ،
لم نلق سحراً سال من قلم   الا هتفنا: هذه ميٌّ!

ومما لا يرقى إليه الشك أن هذه الأديبة النابغة لم تكن مدينة لأحد من أهليها بما حققت لنفسها من مكانة رفيعة في تاريخ الأدب والنهضة العربية الحديثة، وهي التي كتبت تقول في محاضرتها «غاية الحياة»:

(ليس النبيل من ورث نسباً ومالاً فاستخف بالناس والأشياء اتكالاً على وراثته، بل النبيل من خلق نفسه وما زال بها يجدِّدها كل يوم بعمله ليخلّف للمستقبل ثمرة جهوده).

---

(١) نشرت هذه المحاضرة مطبعة المقتطف سنة ١٩٢١ في كراس مستقل، وما زال نشرها يعاد ضمن أعمال ميّ الكاملة.

الناصرة مهد طفولة ميّ

ايتها الناصرة! لقد كنت يا مدينة الأزاهر
العذبة مسرح أجمل أيام العمر، وكان قلبي
أكثر تعلقاً بك من سائر مدن فلسطين.
ميّ)[1].

في هذه المدينة الصغيرة المقدسة وُلدت ميّ، وفيها قضت طفولتها، وتلقت الدروس الابتدائية، وتعلمت الموسيقى واللغتين الفرنسية والايطالية عند الراهبات اليوسفيات إلى أن أدركت الثالثة عشرة من العمر. ثم توجهت منها إلى لبنان في صيف سنة ١٨٩٩ بصحبة والديها للتعرف إلى أهليها فيه ولاتمام دراستها عند راهبات الزيارة في فرع مدرسة «عينطورة» المشهورة للاناث. وبعد تخرجها منه قضت سنة دراسية أخيرة في بيروت بمدرسة الراهبات اللعازاريات وعادت منها إلى الناصرة مجدداً في مطلع صيف سنة ١٩٠٥. وقد كان للبيئة الاجتماعية في كل من الناصرة وعينطورة وبيروت وللمناخ الروحي اللذين تفتحت فيهما مداركها أثر بالغ في تنمية مشاعرها الرومنطيقية، وموهبتها الفنية، وفي إذكاء عقيدتها الدينية.

(١) عن ديوان شعر ميّ بالفرنسية: «أزهار حلم» - ص: ١١٤ - وقد ترجم هذه القطعة النثرية الدكتور جميل جبر ونشرها في كتابه: «أزاهير حلم» على الصفحتين: (٤٥) و(٤٦).

تقع الناصرة في قلب الجليل الأعلى في شمال فلسطين على سفح تلّة وادعة تعلو عن سطح البحر أربعمائة متر، وتبعد عنه عشرين ميلاً، كما أن المسافة بينها وبين بيت لحم تبلغ سبعين ميلاً. مناخها معتدل، وخيراتها كثيرة لقربها من مرج بني عامر الذي يمتد من حيفا جنوباً إلى وادي الأردن «الغور»، وتبلغ مساحته أربعمائة ألف دونم. وللناصرة تاريخ حافل بالامجاد إذ كان أحد بيوتها مسكناً لمريم العذراء، عليها السلام، فيه وُلدت، ومنه بُشّرت بأنها ستكون أم المسيح، عليه السلام. وفي الناصرة قضى المسيح طفولته وصباه حتى بلغ الثلاثين من العمر فنُسب اليها ودعي: «الناصريّ».

بُنيت في الناصرة كنائس متعددة وأديرة بعد أن تنصّر الملك قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، وأمست محجةً للمسيحيين يؤمونها للتبرّك ولزيارة كنيسة «البشارة» التي وصفها الرحالة السويسري «جوهان لودويغ بيركهارت» في أوائل القرن التاسع عشر فقال: (قمت بزيارة الناصرة التابعة لباشا عكا، وكانت تقيم فيها حوالى تسعين عائلة لاتينية، وطائفة من الروم الارثوذكس، كما كان ثلث سكانها مسلمين والثلثان مسيحيين. الحجاج يغدون إليها باستمرار لزيارة كنائسها وأديرتها، وبيت يوسف النجار، ودير «الفرير» حيث تقع في وسطه كنيسة البشارة التي شيدت في المكان الذي تلقت فيه مريم العذراء البشرى من الملاك بحملها المسيح)[1].

أهم معالم الناصرة الأثرية، إلى جانب كنيسة البشارة، وبيت القديس يوسف: «عين الست مريم» حيث كانت تستقي منها مريم البتول الماء؛ وكنيسة البئر، ومكان الهاوية، وكنيسة الرعب، ومنسّا كريسي. تتفرع من الناصرة الطرق الرئيسية التي تصل فلسطين بمصر وبلاد الشام فشهدت حروباً مضنية كما تعرضت لزلزال عنيف عام ١٨٥٢ (وفق ١٢٦٩ هـ) دمّر عدداً

---

(١) إلى سورية والأرض المقدّسة ـ جوهان لودويغ بيركهارت ـ «Johann Ludwig Burchart» ص: ٣٣٧ ـ لندن عام ١٩٢٢ ـ دار «جون موري» للنشر ـ «John Murray» .

كبيراً من بيوتها، وضعضع بعض آثارها، ولكن تلك البلدة الوادعة ظلت صامدة في وجه الكوارث على مدى الأزمان.

احتل المسلمون الناصرة سنة ٦٣٤ م (١٣ هـ). وبقي السلام سائداً فيها بينهم وبين المسيحيين حتى تاريخ استيلاء الصليبيين عليها في مستهل القرن الثاني عشر ميلادي، بعد استيلائهم على القدس. ومن ثم استرجعها صلاح الدين الأيوبي بعد موقعة حطين عام ١١٨٧ (٥٨٣ هـ) وكان قد أوصى جنده باحترام كنائسها، ونهاهم عن مسّ سكانها بأي أذى. ويقول المؤرخ الأستاذ مصطفى الدباغ في كتابه: «بلادنا فلسطين: (بقيت الناصرة في يد المسلمين بعد موقعة حطين وصلح الرملة في ٢ أيلول عام ١١٩٢ م. ثم عادت إلى الفرنجة بعد الاتفاق الذي تمّ عام ١٢٢٩ بين الملك فريدريك الثاني والملك الكامل وأخذت تتبادلها أيدي الطرفين بعد ذلك، تارة يستولي عليها المسلمون، وطوراً يحتلها الفرنج. وفي سنة ١٢٦٣ م. هاجمها الظاهر بيبرس بعد انقراض الدولة الأيوبية وانتقال الحكم إلى المماليك فهدم كنائسها وأديرتها، ولكنها ما لبثت أن وقعت مجدداً في أيدي الصليبيين عام ١٢٧١ م. يوم ترأس الأمير ادوارد الانكليزي حملتهم الأخيرة على الشرق العربي. وقد بقيت تحت سلطتهم حتى أخرجهم منها السلطان خليل بن قلاوون عام ١٢٩١ م»)[١].

وفي العهد المملوكي أضحت من أعمال صفد وتحوّلت إلى بلدة صغيرة في القرن الخامس عشر ثم دخلت في حوزة العثمانيين عام ١٥١٧ م. وبقيت تحت سلطانهم حتى شهر ايلول عام ١٩١٨، ولكن حملة نابليون على مصر والشرق العربي لم توفّرها. وإذا عدنا إلى كتاب الأستاذ الدباغ نقرأ فيه ما يلي: (بعد نكبة الناصرة عام ١٢٩٠ م. أخذ عمرانها يزدهر، وكان المسلمون

---

(١) بلادنا فلسطين ـ مصطفى الدباغ ـ القسم الثاني من الجزء السابع ص: ٥٠ وما بعد ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٧٤.

أول من استقرّ فيها، ثم تبعهم المسيحيون في القرن السابع عشر، وكانت أول أسرة مسيحية استقرت فيها أسرة «يمين» المارونية التي أمّتها من بلدة «اهدن» في شمال لبنان. وفي مستهل القرن التاسع عشر زارها الرحالة «فولني ـ VOLNEY» وكتب يقول: «إنها مدينة ذات شهرة عالمية، ثلث سكانها مسلمون، والثلثان مسيحيون، وللآباء الفرنسيين فيها نُزُل ومعبد، وهم عادة ملتزمو البلدة». ثم أرسل أحمد باشا الجزار أمراً للشيخ أحمد الفاهوم بالاستيطان فيها عام ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) ففعل، وبينما كان نابليون يحاصر عكا بلغه أن العثمانيين جهزوا جيشاً لنجدة الجزار فأرسل حملة لصدّهم، فالتقى الجمعان بالقرب من الناصرة في ٥ نيسان ١٧٩٩ م. واستولى الفرنسيون عليها. ولكن احتلالهم لم يطل إذ عادوا من الجليل وعكا إلى مصر متكبدين خسائر جسيمة، وكان نابليون قد قضى فيها ليلة واحدة مع الجنرال «كليبر»).

يوجد في الناصرة، إلى جانب آثارها الدينية التي يبلغ عددها أربعة وعشرين كنيسة وديراً، مسجد كبير شرع العثمانيون ببنائه عام ١٨١٢م. (١٢٢٧ هـ) في ولاية علي باشا على عكا، وأسموه: «الجامع الأبيض» وقد ولي عليه قاضيها العالم الشيخ عبد الله الفاهوم بعد أن تمّ بناؤه، وكان أول مسجد للمسلمين يقام فيها. ويوم اندلعت الحرب العالمية الأولى اتخذ الألمان والأتراك من الناصرة مقرّاً للقيادة المشتركة، واستولى عليها فرسان الجيش البريطاني في ٢٠ أيلول عام ١٩١٨، فبقيت تحت الانتداب الانكليزي كسائر حواضر فلسطين إلى أن وقعت في أيدي اليهود في ٥ تموز عام ١٩٤٨، إبان أول حرب عربية اسرائيلية.

أما الأجواء الاجتماعية والثقافية التي نشأت فيها ميّ فإننا نستجليها مما كتبهُ الغربيون الذين زاروها في أواخر القرن الماضي، ووصفوها في مؤلفاتهم. وضعت الكاتبة البريطانية «فرنسيس اميلي نيوتن ـ FRANCIS EMILIE NEWTON» كتاباً عنوانه: «خمسون عاماً في فلسطين» جاء فيه أن عدد سكان

الناصرة كان لا يتجاوز ثمـانية آلاف نسمـة آنذاك، أكثـرهم زراع وتجار وحرفيون، وأن أسواقها كانت مزدهرة بالصناعات المحلية، والحرف اليدوية لبراعة أبنائها بصنع الجلود والسروج، والحفر على الخشب والنحاس، وصناعة الفخار، مما جعل الهدايا التذكارية من هذا النوع تملأ متاجرها. وبعد أن تحدثت عن مأوى الأيتام الذي كان نموذجياً فيها، وأتت على ذكر وجـود مصحّين، أحدهما انكليزي والثاني إفرنسي، ومتاحف دينية زاخرة بالتحف والايقونات كتبت تقول: (... وكانت الناصرة حاضرة يؤمّها القرويـون فيجدون فيها ما يطلبون، ولكن الزمان انقلب عليهم بعد الحرب العظمى بقيام طائفة من المستعمرات اليهودية في سهول مرج بني عامر بجوار القرى العربية، وقد درج أهالي تلك المستعمرات على تدبّر حاجاتهم فيما بينهم، فما يشتري يهودي من عربي شيئاً إلا عند الضرورة الملحّة).

لقد اشتهرت نساء الناصرة باجادة التطريز على القطن والحرير، وبسائر أشغال الابرة منذ العصور القديمة، وكانت السيدة نزهة، والدة ميّ، إحدى اللواتي برعن بتلك الاشغال اليدوية، فعلمتها لابنتها ولكن حبّ العلم، والمطالعة والكتابة كان آثر لديها من كلّ هواية.

وأما مدارس الناصرة فقد كانت كثيرة أنشأها الأجانب والرهبان في العهد العثماني مما وفرّ لسكـانها سبل التعليم، فتيـاتٍ وصبية. من أهمّ معاهدها «دار المعلمين الروسية» التي تـأسست عام ١٨٨٦، وكـانت تعدّ طلابها للتعليم في المدارس التابعة للبعثات الروسية في بلاد الشام، وقـد أسماها الأستاذ ميخائيل نعيمه الذي كان من طلابها المتفوقين: «المسكوبية» في كتابه: «سبعون»[١]، وروى ذكرياته فيها بأسلوبه الطليّ. وهنالك شخصيات عربية بارزة اقترن اسمها باسم الناصرة، إلى جانب ميخائيل نعيمه وميّ زيادة نذكر منها:

---

(١) سبعون ـ ميخائيل نعيمه ـ ص: ١١٧ ـ ١٥٥ ـ منشورات مؤسسة نـوفل بيـروت ١٩٧٧.

خليل بيدس: ١٨٧٥ ـ ١٩٤٩، صاحب مجلة «النفائس العصرية» التي أصدرها في حيفا عام ١٩١١، وهو مؤرخ وأديب كتب وترجم كثيراً من القصص، مما جعله رائد القصة في فلسطين.

والسيدة **كلثوم عودة**: ١٨٩٢ ـ ١٩٦٠ التي كانت ممرضة مشهورة وأديبة تكتب باللغتين العربية والروسية.

والدكتور **نبيه أمين فارس** الناصري المولد (١٩٠٦)، اللبناني الموطن، الذي تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت ودرّس فيها وتبوّأ مكانة علمية مرموقة.

كتب عن الناصرة كثيرون إذ كانت تأسر قلوب زائريها بسحرها، وتغنّى بها من أبنائها الشاعر الياس مرمورة فقال:

وقد رَكِبَتْ مَتْنَ الجبالِ وأشرفَتْ	على مَرْجِها واليَمِّ والغور والنجدِ
مَليكةُ حُسْنٍ فوق عَرْشٍ تربَّعَتْ	محاسِنُها تبدو على القربِ والبُعْدِ

ففي هذه المدينة الصغيرة في مساحتها، والكبيرة في قدرها، التي اقترن اسمها بدعوة السيد المسيح إلى المحبة والتسامح، وفي ذلك المناخ الديني والاجتماعي والثقافي قضت ميّ طفولتها، وجزءاً من يفاعتها، وتأثرت بكل ما أحاط بها حتى أنها اعتبرت الناصرة وطناً عزيزاً على قلبها لا تقلّ منزلته في قلبها عن منزلة وطنها الأصلي لبنان. ولا عجب في ذلك لأن مهد الطفولة وملاعبها وذكرياتها ألصق بمشاعر الانسان من أية ديارٍ وذكريات، ولأن حنينه إليها دائم وإن بلغ من العمر عتياً. ناجت ميّ الناصرة بعد ارتحالها عنها بهذه العبارات:

(كم سأفتقدك أيتها الناصرة! سأعيش على ذكراك عندما تنقضي حياتي وأيامي في غابات لبنان، أو في أرض مصر البعيدة. سوف أظلّ أحلم بجمال سمائك الزرقاء الصافية، وكواكبها الموشحة بالبراقع الشفافة، وبتلك

الأمسيات العذبة حيث كان بصري يتيه في اللانهاية راغباً في أن ينعكس أديمها اللازوردي على صفحة نفسي. سوف أفتقدك حين أفكر بتلك الأحاديث الشجية التي كنا نتبادلها، وتندى لرقّتها العيون، وبأولئك الذين أحببتهم وانتشوا مثلي بهوائك العليل، وبالذين رحلت عنهم وبقوا يذكرونني على بعد المسافة والدار. سأذكر دائماً نظرة الصديقة التي كانت تحاول عبثاً الهرب من عينيّ، وابتسامتها اللطيفة التي كانت تحجبها عني، والنزهة التي قمنا بها سوية فعجزت عن الكلام لوجودي بقربها. سأظل أذكر هذه الأشياء التافهة التي تشدّني اليها، وتلك المشاركة في العبادة معها، التي كانت أوثق رابطةٍ بين روحينا، واللحظة التي لامست فيها أناملها أناملي إذ كنا راكعتين جنباً إلى جنب.

أيتها الناصرة! لن أنساك ما حييت، سأجترّ ذكرى تلك الهنيهات العذبة التي عشتها في ظلّ بيوتك الصامتة. سأحتفظ بذكرى خلجات قلبي الفتي، وعندما تطوف أفكاري حولك ستخمد مصابيحك شيئاً فشيئاً، ولكن روحي ستظلّ تحيا فيكِ إلى الأبد! لقد كنتِ يا مدينة الأزاهر مسرح أجمل أيام العمر، وكان قلبي أكثر تعلقاً بك من سائر مدن فلسطين)[1].

---

(١) من ديوان شعر ميّ: أزهار حلم ـ «Fleurs de Rêve» الذي صدر في القاهرة عام ١٩١١ بتوقيع: «إيزيس كوبيا ـ Isis Copia» ص: ١١٣ ـ ١١٤ عن مقطوعة نثرية ـ ترجمة الدكتور جميل جبر.

طفولتها

تمت ولادة «ميّ» في صباح الحادي عشر من شهر شباط سنة ١٨٨٦، على يد قابلة قانونية، وكان يوماً بارداً وعاصفاً. سمّى الياس زيادة وزوجه طفلتهما «ماري» تيّمناً بالعذراء أم المسيح، وفرحا بها كثيراً. تميزت المولودة في سنتها الأولى بوجهٍ مستدير جذاب، وعينين جميلتين تلفت الأنظار. وعندما استقبلت عامها الثاني بدأت تتكلم وتمشي، وأضفت على البيت الصغير ومن فيه، وعلى جدّيها المعمرين، وخالها بولص، بهجةً كبيرة أخذت تزداد عاماً في اثر عام. وأضحت المولودة مِحْوَرَ اهتماماتهم، وشغلهم الشاغل. وعندما بلغت عامها الثالث أمست تتكلم بطلاقة، وتمطر أهلها بالعديد من الأسئلة: كانت تريد أن تعرف كل شيء عما تراه وتلمسه وتفكر به، سواء في البيت، أو في الأمكنة التي كانت تتجوّل فيها بصحبتهم. ذكاؤها الكبير، وحلاوة لفظها، وقوة حافظتها صفات اتسمت بها الطفلة المدلّلة «ماري» فشرع أبواها بعقد الآمال عليها، وعاهدا نفسيهما على توفير أفضل الوسائل لتعليمها. ثم ظهر ميلها للموسيقى والغناء في سنٍ مبكرة إذ كانت تحفظ ما يعلمونها من أناشيد

بسرعة، وتتقن غناءها. أما حبها للحكايات والأساطير فقد استنفد خيال ذويها أو كاد! كانت تصغي إلى ما يقصون عليها بشغف وانتباه، وإذا ما كرّر أحدهم حكايةً على مسمعها كانت تقاطعه لتكملها، وتحتجّ أشدّ الاحتجاج... ومما روته والدتها(١) لاقربائها وأصدقائها عن ميلها للكتابة، وحبها للكتب، أنها كانت تقلّد أباها في انكبابه على تصحيح وظائف تلاميذه فتحمل القلم، وتبتكر خطوطاً ورسوماً على الورق وهي سعيدة بما تفعل حتى غدت الدفاتر والاقلام لعبتها المفضلة كلّ مساء، إلى جانب الدمية التي صنعتها لها أمها بيدها، وخاطتها وزينتها من بقايا أقمشةٍ حريريةٍ وقطنية، وخيطان زاهية الألوان. ومن نافلة القول أن نشير إلى أن صناعة الدمى وألعاب الأطفال لم تكن قد تطوّرت في نهاية القرن التاسع عشر وأتت بكل معجب ومفيد. كان الأطفال في العالم، وفي بلادنا خاصة، محرومين مما يستمتع به الأطفال في اليوم الحاضر من كتبٍ مصوّرة زاخرة بأجمل القصص الخيالية والتربوية، وألعابٍ مغرية لمختلف الأعمار يلهون بها، ويتعلمون في آنٍ واحد. كان على ذويهم أن يبتكروا لهم الألعاب، ووسائل الترفيه التوجيهية لأن المدارس لم تكن تستقبلهم قبل بلوغ السابعة من العمر، ولأن رياض الأطفال التي تدرّب أطفال اليوم على النظام، وحبّ الدراسة منذ سن الثالثة، وتشحذ فكرهم وخيالهم طبقاً لمناهج تربوية متطورة لم تكن قد أنشئت بعد، وانتشرت في سائر بقاع العالم. وكان من النادر جداً أن يهتمّ الآباء بتنمية ملكات أطفالهم غير أن أبويّ ماري زيادة كانا من الآباء القلائل الذين وجّهوا طفلتهم النابهة بتوفير العابٍ لها مسليةٍ ومفيدة، وتلقينها الدروس الابتدائية في البيت، وتعليمها الحساب والقراءة واللغة الفرنسية قبل بلوغها العام السابع من العمر. كان نشوء «ميّ» في بيتٍ راقٍ، ركناه أمٌ وأب متعلمان، من حسن حظها إذ غذّيا فيها قابلية فطرية للتعلم، وشحذا مواهبها المتعددة، ووجهاها

---

(١) ان هذه التفاصيل عن طفولة ميّ مستقاة من أحاديث بنتيّ خالها بولص السيدتين عبلة وسعاد معمّر، نقلا عن عمتهما السيدة نزهة، أم ميّ.

أفضل توجيه. كانت ملاذهما الوحيد، والنبتة الرائعة التي أضحت ينبوع سعادتهما، واعتزازهما.

لحظ أبواها حبّها الشديد للأطفال وعطفها عليهم، وأعجبا بسعة خيالها وهي تحاور دميتها وتغني لها، وتلقنها ما كانت تتعلم في النهار. وعندما علمت بأن أمها تنتظر مولوداً جديداً، ربما يكون أختاً لها أو أخاً، جُنّت فرحاً، وباتت ترقب قدومه بفارغ الصبر، وترسم في مخيّلتها الخصبة معالم حياةٍ مشتركةٍ معه تتّسم بالحب والمرح والالفة، شرط أن تكون هي المعلمة، والمرشدة، والأم الثانية له!.. آمال وأحلام راودت مخيّلة الطفلة العاطفية إلى أن جاء الأخ المرتجى في فجر يوم الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٨٩٠.. أطلق عليه أبواه اسم أبيه: «الياس»، ودرّبا ماري، بنت السنوات الأربع تقريباً، على الاهتمام به، فأثبتت لهما أنها على قدر المسؤولية. كانت سعيدةً بوجود «الياس» الصغير معها في البيت، ترقب حركاته، وتطرب لمناغاته، وتغدق عليه كل ما كان قلبها يختزن من الحب والحنوّ. لم يبد منها أي أثرٍ للغيرة من ذلك الطفل الجميل، ولاسيما أن أهلها تحاشوا كل ما من شأنه أن يجعلها تغار منه. ولكم أبهجتهم ضحكاتها التي كانت تصدح في أرجاء البيت وهي تلاعبه، وقد دنا من بلوغ عامه الثاني، وأخذ يحبو بحماسةٍ، ويحاول الوقوف على رجليه، ويمشي متمسكاً بالمقاعد! كان الياس طفلاً أشقر، شبيهاً بأمه، جميل الطلعة، أخضر العينين، سميناً وهادئاً، فاكتملت فرحة تلك الأسرة الصغيرة به وبأخته الذكية، وقُرّت أعين جدّيهما خليل وعزيزة معمّر، وخالهما بولس بهما. ولكن القدر الغادر كان يتربّص بهم جميعاً إذ مات الصبيّ الجميل وهو في مستهل عامه الثاني ميتةً مفجعةً عقب حادث ألمّ بأبيه في شتاء عام ١٨٩١! شهدت مدينة الناصرة آنذاك عاصفةً ثلجيةً استمرت بضعة أيام، فتعطلت المدارس والحركة ولما أشرقت الشمس مجدداً خرج الناس من بيوتهم إلى الشوارع والريف للتنزّه، وابتياع حاجاتهم. وبينما كان المعلم الياس زيادة يتراشق بكرات الثلج مع زملائه وتلاميذه في باحة المدرسة تعثرت قدمه

بحجرٍ كبير فوقع وانكسرت ساقه. نُقل إلى المستشفى على الفور وما لبث أن وصل الخبر إلى بيته، فهرعت زوجه إليه تاركةً فيه ولديها ماري والياس (الذي كان رضيعاً) وقد أوصت جارةً لها برعايتهما. رجعت الأم إلى طفليها في مساء ذلك اليوم قلقةً على زوجها أشدّ القلق فأرضعت ابنها الجائع قبل أن تتناول أي طعام، ولكن الصغير لم يرضع إلا قليلاً، ثم ارتفعت حرارته في الليل. تقول بنتا خال ميّ السيدتان عبلة وسعاد معمّر، نقلاً عن رواية جدتهما «عزيزة معمر» التي تناقلها أفراد الأسرة جيلاً بعد جيل أن الطفل قد تأذى من اللبن الذي رضعه لدى عودة أمه المضطربة، وأن الطبيب الذي استدعي لمعالجته لم يجد فيه علّة، ولكنه استغرب رفض الطفل لبن أمه فقد عزف الطفل عن الرضاع وظل باكياً، منكّداً، فنحل جسمه، وذوى تدريجياً وكأنه تجرّع سُمّاً، ثم مات بعد ثلاثة أيام!

ران الحزن على البيت الذي كان بالأمس هانئاً، وفُجعت الطفلة، بنت السنوات الخمس بموت أخيها. كان أكثر ما روّعها مشهد الصغير وهو يذبل ويحتضر، ومشهد التابوت المشؤوم الذي ابتلعه وذهب به بعيداً، وإلى غير رجعة! لماذا مات الياس الصغير الممتلىء صحةً ونضارةً، وبقيت هي وحيدة؟ ما هو الموت الذي يتحدثون عنه أمامها فتصغي مذهولةً، مقهورةً، دون أن تعرف شيئاً عن ذلك الغول المخيف الذي يخطف الأطفال من المهد دون مبرّر؟؟ كانت لا تكلّ من طرح مثل هذه الأسئلة الممزّقة، فوضعها أبوها على ركبتيه ذات مساءٍ، وقال لها طمعاً في أن يريحها:

ـ أخوك يا ماري ملاك دعته السماء إليها لأنه مرض، وبات يبكي، ويعتلّ في أيامه الأخيرة... لقد سَبَقَنا إلى الجنة يا حبيبتي، وما علينا إلا أن نصلّي من أجله، صبح مساء!

لم تقتنع الطفلة، فحار أهلوها في أمرها، وفقدوا كل حيلة لتعزيتها، واعادة النوم الهادىء إلى جفنيها، وخشوا عاقبة الحزن ونوبات البكاء التي كانت تنتابها بين حينٍ وآخر. لقد غالبوا الحزن في نفوسهم، وأخذوا يلهونها

بلقاءاتٍ مع صغارٍ في مثل سنّها، وألعابٍ يبتكرونها لتسليتها، ونزعوا من البيت كل أثرٍ من آثار الطفل الميّت كما تحاشوا ذكره أمامها أو البكاء عليه، وأوكلوا إلى خالها بولص مهمة الخروج بها من البيت بضع ساعات في اليوم علّها تسلو وتأكل بشهية. ومع ذلك ظلّت ماري حزينة في قرارة نفسها حتى لكأن البهجة رحلت من قلبها برحيل الأخ الحبيب الذي هامت به وسعدت بصحبته. لا ريب في أن للأحداث التي ترافق طفولة الانسان في سنيّ حياته السبع الأولى أثر عميق في تكوين شخصيته وبلورة طبعه، فقد أكّد علماء النفس والتربية هذه النظرية في بحوثهم الحديثة، وانطلاقاً منها نجد أن النزوع إلى الاكتئاب، والخوف من الحب، وسوء الظن بالحياة من الصفات التي طغت على شخصية «ميّ» في سائر مراحل حياتها. وإذا سلّمنا بأن قصائد الشاعر ونتاج الأديب يعكسان خفايا نفسه، ويترجمان حقيقة مشاعره، وقمنا بجولة استقصاء في آثار «ميّ» الشعرية والنثرية تستوقفنا قصائد كتبتها بالفرنسية في يفاعتها، وبعض مقالات نشرتها بالعربية في فترات متباعدة تؤكد أن موت أخيها في طفولتها أصابها بجرحٍ بالغ لازمها نزفه طول حياتها، وترك في قلبها الحزن، وفي طبعها التشاؤم. ففي ديوان شعرها: «أزهار حلم ـ FLEURS DE RÊVE» مسحة من الحزن تشوب قصائده كافةً، وقصيدة رثاء لأخيها الراحل عنوانها: «نحيب ـ LACRYMOSA» لم ينشرها الدكتور جميل جبر في كتابه: «أزاهير حلم» الذي ضمّ تراجم لبعض قصائد الديوان وهذه ترجمتها عن الديوان في طبعته الوحيدة التي صدرت بالفرنسية في مصر، في شهر آذار عام ١٩١١ بتوقيع «إيزيس كوبيا ـ ISIS COPIA» المستعار:

(داعبت قيثارتي والسأم يسري في أناملي
وتسلّقت الهضبة التي أَلِفْتُ السير عليها،
وقبّلت أزهار الغصون المتعانقة
وانا في طريقي إلى الهدف المنشود...
كانت نبضات قلبي تتسارع في المساء

وأنا أحثّ الخطى وراء الوهم الخادع،
وأنظر إلى السماء الداكنة، والمدينة المعتمة
حاملةً في القلب شوقاً، وعلى الأهداب دموعاً . . .

لكم فتّت قلبي حلم رهيب
وعجزٌ حيال حكم القدر،
وهيامٌ على الوجه وقت الغروب
فاستبدّ بي الحزن، واستسلمت للنحيب.

السماء سوداء لكن شيئاً ما، كالومضة في بريقها الخاطف،
كحبّة برقوقٍ وردّية، كأنوار النجم المتمّوجة
الذي دلّ الحكماء على بيت لحم، فيما مضى،
كان يرشدني وينتظرني أمام باب المقبرة . . .

أيها الطفل الذي رحل منذ زمنٍ بعيد،
أيها الأخ الذي صار ملاكاً جميلاً،
إغفر لي صوتي النابي الكئيب،
آهٍ! كم أتمنى أن تعود بلا إبطاء،
وتستردّ ذلك الثوب النضير،
ثوب الطفولة والحياة
وتنظر إليّ بضع لحظات!

أتذكر، أخي، طفولتنا،
إذ كلّ عمرك بضعة شهور،
وعمري أنا، «ميمي» بضع سنوات،
أفاخر لكوني أختك الكبرى؟؟

أتذكر كيف كنا نستلقي جنباً إلى جنب
نلهو ونتناغى بلا كلام،
ونقهقه لأتفه الأشياء،
كطنين ذبابةٍ تمرّ حولنا؟

أتذكر كيف كنا نتخابث أحياناً،
فتعضّ يدي، إذا ما تطاولت
على السلاسل الذهبية المعلقة حول مهدك الأثير؟
وكنت أعضّ بدوري إصبعك، ويدك وذراعك وخدّيك،
فاعترف، حبيبي، بأنك كنت مغتبطاً بذاك العراك،
منبهراً بخشونة تلك المداعبات!

كنتَ، في إثرها، تمدّ لي ذراعيك
كأنك رجل متسامح يسترضي...
تناديني فأدنو لتطوّقني
كأم تغدق على ولدها الحنان
وكنتَ تقبلني برقةٍ فأضغط بأصابعي على أنفك
متغاضبةً، وأُذعر لأني آذيت أخي الصغير!

وجاء الربيع كئيباً ذات يوم، لا دفء فيه ولا إشراق،
وأنا أبكي أمام المهد الخالي، وأذكر مشهد ذلك الصندوق
الأبيض الغريب الذي وضعوا فيه شيئاً ما...
فأنوح، وتنوح معي حتى الأصداء!
وتتالت الأعوام، وكبرتُ أنا،
وتألمت، وحَلَوْتُ، وأحببت،
ولكن حبي الكبير ينام ملتفاً بالأكفان!

وما فتىء نداء «أخي» يحرق صدري وشفتيّ
آه! ما أقسى الألم الذي. تلفح ناره
حياتنا على وجه الأرض!

آهٍ يا أخي! يا أخيَّ الذي مات
أما من شيءٍ يرتعش في هذا التراب؟
ألا تشعر بحرارتي تنساب على الذرات؟
هذي أختك أتت ترتّل لك
ترانيمنا الشرقية الشجية
فهلا تحمست لتردّدها معي؟..

أهكذا ينسى الأموات ما كانوا يحبون؟
ودروس النطق الأولى، ورفاق الودّ والمعاناة؟
أهكذا ينسون ما تعلموا من ألفاظ عذبة
وما رأوا من جمالٍ في البيت والوطن والأرياف؟

آهٍ يا حباً حملتُهُ بين ذراعيّ
وكان يميل على صدري عذباً، رقيقاً،
تعال إليّ! خذ مني وأعطني، خذ مني
قبلة قلبٍ للفرح مشتاق!
ولكن قلبي متعب، مضني، محزون
إذ وجد الحياة كذبة كبيرة،
فتعالَ أخي قبّله في المنام!

... انتحب، وعلى جبيني الساجد
تنسكب حرّى العبرات...)[1]

(١) أزهار حلم ـ Fleurs de Rêve ـ ايزيس كوبيا ـ ISIS COPIA ـ ص: ٩١ ـ ٩٥.

تنقلنا هذه القصيدة المؤثرة إلى عالم ميّ الطفلة، إلى حزنها الكبير، ورفضها الموت، وإلى ذكريات لهوها البريء مع أخٍ هامت به وما كاد يعيش ويترع دنياها بالفرح حتى غيّبه الردى، وخلفها بعده مقهورة، متحسرة، تغص بالذكريات. لقد نشرت كتباً متعددة بالعربية في حياتها دون أن تفكر بإهداء أي منها إلى قريبٍ أو صديق، ولكنها تعمّدت إهداء الرواية التي نقلتها من الألمانية إلى العربية ونشرتها سنة ١٩١٢ بعنوان: «ابتسامات ودموع»[1] إلى أخيها الفقيد بهذه العبارات:

(إلى العينين اللتين أطبقهما الموت قبل أن ألثمهما، إلى الابتسامة التي لا أعرف منها إلا خيالها، إلى الإسم العذب الذي لا تهمس به شفتاي دون أن تملأ عيوني الدموع، إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه، ويتّم فيّ عاطفة الحبّ الأخوي فحرمني من حنوّ الأخ، وقبلته، وابتسامته، ودمعته، إلى أخي الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى).

ومما ينبغي ذكره في هذا الموضوع تعليق شاعر القطرين خليل مطران على عبارة الاهداء هذه المؤثرة، في قصيدةٍ له قرّظ بها ترجمة ميّ لرواية «ماكس مولّر» فقال:

ذكـرى شـقـيـقٍ رَثَـيْـتِ فعـاش، مـا كـلُّ مَيْـتِ بالراحِلِ المتروكِ

كـم اسـتـعـدت سنـاهُ فـراعَـنَـا أن نـراهُ في دَمْعِكِ المسفوكِ![2]

قالت ميّ في هذا الإهداء، بل الرثاء، إن موت أخيها، (يتّم فيها

---

(١) الرواية من تأليف ماكس مولّر ـ FREDERIC MAX MULLER — وعنوانها الأصلي: «الحب الألماني ـ DEUCHE LIEBE»، ولكن ميّ اختارت لها عنوان: «ابتسامات ودموع».

(٢) ديوان خليل مطران ـ الجزء الثاني ـ ص: ٣٠٩.

عاطفة الحب الأخويّ وحرمها من حنوّ الأخ) وما كان أحوجها في حياتها إلى أخٍ يشدّ أزرهـا، ولا سيما في المحنة التي ألّمت بها في آخر حياتها! ولكننا نلحظ أن هذا اليتم فجّر فيها عاطفة الأمومة، وجعلها متوقّدةً على طول المدى، تنشد الارتواء ولا تجده لحرمانها من الزواج والأمومة. ولقد ظلّت تهيم بالأطفال، تلاطفهم وتتقرّب منهم، وتنبّه الأمهات إلى تكريس غاية الجهد لرعايتهم. كل طفلٍ كان يذكرها بأخيها، ويغريها بالتحدث إليه، وإغداق عاطفتها المكبوته عليه. وصفت لقاءها بأطفال أجانب في حديقة عامة بمصر في مقالة عنوانها: «أنا والطفل» فكتبت تقول:

(... لم أر حولي سوى سيدتين إنكليزتين مع احداهما ثلاثة أطفال. وما هي بضع دقائق حتى اقترب مني أحد هؤلاء، وهو صبيّ في الرابعة من سنواته، فناديته قائلة:

- تعالى إليّ أيها الصغير!

فدنا واجفاً، باسماً، فسألته:

- ألا تجلس على ركبتي؟

فجلس صامتاً، ولما شعرت بثقل جسده الصغير ذكرت أخي الوحيد الميت، ووثب قلبي إلى شفتيّ، وجالت الدموع بين أجفاني، فملت إلى الطفل امتصّ من حلاوة وجنته، لاهيةً بتلك القبلة عن كآبتي المتصاعدة من فؤادي، كما يتصاعد الغيم من أطراف البحار)[1].

وفي مقالة أخرى عنوانها: «بكاء الطفل» كتبت ما يلي:

(... ثم سمعت الطفل يبكي فهلع قلبي فرقاً، وشعرت بشيءٍ كبير يذوب فيه. أواه من بكاء الأطفال! إنه أشد إيلاماً من بكاء الرجال!

---

(١) ظلمات وأشعة - ميّ زيادة - ص: ٩ - وكانت قد كتبت المقالة عام ١٩١٣ ونشرتها في جريدة أبيها: «المحروسة».

سمعت الطفل يبكي ورأيت العبرات تتحدّر على وجنتيه الورديتين فكانت تلك اللآلىء الذائبة جمرات نارٍ تكويني.

طفل يبكي ودلائل العجز واليأس بادية على محياه الوسيم. طفل يبكي بكاء متروكٍ، منفرد، لا يحبه في الدنيا أحد. الطفل الحبيب يبكي فكيف أعيد التألّق إلى عينيه؟ كيف أسمع في ضحكته صدى أصوات الملائكة مرةً أخرى؟ أتعرفون كيف تحزن عيون الأطفال؟ أتعرفون كيف تعنّف أحداق الصغار؟ لقد حدّق فيّ سائلاً عن أعزّ عزيزٍ لديه وقال بصوتٍ هادىء كأصوات الحكماء: ماما! ماما!)[1].

إننا نجد في هذه القطعة الوجدانية وصفاً مؤثراً لبكاء أخيها الفقيد في أيام نزعه المفجعة، وافتقاده أمه وحنانها أثناء غيابها عنه، ولكم تمنت «ماري» يومئذٍ، وهي الطفلة العاطفية المرهفة الشعور أن تعيد «التألق» إلى عينيه، والبسمة إلى وجهه، والطمأنينة إلى قلبه الواجف، ولكنه مات وترك اللوعة حيّةً في قلبها!

أما الأسباب التي أودت بحياة الطفل «الياس» فقد ظلت غامضة في ذهن «ماري» الصغيرة، وتحوّلت إلى سؤال ٍ ملح كانت تطرحه على من عرفت من الأطباء، بعد أن شبّت، ولا تجد له جواباً مقنعاً. تُرى هل صحيح أن لبن أمها قد مصل يوم الحادث المشؤوم، بدافع ما أصابها خلاله من رعب واضطراب وجوع وبرد، وأن الطفل قد تناول معه خلاصة ذعرها على حياة أبيه فتأذى منه إذ قطّع أحشاءه بدلاً من أن يغذي عروقه؟ هل من كاشفٍ لهذه الأسرار الأزلية؟ وهل من مجيبٍ على هذا السؤال الذي أرقها وجعلها تؤمن، في نهاية الأمر، بتعليل جدتها الذي يؤكد تأثر الرضيع بحالة الأم النفسية؟

---

(١) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٣٠ ـ ٣١.

عندما بلغت ماري السادسة من العمر أرسلها أهلوها إلى مدرسة الراهبات اليوسفيات حيث اكتشفت المدرسات ميلها إلى معاشرة اللواتي كن أكبر منها سناً. وبعد انقضاء سنة واحدة على دخولها المدرسة أضحت تتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة، وتتسم بالجدية، فأوكلوا إلى إحدى الراهبات تعليمها العزف على البيانو فأقبلت على الدروس برغبةٍ فائقة إذ وجدت في الموسيقى بلسماً لجراحها. كما آنسوا فيها ميلاً شديداً للمطالعة بعد الرجوع من المدرسة منذ بلوغها التاسعة من العمر، واستجابوا لرغبتها بأن تكون لها مكتبة خاصة، ولكنهم أوكلوا إلى خالها بولص تدريبها على ركوب الخيل لتفيد من الهواء الطلق فأولعت به، وبرعت فيه منذ ذلك الحين، وأضحى التنزه مع خالها في الحقول هوايتها المفضلة. لقد دوّنت في مذكرات طفولتها الجولات الرائعة التي كانت تقوم فيها على ظهر الجواد في «مرج بني عامر» بالقرب من الناصرة، والتي اكتشفت خلالها جمال الطبيعة، ومتعة اطلاق العنان للخيال في أحضانها. ومنذ ذلك الحين أمست الطبيعة والمطالعة الصديقين المفضلين لديها تخلد إليهما للراحة، وتؤثرهما على مصاحبة أترابها. ولا بد من الاشارة إلى أنها اكتسبت من ركوب الخيل الصحة والنضارة والثقة بالنفس: صارت تأكل بشهيةٍ، وتنام باستغراق، وتتحدث عن اكتشافاتها الجديدة بحماسةٍ، وترغب في المزيد من الاستطلاع، فقد كتبت تقول:

(... لقد سافرت في حياتي الصغيرة على ظهر الجواد في هذه الجبال، واستوعبت روحي ما ينطلق من أشكالها وروائحها، وبقاعها وغاباتها وصخورها من المعاني والأخيلة. ولكم شهدت أسراب الطيور فوقها وحواليها مرفرفة! ولكم رأيت الأرانب والغزلان بين صخورها وأشجارها شاردة!)[1].

ترسخت الصداقة بين «ميّ» وخالها في طفولتها، وملأت قلبها حبوراً، وبدّدت الكثير من غيوم الحزن التي رانت على قلبها. وجدت فيه المثل الأعلى

---

(١) الصحائف - ميّ زيادة - ص: ١٣١.

للشاب الرياضي، والانسان المرح، والفنان البارع بالغناء والعزف على العود إذ كان صوته جميلاً، وعزفه متقناً. وكان بولص معمّر مولعاً بـابنة أختـه النبيهة، فلم يكن يفارقها في أوقات فراغه من العمل إلا نادراً. كانت أسعد الأمسيات عندها تلك التي كان يقضيها في بيت أبويها: يتعشى ويسمر، ويستنبط من عوده أجمل الألحان ويغني، فنشأت على حب الموسيقى والغناء العربي، وعندما بلغت الثانية عشرة من العمر أبدت رغبتها في تعلم العزف على العود، فصحبها خالها في رحلة إلى دمشق حيث ابتاع لها عوداً صغيراً، وشرع في تعليمها العزف عليه في الناصرة. كانت دمشق أول مدينة كبيرة عرفتها فأعجبت بعمرانها وطبيعتها وأسواقها، ونوّهت بالذكرى التي حفظتها لها في الخطاب الذي ألقته فيها سنة ١٩٢٢ يوم زارتها وهي في أوج شهرتها تلبيةً لدعوة أنديتها الأدبية:

(حلمت بهذه المدينة أحلام الطفولة الأولى، ولما كنت هناك، في وادي النيل، أغمض عينيّ لأستعيد ذكرى فردوس طفولتي كنت أدرك أن من عرف دمشق صغيراً حفظ في كيانه من جمالها أثراً لا يمحى. ثم علّلت النفس بالعودة إليها هذه السنة لأسمع تدفّق أنهارها، مستأنسةً بعـذوبة أهلهـا، مراجعةً تاريخها الطويل في الشوارع والحجارة والأبنية، مستوحيةً في الأخربة والآثار روح العظمة الأموية، ومجد صلاح الدين)[1].

وعندما بلغت «ماري» الثالثة عشرة من العمر أحرزت تفوقاً في الدراسة بمدرسة الراهبات اليوسفيات، ولاسيما في اتقان اللغة الفرنسية، ولم يعد لها مكان في تلك المدرسة الابتدائية حيث عقدت صداقة مع زميلتين: أولاهما «بولين» التي خيّبت أملها، كما ذكرت في الصفحات المنثورة من ديوان شعرها بالفرنسية: «أزهار حلم ـ Fleurs de Rêve»، والثانية «سيدوني» التي حافظت على المودّة زمناً طويلاً. في تلك الفترة كان أبوها «المعلم الياس» قد ترقى في

---

(١) ميّ في سورية ولبنان ـ جمع وطبع مجلة المرأة الجديدة ـ ص: ١٤١.

سلك التعليم، وعُيِّن مديراً لمدرسة «الأرض المقدسة» في الناصرة حيث درّس زهاء عشرين سنة، مما عزّز مكانته، وحسّن أوضاعه المالية، فعزم على اصطحاب وحيدته النابهة إلى لبنان للتعرف إليه ولأقربائها فيه، ولادخالها في مدرسةٍ للبنات من أفضل مدارسه: مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة بمنطقة كسروان. ابتهجت الفتاة بخبر الرحيل مع أبويها من الناصرة الصغيرة إلى وطنها الأصلي لبنان الذي حلمت به، وقرأت عنه الكثير، وكانت سعيدة باكتشاف آفاق جديدة يوم غادرت معهما الناصرة إلى حيفا أولاً، ثم إلى بيروت بالباخرة في صيف سنة ١٨٩٩.

يفاعتها

قضت ماري ردحاً من صيف عام ١٨٩٩ في قرية «شحتول» مع والديها ضيفة على عمها الكبير حنا المقيم في بيت جدها القديم، فسحرها جمال وطنها الأصلي الذي نشأت على حبّه من خلال أحاديث أبيها عنه، وعن تاريخه، ومناخه، وسعدت بالتعرف إلى أهل أبيها، وأصدقائهم، وجيرانهم في القرية الصغيرة.

كانت «ميمي» موضع الإكرام والترحيب في ذلك الصيف من قبل جميع الذين عرفوها. جالت في مختلف قرى كسروان: غزير، والكفور، وجديدة غزير، وذوق مكايل، وعينطورة، ووجدت لكلٍّ منها سحراً ذاتياً، كما بهرها حسن مدينة «جونية» والجبال المحرجة المحيطة بها، وذكرها بحيفا وجبل الكرمل المهيمن عليها.

كانت تلك الرحلة الأولى مغامرة لها ممتعة منذ أن غادرت بلدة الناصرة: أحبت «حيفا» وجبل الكرمل لدى اكتشافهما، ولكن البحر الذي شاهدته لأول مرة هو ما أذهلها في اتساعه، وجماله، وأمواجه، وانعكاس

الألوان على صفحته. ثم فرحت بركوب الباخرة التي أمست أفضل وسيلة للسفر عندها، ووصفت انطباعاتها في باكورة كتاباتها باللغة العربية فقالت:

(... على أن أعذب تذكار لديّ من هذا الميناء هو أني تعرّفت بالبحر، ووقفت في حضرته للمرة الأولى في حياتي، ثم ركبته لأذهب إلى مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة. مساء ما زال حياً كأنه مساء البارحة. كان القمر بدراً يغمر هذه الجبال والبقاع المنبسطة عند موطئها. وكانت أشعته تنصبّ سيلاً على المياه فتخطّ فيها ممراً نورانياً وسيعاً. قضيت تلك السهرة وأنا أرقب ألوف الأرواح الصامتة تغتسل فيه جذلى. وإذ همّت الباخرة بالمسير حمل إلينا النسيم مقاطع شدوٍ كله شهيق ونحيب، كان النسيم يحمله متقطعاً، كأنه مثقل بعطور الكرمل من صعترٍ ونعناعٍ وخزامى، وخليطٍ من شذا سائر الأعشاب البرية)[1].

انقضت أسابيع الاجازة الصيفية بسرعة، والفتاة المقبلة على الرابعة عشرة من عمرها تتألّق نضارتها يوماً بعد يوم، وهي في غاية السعادة بصحبة أبويها، وبمشاعر المودة التي لمستها من أنسبائها وأولادهم الذين كانوا في مستهلّ اليفاعة مثلها. أقنعها أبواها بأن مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة هي أفضل مؤسسة توفّر لها ثقافة جيدة فزارت معهما الدير وغُرف الطالبات المعدة لنومهن، ووعدت بإحراز أفضل العلامات في دراستها الثانوية، وفي تعلّم اللاتينية والانكليزية، واتقان العزف على البيانو. أعجبها المكان المشرف على البحر الذي شُيّدت عليه المدرسة، والحديقة المجاورة لها، ولكنها كانت غافلةً عما ستعاني من وحشةٍ ووحدة بعد رحيل والديها إلى فلسطين، وبقائها ليل نهار في ذلك الدير. وبعد أن جهزاها بكل ما يلزم، وأوصيا الراهبات والمرشد باحاطتها بعناية خاصة، ودّعاها في أوائل شهر تشرين الأول عائدين إلى الناصرة. كانت ساعة الوداع طويلة، مؤثرة، ولكن الفتاة حبست دموعها لتثبت لهما انها أضحت شابة قوية الثقة بالنفس، تدرك أن تركها في المدرسة

---

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٣٢.

الليلية تضحية كبيرة منها لأجل مصلحتها! شيعتهما حتى باب الحديقة الخارجي، والغصص تكاد تخنقها، ثم أطلقت العنان للدموع بعد أن غابا عن بصرها، وشعرت بأن الأفق إدْلَهَمَّ، والجبال أطبقت على صدرها! لازمها الشعور بالغربة طول مدة الأعوام الأربعة التي قضتها في عينطورة، على خلاف ما يحدث عادةً للفتيات في مدارس ليلية حيث يتأقلمن بعد فترة وجيزة مع البيئة الجديدة.

كانت تراسل أبويها وخالها، ومن خلّفت من الصديقات، وتميل إلى الانفراد بنفسها بعد الفراغ من الدروس إما في حديقة الدير، وإما في المطالعة، أو التدرّب على العزف على البيانو. ودرجت على كتابة يومياتها باللغة الفرنسية فانتحلت لنفسها اسم (عائدة) وخصّت صديقتها الآنسة «سيدوني ريبرجر ـ Sidonie Ripperger» برسالة مطولة نشرتها في القسم الثاني من ديوان شعرها بالفرنسية، وباحت لها بكل ما كان يخالج قلبها من هموم ومشاعر فقالت: (إليكِ يا صديقتي أهدي هذا الفصل من مذكراتي الشخصية لأن الوفاء والمحبة يمليان عليّ القيام بهذا الواجب، وما أعذبه على قلبي! عندما فقدت «بولين» التي أهديت إليها زهرة الصداقة تقدّمت لي صديقة أخرى أكثر وفاءً من الأولى، هي أنتِ يا عزيزتي سيدوني. لقد حملت إليّ رسائلك النافحة بالرقة والمودّة شعاعاً من الشمس أبهج روحيِ التي أضنتها الوحدة، وجعلتها تشعر بالصقيع. أتدرين ما معنى افتقاد الصداقة الحقة لقلبٍ يحتاج إليها ويقدّسها؟ آمل ألا تعرفي شيئاً من هذا الحرمان.

ظهرت أنت في دنياي كما يشرق الفجر بنوره ودفئه بعد ليلٍ باردٍ تخبّطت بدياجيره نفسي المضطربة، فأسرتني صفاتك النبيلة كما تأسر المرآة البراقة السنونو! كوني لي يا عزيزتي ما لم تكنه «بولين»، وثقي بأني موجودة في قلبك، وباقية فيه)[١].

---

(١) أزهار حلم ـ FLEURS DE RÊVE ـ إيزيس كوبيا ـ ISIS COPIA ـ ص: ١٢٥ ـ ١٢٦.

كانت مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة كبيرة، موحشة، جدرانها كثيفة، وسقوفها عالية، وأروقتها طويلة ومظلمة. وكان الشتاء فيها قارصاً لخلوّها من وسائل التدفئة، ولكن حديقتها كانت جميلة فسيحة، مطلةً على خليج جونية الرائع من جهة الغرب، وعلى تلالٍ وجبال مكسوّةٍ بالصنوبر والسرو والسنديان من الجهات الأخرى. هنالك تفتحت شاعرية ماري زيادة، وتبلورت موهبتها الأدبية، وتفوّقت في الدراسة على أترابها، ولكن الراهبات والمرشد الديني الخوري «الياس صفير» لحظوا نزوعها إلى الكآبة، وحب الانزواء فحاولوا جذبها إلى مشاركة زميلاتها في اللعب والتسلية خارج أوقات الدراسة. وعبثاً حاولوا لأن الفتاة الحزينة ظلت منطويةً على نفسها، تنظر إلى الحياة بمنظار مأساوي... نفورها من معاشرة الفتيات واللهو معهن، ونقدها للثرثرة جعلهن ينظرن إليها باستغراب، فشاع بينهن أنها شاذة الأطوار، وحشية المزاج، وتركنها وشأنها! قرأت في تلك المرحلة الدقيقة من حياتها أشعار «لامارتين» و«بايرون» و«الفرد دي موسيه»، ومؤلفات «بيير لوتي» و«جورج صاند» و«مدام دي سيفينيي» وتأثرت بهم، وكتبت قصائد موسومة بطابع الحزن والتأسّي على غرار أشعار الرومنطيقيين، خاطبت فيها الطبيعة بلغة الانسان المعذب الذي يبحث عن سرّ الوجود، ويتوق إلى إدراك كنه الحياة. كانت تنتابها نوبات بكاءٍ بين الحين والآخر وصفتها في مذكراتها فقالت:

(... الفتاة تبكي والراهبة تواسيها بصوت شفيق قائلة: «لا تبكي يا ابنتي، لا تبكي يا صغيرتي!» مسكينة «عائدة»! كانت قوية الشعور فطرةً، وقد ساعدت تربيتها الأولى على تقوية عواطفها وارهافها، ولم يكن لديها العقل اللاجم، ولا الخبرة الحكيمة. وكم من امرأة تقضي عمرها على هذه الحال فتشقى وتشقي، وهي لا تدري أنها مريضة في أعصابها، وإن نسبت ذلك إلى الرقة)[1].

---

(١) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٨.

إن هذا الاعتراف الخطير الذي سجلته ميّ بقلمها دليل على وهن أعصابها في يفاعتها، وتوجّسها خوفاً من عواقب ذلك الضعف، والشقاء به في حياتها. وما من ريبٍ في أن إقصاءها عن أهلها ومرابع طفولتها وصديقاتها وخالها وجدّيها في الناصرة أضرّ بها كثيراً لأن سنّ البلوغ عند الفتيات مرحلة من أدق مراحل حياتهن تتطلب من الأهل والمربين عنايةً خاصة لتوفير مناخٍ فكري وعاطفي يجنّبهن التيه في الهواجس والأوهام، ويحميهن من الانطواء على الذات. ولقد حُرمت ميّ من هذا المناخ في مستهل شبابها، وافتقدت حدب أبويها وأهلها، وحنوّ أمها، الانسان الوحيد الذي كان قادراً على الأخذ بيدها، وتدريبها تدريباً نفسياً سليماً، فلا الراهبات، ولا المرشد الديني كانوا قادرين على سدّ الفراغ العاطفي الذي دفعها إلى التقوقع والاشفاق على نفسها، والتعاسة. وها هي تصف تعاسة «عائدة»، أي تعاستها بقلمها، فتقول في مذكراتها:

(. . . وكانت تكتئب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلهن المقيمين في المدينة أو في ضواحيها)[١].

إن في «مذكرات عائدة» أكثر من دليل على ما قاسته في سنوات اليفاعة من إغراق في التكتم والتشاؤم، وارتياب بالحياة والناس، وتأثر عميق بمواعظ الراهبات والمرشد الديني. عندما وجدت عطفاً من الراهبة «أوجيني» دفعها سوء الظن إلى التفكير بأنها تُشفق عليها، فثارت ثائرة كبريائها وكتبت ما يلي:

(. . . أواه! إن «الأخت أوجيني» تشفق عليّ، انهن يشفقن عليّ! ربي تُرى أيها أمرّ: أخيانة البشر أم شفقتهم؟)[٢].

ووصفت لنا معاناتها في الدير، وتقلّب أهوائها، وخشيتها من الذنب فكتبت تقول:

---

(١) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٩.

(٢) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٠.

(٢ مارس مساءً

نحن عائدات من المعبد حيث ألقى علينا المرشد عظةً اتفق البنات والمعلمات على أنها «بليغة»، وانهن ليتفقن على ذلك كل مرة.

يروّعني من المرشد جزالة صوته، وصدى ذلك الصوت المتوزع في المعبد الرهيب. ويروقني منه علوّ أفكاره، وشرف تعبيره. جبهته هي جبهة العلم والذكاء والادراك، ونظرته نظرة الفيلسوف الذي يكتب، ويرحم، ويتجلّد. وعلى كل هيئته تغلب عاطفة الصلاح. ومع ذلك. . . أترى يغتفر ذنبي؟

وانتشر شذا البخور في فضاء المعبد. بعدئذٍ جثوت على سريري وطلبت الموت لا جبناً، ولا ضعفاً، بل شوقاً إلى السماء الزرقاء حيث الطهر والنقاوة، والجمال والكمال. وما زال هذا الشوق فيّ حتى الساعة: ساعة الغروب)[١].

فما هو الذنب الذي اقترفته الفتاة، وتوهّمت أنه غير قابلٍ للغفران؟ لقد حدثتنا عنه في مذكرة اليوم التالي «٣ مارس» فقالت:

(أفٍ لي، إني خائرة العزم! أنا التي أطلب الموت، وأريد أن أتحلّى بالفضيلة والتقوى، ما عرضت لي معاكسة صغيرة إلا تمرّد فيّ الكبرياء، وحبّ الذات، والغرور والنزق، وتحالفت جميع عواطفي الشرّيرة على التواضع والتجلّد، فإذا بي أشكو، وأتذمّر، وأبكي. . . الهي، الهي! متى أصير فاضلةً، وأحتمل صابرةً، كتوماً؟)[٢].

وعندما نتتبع سياق الحوادث التي تعرضت لها في المدرسة، والمشاعر التي تنازعتها ندرك أنها مرضت عقب ذلك الصراع بينها وبين البيئة الجديدة التي قُدر لها أن تعيش فيها:

(يوم الأحد ١٢ مارس

يا دفتري الصغير! أهملتك لأني قضيت هذا الأسبوع في السرير. وقد

---

(٢) و (٣) مذكرات ميّ زيادة ـ دار الريحاني ـ بيروت ـ ص: ١٢ ـ ١٣.

نهضت هذا الصباح فرحةً بالصحة وبالشفاء، فالتفّ حولي بعض رفيقاتي، حتى اللائي لسن لي بصويحبات. إن للمريضة، وللناقهة من المرض امتيازاً في أن يعطف البنات عليها حقيقةً، أو هنّ ينضممن إلى اللائي يعطفن عليها ليجدن كلاماً يقلنه، أو يتلقين كلاماً ينقلنه.

التفَفْنَ حولي، وقُلنَ بصوت واحد إني لا تبدو عليّ دلائل المرض. وقالت إحداهن: «كم أحب عقارب شعرها!» وقالت أخرى: «كم أحبّ عينيها!» وقالت غيرها: «ما ألطفها اليوم!» يا للرفيقات الشقيقات! يقلن ما يخطر لهن ليقنعنني بأني غير مريضة، وهن مصيبات. ولكن إن حسبن أن ثناءهن ينفخ في رأسي، ويبث فيّ المفاخرة، فهن مخطئات. إن الثناء لا يروقني.

... الثناء لا يروقني؟ أهن مخطئات أم أنا المخطئة؟ إذا كان الثناء لا يروقني فلماذا أشعر، منذ أن حادثنني، بأن شيئاً يبتسم فيّ سروراً ورضا؟)[1].

بمثل هذه السذاجة المحببة، والصراحة كانت الفتاة تدوّن مذكراتها فنستجلي منها تحسّن صلاتها مع زميلات الدراسة حيث كتبت تقول:

(كانت «عائدة» ذات طبيعة غنيّة، خصبة، تحبّ الجري واللعب والضحك ـ وأي بنيّة لا تحبّ ذلك ـ وتبتكر للهو ألعاباً طريفة ترفعها في تقدير رفيقاتها. ولكنها كانت وحيدة الروح، وكثيراً ما كانت تنزح عن ميدان اللعب إلى الانفراد في أطراف الساحة، فتجلس هناك ناظرةً إلى البحر البعيد، إلى زرقته الفيحاء، واستدارة الأفق المخيّم عليها، متمتعة بجمال الطبيعة، ومتهيبةً روعتها)[2].

إن شعورها بوحدة الروح هو ما رافقها إبان تلك المرحلة، ومع ذلك

---

(١) مذكرات ميّ زيادة ـ دار الريحاني ـ ص: ١٥.

(٢) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٣ ـ ١٠٤.

بذلت جهداً ملموساً لمشاركة الفتيات في نشاطاتهن المدرسية والترفيهية، وبرعت في إلقاء الشعر والتمثيل في حفلات نهاية الأعوام الدراسية. أما أهل أبيها الذين توانوا عن الاهتمام بها في أول سنتين قضتهما في عينطورة، فقد أضحوا يدعونها إلى بيوتهم بعد ذلك لتقضي معهم ومع أولادهم أعياد الميلاد ورأس السنة والفصح. وفي صيف كل عام كان أبواها يؤمان لبنان لقضاء فترة استجمام في ربوعه معها، ثم للعودة بها إلى الناصرة لقضاء ما تبقى من فصل الصيف إلى أن يحين موعد الرجوع إلى عينطورة.

نمت شخصية ماري عام ١٩٠٣ وكانت قد بلغت السابعة عشرة من العمر، وبدت شابةً حلوة القسمات، رقيقة الحاشية، فياضة الأنوثة. كان شعرها الأسود الحريري طويلاً، وقامتها مربوعة، وحركاتها هادئة، وكان أجمل ما فيها ابتسامتها العذبة، وعينان تتوقدان ذكاءً، وتبرقان في وجهها الحنطي البشرة كأنهما نجمتان مشعتان، ولا سيما عندما كانت تتحدث أو تغني. لقد وُهبت صوتاً رخيماً، وأتقنت عزف الألحان الغربية على البيانو، وعزف الألحان والأغاني الشرقية على العود الذي كانت تتمّرن عليه في أشهر الصيف. يقول ابن عمها الخوري يوسف عن ولعها بالمواويل اللبنانية، وأغنيات العتابا الحزينة:

(إن لميّ في «شحتول» ذكريات حلوة، وأماكن محببة، منها شجرة سنديان هرمة موجودة في الحقل المجاور لبيت جدها كانت تستظلّ بأغصانها في النهار لتطالع وتكتب، ومنها سطحة بيتنا العتيق الفسيحة حيث كنا ندعو الأصدقاء والقرويين الذين يُتقنون الغناء والعزف على العود والناي لإحياء سهرات سمرٍ وطرب، يتخللها الزجل، في حضور ميّ ووالديها)[١].

ولما بلغت الثامنة عشرة في آخر سنة دراسية قضتها في عينطورة دَان قد جرى تحوّل كبير في نظرتها إلى الحياة والناس إذ كتبت في يومياتها ما يُغني عن كل تعليق:

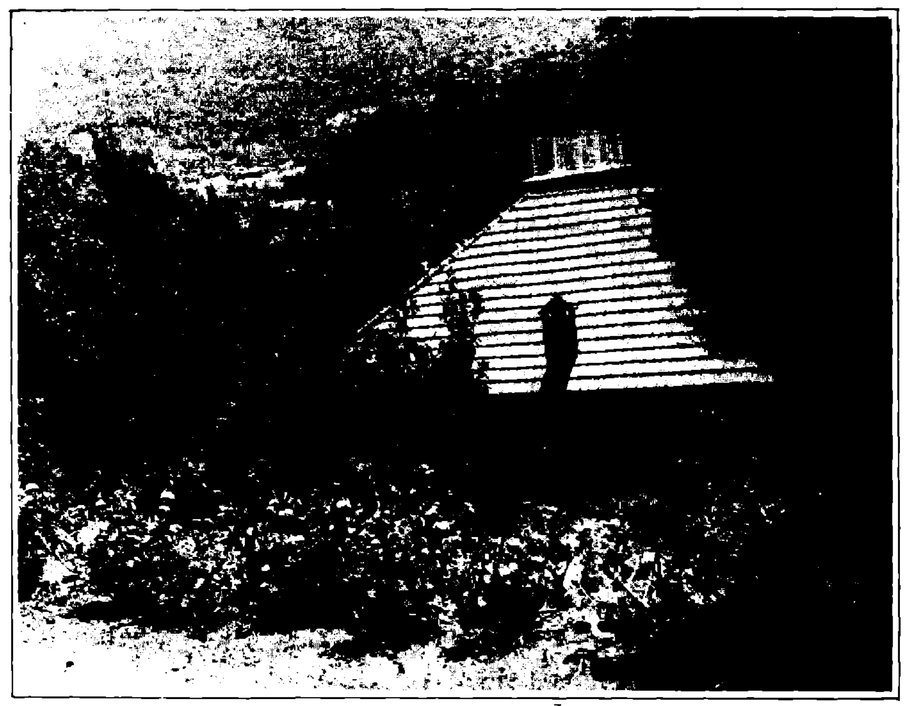
(١) من حديث أجريناه معه عن ميّ في قرية شحتول عام ١٩٧٥.

(هذا يوم بهيّ! الموسيقى في هذا المساء على أبدع ما عهدت. لا بد أن يكون في السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الألحان الربانية ما لم تسمعه في هذه الأرض أذن، ولم يخطر منه شيء على بال بشر.

إن الموسيقى لتخاطبني بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكي وعواطفي. إنها تنيلني أجنحة، وتطير بي إلى عوالم لا يطرقها غيرها. أشكرك اللهمّ لأنك فطرتني على حب الموسيقى وحبّ الجمال!

أؤمن بإله واحد! نعم يا إلهي أؤمن بأنك واحد لا إله إلا أنت، وأنك أنت خلقتنا، وأنك صالح، وأن الحياة جميلة)[1].

في تلك الفترة توطدت الصداقة بينها وبين عمّ أبيها اسكندر زيادة وأولاده: نعوم، وجوزيف، وماري ولويس. كان بيتهم في «جديدة غزير»



منزل آل زيادة في «جديدة غزير».

(١) مذكرات ميّ زيادة - دار الريحاني - بيروت - ص: ١٦ - ١٧.

مفتوحا، وحالهم ميسورة، وتطلعاتهم المستقبلية منسجمة مع طموحها لقد أحبت ذلك العم الوجيه الذي عُيّن مديراً لناحية فتوح كسروان عام ١٩٠٠، وآثرت أولاده على سائر أقربائها إذ كانوا يحبون العلم، (ما عدا نعوم البكر. . .) ويتودّدون إليها. تبلورت موهبتها الأدبية آنذاك وبات معروفاً في مدرستها ولدى أهليها أن في إهابها شاعرية آخذة بالتفتح، وأسلوب أدبي متميز سواء في الرسائل التي كانت تتبادلها معهم أو في الخواطر واليوميات والقصائد التي كانت تدوّنها. أعجب أبناء عمها اسكندر الثلاثة بها ولكنها آثرت «جوزيف» على أخويه نعوم ولويس إذ كان وسيماً، يدرس الطب في بيرت، ويحب الأدب، ويتقن فن الحديث. ويؤكد أهلوها أنها كانت تتوقع أن يخطبها جوزيف، غير أنه كان عازماً على السفر إلى فرنسا، بعد تخرجه من كلية الطب، لا يفكر بالزواج، في حين أن عمها اسكندر كان راغباً في اتخاذها كنّةً له، فطرح على والدها فكرة خطبتها إلى ابنه البكر نعوم. كان نعوم يكبرها بست سنوات، فوافق والداها على الفكرة، وظلّ الأمر سرّاً بينهما وبين أبيه اسكندر، ثم شجعاها على معاشرته أملاً في أن تميل إليه، وترضى به زوجاً، من تلقاء نفسها دون إكراه. اغتبطت ماري باهتمام نعوم بها، وصداقة أخته ماري «سميّتها»، وإعجاب أفراد الأسرة جميعاً بشخصيتها، وشعرت بما كان يدور في خلد عمها اسكندر ووالديها. . . كان نعوم مشغوفاً بها فراسلها وراسلته، وأضحت الصلة بينها وبينه وثيقة بدليل هذه الرسالة المخطوطة التي كتبتها إليه بالفرنسية آنذاك، وهذه ترجمتها:

(عزيزي نعوم

عفوك، كتبت عزيزي وكان ينبغي أن أقول «يا نعوم الغالي» لأن كلمتك القصيرة التي تسلمتها اليوم، وتبرّمك من سلوك «لويس» في حضوري قد وضعاك في أعلى منزلةٍ عندي. . . إني أقدرك كثيراً، وأشعر اليوم بأني فخورة بك. مشاعرك النبيلة تعجبني إلى أبعد حد، فكن دائماً شهماً لأن الشهامة شيء رائع! كتبت إلى «لويس» رسالة جافةً عقب لقائنا الأخير،

واجتمعت به في لقاءٍ خاطفٍ بعد ذلك فأكد أنه بريء، وأنكر كل شيء، ثم ختم حديثه وهو يقطع على نفسه وعوداً جميلةً، ورجاني أن أبلغك إياها. إني ميالة للاعتقاد بأنه صادق، وإن ما تناهى إلينا من ثرثرة على لسانه محض افتراء، سببه غيرة الآخرين منه، حسب تعبيره، فأرجو أن تشاركني هذا الرأي.

أدّيت المهمة التي أوكلتها إليّ، وبوسعك أن تثق بي دون أن تخشى الخيانة فأنا أكثر البنات وفاءً للذين يلوذون بعمي اسكندر، احفظ لهم ولك خاصة الجميل، وسأظلّ وفيةً طول حياتي. لن أتوانى في يوم من الأيام عن تقديم أية خدمة لكم جميعاً، ولكن رقتكم وزهوّكم مما يمنعني من ذلك. كم أنتم أنانيون، وأنت بصورة خاصة!! إذن سأطلب منك معروفاً يراودني منذ بعض الوقت: سأرسل إليك ساعة يدي، هذه الساعة التعيسة التي سقط زجاجها، مع المعذرة، وأرجو أن تعيدها إليّ في أقرب وقت إذا أمكن. وهذه مرة أخرى أزعجك فيها، فسامحني. «إني أسامحك يا ابنة العم» فشكراً لك سلفاً، أنت لطيف يا ابن العم، ولطيف جداً، وأنا فتاة ظريفة جداً...

رسالتك الثانية كانت مقتضبة، ونحن نبغي الحصول على أطول منها، نريد أن تضع فيها قليلاً من مشاعرك القلبية بشكلٍ خاص، فالحرارة لا تمنع شيء من هذا. ومع ذلك فنحن نحيّيك.

إلى اللقاء يا ابن عمي العزيز، تعال إلى عينطورة قبل نهاية الدوام إن استطعت وكنت راغباً في لقائنا. إلى اللقاء مرةً ثانية، وثق بأني أوفى ابنة عم، على الدوام... ولك مني العديد من مشاعر الودّ والتعاطف.

ماري

حاشية: لقد نسيت عنوانك وأريد الحصول عليه. هل ستقضي العطلة في بيروت أو في «جديدة»؟)[1].

---

(١) الرسالة لا تحمل تاريخا ومن المؤكد أنها كتبتها في سنة ١٩٠٤ أي في آخر سنة قضتها في مدرسة عينطورة، قبل ان يخطبها نعوم رسميا.

Ce Samedi

Mon cher Naoum

Pardon, j'ai mis hier, & c'est très cher qu'il fallait écrire, car après votre petit mot d'hier & le témoignage de mauvaise humeur pour l'être conduite de Louis devant mes yeux ~~vous~~ vous relevé. Je vous estime beaucoup maintenant & suis fière de vous. Ces sentiments nobles que vous avez me plaisent au superlatif & je les aime. Continuez à être toujours un homme d'honneur c'est si beau! J'ai écrit à Louis

Je crois que votre autre sujet n'est pas
trop long ; on voudrait mieux que cela, un
peu plus de cœur surtout, la chaleur n'en
empêche rien. On vous salue tout de même.
A bientôt, cousin bien cher, venez à
Antoura avant la sortie, si vous le pouvez,
on désire vous voir. — A bientôt encore une
fois. Croyez que je suis pour vous
la cousine la plus dévouée pour
toujours. . . . .
Sympathies nombreuses.

Marie

Je voudrais avoir votre adresse, je l'ai
oublié. Passerez-vous les vacances à Bey-
routh ou à Jeïdeh ? —

et très fidèlement; vous pouvez continuer à avoir confiance en moi sans craindre la trahison; je suis pour toute la famille de mon oncle Alexandre & surtout pour vous, l'enfant la plus reconnaissante, la plus obligée & la plus dévouée. Je le serai toute ma vie & ne me lasserai jamais de rendre des services, mais vous êtes tous si fins, ou plutôt, si orgueilleux, que vous ne me laissez pas la moindre occasion de le faire. Que vous êtes égoïstes & bons aussi tout de même. Bon, un service que je veux vous demander toujours cette malheureuse montre qui entre en jeu. Je vous l'envoie, elle a perdu son verre, je vous fais toutes mes excuses & vous prie de me la rendre le plus tôt possible. C'est la dernière fois que je vous agace; pardonnez moi? — "Je te pardonne, Cousine." Merci d'avance, tu es très bon, cousin, très gentil & je suis très drôle —

tout de suite, le
lendemain de notre
rencontre, je l'ai fait
assez sévèrement le surlen
demain, j'ai pu le
voir pendant quelques
minutes. il a tout nié,
il se dit très innocent et
assez sage, et il a terminé
en me faisant de très belles
promesses l'avenir point de
vous les faire parvenir. Je veux
croire qu'il est juste, que
tout ce que vous avez entendu de mau-
vais, est mensonge dont le motif est
la jalousie, comme Louis dit, je veux
croire à toutes ses promesses et je voudrais
vous faire partager mes espérances.
J'ai fait votre commission

ومن فحوى هذه الرسالة يتضح لنا أن الفتاة كانت هي أيضاً ميالة لنعوم، مرتاحة إليه، وأنها أضحت يومذاك شابةً مرحةً، واثقة بنفسها، لا تنقصها الجرأة في تشجيعه على إظهار مشاعره نحوها، لأن نعوم كان خجولاً في طبعه وكثير الارتباك أمامها.

أنهت دراستها الثانوية في عينطورة بامتياز وقضت صيف تلك السنة في الناصرة حيث بدت منطلقة الشخصية بعد أن زال نفورها من الناس، وتبرّمها بالحياة. ومن الناصرة واصلت مراسلة نعوم، وعمها اسكندر الذي كانت لها دالّة كبيرة عليه، كما يبدو من رسالتها التالية إليه، وهذه ترجمتها:

(الناصرة ٩ آب ١٩٠٤

عمي العزيز الغالي

تلقيت الأوامر في الثامن عشر من الشهر الماضي قبل أن أغادر عينطورة بألا أكتب إليك أكثر من كلمتين : «صحتي جيدة، وكذلك صحة أمي...» لماذا يا عماه؟ لماذا؟ ألأن قراءة رسائلي تزعجك؟ لا أحسب، بل ألوم نفسي على هذا الارتياب الفظيع!.. إذن كيف أفسّر وصيّتك؟ إذا كانت عواطفي تكدّرك فإني متأسفة لذلك، وأرجو أن تصارحني لأعلم كيف ينبغي أن أتصرّف. أما إذا كانت تسرّك، وكنت تعترض على أسلوبها المفتقر للأناقة فلا مناص لي من القول: «هذا أمر ثانوي، وينبغي ألا تكون متجنياً في انتقاداتك! وإذا كنتُ لا أولي أهمية كبرى للتأنق في رسائلي، فلأنني أضع فيها قلبي، وهذا الشعور وحده خليق بأن يرضيك ويثير إعجابك، لا الأسلوب، وإن كنت واثقة من أنه يطربك... كما أنه من غير المعقول أن يتكدّر عمٌّ مثلك من مشاعر نبيلة، وعاطفة صادقة، ولو كان التعبير عنها في غاية السذاجة، ما دام مصدره حسن النيّة. أرى أنني مسترسلة بإنشاءٍ بلا جدوى، وربما أُصْبِحُ مكروهةً ومزدراة أكثر من ذي قبل، فصبراً جميلاً... إني أحبك، أحبك رغم كل شيء حباً جماً، وأفاخر بك كثيراً. ربما يكون الأمر

عندك سيان؟ فليكن !! أمي وأنا في صحة ممتازة يا عمي الحبيب». أرى أن هذه الجملة تبدو وكأنها منقولة عن «سكرتير بارع»... كل ما أرجوه هو أن تحظى أنت بمثل هذا البيان! «وهذه جملة من فصيلة سابقتها، غير أنها أنيقة للغاية! هكذا تريد أن أكتب إليك، وقد فعلت، فسامحني على جرأتي، وأنا أعدك بألا أفعل ذلك مرةً أخرى.

نسيبتنا الراهبة الصغيرة في حالةٍ جيدة جداً هي أيضاً. أرى أنني أكرّر العبارة ذاتها، وأنني تجاوزت الحدود، فكن متسامحاً. ونسيبتنا ترسل إليك أجزل تحياتها!» وهذا تعبير متحذلق على غرار أسلوب «مدام دي سيفيني» فإلى اللقاء يا عمي الغالي مع الرجاء بأن أتلقى أخباركم، وأن تبلّغ الجميع أطيب مشاعري وأرقّها. يجب أن أكتب إلى ابنة عمي ماري. سأفعل في مرةٍ قادمة. وداعاً! وكن واثقاً من عواطفي الحارة، وعميق امتناني.

ماري زيادة

هذه الرسالة وثيقة ثانية على جانبٍ كبير من الأهمية لكونها تجلو لنا شخصية «ميّ» اليافعة بعد تجاوزها سن المراهقة، مما كنا نجهله قبل العثور عليها، وعلى رسالتها السابقة إلى ابن عمها نعوم. في ممازحتها لعمها اسكندر، ومداعباتها اللطيفة برهان كبير على حبها للمرح، وحرصها على وضع نفسها موضع التقدير. ولقد لحظ والداها ذلك التطوّر الكبير وابتهجا به وبالفتها لعمها اسكندر، زعيم العائلة، وصداقتها لابنائه، وبنته الوحيدة «ماري» الفتاة الممتازة التي أطلقت عليها الأسرة آنذاك لقب: «جوهرة العائلة». كما لحظا إقبالها على الحياة بتفاؤل، وميلها لنعوم، وعقدا أملاً كبيراً على زواجها منه لأن التقاليد القديمة كانت تدعو إلى تحبيذ زواج البنات من أبناء عمومتهن، ولاسيما إذا كن وحيدات.

Nazareth, le 4 Août, 1904

Mon bien cher Oncle

J'ai reçu les ordres à Alutaura
le 18 Juillet, d'écrire, mais de n'écrire
que deux mots: ma santé est bonne
la santé de Maman est bonne.
Pourquoi Oncle, pourquoi cela? Est-ce
que cela vous ennuie de me lire?
Je m'en veux de cet horrible soupçon
à votre égard! mais comment expli-
quer votre recommandation! à
vos sentiments vous [illegible] f...

La petite sœur parente, est très bien aussi (je recommence la même phrase; j'en ai abusé, soyez indulgent) Je vous salue (ça sent une pédante de Sévigné) —

Et bientôt de vos nouvelles, trop cher Oncle, à tout le monde l'expression la plus vive de mes sentiments. Je devrais écrire à Marie, ce sera pour la prochaine fois. Adieu! croyez à ma chaude affection & à ma profonde reconnaissance —

Marie Ziadé

ment si bonnement exprimés ! ..
C'est une narration inutile que
je fais par là ! je vais être encore
plus détestée que jamais, plus
méprisée que d'ordinaire patience
pourtant, je vous aime tant, je suis
si fière de vous ! .. Tant pis, cela
vous est égal ... Alors, [illegible]
bien aimé ... Maman & moi nous
nous portons très bien (on dirait
cette phrase extraite au parfait
secrétaire, je vous souhaite le même
avantage (celle-ci également, mais
elle est d'une élégance à faire peur !)
C'est ce que vous voulez que je vous
écrive, je l'ai fait, pardonnez moi
si j'ai été intrépide, je vous pro-
mets de ne plus recommencer.

bien désolée... vous me direz y a
que je sache à quoi m'en tenir
vous me le dire franchement ou
au contraire... cela vous fait plaisir
mais la manière dont je m'exprime
n'est pas assez élégante, alors
vous dirai que je n'en fais pas
cas et que vous ne devez pas criti-
quer: c'est traître!! Si dans mes
lettres je n'ai jamais mis beaucoup de
style et de savoir, j'ai cherché au
moins à y faire passer mon cœur
c'est le sentiment qui ... vous
toucher et que vous devez admirer, non
le style qui doit vous enthousiasmer
Ça n'a jamais déplu à un Oncle
comme vous, des sentiments si nobles
si légitimes, si justes si candides

خطبتها

تواصلت الرسائل بين ميّ ونعوم في صيف سنة ١٩٠٤، ولعبت أخته «ماري» دوراً كبيراً في جذبها إليه، وإغرائها بالحياة في وطنها لبنان، لقد بات أمر الخطبة معه أمراً جدياً يستوجب الدراية في التفكير إذ لمّح لها والداها بالأمر، فتأرجحت بين الاقدام والاحجام: كانت تتحمّس للفكرة حين ترى أن الناصرة بلدة صغيرة، نائية عن الذين أحبتهم وألفت عشرتهم، فتميل إلى الاقدام، ومن ثم تفكر في الفارق الكبير بين شخصية نعوم الراغب في الزواج منها، وبين شخصية أخيه جوزيف الذي كان أليق بها منه، وأكثر جاذبيةً ووسامةً فتحجم وهذا ما دفعها لمفاتحة خالها بولص بالأمر، والاعراب له عن أسباب ترددها، فنصحها بالتروي قبل اتخاذ أي قرار، ومتابعة دراسة الأمر، ومراسلة نعوم للمزيد من التعرف إليه، والتأكد من مشاعرها نحوه، لكنها وجدت ان المراسلة لا تضاهي المشاهدة والاختبار الشخصي فاعربت لأبويها عن رغبتها بالعودة إلى لبنان لتصيب هدفين في آن واحد: استكمال الدراسة عند الراهبات اللعازاريات في بيروت لمدة سنة واحدة، ومعاشرة نعوم لدراسة طباعه، ووزن الأمور بميزانها الصحيح، قبل اتخاذ القرار الخطير المتعلق

بحياتها ومستقبلها. وقد رحّب الياس زيادة وزوجه باقتراح وحيدتهما الشابة التي أضحت واثقة من نفسها، منفتحة على الحياة والناس، وصحباها إلى لبنان في أواخر شهر أيلول، مستجيبين بهذه الخطوة لنصيحة الأب «إرنست سارلوت ـ Ernest Sarloute»، مدير مدرسة عينطورة وأحد كبار أساتذتها بفتح المجال لابنتهما اللامعة لكي تنال من العلوم قسطاً أوفر. فدخلت المدرسة في بيروت حيث قضت تسعة أشهر بالقرب من أهليها في «غزير» تتصل بهم ويزورونها، وتقضي فرص الأعياد معهم. كان نعوم قد انقطع عن الدراسة في معهد عينطورة للذكور، وشرع بمزاولة أعمال تجارية، فأخذ يزورها بين حينٍ وآخر، واستمرّ في مراسلتها، وسعى لارضائها فاستهواها بلطفه واهتمامه الكبير بها. كانت الفتاة آنذاك غريرة، قليلة الخبرة بالناس والحياة، ولم يسبق أن كاشفها أحد قبله بعواطفه نحوها، فمالت إليه، وأخذت تمازحه، وتتخابث في رسائلها مداعبةً، بدليل هاتين الرسالتين اللتين بعثت بهما إليه باللغة الفرنسية، بأسلوب طريف ينمّ عن سذاجتها. كتبت إليه تقول في الرسالة الأولى المنشورة صورة عنها بعد نشر ترجمتها:



نعوم زيادة

(عزيزي نعوم

كلمة قصيرة فقط لأرجوك بأن تكون حذراً، بل كثير الحذر، لأني أبعث إليك بهذه الرسالة بواسطة سرّية. لا أريد أن تعلم «صوفي»[1] شيئاً عنها لتجنّب المزعجات... كن قوياً ولا تبح لأحدٍ بشيء، ولكني لا أعلم لماذا أعطيك نصائحي... إنه غباء مني لأنك أعقل بكثير من التي تتباهى بأنها حكيمة... ومع ذلك أرجو أن تتبع نصائحي، ولو كنت طفلةً، وألا تسخر مني.

لا أجد داعياً لأطلب منك جواباً لأنك تدرك واجباتك مثلما أعرف واجباتي وأكثر. رأيت نسخة جديدة من صورتك الفوتوغرافية ولكني لا أطلبها، مع أنه يحق لي ذلك... ولك أطيب المودة من التي ستظلّ ما كانت لك دائماً، أعني:

ابنة عمك الوفية جداً

ماري

حاشية: إذا كنت ستجيبني فابعث برسالتك إليّ عن خارج طريق آل زيادة لكي نتحاشى المزعجات. لا أدري كيف أختم هذا الخطاب؟ أبتقديم ولائي إليك، والتعبير عن فائق احتراماتي؟؟ هذا شيء مثير للسخرية!! إذن كيف أختمها؟ إني مرتبكة حقاً... لقد وجدت مخرجاً (وهو دليل على أني خبيثة) فاعلم يا سيد (ن) أنني صديقة اختك ماري زيادة «وهم يريدون التفريق بيني وبينها، يا لغباوتهم! هذا مستحيل ! لن أتخلى أبداً عن ماري العزيزة لأن لها في قلبي منزلتك فيه». يداي تصافحانك مصافحة حارةً، قلبية... وداعاً!! يجب أن أتوقف هنا. وداعاً!!! وداعاً!!!!

أوقع: ميمي دُخَّلَة بانتظار أن أصبح

ميمي بَرْقَشْ)[2]

---

(١) «صوفي» هي فتاة من أصدقاء الأسرة في كسروان كانت تغار من ميّ..

(٢) هذان الإسمان هما اسما طائرين الأول بالفرنسية: Fauvette والثاني: Pinçon.

Mon cher Maurice

Un petit mot seulement pour vous prier d'être discret et très discret. Je vous fais passer cette lettre en secret, je ne veux pas que vous le disiez à Sophie, cela ferait de grandes histoires pour moi surtout — soyez solide, n'en dites rien à personne; du reste, je n'ai pas besoin de vous donner des conseils, je suis bien bête de le faire, car enfin, vous êtes mille fois plus raisonnable que celle qui se vante de l'être.. Suivez mes conseils d'enfant & ne vous moquez pas de moi —

Il n'est pas nécessaire aussi de vous dire qu'il faut répondre, car enfin vous savez vos devoirs aussi bien que moi — J'ai vu une nouvelle preuve de votre photographie, je n'en demande pas une, mais, je crois que j'y ai bien droit — Toutes mes sympathies, voilà ce que j'ai été pour vous. cela veut dire

Votre cousine très dévouée

Marie

P.S. Si vous répondez faites le dans une lettre en mon nom, hors la route. Triade cela ferait

Domino ? (en t'offrant mes respectueux hommages ?? — C'est bien ridicule !! & alors quoi ??. — mais je suis gênée !!! Je suis gênée pour dominer ! Je trouve une issue ; (Je suis coquine) sache Monsieur X. que je suis l'amie de Marie Zénide (on cherche à nous séparer ; mais qu'ils sont bêtes !!! — Cela est impossible oh ! jamais. jamais je quitterai ma Marie qui te remplacera auprès de moi) Tiens une bonne, cordiale affectueuse poignée de main — — = Adieu !!! — Je marche il faut que je m'arrête — Adieu encore une fois !!! Adieu ! — Adieu !!!!!!!!!!

Je signe :

Mimi Tourette : en attendant : Mimi [illegible]

كانت ميّ تحب انتحال اسماء الطيور في حداثتها، فاختارت مرةً اسم طائر مغرّد هو «الدخّلة»، ثم اسم طائر آخر هو «البرقش» في ختام هذه الرسالة، بعد تصغير اسمها ماري باسم «ميمي» وذلك رمزاً لبطلة قصة «ألفرد دي موسيه» المشهورة «ميمي برقش ـ Mimi Pinçon» التي كانت فتاةً متحررةً، مرحةً، طيبة القلب، ومحسنةً للناس على فقرها.

إن من يتمعن بعبارات هذه الرسالة يعجب لتنبيه الفتاة لنعوم من البوح بما بينهما، وحثّه على التكتم، ودعوتها إليه لأن يكون قوياً، وكأنها غير واثقة به. فهي تنصحه وتنبّهه، ثم تطريه بأسلوب رقيق، وتلمّح برغبتها في الحصول على صورته، وتتخابث في الحاشية محاولةً استرضاءه، ببراءةٍ ودهاء في آنٍ معاً. أما الرسالة الثانية فالأرجح أنها كتبتها في أواخر شهر آذار من تلك السنة لذكر عيد القديس يوسف فيها الذي يقع في التاسع عشر منه، وهذه ترجمتها:

(هذا السبت. ماذا؟؟؟؟

على ذكر الأغنية التي أخبرتني ماري أنك عزفتها في «الجديدة»، تلك الأغنية الحزينة جداً، فلقد شعرت بأن قريحتي شحذت! «يا إلهي! كم تكون مشيئتك طاغية في بعض الأحيان!» فاشتدّ بي الحنين، ثم توقفت برهة لأغني ففاضت عيناي بالدموع!!! نحن الاثنين موسيقيان إذن، وأنت تتأثر مثلي بالموسيقى والألحان! أخشى أن أضايقك بالحديث عن ذوقي الفني فلنغيّر الموضوع لنصل إلى غايتي من هذا الخطاب، إني أخطأت معك وأطلب المعذرة، بل الصفح عني وأنا راكعة... أما أنت فاتخيل ما تقول لي: «يا آنستي، أو يا ميمي «للتحبّب» ركبتاك رخصتان، وفي ركوعك مشقة لشدة رقتك، كما أن رؤيتك في هذا الوضع مشهد مؤثّر قد لا أتمالك نفسي من البكاء أمامه! غير أن البكاء لا يليق بالرجال، كما يقولون».

لا! لا تحزن! لا تبكي! إني هنا لمواساتك ومشاطرتك أساك!!! ولكن أرجوك أيها التاجر الكبير أن تتلطف وتغفر لي! فقد لجأت إلى أحذق الحيل لكي أبقى في المدرسة يوم عيد القديس يوسف، ولم أحصل على الاذن... يا للخيبة الكبيرة!!! كما أني لا أجد داعياً لتصوير غمي لأنك تشعر معي!!! وآمل أن أعزي نفسي في فرصةٍ أخرى!

أعترف لك هامسةً بأن لي قلباً عجيباً... وهذا يعني أني أحبّ كثيراً... «لن أقول لك من أحب!!!» لأني أخشى أن تنتابك نوبة كبرياء أيها التاجر الانكليزي... لقد رأيت في هذه الغرفة، التي هي بمثابة غرفتي، صورة لم أرها من قبل، يا للهول!!! هذا ما يدفعني إلى اتهام ابنة العم بوجود صور شبابٍ في غرفتها... يقولون إنها صورة نعوم زيادة... ذلك الشاب اللطيف، الجذاب!!! «لا تتعجرف»، فأنا لم يحصل لي الشرف، بل السرور، بالتعرف إلى هذا الفتى... يا له من صبيّ شنيع!!!! ولكنه رصين، يحدّق فيّ بعينين جريئتين، نظراتها قويّة، ويعتقد بأنه يخيفني!!! كلا! كلا... لست خائفة، ولا بد من إعطائك نصيحة من صديقة: عليك أن تراقب ابنة عمّك، أو أن تفوّض أحداً للقيام بهذه المهمة إذ لا يصح وجود شابٍ في غرفة نومها... فهذا عارٌ على جميع أفراد أسرة زيادة!!! فدع أحداً ينزع هذه الصورة... «إذا فعلت سوف أتكدّر جداً لأن هذه الصورة سلواي الكبيرة!!!»

لن أستمرّ في الكتابة لكي لا أقول حماقات لا أريدها... ولا أريد أن أفتح قلبي لك!!! كفى إذن، ولكن كيف أختم الرسالة؟ كيف ينبغي أن يكون ختامها؟؟؟).

Ce [illegible]

Quoi ???????......—

A l'harmonie d'une chanson que tu as jouée à Gelaïdet (Henri me l'a dit) Cette mélodie est très triste, elle excite ma [illegible] c'est (Grand Dieu ta volonté est parfois [illegible] cruelle) Je suis attendri. — Je m'arrête un moment pour chanter les larmes me viennent aux yeux... Si nous nous sommes musiciens, [illegible] donc l'émotion que la musique me produit [illegible] moment ? Je l'impatiente avec mon goût [illegible]. Changeons de sujet, venons à ce qui m'[illegible]. Je viens te faire des excuses, plus que cela, je viens demander pardon à genoux. Je [illegible]

ce que tu vas me répondre là-dessus ; tu vas me
dire : Mademoiselle, j'ai peur d'être plus familière,
Mimi, tu as les genoux tendres et ce serait trop
dur pour ta si délicate... de t'y mettre
devant moi ; c'est un touchant spectacle !!
Je ne pourrai m'empêcher de pleurer... et
il est dit qu'un homme ne doit pas pleurer...
Mimi ne t'attriste pas ne pleure pas : je suis
là pour te consoler, je suis là pour souffrir
avec toi !!! Mais soyez affable s'il vous
plaît Monsieur le grand homme... et
pardonne !!! J'ai fait des prodiges d'approche
pour rester le jour de la St Joseph...
Grande déception !!!!! Tu devines pourquoi
la permission ne fut pas accordée...
Je ne te dirai pas ma peine, car tu sens

comme moi !!! pour me consoler
j'espère pour une autre fois —
Je l'avoue tout bas : j'ai un
sal cœur... cela veut dire que j'aime beau-
coup (je ne le dirai pas que ça !!!)
Vous aviez des crises d'orgueil : Monsieur le
commerçant Anglais. ... En me
grattant le front, j'apperçois une photographie,
je ne l'avais pas remarquée, pourtant,
j'entre souvent dans cette chambre,
elle est presque mienne, Quelle horreur !!
J'accuse la cousine d'avoir des jeunes
gens chez elle ; c'est, dit-on, la photographie
de ... de ... de Nouri Zéïdé ....
un jeune homme gentil sympathique !!
(n'ai pas les crises d'orgueil) Je n'ai pas
l'honneur et surtout le plaisir de le
reconnaître ce gamin là ... ...
Vilain garçon va ... !!!!!!!!!!!!!!!

Il est là posé, me fixant de ses yeux, si hardis, si expressifs, il croit qu'il me fait peur !!! — Non... Non — je n'ai pas peur — — —

Mais un conseil d'amie : surveille ou fais surveiller ta cousine — — avoir un jeune homme dans sa chambre à coucher ..... c'est une honte pour toute la famille Ziadé !!! fais enlever cette photographie — — (Si vraiment cela arrivait je serais trop chagrinée, car cette image est une grande consolation pour moi !!!)

Je n'écris pas plus long. Je pourrai dire des sottises, & je ne le veux pas — — Je ne veux pas t'ouvrir mon cœur !!!! — — — —

Assez donc, je veux terminer — — mais comment ??? (Comment dois-je —

كان لا بد من ترجمة هذه الرسالة، وإن لم تكن كاملةٍ، لأهمية ما ورد فيها عن مشاعرها نحو ابن عمها نعوم، ولما تجلوه من مزاج ميّ الصبية اللعوب، وخفرها، ودلالها الذي يزيد الرجل تعلقاً بها. لقد أعربت عن فرحها باكتشاف حبه للموسيقى، وتمكنه من العزف على البيانو، ولربما كان هذا الاكتشاف حافزاً لها للاقتناع به شريك حياة إذ لم تلبث أن اعترفت له بحبها، تلميحاً لا تصريحاً. ولقد خُيّل إليها أنها تحبه، وغالباً ما يلتبس الأمر على الفتيات في مثل هذه الظروف فيخلطن بين الاستلطاف والودّ والحب. وبعد فترة وجيزة أعلمت أبويها بأنه خطبها، ووافقت على إعلان خطبتهما! ومع أنهما كانا مع أبيه واخوته يباركون صداقتها لنعوم، ويشجعون لقاءاتهما، ويتوقعون اقترانهما، فقد تصرفا بحكمة وأطلقا لها مجال اختبار مشاعره ومشاعرها لكي تقرر بنفسها أمراً خطيراً منوطاً بحياتها ومستقبلها. كان أكثر ما أعجبها فيه لباقته في معاملتها، ورسائله العاطفية إليها التي كانت تكتشف فيها صفاتٍ فيه كانت تجهلها، فبقدر ما كانت غريرةً كانت عاطفيةً، شديدة التأثر بالموسيقى والأدب، وخيالية.

في أواخر حزيران عام ١٩٠٥ قدم إلى لبنان والداها وخالها بولص للاحتفال بخطبتها، وبدت يوم الاحتفال سعيدة إذ وجدت في الاحتفاظ بسرّية علاقتها بنعوم(١) تحقيقاً لاستقلال شخصيتها، مما كانت تعوّل عليه أهمية كبيرة!

أعلنت الخطبة في احتفال عائلي أقامه اسكندر زيادة في منزله الكبير بكسروان، وتمّ الاتفاق على أن تقضي الفتاة الصيف مع والديها في الناصرة لتتهيأ للزواج في نهاية السنة. حضر خالها بولص الدعوات التي تلت الخطبة في شحتول وجديدة غزير وجونية، واستمتع بالتعرف إلى آل زيادة، ولا سيما

---

(١) لقد عمّر نعوم زيادة طويلا اذ ولد عام ١٨٨٠ وتوفي في كسروان عام ١٩٦٦، وكان قد تزوّج فتاة لبنانية تدعى «سلطانة فاعور» عام ١٩١٠ ولم ينجب أولاداً.

الوجيه اسكندر أفندي، ولكنه كوّن رأياً في إبنه نعوم لم يفصح عنه لا لأخته نزهة، ولا لصهره، ولا حتى للفتاة آنذاك. لقد وجده شاباً طيباً، قوي البنية ولكنه لم يتوسّم فيه الشريك الكفء لابنة أخته اللامعة الطموح، فاحتفظ برأيه لنفسه راجياً أن يكون مخطئاً في حكمه. أُخذت الصبية بلطف نعوم، وحبه لها، وأُعجبت بالرسائل الرائعة التي كانت تتلقاها منه، وعقدت الآمال الجسام على حياة هانئة معه ثم أصيبت بخيبة أملٍ كبيرة دعتها إلى إلغاء الخطبة في أواخر صيف عام ١٩٠٥ ببرقية هذا نصها:

(الأسلوب أسلوب جوزيف. والخطبة ملغاة.
(STYLE JOSEPH - FIANÇAILLES ROMPUES

وأعادت إليه بالبريد محبس الخطبة، وسلسالاً ذهبياً كان قد أهداه إليها، وصوره، ورسائله «المزيفة»! فلقد ثبت لديها أن نعوم كان يستكتب أخاه جوزيف حيناً! وصديقه جوزيف الحويّك حيناً آخر لتدبيج رسائل حبّ جميلة تستهويها وترضيها لعجزه عن كتابة ما يستدرّ اعجابها... ربما تكون هنالك أسباب أخرى دفعتها للعزوف عن فكرة الزواج، تبدّت لها على البعد وهي في الناصرة تفكر بمستقبلها بذهنٍ صافٍ ولكن السبب الرئيسي في إلغاء خطبتها كان خداع نعوم لها باستكتاب رفاقه لتحرير رسائله إليها. لقد انجلى لها ضعفه، وبلغ استياؤها منه حداً كبيراً جعلها تحزم أمرها، وتنسحب من حياته وتقول «لا» بجرأةٍ، وفي الوقت المناسب. وأن من يعرف ميّ حق المعرفة، ويتعرف إلى شخصيتها وآرائها في الحياة والحب والزواج لا يستغرب منها هذا الموقف الحاسم، المعبّر عن اشمئزازها من الضعف والمخاتلة.

لم تكن ميّة متجنيةً على نعوم في إبعاده عن حياتها بدليل ما روته الأديبة السيدة إدفيك شيبوب عن «ميّ والريحاني والحويّك» مما يؤكد أن نعوم زامل الفنان يوسف الحويّك في مدرسة عينطورة في مطلع هذا القرن، وكان يستعين

به على كتابة خطاباتٍ لفتاةٍ يحبها لتفوّقه عليه في الانشاء... وهذا نصّ حديث السيدة شيبوب مع الحويّك:

(في ساعة سمر صافية، منذ سنين، سجلت هذا الحديث الممتع كما رواه لي شيخ فنانينا صديقي يوسف الحويّك فحدثني وقال: «عرفت ميّ عن طريق أمين الريحاني عام ١٩٣٨، رحمها الله. كانت تسكن بيتاً صغيراً في رأس بيروت، وقد غادرت لتوّها مستشفى ربيز بسعي الأصدقاء الغيورين، وعلى رأسهم أمين. وجاءني صديقي أمين ذات ضحى وأنا في محترفي بفرن الشباك، وبادرني من الخارج:

- إغسل يديك حالاً وهيا معي، ميّ تريد أن تراك!

- ولكني لا أعرف السيدة...

- بل تعرفها... هي تقول إنها تعرفك. إمشِ معي إذن لنرى مَنِ الكذاب، أنت أو هي!

وبين الضحك واللعب ساقني أمين إلى «الترام» وعزّمنا نحن الاثنين في الدرجة الأولى!

ودخلنا عليها نائمةً وقد رفعت الغطاء الأبيض حتى عينيها. الله! أية طاقة من الذكاء الوقاد، والألم المكبوت، والكبرياء الجريح كانت تشعّ وتصطرع في تينك العينين السوداوين! كان أمين أشجعنا على الكلام فقال لها:

- هذا يوسف الحويّك بلحمه وشحمه، فلنباشر يا ميّ بتصفية الحساب.

فوجهت السؤال إلى ميّ:

- تقولي يا سيدتي إنك تعرفينني... أما أنا فحائر لأن ذاكرتي أقوى من أن تنسى شيئاً هاماً كالتعرّف إلى شخصك.

فأجابت ميّ بعد هنيهة بصوتها الدافىء العميق:

- أنتم الرجال بهاليل!

.وضحكنا، وأشرق وجه ميّ، وخفّ الجوّ الكئيب حولنا... وتنفّست بارتياح لأجيب على أسئلتها، بل على استنطاقها إياي:

- ألم تكن في مدرسة عينطورة عام ١٩٠٣؟

- بلى!

- وكان لك رفيق هو قريبي نعوم زيادة؟..

- تماماً!

- أوما كانت هنالك مراسلات «حبّيّة» بين نعوم وتلميذة اسمها «كنار شهاب» من مدرسة الراهبات المشرفة على مدرستكم؟

وتسمّرت في مكاني مشدوهاً أهزّ رأسي وأصغي إلى ميّ تكمل حديثها:

- أنا علمت من استقصائي الشخصي أنك أنت الذي كنت تكتب رسائل قريبي نعوم إلى «كنار»...

- نعم! بالذات!

- فلماذا لم يخطر لك أن تحقق عن تلك التي كانت تجيب على الرسائل؟ لو حسبت «كنار» على تلك النباهة والبلاغة كان يجب أن تستنتج بأنني أنا التي كنت أجيب على الرسائل منتحلةً اسم «كنار شهاب». أرأيت كيف أن الرجال بهاليل؟)[1].

---

(١) دنيا المرأة - تشرين الأول عام ١٩٦٢ - العدد العاشر - ص: ٨ و ٩.

الهجرة من الناصرة الى مصر

في منتصف عام ١٩٠٧ انتقل المعلم الياس زيادة من الناصرة إلى القاهرة مع زوجه وفتاته. فكانت تلك الهجرة الثانية في حياته بعد هجرته من لبنان إلى فلسطين. كان يحكم مصر آنذاك الخديوي عباس حلمي وكانت قد تمخّضت فيها حركات اصلاحية وقومية جعلتها قبلة أنظار الأحرار في الوطن العربي المتحفّز إلى مناهضة الطغيان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فمن مصر دوّت أصوات رواد للنهضة عظماء أمثال جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والبستاني واليازجي وقاسم أمين، ومن تتلمذ عليهم فدعوا إلى التحرر من الجهل والجمود دينياً واجتماعياً، وأدبياً وسياسياً. وقد سار على هدي خطاهم جيل من المناضلين برز أعلامه من وطنيين وشعراء، وأدباء وصحفيين لايقاظ الأمة نساءً ورجالاً، وبناء مجتمع جديد تقوم دعائمه على نهضة إسلامية وعربية شاملة، غايتها الأخذ بالعلم، ونبذ التزمّت، وتنوير العقول، والتضامن. وبفضل هؤلاء الرواد بزغ فجر النهضة العربية الحديثة في مصر أولاً، ثم في سورية ولبنان وفلسطين (التي كانت

تدعى بلاد الشام)، ولكن مصر استقطبت عدداً كبيراً من العلماء والكتّاب، والصحفيين ورجال الأعمال، وقدّرت جهودهم مما جعلها ملاذاً لهم، وموطناً ثانياً آفاقه رحبة، وأهله كرماء، وطموحاته كبيرة.

لقد شجع الياس زيادة على الاستيطان في القاهرة يقينه بأن فيها مجالات واسعة لظهور نبوغ ابنته، وتحقيق طموحها وطموحه، بعد أن ضاقت الناصرة بهما. وكان قد استوطن مصر صديقان له هما الشيخ إبراهيم الحوراني[1]، والأستاذ «سليم عباس شلفون» فكاتبهما ووجد منهما ترحيباً بقدومه إليها حفزه على تصفية أعماله، وشدّ الرحال إلى القاهرة لمزاولة الصحافة فيها. أما زوجه السيدة نزهة فقد كانت أشدّ حماسةً منه للرحيل عن الناصرة إنقاذاً لابنتها الوحيدة ماري من الضجر، واجترار ذكريات خطبتها، وأملاً في أن تجد في مصر مستقبلاً رغداً بعد الصدمة التي مُنيت بها. فلقد تركت خطبتها على ابن عمها نعوم خيبة أملٍ كبيرة في نفسها، فخشيت أمها أن تسيء الظن بالحياة وبالشباب، وتنفر حتى من التفكير بالزواج بعد أن جرح كبرياءها خداع نعوم. ومع أن الفتاة أغرقت نفسها بممارسة التدريس في الناصرة، والمطالعة والكتابة في اثر تلك الصدمة فقد لحظت أمها وسائر أقربائها أنها كانت متألمةً، لا شيء يعزّيها عن تصرّف نعوم النابي، ولا سيما عن اغترارها به...

كان لانتقال الأسرة إلى مصر أثر كبير في تبلور شخصية «ميّ»، وظهور نبوغها، حيث تشبعت روحها بحب اللغة العربية، ورسالة رواد النهضة وأتباعهم، وانصهرت فكرياً في المجتمع الجديد. طموحها الكبير جعلها تشعر بأنها مدعوة للاسهام في تلك النهضة فأخذت تستعد باستكمال ثقافتها، ولكن الأمر لم يكن يسيراً في السنوات الأولى حيث وجدت نفسها مغمورةً في مجتمع

---

(١) ابراهيم الحوراني - ١٨٤٤ - ١٩١٥ - كاتب وعالم من مواليد حلب تمصّر وحرّر في «المقتطف» وأنشأ «النشرة الأسبوعية» ثم تولى رئاسة تحرير «المحروسة» بعد انتقال ملكيتها الى الياس زيادة عام ١٩٠٩.

طبقيّ، الامتياز فيه للوجهاء والميسورين والمتفوّقين. أدركت بسرعة أن وراء مرتبة المتفوقين التي كانت تتوق إلى بلوغها عناءً وكداً، فسلكت الطريق من أولها بشجاعة، والتحقت ببعض المدارس الصغيرة تعلّم الفرنسية وتتعلّم الألمانية والايطالية. شرع أبوها في العمل الصحافي، وتعرّف بالوجيه الثري «ادريس راغب» الذي كان يملك جريدة «المحروسة»، المتوقفة عن الصدور، ويبحث عن فتاة تعلّم بناته اللغة الفرنسية، فطلب منه أن تتفضل ابنته الآنسة ماري بتولي هذه المهمة، لما عُرف عنها من نجاح في التدريس، واتقانٍ للفرنسية. قبلت ماري الاقتراح دون أن تدري بأن هذا العمل الجديد سيكون فاتحة خيرٍ لها ولأبويها، وأحبّت بنات إدريس راغب الثلاث: «فطنة»، و«عطية»، و«أمينة» اللواتي تعلّقن بها لدماثة خلقها، ووجدن فيها صديقة ومعلمة ممتازة. أضحت أوقات الدراسة معها من أمتع أوقات حياتهن، وما لبثت الأسرة بكاملها أن أولعت بالمعلمة الحلوة، الذكية، واكتشفت مواهبها، وعرّفتها بأصدقائها، وجلّهم من الطبقة الارستقراطية ذات النفوذ. كان لأدريس راغب ستة أبناء هُمْ: أحمد نصرت، ومحمد عزت، وعبد الله، واسماعيل، وحسن ومحمود، فتمنّوا أن يتتلمذوا عليها، ولكنها اكتفت بتدريس البنات اللواتي حفظن لها الجميل، وحافظن على مودتها طول حياتهن. تزوجت «فطنة» «محمد محمود باشا» الذي تولى رئاسة الوزارة في العهد الملكي، واقترنت «عطية» بابن أخيه «علي محمود بك» من أعيان مصر، وأما الثالثة فلم تتزوج. ولا بد من الاشارة إلى أن بعض الغموض يحيق بالفترة التي قضتها «ميّ» تتردد على بيت ادريس راغب لتدرّس بناته لأنها لم تذكر شيئاً عنها في كتاباتها، وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عن بعض الأمور: ما هي المدة التي تابعت فيها تدريس أولئك البنات؟ هل تقاضت أجراً عليها أو ترفّعت عن ذلك فعوّض إدريس راغب عن أتعابها بإهداء جريدة المحروسة إلى أبيها ليوفّر له ولفتاته عملاً ثابتاً، ودخلاً جيداً؟ كان إدريس راغب ثرياً كبيراً ينحدر من الاسكندرية، ويعيش في القاهرة، وكان قد اشترى امتياز جريدة «المحروسة» ومطبعتها من صاحبها «عزيز زند» عام ١٩٠٤، دون أن

يصدرها، فتنازل عنها إلى الياس زيادة في نهاية عام ١٩٠٨، فصدرت «المحروسة» في مستهل عام ١٩٠٩ باسم: «صاحبها ورئيس تحريرها الياس زيادة»، وفتحت له ولأسرته باب رزقٍ كبير، كما سمحت لفتاته بولوج ميدان الصحافة والحياة الأدبية دون عناء.

كان إدريس راغب يحبّ الأدب، ويكرّم حملة الأقلام، وظلّ صديقاً لآل زيادة، ومعجباً بالأديبة النابغة «ميّ»، يحضر جلسات ندوتها الأدبية أحياناً، ويزورها مع عائلته. يعود الفضل في تعريفنا به، وبتنازله عن «المحروسة» لأبي ميّ، واستمرار صلاته الطيبة بها وبوالديها، وبصداقتها لهم، إلى الأستاذ عباس محمود العقاد الذي كتب ما يلي، في معرض الحديث عن «ندوة الثلاثاء»:

(... وبين الزائرين الذين كانت لهم زلفى الرعاية الطويلة إدريس راغب، رئيس المحافل الماسونية إلى عهد الملك أحمد فؤاد، ولم تكن ميّ من أعضاء المحافل الماسونية على ما أعلم، ولكن إدريس راغب كان يملك مطبعة المحروسة، وينزل لوالد ميّ إلياس زيادة عن حق ادارتها، واصدار الصحيفة منها. وكانت لإدريس راغب هواية صحفية تمكّنت منه على الخصوص بعد عزله من وظائف الإدارة على أثر القضية المعروفة بقضية «أرض المطرية» بين الخديوي عباس، وحسن موسى العقاد، فاقتنى المطابع لإصدار الصحف الفرنسية والعربية، وخصّ والد ميّ بالاشراف على المطبعة العربية، دون أن يقيّده بسياسة يمليها عليه. وكانت زيارته لندوة مي أشبه بالزيارات العائلية كلما اصطحب معه احدى كريماته الفضليات، وإن أبت عليهن محافظة الأسرة أن يجلسن مع الزوار. فإذا حضر منفرداً عرفنا ذلك من سؤال ميّ عن آل بيته السيدات، ومن جوابه بالاعتذار عنهن، أو دعوتها إلى زيارتهن في وقتٍ قريب!)[1].

---

(١) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ٨٦.

على أثر حدوث الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ واعلان الدستور، سرت في دنيا العرب موجة فرح عارمة، وتميّز حكم الخديوي عباس حلمي باطلاق حريّة المطبوعات، ونهضة الأقلام، فانكبت «ماري زيادة» على اتقان اللغة العربية لتجعل من صفحات المحروسة منبراً لخواطرها والافادة من المعطيات الفكرية في البيئة العربية المتوثبة التي وُجدت فيها. كانت حتى ذلك التاريخ تكتب باللغة الفرنسية، ونشرت ديوان شعر فيها عام ١٩١١ بتوقيع «ايزيس كوبيا» المستعار، كان عنوانه «أزهار حلم ـ Fleurs de Rêve»، ولما اتسعت صلاتها بالكتاب أدركت بحدسها السليم ضرورة التحوّل بالتعبير من اللغة الفرنسية إلى العربية لمواكبة النهضة الحديثة. ومع أنها كانت ميالة إلى توقيع مقالاتها الأولى بأسماء مستعارة فقد بحثت عن اسمٍ عربي لها، غير إسمها الأصلي ماري، ووقع اختيارها على اسم «ميّ». نشر الكتاب الذين عاصروها روايات متعددة عن اهتدائها إلى هذا الاسم الجميل الذي اشتهرت به، فكتب الأستاذ أحمد حسن الزيات، صاحب «الرسالة» يقول:

(... وكان لا بد لماري زيادة أن تجني ثمرة الثقافة مما غرس الفرنسيسكان والأميركان والمارون، وأن تقتبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقتطف، وأن تناجي عنادلها الغردة في رياض مصر، وخمائل لبنان، ومنارة الدنيا الجديدة، وان يحملها اعتدادها بجنسها ولغتها على أن تقتصر اسمها الأعجمي على طرفيه ليكون اسمها العربي «ميّ». وعلى هذا المنهج بلغت ميّ غايتها من الأدب والعلم والفن فاستفاض ذكرها على الألسنة، وعظمت مكانتها في الأفئدة، ووصلت بينها وبين كثير من أولي الفكر والجاه أسباب الروح)[1].

أصل اسم «ميّ» فارسيّ، ومعناه بالفارسية «الخمرة»، ثم اقتبسه شعراء العربية في العصور الغابرة وتغنوا به، ولطفوه فجعلوه «ميّة» في قصائدهم.

---

(١) وحي الرسالة ـ أحمد حسن الزيات ـ الجزء الثاني من الطبعة السادسة ـ ص: ٣١٤.

ويوم انتسبت مي إلى الجامعة المصرية في القاهـرة، إبان الحـرب العالميـة الأولى، كان الدكتور زكي مبارك من زملائها فيها، والمعجبين بنبوغها، فنشر حديثاً عنها في مجلة «العالم العربي» المصرية جاء فيه ما يلي:

(... ثم تجيء عروس الأدب النسائي في هذا الجيل، وهي فتـاة أعرفها جداً إذ كانت رفيقتي في الدروس، وزميلتي في طلب الأدب والفلسفة في الجامعة المصرية، وهي «المدموازيل صهباء»... أعرفتم من هي؟ إن لم تعرفوا فاسمعوا: كان لي زميلة تنافسني منافسةً عنيفةً في الجامعة، وكنت أضمر لها ظلاً من البغضاء، ولحظ ذلك المرحوم اسماعيل بك رأفت فدعاني إلى مكتبه ثم قال: «أتعرف ما معنى «ميّة» التي تغنى بها الشعراء؟ فقلت: لا! فقال: «ميّة» هي الخمر الفارسية، وأهل فارس يسمون الخمارة: «ميّ خانة»، فعرفت منه يومئذٍ أن الآنسة ميّ معناها «مدموازيل صهباء!».)

وروى الأستاذ أحمد حسني، رئيس تحرير مجلة «العالم العربي» في ذكرياته عن ميّ أن الشيخ البستاني، صاحب مكتبة العرب، تلقى منها رسالةً ردّت فيها على إهدائه إليها رواية عنوانها: «ميّ أو أوراق الخريف والربيع» للشاعر الانكليزي «الكسندر بوب» مترجمةً إلى العربية بقلم الأديب شاكر الكرمي، هذا نصّها:

(أهديتني الرواية لأنها تحمل إسمي، ولكنك لا تعلم أن هذه الرواية كانت السبب في انتحالي هذا الاسم، ذلك لأن والدتي قالت لي إنها مثّلت دور البطولة فيها يوم كانت تلميذةً في المدرسة بالناصرة، وإن حلاوة هذا الاسم بقيت على لسانها منذ ذلك التاريخ. وعندما أقبلت على الكتابة بالعربية، وأخذت أبحث عن إسم عربيّ استعيره للتوقيع ألحّت عليّ والدتي بانتحال اسم «ميّ» الرشيق كل الرشاقة، وأغرتني باتخاذه لي، وبخاصة لأنه من أسماء عرائس الشعر العربي، وإنه قليل التداول في تسمية الفتيات، واتفق كذلك أنه مكوّن من أول حرفٍ وآخر حرفٍ من إسمي «ماري»، كما أن

«ميّ» باللغات الأوروبية تصغير «ماري» للتحبّب... وأخيراً لأنه الإسم الذي أحبته والدتي، وسُمّيت به يوماً من الأيام)[1].

أحبت ميّ مصر حباً جماً لا يقلّ عن حبها لفلسطين، مهد طفولتها، وعن شغفها بلبنان، وطنها الأم. وفي مصر عاشت عمرها كله منذ استيطانها فيها، واقتبست اللهجة المصرية الجميلة في كلامها، وحملت جواز سفرٍ مصريٍّ في رحلاتها. وجدت في مصر وطناً غذى فكرها بالعلم، وروحها بنفحات وطنية عربية، وكلل هامتها بالمجد. في مصر وُلدت الأديبة «ميّ زيادة»، وتكوّنت شخصيتها الفذة بعد أن اندمجت في مجتمع صفوة الكتاب والشعراء ورواد النهضة، حتى أصبحت قضايا مصر القومية والثقافية والأدبية والاجتماعية قضيتها، بل قضية الشرق العربي كله. وبقدر ما كانت تحنّ إلى فلسطين وإلى لبنان في اغترابها عنهما كانت تحن إلى مصر، وكان قلبها يهفو إليها إذا ما ابتعدت عنها فترسل إليها التحية فتقول حيناً:

(إيهِ مصر العزيزة، عليك ألف تحية وسلام! سلام عليكِ وعلى نيلكِ، على لغتكِ وأهليكِ، وسلام على سهولك الفيحاء)[2].

وتقول حيناً آخر:

(... أرض الفراعنة والبطالسة، ومن هم أقدر من بطليموس وفرعون، في سمائكِ تتجاوب نبرات العزّ، ونفحات الأسرار! أنت متحف الرموز والاشارات، حيث أشباح لهب المشاعل على الجدران توقظ الآلهة الهاجعة في هياكلك! ها قد عدت إليكِ فإذا بقلبي يمتدّ لك بساط تضرّع وصلاة...

عادت روحي إلى مصر فدعوني أجلس وراء تلال الرمال حيث يقطن السكون غير المتناهي! دعوني أنفرد في وحدة الأفق، وأناجي أبا الهول!)[3].

---

(١) «العالم العربي - العدد ٦٤ - تاريخ ١/١٠/١٩٥٢ - ص: ٢٤ - ولقد روى القصة ذاتها الأستاذ عبد المنعم شميس في مقالة عن ميّ نشرها في «مجلة الجديد» بتاريخ ١/٤/١٩٨١ كان عنوانها «حسناء الكوخ الأخضر».

(٢) و (٣) الصحائف - ميّ زيادة - ص: ١٤٦.

جريدة «المحروسة» في كنف آل زيادة

يقـال إن اسم «المحروسـة» أطلق عـلى القاهرة لاعتقاد السكان بأنها محفوظة بقوةٍ سحريةٍ أو روحـانية تحمي منهـا الربـوع والآثار، فترى ما فيها محفوظاً، ثابتاً، بينا البلاد الأخرى تتداعى وتتهدم، وإن كانت احدث عهداً.

(ميّ)[1]

رحّبت الصحافة المصرية بصدور «المحروسة» في حلّتها الجديدة بعد أن آلت ملكيتها إلى الياس زيادة، فنشرت مجلة «الهلال» الكلمة التالية:

(المحروسة هي جريدة سياسية مشهورة صدرت منذ نيّف وثلاثين عاماً، واحتجبت منذ بضعة أعوام ثم عادت إلى الظهور الآن بعـد أن انتقلت ملكيتها إلى حضرة الياس أفندي زيادة، وهي تصدر بالقاهرة كل يوم، ويتولى رئاسة تحريرها الأستاذ ابراهيم الحوراني الشهير. بدل اشتراكها ١٥٠ غرشاً في مصر، و٥٠ فرنكاً في الخارج)[2].

ومن يراجع مجلدات «المحروسة» في دار الكتب المصرية، مكاتب «الهيئة العامة للكتاب»، الواقعة في كورنيش النيل بالقاهرة يجد أن العدد الأول من

---

(١) بين الجزر والمد ـ ميّ زيادة ـ ص: ٨٢.

(٢) الهلال ـ عدد شهر فبراير عام ١٩٠٩.

الجريدة الذي صدر باسم صاحبها الجديد في ١٩٠٩/١/١١ يحمل الرقم (٢٩٨)، ويشير إلى أن إدارتها تقع في شارع جركس، بجوار محكمة الاستئناف، وأن (جميع المراسلات تكون خالصة الأجرة باسم صاحب الجريدة ومديرها المسؤول الياس زيادة)، وأن صندوق بريدها يحمل الرقم (٥٢٣). وقد تصدّرت العدد المذكور كلمة بقلم أبي ميّ هذا نصّها:

(المحروسة جريدة قديمة أنشئت سنة ١٨٧٥ وتداولتها أقلام مشاهير الكتبة، وانتشرت في الأقطار فكانت على عهد «النقاشين» أشهر من نارٍ على علم. كان من كتبتها سليم أفندي النقاش، وجرجس أفندي النقاش، وروفائيل أفندي الخوري، وسليم أفندي عباس، والشيخ محمد عبده، وأديب بك أسحق، وعزيز بك زند، والشيخ اسكندر عازار، وأمين أفندي البستاني. وقد صار امتيازها وإدارتها إليّ فراعيت ما كان لها من الشأن، ووكّلت كتابتها إلى نخبةٍ من أكابر الكتاب، وبلغاء المنشئين، والعلماء الأفاضل، واخترت المراسلين من الكتبة المحققين، ووليت رئاسة تحريرها حضرة العلامة الفاضل إبراهيم أفندي الحوراني. إني ومن ذكرت لمستفرغون الجهود في تحسينها وتمييزها بكثرة مواضيعها، ووفرة معانيها، مع الاختصار البليغ حتى يطّلع القارىء في صفحة منها على ما يشغل صفحات. والله مسؤول على الوفاء بما وعدنا، وهو على كل شيء قدير).

وتصدرت الصفحة الأولى من ذلك العدد قصيدة لا تحمل توقيعاً، هذا مطلعها:

قـدِمَ الزمـانُ ومـا فَتِئْتُ عـروسـا	أسقي القديمَ من القديم كؤوسا
محروسة منذ كنت عن قصد الأذى	لمؤذّنٍ أو ضـاربٍ نـاقـوسـا،
أروي الصحيح من الحديث ولا أرى	غـير الصحيح لصاحبي مأنـوسـا

ورد ذكر المحروسة في «قاموس الصحافة اللبنانية» على النحو التالي:
(المحروسة جريدة أسبوعية - ١٨٨٠ - ١٨٨٦، أصدرها سليم نقاش وآخرون

بالاسكندرية. بعد سليم نقاش انتقلت إلى عزيز زند في القاهرة، ومنه إلى الياس زيادة، والد ميّ، فأولى رئاسة تحريرها إلى إبراهيم الحوراني، وكان سليم عباس شلفون أحد كبار محرّريها)[1]

كما أورد أخبارها «كراس النشرات الدورية العربية» في جزءيه الثالث والرابع، وجاء وصف مكانتها بالعبارات التالية:

(وتعتبر المحروسة من الصحف العربية النادرة التي قُيِّض لها أن تبلغ العقد الخامس من عمرها دائبة في خدمة الوطن الذي نشأت فيه وعاشت تحت سمائه)[2].

ولكن أحداً لم يذكر أنها ظلت تصدر باسم «مي زيادة صاحبتها ورئيسة تحريرها» بعد وفاة أبيها في ٢٤ - ١٠ - ١٩٢٩ مرةً كل أسبوع، بعد أن كانت تصدر يومياً والغريب في الأمر أنها تابعت رسالتها الصحفية في أثناء غياب ميّ عن مصر منذ ربيع سنة ١٩٣٦، إبان المأساة التي ألمت بها في لبنان، ونشرت في عددها الواحد والثلاثين، من السنة الثالثة والستين، الذي صدر بتاريخ ٥ - ٤ - ١٩٣٨ المحاضرة المشهورة التي ألقتها ميّ في الجامعة الاميركية ببيروت في ٢٢ - ٣ - ١٩٣٨ بكاملها، فاحتلت أربع صفحات، ومهّدت لها أسرة التحرير بهذه الكلمات: (ننشر فيما يلي المحاضرة القيمة التي ألقتها الكاتبة النابغة الآنسة «ميّ» صاحبة ورئيسة تحرير هذه الجريدة في يوم ٢٢ من شهر مارس الماضي، في العروة الوثقى بالجامعة الأميركية ببيروت على حفلٍ حاشدٍ من أعيان الفضل والأدب).

---

(١) قاموس الصحافة اللبنانية - ١٨٥٨ - ١٩٧٤ - الدكتور يوسف أسعد داغر - ص: ٢٥٥.

(٢) كراس النشرات الدورية العربية - الفيكونت فيليب دي طرازي - ٢١٦ من الجزء الرابع.

مصر في يوم الثلاثاء ١٠ مايو سنة ١٩٣٨ — تأسست من سنة ١٨٧٥ — العدد ٣٦ — السنة الثالثة والستون

المحروسة

المكاتبات

ترسل باسم صاحبة الجريدة
ورئيسة تحريرها وناشرتها

الآنسة مي زياده

الادارة : شارع عدوي رقم ١ مصر
تليفون ٤٢٠٦٣

لا تعتمد الايصالات
إلا إذا كانت مختومة بخاتم الجريدة

الاشتراكات

١٥٠ قرشاً عن سنة داخل القطر
٢٠٠ » » خارج »
نصف هذه القيمة لستة شهور

(الاعلانات)

قررت المحاكم الاهلية جريدة (المحروسة) رسمياً لنشر الاعلانات القضائية يتفق على أجورها مع الادارة مباشرة

الرئيس هريو

زيارته للاستاذ الاكبر

احتفاء الصحفيين به — سفره إلى فلسطين وسوريا .

قصد الرئيس هيريو ، في الساعة الحادية

ويعد ان قدمت اقداح الشاي على الطريقة

حفلة الصحافة

وحوالى الظهر أقامت الصحافة بالاشتراك مع الفرع المصري للجنة التجارة والصناعة والزراعة الفرنسية حفلة شائقة في صالة حروبي تكريماً للرئيس هيريو حضرها سعادة المسيو دي فيتاس وزير فرنسا المفوض والاستاذ سليم عز الدين وكيل مصلحة الصحافة وكثير من رؤساء تحرير الصحف العربية والافرنجية

بعد وفاة الياس زيادة عام ۱۹۲۹ أشارت الصحف المصرية إلى أن مكاتب المحروسة انتقلت من عنوانها القديم إلى العمارة التي كانت تقيم فيها ميّ مع والدتها آنذاك، في شارع علوي رقم (۱). وإذا قمنا بجولةٍ استطلاعية في مجلدات المحروسة منذ أن أمست ملكاً لآل زيادة نقف على أخبار هامة تتصل بمكانة الجريدة الأدبية والسياسية، وأحوالها الاقتصادية، وأثرها في حياة ميّ. أطلت ميّ، عبر صفحاتها على القراء في أوّل عهدها بالكتابة، ثم تعرّفت إلى كتابٍ وصحفيين كثيرين كانوا يتردّدون على مكاتبها ومن ثمّ إلى أصحاب الصحف والمجلات الكبرى في مصر كالأهرام والمقطم والزهور وسركيس والمقتطف والهلال، فقدروا موهبتها الأدبية، ودعوها للتحرير في صحفهم ومجلاتهم. كان يطيب لها أن توقع مقالاتها الأولى باسماء مستعارة مثل: «خالد رأفت» و«كنار» و«عائدة»، جرياً على عادة كاتبات غربيات وشرقيات كن يتخفين وراء أسماء مستعارة أمثال: «جورج صاند» و«باحثة البادية»، ولقد أعجبت ميّ بباحثة البادية بعد أن نشرت لها المحروسة سلسلة مقالات عنوانها: «في المقارنة بين المرأتين المصرية والغربية» في شهر نيسان عام ۱۹۱۰، ثم ازداد إعجابها بأسلوبها رجرأتها بعد اطلاعها على مقالاتها اللاحقة التي نشرتها تحت عنوان «نسائيات»، على صفحات «الجريدة»، فوجّهت إليها رسالة مفتوحة على صفحات المحروسة بعنوان:

«من كاتبة إلى كاتبة»[1] بتاريخ ۱۸/٦/۱۹۱۳، أثنت فيها على أفكارها التحررية الرصينة، وكانت بينهما مراسلة ممتعة حول مشكلات المجتمع، ونهضة المرأة، تلتها صداقة متينة. ولميّ في عدد المحروسة رقم ۱۲۲۸ الذي صدر في ۸/۲/۱۹۱۳ مقالة نشرتها باسمها الجديد «ميّ» بعنوان: «كيف نقيس الزمان»، وأخرى نشرتها في ۱٦/٤/۱۹۱۳ بعنوان «قتل النفوس» ردّ عليها الدكتور شبلي الشميّل بمقالة طريفة عنوانها: «إحياء النفوس» نُشرت في المحروسة بتاريخ ۱۸/٤/۱۹۱۳. دانت ميّ في أول طريق الشهرة في مصر

(۱) هذه الرسالة منشورة أيضا في كتاب ميّ: «باحثة البادية» ـ ص: ۱۷۳.

يومذاك، فاتسعت صلاتها بكبار كتاب العصر، وأنشأت ندوتها الأسبوعية، فكان لها ولجريدة المحروسة أثر كبير في بناء شخصيتها الأدبية، وتبنّيها قضايا العصر الاجتماعية والقومية. وكثيراً ما كانت «المحروسة» تعيد نشر مقالاتٍ لها خصّت بها مجلة «سركيس» ومجلة «الزهور»، نذكر منها: «نفثات يراع»، و«روحان يلتقيان».

عندما صدرت في القاهرة الطبعة الأولى من أول كتاب نشرته ميّ بالعربية، مترجماً عن اللغة الألمانية عام ١٩١٢، وهو رواية «الحب الألماني» لفريدريك ماكس مولر الذي اختارت لها عنوان «ابتسامات ودموع»، أعلنت المحروسة عن الكتاب على النحو التالي:

(ابتسامات ودموع: تُطلب هذه الرواية الشائقة التي نقلتها الآنسة «ميّ» من الألمانية إلى العربية من مكتبتيّ المعارف، وأمين هندية، ومن إدارة هذه الجريدة، وثمنها عشرون مليماً، ويخصم عشرون في المائة لمن يلتزمون بيعها في الجهات).

وتكرّر نشر هذا الاعلان على مدى أكثر من سنة في أعداد «المحروسة»، التي أعلنت في ربيع عام ١٩١٣ حفلة تكريم شاعر القطرين خليل مطران في الجامعة المصرية التي ظهرت ميّ فيها خطيبةً لأول مرّة، إذ ألقت كلمة جبران خليل جبران، نيابةً عنه، وعقبت عليها بكلمةٍ لاقت نجاحاً كبيراً.

وفي عام ١٩١٤ تولى الأستاذ سلامة موسى الاشراف على المحروسة بتكليفٍ من الياس زيادة وابنته ميّ، بعد تعطيل مجلة «المستقبل» الذي أصدر منها ستة عشر عدداً فقط. ومما يجدر بالذكر أن «المستقبل» اتسمت بمنحاها الاشتراكي، ونشرت سلسلة مقالاتٍ بقلم الدكتور شبلي الشميّل تدعو إلى الأخذ بنظرية النشوء والتطوّر الداروينيّة، والمذهب المادي الإلحادي، ومقالات عن «نيتشه» وعن «الله» بقلم سلامة موسى، فصدر الأمر بتعطيلها من إدارة

المطبوعات في مصر. كان تكليف آل زيادة له بالإشراف على جريدتهم، والتحرير فيها مدعاة لابتهاجه في بادىء الأمر، ولكنه لم يستمرّ في عمله الجديد طويلاً:

(... وأرسلت إليّ ميّ، عقب تعطيل «المستقبل»، خطاباً تطلب مني أن أحرّر «المحروسة»، وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار، يصدرها والدها، فقبلت. وبقيت أحررها جملة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التي كانت تفرضها ادارة المطبوعات على الصحف. ولم يكن يخفّف من هذا السأم سوى زيارات ميّ ومؤانساتها لنا من وقتٍ لآخر، فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرفٍ ورقّة)[1].

ولكن المحروسة أضحت أوسع انتشاراً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لزوال الأزمة الاقتصادية في مصر، وذيوع شهرة ميّ: «الكاتبة النابغة»، والخطيبة الممتازة، والمثقفة الأولى بين نساء عصرها الناهضات. احتلّت الصفحة الأولى من عدد المحروسة (٢٧٠٢) الذي صدر في ١٩١٨/١/١٢ كلمة ميّ في حفلة تكريم أستاذيها في الجامعة المصرية: «محمد الخضري» و«الشيخ محمد مهدي»[2]، ثم جرت العادة على نشر خطاباتها ومقالاتها في موضع افتتاحية الأعداد، كخطابها في حفلة تكريم أستاذ الآداب الانكليزية في الجامعة المصرية «المستر ورذم» التي أقيمت في فندق «شبرد» بالقاهرة، في مطلع شهر نيسان عام ١٩١٨[3]، ومقالات من أجود أبحاثها عنوانها «المجمع اللغوي واعتراض الاجبشن ميل»[4].

في السنوات التي تولّت فيها ميّ رئاسة تحرير الجريدة بعد وفاة والدها

(١) تربية سلامة موسى ـ ص: ١٨٢.
(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ٨٠ ـ ٨٤ ـ «وداع الاستاذين».
(٣) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ٩٦ ـ ١٠٢ ـ «فضل الآداب».
(٤) بين الجزر والمدّ ـ ميّ زيادة ـ ص: ٤١ ـ ٤٢.

عام ١٩٢٩، نشرت افتتاحية العدد (٤٩٢٤) الصادر في ١٩٣١/١١/٢٠ بعنوان «الموت والانتحار»، ومقالة عنوانها «من هنا وهناك» نقلت فيها بعض أقوال جبران وعلّقت عليها، كما كانت تختار بعضاً من كلماته المأثورة، وتنشرها في صفحة الجريدة الأدبية بعنوان «كلمات لجبران» بعد وفاته. وكتبت كذلك افتتاحية العدد رقم (٤٩٣٨) الذي صدر في ١٠ ـ ١٢ ـ ١٩٣١ تحت عنوان: «المآتم الغريبة عند الشعوب»، وهي مقالة تعرب عن سوداوية مزاجها، وحزنها العميق في إثر وفاة والدها وجبران. وعندما توفي صديقها الأستاذ داود بركات سنة ١٩٣٣ الذي كان نقيب الصحافة المصرية يومذاك اشتركت في حفلة تأبينه، ونشرت الكلمة التي ألقتها فيها في عدد المحروسة رقم (٥٠٣٢) الذي صدر بتاريخ ٢٠ ـ ١٢ ـ ١٩٣٣[1].

لم ينحصر نشاط ميّ الصحفي والأدبي بالمحروسة فقط بل تعداها إلى جريدة «السياسة الاسبوعية»، وإلى جريدة «الأهرام»، وقد ابتكرت باباً جديداً في «السياسة الأسبوعية» أطلقت عليه عنوان «خلية النحل» سنة ١٩٢٦، كان الغرض منه فتح المجال أمام القراء لطرح ما يشاؤون من الأسئلة، فكانت تتولى الاجابة عليها. أما في «الأهرام» فقد كانت مقالاتها تتقدم مقالات كبار كتاب العصر، وكثيراً ما كانت تُنشر في مقام الافتتاحية، كمقالتها الرائعة في رثاء سعد زغلول التي نُشرت في ٢٧ ـ ٨ ـ ١٩٢٧ بعنوان: «هجع جبار الوادي»[2].

إن تفوّق ميّ في ميدان الصحافة، عبر المحروسة أولاً، ثم عبر كبريات الصحف والمجلات المصرية هو ما دفع أصحاب الأهرام لتكليفها بالانضمام إلى أسرة التحرير فيها، فقد أعدوا لها مكتباً خاصاً، وأغروها بقبول عرضهم ولكنها كانت: (أذكى من أن تقبل هذا العرض، فظلت صلتها بالاهرام صلة

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: (١١٢ ـ ١١٥).

(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: (٨١ ـ ٨٧).

الكاتبة الحرّة التي لا تختلط بأحد في الجريدة التي تنشر مقالاتها)[1]. هذا ما كتبه الاستاذ حافظ محمود عن ميّ في كتابه: «عمالقة الصحافة»، حيث وضعها في مصاف عمالقة الفن الصحفي في عصر النهضة لاتقانها هذا الفن، واقبال القراء على الصحف التي كانت تنشر لها مقالاتها. ولا بد من القول إن ميّ لم تهمل جريدة أبيها في يومٍ من الأيام، بل كانت توليها عنايةً خاصة، وتستكتب فيها أدباء مرموقين أمثال الأساتذة: عزيز الدين فهمي، ومصطفى عبد المجيد، ونجيب شاهين، وأليس قندلفت، وزينب الجبيلي، والدكتور زكي مبارك، وظافر القاسمي. ولا بد من التنويه بأن «المحروسة» استأنفت الصدور بعد أن تم إلغاء الحجر على ميّ في مصر بتاريخ ١٩ ـ ٢ ـ ١٩٣٩ ببضعة أسابيع، ونشرت للدكتور زكي مبارك مقالة عنوانها «الفكر والحرب» كانت افتتاحية العدد الذي صدر بتاريخ ٢٦ ـ ٥ ـ ١٩٤٠. وقبل وفاة ميّ بيوم واحد صدر العدد الأخير من «المحروسة» بافتتاحية عنوانها «مسلمو يوغوسلافيا»، لا تحمل توقيعاً، وتوقفت بعده عن الصدور نهائياً.

إن من حق «المحروسة» أن تُذكر مواقفها المشرّفة في مؤازرة الحركة الوطنية في مصر، ومناهضة الاستعمار والطغيان، مما أدى بها إلى التوقف عن الصدور أكثر من مرة، وإلى توقيف صاحبها من قبل السلطات. فلندع ميّ تحدثنا عن جهاد الجريدة في مقال نشرته فيها بعنوان «محروسة»:

(في ١٦ يناير ١٩٢٣ تستأنف «المحروسة» الصدور اليوم بادئةً عامها التاسع والأربعين بعد أن أوقفت عامها الثامن والأربعين بطوله تقريباً! يقال إن اسم «المحروسة» أطلق على القاهرة لاعتقاد السكان بأنها محفوظة بقوةٍ سحرية، أو روحانية، تحمي منها الربوع والآثار. فلذا ترى ما فيها محفوظاً، بينما الآثار في البلاد الأخرى تتداعى وتتهدم، وإن كانت أحدث عهداً. فبديهي إذن أن نتوهّم أن القوة التي تَخْفِرُ مدينة الأهرام وأبي الهول تهيمن

---

(١) عمالقة الصحافة ـ حافظ محمود ـ ص: (١٢٠).

كذلك على كل ما سُمّي باسمها، وتشمله بالعطف والرعاية. فإن هذه الصحيفة أوقفت ثلاث مرات منذ مطلع الحركة الوطنية سنة ١٩١٩، ولعلها أصيبت أكثر من جميع الصحف المصرية، ولكنها سلمت من الأذى كل مرةٍ، محروسة بالقوة الخفية التي تخفر هذه المدينة العظيمة. وكما أن آثار الجراح هي أنبل الأوسمة للجنديّ، فالمحروسة تحمل علامات جهادها الثلاث أوسمةً خليقةً بأن يكون لها مكانها في متحف تذكاراتها الثمينة)[١].

ثم أوقفت للمرة الرابعة في صيف سنة ١٩٢٥، وتعرّض الياس زيادة، والد ميّ، إلى الملاحقة القضائية فكتب إليها صديقها المستشرق الايطالي: «ايتوري روسي ـ Ettore Rossi» رسالة استهلها بهذه العبارات:

(أجرؤ على مراسلتكِ لاعتقادي بأنك ربما تكوني منزعجة في هذه الأيام بسبب ما بلغني من الصحف عن أمرٍ يتعلق بوالدك. أرجو أن يكون هذا الموضوع قد حُسِم على خير وجه)[٢].

ومع أن الموضوع قد حُسِم على خير وجهٍ يومئذٍ فإن أمراً حكومياً آخر قد صدر بتعطيل المحروسة، وتوقيف صاحبها في خريف عام ١٩٢٦ يوم كانت ميّ في الاسكندرية، على أهبة الابحار إلى أوروبا، فأقفلت عائدة إلى القاهرة، وتلقت رسالة من صديقها الأستاذ جبر ضومط، بعد الافراج عن أبيها، جاء فيها ما يلي:

(قرأت أول البارحة في جريدة «الأحوال» خبر تبرئة الياس بك زيادة من تبعة مقالة كانت قد نشرت في المحروسة. أهنئك على تبرئته، ولا شك في أن الذهب إذا مُحّص بالنار خرج منها أنقى وأبهى مما كان).

وأخيراً لا بدّ من القول إن المحروسة جعلت ميّ ووالديها من ذوي

---

(١) بين الجزر والمدّ ـ ميّ زيادة ـ ص: ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: (٣٠٠).

الجاه واليسار، فكما فتحت لهم باب الشهرة التي أحرزوها عن جدارة، كذلك ضمنت لهم مورد رزق وفير، فإلى جانب انتشارها في مصر كانت المتاجر والمصانع والشركات الكبرى تعتمدها لنشر اعلاناتها فيها، كما كانت المحاكم الأهلية في القاهرة تنشر فيها الاعلانات القضائية (رسمياً) منذ صدورها باسم الياس زيادة عام ١٩٠٩، على أن (يُتفق على أجورها مع الإدارة مباشرة) حسبما كان يُنشر في الصفحة الأولى من سائر أعداد الصحيفة.

* * *

الشاعرة

لـكِ مـيّ في لـغـة الفـرنسيس
زهـرات حلـم وشًـتِ النـيـلا
جمـعتِـهـا مـن روض بـاريس
وجـعلتـهـا لـلأرزِ إكليـلا
(شفيق معلوف)[1]

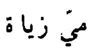
قدمت ميّ ديوان شعرها بالفرنسية: «أزهار حلم ـ Fleurs De Rêve» الذي كان باكورة انتاجها، بالعبارات التالية:

(هذا كتاب صغير الحجم، ضئيل القيمة، إلا أن لكل إنسان في هذه الحياة خلجاته، ولكل نفس وثبات يعبر عنها كل واحدٍ منا حسب هواه. الأزهار البرية تنمو في ظلال السنديان الشامخ، والبلبل يغرد طروباً في الأصباح الهادئة، والدوري نفسه، على صغره، يرسل أناشيده على طريقته. وليست قيمة الأثر بأهميته وحجمه بقدر ما هي بإخلاصه. إننا نتألم في عالمنا هذا ونفرح، وفي كلتا الحالتين نزفر، وزفرات البشر، على اختلاف منازعهم، تتشابه ولا يفرق بينها سوى القالب... فيا أيها القارىء اللبيب! يا من تقرأني الآن لا تحاول أن تحلل وتنتقد، بل ابتسم، فالابتسامة العذبة هي أجمل أزاهر النفس، فلا تبخل عليّ بها.

القاهرة في أول مارس ١٩١١ ـ ايزيس كوبيا)

---

(١) ميّ في سوريا ولبنان ـ مجلة المرأة الجديدة ـ ص: ١٣٩.



ميّ زياة

انتحلت ميّ لنفسها اسم «إيزيس كوبيا ـ Isis Copia» لدى نشر هذا الديوان في القاهرة سنة ١٩١١، بعد تفكير طويل، أما «إيـزيس» الآلهة المعروفة في تاريخ قدماء المصريين، فقد ذكرتها ميّ في سياق كتابها عن «عائشة تيمور» فقالت: (فإيزيس المصريين، واللواتي قمن مقامها في الميثولوجيات الأخرى، يرمزن إلى المرأة القادرة بأمومتها، الممثلة الطبيعة بوظيفتها، القائمة حلقة مغناطيسية بين الحياة والحياة)[١]. وأما «كوبيا» فهي كلمة لاتينية تعني «الخصب» مما يطابق كنية ميّ: «زيادة».

ولقد أهدت الديوان إلى الشاعر لامارتين بهذه العبارات:

(إلى روح لامارتين النبيلة

إلى نفسه العذبة

تحيةً من قلبٍ فتيٍّ يحبه)[٢]

يتضمن هذا الديوان ثلاثة وأربعين قصيدة، وثلاث مقطوعات نثرية، ومذكرات وخواطر ملحقة به ومنثورة باللغتين الفرنسية والانكليزية، ومما يلحظه القارىء عناوين لبعض قصائد الديوان الفرنسية اختارتها باللغة الانكليزية وذلك في قصيدة سمتها: «Good - Bye» ـ وثانية دعتها: «Rememer me» ـ أي أذكرني «وثالثه: لا شيء بعد ذلك ـ Nothing More» ورابعة شاءت أن تجعل عنوانها: «رسوّ السفينة ـ Abord»، وهذا ما لم ندرك سببه. وكان الدكتور جميل جبر قد نشر كتاباً عام ١٩٥٢ عنوانه «أزاهير حلم» نقل فيه إلى العربية بعض قصائد الديوان، لا كلها، وترجم بتصرف المقطوعات النثرية المنشورة فيه: «صفحات من المذكرة الشخصية ـ Pages Intimes». ونجد في كتاب الدكتور جبر عدة قصائد من ديوان ميّ نقلتها هي بقلمها إلى العربية ونشرتها في «الهلال»، والمقتطف والرسالة في مصر ما بين

---

(١) عائشة تيمور ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٤٨.

(٢) صيغة الاهداء، وكذلك مقدمة الديوان منقولان عن اللغة الفرنسية.

عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٥[١]. ولهذا نقول إن ديوان ميّ لم يترجم بعد إلى العربية بكامله، ولا سيما أن عدداً كبيراً من قصائده ظل مجهولاً، فعسى أن يوفيه الكتاب أو الشعراء حقه، مع أن ترجمة الشعر أمر عسير، يكاد يكون مستحيلاً. ولميّ في هذا الموضوع رأي سديد ورد في إحدى رسائلها إلى الدكتور يعقوب صروف عام ١٩١٩، إذ كانت تطري فيه ما نشره عن الشاعرين «ملتن» والمعرّي، على هذا النحو:

(وما أبلغ تلك الجمل القصيرة «المدوزنة»، ذات الألفاظ الساذجة الفخمة! وألطف من كل ذلك أنك نظمت شوارد «ملتن» الشعرية أبياتاً عربية عصماء، ولا أعرف شيئاً أكثر صعوبة من ترجمة الشعر شعراً)[٢].

وإن كانت ميّ متواضعة في تقديم ديوان شعرها فإن معاصريها الذين اطلعوا عليه أُعجبوا به، لا لاخلاص نبراته فحسب، بل لجمال بيانه وسلاسة ديباجته، وجمال صوره. لقد رأى الأستاذ انطون الجميل أنه: «مجموعة أزهار عطرية نبتت في رياض الأحلام الجميلة، وهي مهداة إلى روح «لامارتين» شاعر القلوب الحزينة، وهذه الروح المتألمة ترفّ على كل صفحة من صفحاته، وتجعل الكاتبة تقول في قصيدة «هل هي شاعرة؟» ما معناه: البكاء والرأفة، والحب والألم هذه هي صفات الشاعر»[٣]. كما كان شاعر القطرين خليل مطران أول المعجبين بشاعرية ميّ التي لفتت الانتباه في مصر ولبنان إلى

---

(١) القصائد المشار اليها هي: «وداع لبنان» ـ المقتطف ج ٦٥ ـ ص: ٣٧٧ ـ ٣٧٩ ـ و «كآبة» ـ «الهلال» ج ٣٣ ـ ص: ١٣٠ ـ و «ألحان الخريف» ـ المقتطف ج ٦٥ ـ ص: ٤٩٠ ـ ٤٩٣ و «خرافة مستحبة» ـ الهلال، ج ٣٣ ـ ص: ٢٣٨ ـ «لورد بايرن في غابات لبنان»، الهلال ج ٣٢ ـ ص: ١٠١٨ ـ ١٠١٩ ـ و «ارتياب» ـ الرسالة عدد ٧٩ ـ يناير ١٩٣٥ ص: ١٢ ـ ١٤.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٨١.

(٣) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ٢٠٧.

موهبتها المبكرة إثر صدور ذلك الديوان. قرظه الاستاذ الجميل بمقالة نشرها في مجلة «الزهور» جاء فيها ما يلي: (وأمامنا الآن كتاب شعر فرنسي رقيق، في ذيله بعض صفحات نثرية جميلة، تأليف «إيزيس كوبيا» وإيزيس وميّ هما شخص واحد، والقلم الذي حبر المقالات والروايات العربية، والريشة التي حاكت برد هذه القصائد الفرنسية تحملها يد واحدة، ويملي عليها فكر واحد. أما الشاعر شفيق معلوف فقد ألقى قصيدة ترحيبية بها في دمشق عام ١٩٢٢، يوم لبّت دعوة أدبائها، وذكر ديوانها فأنشد يقول مادحاً.

لَـكِ ميٌّ في لُغَـةِ الفـرنسيس زهـراتُ حـلم وَشَّـتِ الـنـيـلا
جَـمَعْتِهـا مـن رَوْضِ بـاريس وَجَـعَلْتِـهـا لـلأرزِ إكـليـلا!

ولم يكن رأي الفرنسيين الذين اطلعوا على شعر ميّ مغايراً لرأي العرب فيه، فقد كتب الأب انسطاس ماري الكرملي إلى ميّ في ١٩٢١/١/٢ يقول:

(قرأت من قصائدك الفرنسية على آباء المبعث رفاقي - وكلهم فرنسيون - فلم يصدقوا ما كانوا يسمعون. وقبل أن أعرّفهم بصاحبتها سألتهم عمّن تكون ناظمة تلك السموط والقلائد، فكلهم ذكروا أسماء شواعر فرنسيات، ولم يدر في خلدهم أنها شرقية عربية، لم تطأ رجلها أرض فرنسا، فلم يصدّقوا الا من بعد أن عرفَكِ الأب «بروكار» - Brocard، وقد عهدك في الناصرة وحيفا وجبل الكرمل. وهو اليوم رئيسنا يحفظ لكِ من ذكراكِ ما لا يمحى، ولو أشفى على الموت)[1].

ومن الذين عرفوا ميّ في طفولتها ويفاعتها في فلسطين، واكتشفوا موهبتها الشعرية والأدبية، ووصفوها بأقلامهم نذكر الأستاذ شاهين الخازن، فقد بعث إليها برسالة من منفاه في الآستانة عام ١٩٢١ فكتب يقول:

(نعم أيتها الكريمة أذكر ولا أنسى «ماري» الطفلة اللبنانية التي أعجبت

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ١٢٠ - ١٢١.

بذكائها وهي ابنة نحو عامين. وأذكرها فتاة عالمة، كاتبة، شاعرة، وخطيبة متبحّرة بعدّة أَلْسُنٍ، وهي «ميّ»)[1] وبعد أن أطرى كتابها عن باحثة البادية تحدث عن شعرها فقال:

(ولقد ذكرني مؤلفك بما كنت أقوله لك، وأنت طفلة: ستكونين فلانة أو فلانة من شهيرات الغرب، فكنتِ تقولين: لا، وتنفرين، وإذ قابلتك في بيروت، وكنت قد قرأت شعرك الافرنسي قلت: أتكونين للشرق فلانة من أولئك النوابغ الغربيات؟ فأجبتِ: كلا، لن أكون هذه ولا غيرها، بل أريد أن أكون «أنا». أجل، أردتِ أن تكوني أنتِ، فكنتِ كما أردت)[2].

ومما لا شك فيه أن ميّ نسيج وحدها في شعرها وأدبها، استهواها الشعر والفن في صغرها، وكانت تزداد شغفاً بهما، وبالموسيقى والطبيعة كلما تقدمت بالسن. تفتحت موهبتها الشعرية في «عينطورة» وتأثرت بالشعراء الرمنطيقيين الذين قرأت لهم ودرست شعرهم أمثال لامارتين، و«دوموسيه» و«هوغو» و«بايرن»، و«شيلي» وأعجبت بهم لما لاقى شعرهم الرقيق من أصداء في نفسها. كتبت أولى قصائد ديوانها في مدرسة عينطورة بلبنان حيث قضت سنوات يفاعتها، بعيدةً عن أهلها ومرابع طفولتها في الناصرة، متدفقة العواطف، مرهفة المشاعر، حائرة حيال الكون والوجود، ميالة إلى الكآبة، حزينة في أعماق ذاتها على وحدتها، وفراق أترابها، وموتِ أخيها الطفل. جميع هذه العوامل النفسية، فجّرت شاعريتها باللغة الفرنسية التي كان لها الأولوية في التدريس في معاهد الراهبات آنذاك. ولقد أدلت ميّ بحديث إلى «الهلال» بعد أن تألّق مجدها الأدبي عام ١٩٣٠ فقالت:

(في مشاهد لبنان الجميلة، حيث الجنان المزدانة بمحاسن الطبيعة الضاحكة، والجبال المشرفة بجلالها على البحر، المنبسطة عند قدميّ هاتيك الآكام الوادعة، كنت أسرّح الطرف بين عشيّةٍ وضحاها، وأنا طفلة صغيرة

---

(١)و (٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٢٦ و ١٢٨.

بمدرسة عينطورة، فكانت توحي إلى نفسي معاني الجمال، فتفيض بها شعراً أسطّره في أوقات الفراغ، وأثناء الدروس التي كنت أشغل عنها بنظم الشعر وتدوينه، حتى اجتمع لي منه مجموعة باللغة الفرنسية سميّتها «أزهار حلم» ونشرتها بإمضاء «ايزيس كوبيا» سنة ١٩١١ بعد أن نزلت مصر مع والديّ)[١].

تفتّحت شاعرية ميّ إذن وهي في الرابعة عشرة من العمر، أي في سنة دخولها مدرسة عينطورة عام ١٨٩٩، استناداً إلى قولها (وأنا طفلة)، وباحت في قصائدها بخلجات روحها، وشدّة حنينها إلى ما لا يُدرك كنهه، وفيض عواطفها المكبوتة بسبب نزوعها إلى التكتم، وغربتها عن أهلها، ومحيط مدرستها الذي لم تندمج فيه. كانت (تبحث عن الرفيق فلا تجد إلا الطبيعة فتناجيها وتسامرها، فأحبّت العذاب حيناً، وتمرّدت على الحياة حيناً آخر، ثم انكمشت على ذاتها المقهورة، وغلّفتها بالحياء)[٢].

من خصائص شعر ميّ استعذاب الألم، والانصهار بالطبيعة، والتوق إلى الحرية، والشوق إلى المجهول، على غرار شعر الرومنطيقيين الغربيين في القرن التاسع عشر. ومن مميزاته الصدق في التعبير، والجموح في الخيال، والدقة في الوصف، والسلاسة في الديباجة. ليست قصائدها موزونةً مقفاةً كلها على قواعد الشعر الفرنسي الكلاسيكي، ولكنها لا تخلو من الايقاع الموسيقي لتعمّد ميّ اختيار كلمات الرويّ مطابقةً في الجرس، في أكثر القصائد. وإذا ما استعرضنا بعض عناوينها تتوضح في أذهاننا النزعة الرومنطيقية الغالبة فيها: «زفرةٌ خريفية «Un Soupir D'automne» و«إلى القمر» ـ «A la Lune» ـ، و«أنشودة المجنون» ـ «Seremade du Fou»» و«تطيّر» ـ «Superstition» ـ و«رحيل» ـ «Un départ» ـ و«الربيع يغفو» ـ «Le Printemps

---

(١) الهلال ـ ج ٣٨ ـ عدد فبراير ١٩٣٠ ـ ص: (٤٠٠).

(٢) عن مقالة للأستاذ فؤاد حداد منشورة في «المكشوف» عدد آذار سنة ١٩٣٨.

«S`endort» و«أحزان» ـ «Tritesse» و «دعوني» ـ «Laissez - moi» و«سأم» ـ «Ennui» و «في الـغـســق» ـ «Crépuscule» ـ و «ارتــيــاب» ـ «Doute» ـ و «طيف» ـ «Spectre» ـ و «نحيب» ـ «Lacrymosa».

أكثر شعر ميّ وجدانيّ، حزين، حائر في لغز الوجود والموت، يعبّر عن مثالية الشاعرة، وتيه نفسها الفتيّة الظمأى إلى المعرفة، والحبّ السامي. حبّها للامرتين، وإعجابها الكبير به، حَدَيا بها إلى إهداء الديوان إليه وجعله حاضراً في ذهنها وعلى قلمها، وأثيراً في مطالعاتها حتى آخر حياتها. عندما وصفت إحدى رحلاتها إلى ربوع وطنها لبنان كتبت تقول:

(قال لامارتين في هذا الوادي إنه أجمل أودية العالم القديم، هناك تنطوي التلال كالأقمشة الحريرية، وتمتدّ لمداعبة أطراف الجبال المحاذية، فتتناسق بينها دوائر ظلّلتها الأشجار، وتتخلّلها القرى الوادعة ذوات المساكن البيضاء المتوّجة بالقرميد الأحمر)[1].

وعندما وصفت الجبال الخضراء المحيطة ببيروت كتبت تقول:

(أين لامارتين السحريّ ليعبّر عن هذا الجمال؟ ومن يستطيع سوى شاعر «البحيرة» أن يعبّر عن سحر الطبيعة الفتان؟!).

كما أننا نجد في ديوان شعرها قصيدة عنوانها «إيمان» ـ «Acte de Foi» ـ وقصيدة بعنوان «تجاوب الأرواح» ـ «Télépathie» كلتاهما تشيران إلى إيمانها العميق بالله وبخلود الروح.

أما قصيدتاها: «طيور النيل ـ Les Oiseaux du Nil» ـ و«عينطورة» فلا ريب في أنهما كتبتا بعد انتقالها إلى القاهرة ببضع سنوات لما في أسلوبهما من نضج في التفكير، وقوة في التعبير. ففي الأولى تصف ميّ الطيور الجميلة التي تنساب على صفحته الزرقاء، وأمواجه الضاحكة، وتخاطبها، وتحاورها،

---

(١) مذكرات ميّ زيادة ـ دار الريحاني ـ ص: ١٣٦.

وتعطيها أسماءً وصفاتٍ رائعة، فتقول في ختام القصيدة الطويلة، على لسان أحد الطيور:

ـ «وأنا أحب الرجوع إلى النيل
لأراه مشرقاً، طاهراً، عاكساً ألوان السماء
ففيه تغتسل أهدابي
وفؤادي وجبهتي المذهبة».

آه يا روحي الساكنة!
تغذّي بهذه الرؤى،
وأنتِ يا أحزاني عودي
وحوّمي حولي من جديد!(١)

وفي القصيدة الثانية تتغنى الشاعرة بذكرى عينطورة حيث تفتّحت نفسها على جمال الطبيعة، وانقضت سنوات الشباب الأولى، فتنشد، وهي تجترّ الذكريات، حلوها ومرّها:

لياليكِ يا عينطورة، لياليكِ هي التي أيقظت قلبي
يا قريةً وادعةً، يا عشّاً لا يمكن أن يُنسى
أمسياتك كانت ملاذي، وظلمتها شقيقتي،
بل شقيقة روحي التي لا يُدرك كنهها في عمقها وعنفوانها!(٢)

ولميّ قصيدة غنائية جميلة عنوانها: «الناصرة ـ Nazareth» وأخرى بعنوان: «قمم حطين ـ Les Cornes de Hettin» ومقطوعات نثرية ضمنتها حبها الكبير لفلسطين وحنينها إلى ربوعها، سهولاً وجبالاً وبلداناً، إلى جانب

---

(١) و (٢) الترجمة بقلم كاتبة هذه السيرة عن الديوان باللغة الفرنسية: «أزهار حلم» ـ إيزيس كوبيا ـ ص: ١٣ ـ ١٤ ـ و ١٢١.

مقطوعات أخرى في وصف لبنان، لعل أجملها مقطوعة «لورد بايرن في غابات لبنان»[1] حيث تصف مشاعرها وهي ملتجئة إلى إحدى الغابات، بصحبة ديوان شعره. فبعد أن مجدت عبقرية «بايرن» انطلقت في وصف الغابة والجبال، والإعراب عن توقها للانفراد بنفسها فيها حيث تطيب الأحلام، وتنعتق الروح من قيود المجتمع، وتنقضي الساعات الشفافة:

(هذا الشفوف المبهم في الجوّ لا لون له، ولا إسم يُعرف به، إنه يشبه شحوب الليل إذ يقبل الضحى، أو اكمداد الضياء إذ يُقبل الغسق. يشبه نفساً إذ تشجيها الذكرى المؤلمة، ولكأنه عينان كبيرتان جميلتان كادت تغشاهما الدموع).

وقد ختمت تلك المقطوعة بهذه العبارات:

(يا هذه البرية! يا هذا الخلاء في لبنان!

إني لألقي على كل صخرة من صخورك، تحت كل شجرة من أشجارك، نثرات من كياني: أنثر الابتسامات، والزفرات، والأحلام، والأغاني، والآمال، والاعجاب والتأمّل...

يلوح لي أحياناً أني طرحتُ عليكَ كل ما في وسعي، وأني ألقيتُ إليك بنهاية منتهى اقتداري، ولكنني كلما أحببتُك زدت نمواً واقتداراً، كلما دفقت عليكِ، يا قمم جبالي، عواطفي وذهولي تجدّد فيّ الحبّ، وزكت الحماسة، فإذا بي مثلكِ باقية.

أحبكِ، وسأحبكِ على الدوام).

ايزيس كوبيا - (ميّ)[2]

---

(١) و (٢) هذه القطعة من صفحات الديوان النثرية (ص: ١٤٧) ولكن ميّ جعلت عنوانها: لورد بايرن في غابات لبنان يوم ترجمتها بقلمها ونشرتها في مصر عام ١٩٢٤ بمجلة «الهلال»: ج ٣٢ - عدد يوليو، ص: ١٠١٨ - ١٠٢٠.

وليّ في حنينها إلى وطنها الأم قصيدتان رائعتان في «أزهار حلم» نقلتها إلى العربية نزولاً عند إلحاح صديقها الكبير الدكتور يعقوب صروف، فنشرتها المقتطف في عدديّ الشهرين الأخيرين من سنة ١٩٢٤، وعلّقت عليها تعليقات جديرة بالنقل. كانت الأولى بعنوان: «وداع لبنان» - (وهي في الديوان بعنوان «وداع - A dieu») - وقد جاء في مطلع الصفحة التي نُشرت فيها القصيدة ما يلي:

وداع لبنان

(تلقّت نابغتنا «ميّ» دروسها في إحدى مدارس لبنان باللغة الفرنسوية فأحسنتها ونظمت بها الشعر، مثلما تمكنت من الكتابة بالعربية، فكان ديوان «أزهار حلم» وفيه قصيدة موضوعها «وداع لبنان» تجلت فيها روح الشعر بأرقّ معانيه، وأوسع ما يصل إليه الخيال. ناجت نفسُها الليل والنهار، وأمواج البحر، وقنن الجبال، وأغراس الرياض، وأرواح البنات، وشذى الأزهار، ورقرقة المياه، وكواكب السماء، ونثرات الضياء، ورأت في ذلك كله عرائس استنشدتها واستنجدت بها على وداع لبنانها، والرجوع إلى مصرها. وقد ترجمت هذه القصيدة الآن، وأتحفت المقتطف بها).

وداعاً

وداعاً يا جبال لبنان

ان داعي الرحيل يدعو!

وداعاً لقممك الوردية الزرقاء

المتعالية وسط فيوض النور!

مصر موطني تناديني
بصوتٍ عميق القرار، طويل التمديد
وها قد فتح شراعي جناحه
ليسبح بي نحو المكان البعيد.
ألا أنشدني أيها البحر شجيَّ أغانيك
لتّنّي مجهول الأحاديث، وأوحي إليّ مكتوم الأسرار

وذا عذري إذا ما ظهرت يوماً
على غرارة وطرب، ومرح واغتباط
وكنت طوراً حزينةً، ساهيةً، وَسْنى
كطيرٍ يحلم عند ضفة الغدير،

وإن طمت عليّ حيناً شعائر الرفق والعطف ـ
حتى لتستدرّ دموعي، وتذيب جوانحي
فيخيّل أني ألمس الكون وأحتضنه بأسره
اذ أداعب هدبات العشب الساذج النضير،

وها أنذا في هذا المساء ـ مساء الوداع
أبصرك يا لبنان، جميلاً كحُلُمٍ أقبل على نهايته
فأتملاّك بصبابة من يتملّى الوجه المحبوب
لدن فراقٍ ستكرّ بعده دورات الزمان.

وها أنتَ تتباعد عني، وتغيب عن ناظري،
فخموداً يا حزني! ووداعاً يا وطني!
ان في كلمات الفراق والمواساة
لتتبخّر أعشار جناني!

ايزيس كوبيا ـ «ميّ»[1]

---

(١) المقتطف ـ ج ٦٥ ـ نوفمبر ١٩٢٤ ـ ص: ٣٧٧ ـ ٣٧٩ والقصيدة تحتل الصفحات ٨٦ ـ ٨٧ ـ ٨٨ من الديوان بالفرنسية.

وأما القصيدة الثانية فهي في الديوان بعنوان: «Un soupir d'automne» - وإننا ننقلها بكاملها مع كلمة المقتطف التي تتصدّرها لإيفاء ميّ الشاعرة حقها، واعطاء صورة واضحة عن شاعريتها، مع أن هذه القصائد والمقطوعات المترجمة سواء بقلم ميّ أو بأقلام غيرها تفقد الكثير من جمالها ورونقها في الترجمة، ولا سيما الترجمة المنثورة، لأن لكل لغةٍ روحها، وعبقريتها وسحرها.

ألحان الخريف

(هذه الشذور شقيقة ما نشرناه في مقتطف «نوفمبر» وهي أيضاً من ديوان نابغتنا ميّ الذي نظمته بالفرنسوية، وسمّته بما ترجمته «أزهار حلم» فهل يقنع قراء المقتطف بأن يكون نصيب هذه المعاني الشعرية النظم بالفرنسوية، والنثر بالعربية، وهي لغة المنشئة الأصلية؟ هذا السؤال نحيله عليها - المقتطف).

طافت في الجوّ روح الخريف، يا سوريا،

وعلى ضفاف النيل أنشأت ربة الشعر تشدو،

فخالجني الشعور بالوحشة

لاغترابي عن سحركِ البعيد، الخفيّ

وها يعاودني ذكرُ ربيعك البهيج،

وعهدُ الساعات المفعمة هناءً وصفواً

ساعات خلت من الغموم والدموع

ولكن سرعانَ ما تولّت!

وفي تبلبل مخيلتي وازدحامها

يتجلى لي من لبنانك الوسيم
رسمٌ نمّقته آلهةُ الفنون
تحت سماءٍ صافية، وزرقةٍ فاتنة
فألمح الأرز الرفيع الذرى
تتمايل أغصانه سامقةً نحو العلى
تُلامِسُ أطلس الجوّ بأطرافها الخضراء العسلية،
لَمْسَ قلمٍ يخطّ على الصفحة النظيم...

وإني، يا لبنان، لأحدّث نفسي بحديث صيفكَ،
وأسمعُ صدح أطيارك في حدائق حفلت بالورد،
وأستعيد نداءات القلوب، ذات الحبّ الراسخ العنيد
التي ذاقت نشوة الطرب في ظلّ أحراجك،
وتمتلكني حاجات النفوس الغضّة النقية
من ظمأٍ إلى الحب، وركونٍ إلى الايمان،
وثقةٍ بالأملِ والصدقِ والامتثال،
ويقينٍ بذيوع العطف، وخلودِ الصلاح!

كنت في المدرسة، وسنّي دون الخامسة بعد العاشرة
ومشهد الأمواه يعرض لناظريَّ رُؤى الفراديس
فتهتزّ نفسي وتسمو وتطير... ومنذ ربيعَيْن اثنينْ
لم تَنْسَي مني الشجن، يا هذه الهزّة الشعرية!

كالشمسِ والصَحْوِ للدَّجَنِ والمطر سحرُهُ
وكالسعادةِ والهناءِ وللغَمِّ لذاذاتُهُ
أيها الخريف! يا موسم الصفائح والمعالم فوق القبور

وموسم الأشرطة والأزهار المبلّلة بالدموع
وموسم أشجار السَّرْوِ الساجعةِ في المدافن
وموسم تفطّر القلوب حسرةً وأسىً!

يا مَوْسِماً لا يُنسى
مما نستحضرهُ حيال مضاجع الراحلين
إذ تتلمّس أيدينا دقائِقَ ما لا يُلْمَس
من أشتات الآمالِ المبعثرةِ الزاويةِ!

يا موسم الشكاية، والعويل والانتحاب
بعد الضَّحِكِ الذي انقضى ولن يعود،
وموسم اليأس الذي يُفجعُ الفؤاد
إزاء عمق المسافة، وجور الزمان،

ها هي ذي روحك الموزّعة الشائعة
تتجمعُ لندائي، وتفزعُ للتذكارات الرهيبة،
فما أنتَ إجمالاً، يا أيهذا الخريف
إلا موسم الأجفان المسبلة الجامدة...

ايزيس كوبيا «ميّ»[١]

تكاد تكون قصائد «أزهار حلم» أصدق ما يصوّر مزاج ميّ ونوازعها، من بين سائر مؤلفاتها. ومما يستوقف القارىء، رنّة الحزن والأسى الظاهرة فيها لا لكون الشاعرة الشابة نزاعة إلى الحزن والكآبة في طبيعتها فحسب، بل لأن فجيعتها بموت أخيها الطفل الذي رثته في قصيدة «انتحاب ـ Lacrymosa»

(١) المقتطف ـ ج ٦٥ ـ ديسمبر ١٩٢٤ ـ ص: ٤٩٠ ـ ٤٩٣.

خلّفت في قلبها حرقةً وجروحاً لم تندمل أبداً. لهذا نرى أنّ التفجّع على الموتى، والتبرّم بقسوة القدر طبعا شعرها بالحزن والتشاؤم، وهي بَعْدُ في ربيع عمرها. تأملاتها في الطبيعة ووجدانياتها الرقيقة تنبىء عن نفس ثائرة على الرغم من إيمانها إيماناً عميقاً استمدّته من بيئتها العائلية والمدارس التي انتسبت إليها. في ديوانها قصيدة مؤثرة عنوانها «كآبة ـ Tristesse»[1] مما عرّبته من شعرها، ونشرته في «الهلال»[2]، وصفت فيها تناثر أوراق الأشجار في الخريف، وخاطبتها تقول:

(لقد أبصرتك تتولّدين، يا وريقاتي العزيزة، ورَاقِبتُكِ تَنْبُتِين، وكنتِ صغيرة... تنمين في حلّةٍ خضراء ناضرة...

هلا حدّثتني: كم من همسٍ عذبٍ طار إليكِ؟
وكم من قبلةٍ طاهرةٍ شهدتِ، وأنت على الأفنان؟
أما كفاك العناق فيما بينك كلما هبّ النسيم عليك مداعباً؟
أيتها الحسودات الصغيرات، من علٍّ رأيتِ السرور يمرّ
فطلبتِهِ، ظناً منك أن السعادة على الأرض تقيم...
لكن لا! لا سعادة عندنا، لأن الإنسان يرسم أمانيه، ويعجز عن تحقيقها.

وأنتِ أيتها الوريقات الساذجة التي بذلت الجهود للتخلّص من العبودية،

إنك لن تظفري بما شاقك عندنا من مظاهر الحريّة،
فالتقلّب في التراب، والتمرّغ في الأوحال
هو كل ما ستنالين حتى التحلّل والاضمحلال!

---

(١) عبارة «كآبة» هي العنوان الذي اختارته ميّ للقصيدة «Tristesse» أي «حزن».
(٢) الهلال ـ ج ٣٣ ـ ص: ١٣٠ ـ ١٣١.

وأنا حزينة إذ أراكِ تتناثرين
وترفرفين نحو مثواكِ القاسي الحزين

أيها الاله! لماذا وضعت في عينيّ الإنسان هذه العبرات، وقضيتَ بألّا تجفَّ ولا تنضب؟ لماذ؟

أيّ مسرّةٍ أنتَ ملاقٍ في النكال والإيلام؟
إنك لقادر ونحن ضعاف،
إنك العظيم ونحن البائسون
نحن أشرارٌ وأنت كل الصلاح،
أما كان الغفران أجدر برحمتك؟
أو ما كانت ملاشاتنا أوفق لرحيب قدرتك؟
ولكنك لم تفعل هذا ولا ذاك،
ونحن نشقى، ونحن نتعذّب.

نفسي اليوم حزينة، وحزنها قائم.
أفكر في الأوراق المتناثرة،
وفي الأحياء الذين يضحكون،
وفي الموتى الذين مضوا كأنهم لم يكونوا.

ايزيس كوبيا «ميّ»

من يطالع ديوان شعرها يستغرب خلوّه من أية بارقة أمل، أو إشراق

---

(١) ترجم هذه القصيدة الدكتور جميل جبر في «أزاهير حلم» - ص: ٤٧، وقد أجرت كاتبة السيرة تعديلات عليها.

بَسْمَةٍ للحياة، أو نزعةٍ لحبّها والثقة بها، ما عدا قصيدة قصيرة عنوانها «أمل» «Espoir» تلمّسته الشاعرة في تجلّي الخالق، وانجذابها إليه حسب تعبيرها في البيت الأخير من القصيدة:

لقد جئت أتفيّأ ظلال الصفصاف
قرب الينبوع النمير حيث يرقد المساء،
وحيث الأغصان المنحنية تداعب كتفي،
والماء يترقرق مرتلاً نشيد الأمل.

أمل! كلمة لا ينفك يرددها الفؤاد
أمل! زهرة طُبعت على جباه الأطفال،
أمل! نشيد حب قدسيّ، وأريج بنفسج سحريّ
أمل! مثلنا الأعلى الذي نتوق إليه.

أيها الأمل: أنت الحياة وأنت الطبيعة
أنت البلسم الشافي لسأمنا جميعاً،
أنت حلم اليوم، وأنشودة الغد
أيها الأمل الذي يكشف لنا عظمة الخالق ويجذبنا إليه.

كانت مشاهد الطبيعة تغري الشاعرة بالتأمل، وتوحي إليها بشطحاتٍ فلسفية يغلب عليها طابع الكدر والغمّ. كما أن في المقطوعات النثرية من الديوان صفحات من هذا النوع اختارت لها ميّ عنوان: «هذه الحياة الانسانية» ونشرت ترجمتها في مجلة «الهلال»، فجاء فيها قولها:

(إنما حياة الانسان على الأرض جهاد مستمرّ رغم كونها محض عبور، ورغم أننا نموت في بعضنا كل يوم.

. . . بين الناس كفاح وعراك، ورغم ذلك فإن الحيّ لا يحيا لنفسه، بل لغيره نتاج جهاده ومسعاه. وهل يتيسّر النصر للفرد الواحد في حين تتّحد عليه جميع القوى، وتتحزّب على قهره والفتك به؟ بديهيٌّ أنه بين هذه الموانع والحواجز لا يظفر بأكثر من وريقة عطرية تنثرها الريح عن الزهرة، وأنه من الثمرة التي يغرسها ويغذيها بالجهود، والمعاناة، والتضحية لا يجني غير التمنّي، والتشـوّق، والانتظار!

عندما تمرّ بكَ، يا هذا، لحظة سعادةٍ وهناء، فبأي سرعة تراها متعجّلة للتفلّت والانصراف! وإنك لتستنفد مجهودك عبثاً في التشبّث بها، والوقوف وإياها في رحبة الزمن، فأيامك شبيهة بـالسيل الجـارف، والموج الـلاحق يستحثّ الموج السابق.

. . . تتشوّق مياه السيل، في عكرها وكدرها، إلى زرقة البحار الفيحاء تشوُّق قلب الانسان، في غمومه واضطرابه، إلى سـناء المثل الأعلى.

ايزيس كوبيا ـ «ميّ»(١)

يبدو تأثر الشاعرة بلامارتين واضحاً في مقطوعة «هذه الحياة الانسانية»، فقد خاطب لامارتين الزمن في قصيدة «البحيرة ـ Le Lac» المشهورة، وتمنى لو كان في قدرته ان يوقف سيره، بل أَمَرَهُ بأن يفعل لينعم بالسعادة مع حبيبته، ولكن الأسى غلب عليه لهروب لحظات الهناء، وحرمانه من السعادة. . . وقد بلغ تأثر ميّ، بتأملات الرومنطيقيين الحزينة حَدّاً جعلها تحاكيهم في قصائدها الوجدانية، وتحذو حذوهم في الاشادة بالحب المثالي، واللجوء إلى الطبيعة لمناشدتها، وبثها كوامن النفس ولواعجهـا، وذرف العبرات السخينـة أمام الغروب، وفي الخريف خاصةً!

ولما كانت ميّ موزّعة المشاعر بين أوطان ثلاثة: فلسطين ولبنان ومصر،

---

(١) الهلال ـ ج ٣٣ ـ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٦.

كلّها أثيرة لديها، عزيزةٌ عليها، كان لا بدّ لاشعارها من الطواف فيها، ووصف معالم جمالها، والتعبير عن حنينٍ صادقٍ إليها. لقد خلّفت في كلٍّ منها ذكريات، بل بعضاً من نفسها، منذ طفولتها، وتنقّلت في رحلاتها العديدة بين أرجائها، فكانت تحمل البلد الذي تغادره في شغاف قلبها، وتتغنى به في شعرها وفي نثرها الشعري على حدٍّ سواء. وفي ديوانها قصيدة عنوانها «رحيل ـ Un Départ» تقول فيها:

كلُّ شيءٍ يحلم هنالك في الفضاء،
الموجة تحاذي الموجة، تشاهد ولادتها،
والنسائم تحرّك الزبد التائه،
وتبتلع جبهته الحالمة...

وعلى ظهر السفينة شيخ يحدّق في الأفق
بحثاً عن صورة أثيرةٍ غابت عن عينيه،
غير أنها ظلّت مطبوعة في روحه،
بينما أخذت السفينة تبتعد عن الشاطىء...[1]

كما أن في الديوان قصيدة بعنوان «ارتياب ـ Doute» ـ أغلب الظن أنها ناجت فيها معلّمة أولعت بها في مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة[2]، في ليلة وداعٍ عاصفة، فأنشدت تقول[3]:

---

(١) نقلا عن الديوان: «أزهار حلم» ـ ١٧ ـ ١٨.

(٢) لقد جاء ذكر تلك المعلّمة في فصل «يفاعة ميّ».

(٣) الترجمة بقلم ميّ، ومع ذلك فانها دون الأصل الفرنسي جمالاً في مبناها ومعانيها. وما نقوله عن هذه القصيدة ينطبق على قصيدة أخرى في الديوان عنوانها: تطيُّر ـ «Superstition» حرّفته ميّ حين نقلها الى العربية فجعلته: «خرافة مستحبة»، وقد نشرتها في مجلة الهلال ج ٣٣ ـ ص: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، عام ١٩٢٤، ونشرها الدكتور جميل جبر في «أزاهير حلم» ص: ١٥ ـ ١٧.

صديقتي يا ذات العينين الكبيرتين الوديعتين، روحي تناديك
الريح هذا المساء تهبّ هوجاء، شديدة الوطأة،
الريح تجأر، وصوتها العصيّ الناحب
يرجّع فيَّ دويّ الصدى عصيـاً، ومكبوتاً
صديقتي يا ذات العينين الوادعتين الكبيرتين روحي تناديكِ.

في اكتئابٍ أحلم، جالسةً بين الأزهار.
جناحُ الإعصار يلطمُ نافذتي
السماءُ تبكي، واهاً لهذهِ الدموعِ المنتحبة
تُرى ماذا تحرِّكُ بِسَيْرِهَا في أعماق الكيان؟
في اكتئابٍ أحلم جالسةً بين الأزهار.

أتذكُرين يوماً، هو الأولُ من العام،
إذ أَنَارَ عينَيْك السِّرُّ الفتان،
وإذ روحي عبدت فيك شقيقَتَها الكُبرى،
وإذ منكِ إليَّ جاءت الكلمةُ الصامتة؟
أَتذكُرين يوماً هو الأولُ من العام؟

شهرٌ تولّى وها قد أَتَيْنا على نهايتِه
رأيتُك خلاله مرّتَيْنِ، في مساءين إثنَيْن
والآن وقد أصْبَحَ ابتهاجي في الغدِ المقبِل
أحِنُّ إلى رؤ يةِ فَجْرِهِ الفتان. . .
شهرٌ تولّى، وها قد أَتَيْنا على نهايته

وهذا المساءُ المُمْطرُ الحالِكُ مساءُ وداع
قاتمةٌ هي أَفْكاري، والغَمُّ يُطبق عليّ،
ارتيابٌ خبيث يخالِطُ قلبي المستسلم للحنان،
ماذا لو كان قلبُك مغروراً، محتالاً؟..
وهذا المساء الحالِكُ المُمْطِرُ مساءُ وداع...

والغريب في أمر هذه القصيدة أن ميّ نبشتها من بين أوراقها القديمة عام ١٩٣٥، وهي في أوج شهرتها ومجدها الأدبي، ووافقت على نشرها في مجلة «الرسالة» جاعلةً منها موضوعاً لمسابقةٍ أدبية دعت إلى المباراة فيها شعراء العربية، وتبرعت بجائزةٍ مالية للفائز بينهم الذي يجيد صياغتها شعراً. أتى الإعلان عن تلك المسابقة في «الرسالة» على النحو التالي:

إلى شعراء العربية من الآنسة ميّ

قصيدة من النسق العالي في الشعر الوجداني الفرنسي صاغتها قريحة الآنسة ميّ ثم ترجمتها هي إلى العربية، وقدمتها إلى شعرائنا مقترحةً أن ينقلوها إلى لغتنا في موعدٍ لا يتجاوز آخر شهر فبراير ١٩٣٥. وقد تفضلت وتبرعت للمجيد الأول بجائزةٍ مالية قدرها جنيهان مصريان، وسيكون الفصل بين الشعراء للجنةٍ من الأدباء سنعلن تأليفها عما قريب.

المحرّر[1]

ثم نشرت «الرسالة» الحكم في المسابقة الأدبية الصادر عن لجنة التحكيم التي اجتمعت بدار ميّ وضمّت كلاً من الدكتور طه حسين،

---

(١) «الرسالة» ـ العدد ٧٩ ـ شهر يناير ١٩٣٥ ـ ص: ١٢.

والدكتور أحمد زكي، والأستاذ مصطفى عبد الرازق، وصاحب الرسالة الاستاذ أحمد حسن الزيات، فكانت القصيدة الفائزة للشاعر محمد عوض محمد، وهذه هي:

أصديقتي ذات العيو … ن النجل، قد ولّى النهارُ!
والريح هوجاء تهبّ … بنا وليس لها قرارُ
ولها أنين ثائرٌ … كالقلب عاوده ادِّكارُ
ولها صدىً في النفس مكـ … بوتٌ، عصيٌّ، مستثار
أصديقتي، ذات العيو … ن النجل! قد ولّى النهار

بين الزهور جلست أحـ … لم في حنين واكتئابِ
والزعزع النكباء تعـ … صف كل آونةٍ ببابي
والسحب باكية، فوا … شجني لهذا الانتحاب!
فلكم يثير من الشجى … في مهجتي دمع السحاب!
بين الزهور جلست أحـ … لم في حنينٍ واكتئاب.

هل تذكرين اليوم رأ … س العام، ما أحلاه ذكرى!
يومٌ به السرّ الخفيّ … أضاء في عينيكِ سحرا
وهلال روحي عابدٌ … مِن رُوحكِ المعبودِ بدرا
يومٌ به أوحيت في نفـ … سي حديثاً مستسرّا
هل تذكرين اليومَ رأ … س العام؟ ما أحلاه ذكرى!

أسفي لهذا الشهر قد … ولَّى، وآذن بانتهاءِ
فيه رأيتك مرتيـ … نِ، لدى سويعات المساءِ
والآن أقضي الليل في … غير ابتهاجٍ أو صفاءِ
واحرّ أشواقي لفجـ … رٍ منك فتان الضياءِ

أسفي لهذا الشهر قد ولّى، وآذَنَ بانتهاءِ
ليلٌ مطيرٌ حالكٌ وكأنه ليل الوداعِ
والفكر أقتم لم يزل وسط الهواجس في صراع
أمسى الفؤاد ممزّقاً بين ارتياب وارتياع
ماذا لو كان فؤادُك المغـ ـرورُ أولع بالخداع؟
ليلٌ مطيرٌ حالك، وكأنه ليل الوداع[1]

وإذا بحثنا عن شاعرية ميّ في كتاباتها بالعربية نجدها متدفقةً في مواضع كثيرة من مقالاتها الوجدانية ورسائلها. مقالاتها الوجدانية القليلة تنضح بشاعرية أصيلة سواء في إبداعِ صورها، أو في سبكِ بيانها، أو في الأحاسيس المرهفة التي عبّرت عنها بريشةٍ مجنّحة، ونبضات قلبٍ يعشق الجمال ويمجّده، ويتوق إلى الحبّ والحق والخير. نذكر من هذه المقالات: «نشيد نهر الصفا»[2] و«دمعة على المغرّد الصامت»[3] و«قرب منعطف السبيل»[4] و«أنت أيها الغريب»[5] و«نشيد إلى ينابيع روما»[6] و«أتعرف الشوق والحنين؟»[7] و«موعد مع الأقدار»[8].

تذكّرنا ميّ في «نشيد نهر الصفا» بشطحات عمر الخيام الفلسفية،

(١) الرسالة ـ العدد ٩١ ـ مطلع شهر نيسان ١٩٣٥.
(٢) ظلمات وأشعة ـ ص: ١٥ ـ ٢١.
(٣) ظلمات وأشعة ـ ص: ٣٣ ـ ٣٨.
(٤) ظلمات وأشعة ـ ص: ١٠٢ ـ ١٠٥.
(٥) ظلمات وأشعة ـ ص: ٩٨ ـ ١٠١.
(٦) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ص: ٤١ ـ ٤٥ ـ جمع وتحقيق سلمى الحفار الكزبري.
(٧) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ص: ٧٠ ـ ٧٢ ـ جمع وتحقيق سلمى الحفار الكزبري.
(٨) من اعمال ميّ المخطوطة التي تنشر لأول مرة في آخر هذا الكتاب.

وعواطف لامارتين الحزينة، ومشاعر دوموسيه الملتهبة، ولا سيما في مخاطبتها النهر حيث تقول:

(. . . من أين تأتين أيتها المياه، وإلى أين تذهبين؟
من أين أتينا، وإلى أين نذهب؟
. . . من أين، وإلى أين؟

ثقل دماغي بأفكارٍ لا أدركها، وضاق مني الصدر لهموم لا أعرف ماهيتها)[1].

أولم يقل الخيام:

(لبست ثوب العيش لم أُستشر — وحرت فيه بين شتى الفكر،
وسوف أنضو الثوب عني ولم أُدرِك لماذا جئتُ؟ أين المفرّ؟)

ثم جمعت بعض الحصى الملوّنة الراكدة في أعماق النهر وخاطبتها تقول:

(. . . أيتها الجواهر! سأحملك معي إلى وادي النيل لتذكّريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت في فؤادي أمام نهر الصفا. . . أنتِ ذكر الأبدية التي حييت فيها لحظة!)[2]. وعادت إلى النهر تساجله وتقول:

(جئت لأرطب يديَّ وعينيَّ برضابك العذب،

أنت ابن الغيوم، وألعوبة الحرارة الهوائية، وضحكة المادة، وقهقهة الجوّ بين الهضاب والأودية. أنت قبلة الشمس للبحر. أنت أنشودة الجبل في الوادي. أنت الروح الصغيرة المسرعة إلى أحضان الأرواح الكبيرة.

أنت عميق كأسرار الجنان، عذب كنظرات الولهان، وفي إسمك ألوان وألحان.

---

(١) و (٢) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٨ ـ ٢١.

. . . أنت لغز بين الحياة واللانهاية، فخذني معك بعيداً عن الحياة وضوضائها، خذني معك. . . لكن، ما هي نسبتي إليك؟

سيري، أيتها المياه، سيري واتـركيني. أسقي النباتـات والأعشاب، ضعي لآلىء في ثغور الورد، رطّبي صدر الأرض الملتهب، ترنّمي في وحدة الوادي، أسردي حكايتك التي لا تنتهي، أندبي، هلّلي، اصرخي، اهمسي، انشدي، انتحبي، اطربي، احزني، كل هذا ننسبه إليك، نحن أبناء النشوة والكآبة.

سيري أيتها المياه ودعيني أبكي. لقد تلبّد فكري بالغيوم القـائمة، وقلبي ـ ما لكِ وله! ـ منفرد، حزين. . .).

وفي «دمعة على الطائـر المغرّد» رثاء شاعري، ووصف رائع لحياة طائر أحبتّه ميّ وناجته في قفصه، الذي كان عشّه في حياته ونعشه في مماته. . .» المقالة مشهورة، وبعض فقراتها أُدرج في برامج التعليم في المدارس العربية من أدب ميّ. وإن ما نقوله عن تجليات النفحة الشعرية في أدبها ينطبق كذلك على مقالتين عنوانهما «عند قدميّ أبي الهول»[١] و«مساجلة الرمال»[٢].

ولا يصعب على القارىء التقاط النفحة الشعرية في رسائل ميّ إلى أصدقائها، بل إن هذه النفحة الزاخمة العـطر، تسترعي انتبـاهه، وتنشي روحه، فقد جاء في إحدى رسائلها إلى الاستاذ جبر ضومط ما يلي:

(أكتب إليك من رمل الاسكندرية، من غرفةٍ تنفتح نافذتها الوحيدة على عرض البحر الأزرق الوسيع. أليس أن هذا البحر بعينه هو الذي يغسل وجنة بيروت، ويلثم قدم لبنان؟)[٣].

---

(١) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٣ ـ ١٢١.

(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ص: ١٣٨ ـ ١٤٢ ـ جمع وتحقيق سلمى الحفار الكزبري.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٦٩ ـ ١٧٠.

كما تتجلى شاعريتها، ونزعتها الرومنطيقية التي تسبغ على مشاهد الطبيعة ثوب الأحاسيس البشرية، في إحدى رسائلها إلى الدكتور يعقوب صروف حيث كتبت تقول:

(أكتب في هذا الصباح على شرفتي الصغيرة، والأفق تجلّله سجوف الفجر العسجدية، المزركشة بألوان قوس قزح، والشجيرات حولي يرنّحها النسيم فتتمايل سعيدة في الظاهر، لكن قلبي يحدثني بأن تمايلها هذا قد يكون تململاً من أحكام القدر الذي قيّدها في مكانها، فكانت حياتها معنى إرغام أكثر منها معنى اختيار. ولكن أليس المرء مثلها في ذلك؟)[1].

ولا بد من الاشارة إلى أن الشاعرة كانت متحرّزة في ديوانها الأول والأخير حيث يلحظ القارىء تصويرها الدقيق لمشاعرها الانسانية الناضحة بالجمال والسمو، دون أن تبوح بمكنون عواطفها الصحيحة. لقد تحاشت التغني بالحب، وإنشاد القصائد الغزلية حين تفتحت براعم الحب في قلبها بدافع احتشامها وتكتمها، ومع ذلك كان لا بدّ لها من التغني بالحب العظيم المطلق، المثالي، في مقالاتها الوجدانية الرائعة. كانت تحب الشعر، وتجلّ كبار الشعراء من غربيين وشرقيين، تقرأ لهم، وتتذوّق نتاج قرائحهم، وتحفظ الكثير من شعرهم، فتستشهد به في بعض مقالاتها وكتبها ومحاضراتها. كان المعرّي، والمتنبي، وابن الفارض من الشعراء القدامى المفضلين عندها. وكانت معجبة بمن عاصرت من الشعراء أمثال إسماعيل صبري، والبارودي، وحافظ ابراهيم، وأحمد شوقي، وجبران، تحفظ بعض شعرهم وتستشهد به أحياناً في كتاباتها. أما رأيها بالشعر فقد عبّرت عنه بمقالة نشرتها في «مجلة سركيس» عن «الدكتور شبلي شميّل الشاعر» استهلتها على النحو التالي:

(ما هو الشعر؟

الشعر عاطفة ذائبة، أو فكرة متوقّدة، أو خاطرة عميقة سُكِبت في قالبٍ

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٥ ـ ٥٦.

موزون الكلام والنغمة. والشعر الغزليّ موسيقى تناجي القلب، وتلمس الفكر، سابحة بالروح على أمواج الفنون. وما النثر إلا شعر أفلت من أقيسة الوزن الضيقة، غير أنه لا يكون مرضياً إلا إذا خضع لنواميس الإنشاء بما فيها من توازن الجمل، وموسيقى الألفاظ، وسرد الأفكار بسلاسةٍ وبساطة. فالنثر إذاً شعرٌ حرٌّ، ويتسنى لكل كاتب أن يكون شاعراً في نثره إذا كان من تلك النفوس العطشى، المرتفعة بميولها عن الشواغل المادية، الباحثة عن مثلٍ أعلى يسير أمامها في سبل الحياة المحفوفة بالأنوار والظلمات. كما أن لكل إنسان، مهما كان عاديّ الميول، ساعات قليلة أو كثيرة يكون فيها شاعراً. فإذا كان من أهل القلم أفضى إلى الورق بهمسِ سرائره، وكشف للغرباء عن خفايا قلبه)[1].

ولا بدّ أخيراً من إبداء ملاحظات أخرى على ديوان ميّ الفرنسي، من حيث أسلوبه ومضمونه. أما أسلوبه فجيّدٌ، مُعْجِب، ولكنه لا يخلو من نقاط ضعفٍ أحياناً - مردّها صغر سن الشاعرة عندما وضعته، وقلّة خبرتها في فن النظم. لم يكن نَفَسَهَا طويلاً في كتابة القصائد لذا جاءت، في جملتها، قصيرة، وأضافت إليها مقطوعات منثورة خلطت فيها الذكريات الشخصية، بالحكايات، والخواطر، والأقوال المأثورة. وأما من حيث مضمونه بشكل عام فهو من الشعر الرقيق، الجميل الذي يغري القارىء بالمطالعة، ويدعوه بسهولة إلى مشاركة الشاعرة في جولات خيالها، والتجاوب مع انطباعاتها الفتيّة، بفضل نبرة الصدق المهيمنة عليه. وإن مما يلفت الانتباه في هذا الشعر نضج الشاعرة المبكر الظاهر في أناشيدها وخواطرها وصورها وأفكارها، عبر صفحاته كلها، الموزون منها والمنثور، وكأنها مفكرة متمرّسة في خبرة الناس والحياة، لا فتاة دون العشرين، عاشت في بيئة ضيقة، ونشأت في مدرسة للراهبات مغلقة عن العالم، ومنزوية. ولكن تلك الفتاة كانت غير عادية:

---

(١) مجلة سركيس - عدد يونيه ١٩١٣ - والمقالة منشورة في كتاب ميّ «الصحائف»، ص: ٢٣ - ٢٤.

كانت نابهةً، خارقة الذكاء، موهوبةً، تتغذى بالمطالعة والموسيقى والتأمل بالطبيعة، وهي أفضل معلم، وتحمل في صدرها قلباً كبيراً يذوب رقة، وحناناً وحبّاً! ولعل أفضل ما نأخذه مثالاً على ذلك خاطرتين من خواطرها المنشورة في أواخر الديوان حيث كتبت تقول:

(قد تكون الأمطار مجموعة عبراتٍ يسكبها سكان الكواكب المتلألئة في الرقيع، تشعّ أنوارها العذبة في ليالينا؟...

فمن يدري لعل الدموع السخينة الكثيرة التي نذرفها على أرضنا هذه تُمطر على كوكبٍ آخر؟)[1].

وتذكّرها رقرقة الينبوع بهمس الآلهة فتقول:

(أحبّ أن أحلم منفردةً تحت السماء الساكنة الصافية. أحبّ أن أعدّ الحصى التي تطأها قدماي، وأزهار الحقل التي أصادفها على الدروب.

إني لأجد عذوبة أن أتيه في الغابات عندما يغشى الغسق الوادي، وأن أسمع همس الآلهة تترنّم حول الينبوع. أشعر بحفيف أجنحة روح خفيّةٍ تحوم حوله كل مساء...)[2].

قدمت ميّ إلى مدارس لبنان طفلةً مراهقة، وغادرتها صبية تطفر منها نضارة الشباب، ويهزّ قلبها خفق الحب في معناه المطلق، حب الطبيعة، حب لبنان، حبّ الموسيقى وحب الأدب والشعر والكتاب. وهذا ما يدعونا إلى القول إنها غادرت مدرسة الراهبات في عينطورة فتاة طموحاً ينير عقلها علم تلقته، وكتب قرأتها، وتأملات في الطبيعة والحياة اقترنت بموهبةٍ فنيّة أصيلة تجلت في شعرها الفرنسي أولاً، ثم في نثرها العربيّ.

---

(١) و (٢) أزاهير حلم ـ من الصفحات التي ترجمها الى العربية الدكتور جميل جبر ـ ص: ٧٤ ـ ٧٥، وقد أجريت تعديلات طفيفة عليها.

ربما تكون ميّ تابعت قرض الشعر باللغة الفرنسية في حياتها ولكنها لم تنشر منه شيئاً بعد هذا الديوان، ولكن ما يسترعي الانتباه فقرة في حديث الأديبة «ايمي خير» الذي أفضت به للأستاذ محمد عبد الغني حسن بعد وفاة ميّ جاء فيها ما يلي: (وعند ميّ مخطوطات لقصائد فرنسية كانت تنوي طبعها قبل وفاتها. وأنا واثقة أن هذا الديوان الذي لم يطبع يفوق ديوانها الأول قوةً وشاعرية لأنه نتيجة نضجها، وثمار تجاربها واختباراتها، بينما الأول كان أول عمل لها في شبابها حيث الفكر محدود، والتجارب قاصرة)[١].

ويؤيد قول الأديبة ايمي خير حديث كل من الدكتور مصطفى مرعي والسيدة نور حرمه، اللذين لازما ميّ في آخر حياتها، وكانا كالسيدة «ايمي خير» من أخلص أصدقائها، ولكننا لم نعثر بعد على تلك المخطوطات إنما نأمل ألا يضنّ بها أقرباؤها إذا ما كانت موجودة لديهم.

إن أفضل ما يختم به هذا الفصل رأي ميّ بالشعر الذي سمعه الأستاذ طاهر طناحي منها شخصياً في آخر سني حياتها ونشره:

(... ثم جلست وقالت: إنني أطرب من الشعر الذي يرسم للناس طريق السعادة، ويرشدهم إلى مكارم الأخلاق، ولعل الأدب سُمّي أدباً لأنه يهذب الروح، ويؤدّب النفس. وأنا أعتقد أن الأديب الذي لا يعمل بأدبه كالعالم الذي لا يعمل بعلمه، فهو موهوب ولكنه مسلوب)[٢].

* * *

---

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٩٨.

(٢) أطياف من حياة ميّ ـ طاهر الطناحي ـ ص: ٢٢ ـ ٢٣.

ميّ الطالبة

(إذا كان المرء ذا ثقافة نيّرة، وحياة نفسية واسعة، فلكل كلماته مغزى، وفي كل أعماله مثل ينثر النور حوله في حياته حتى إذا قضى تجمّع نوره لتتسع به وراثة النور بين ظلمات بني الانسان.

ميّ)[1]

قضت ميّ حياتها كلها في سباقٍ مع العلم تنهل منه ولا ترتوي، وشغفت بتعلم اللغات فأتقنت منها خمساً، كما هوت المطالعة واقتناء الكتب النفيسة حتى بلغ عدد أسفار مكتبتها الشخصية سبعة آلاف كتاب[2] في اللغات العربية، والفرنسية والانكليزية، والألمانية والايطالية. فماذا تعلمت، وعلى من تتلمذت، وأين؟؟

نزلت مصر في سنة ١٩٠٧، كما سبق وذكرنا، وزادها الثقافي محدود بالقياس إلى طموحها، ولكنه كان ممتازاً بالقياس إلى زاد بنات عصرها الثقافي في مصر وفي غيرها من البلاد العربية. ومع ذلك انكبت على الدراسة في القاهرة وهي تمارس تعليم اللغة الفرنسية، وأدلت بحديث إلى الأستاذ جرجي

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ٨٩.

(٢) هذا ما كتبته ميّ بقلمها في رسالة بعثت بها الى السيدة سنية الأيوبي، نشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها» ـ ص: (٥٠٣).

نقولا باز، «نصير المرأة» في بيروت سنة ١٩٢٣ نشره في مجلة «الفجر» بعنوان: «في جنائن الأدب: من هي مي» أوضحت فيه مراحل التعليم التي اجتازتها، والاساليب التي اتبعتها، لأول مرة، فعلقت الأديبة الرائدة صاحبة «الفجر» عليه بالعبارات التالية: (قليلون هم الذين يعرفون تاريخ حياة ميّ لأنها كانت تضنّن بتلاوة هذه المخبآت الثمينة التي طالما تشوقت الصحف إلى نشرها، مرفقة برسمها. وإذا كان «الفجر» ينشر اليوم، مع الاعجاب، تاريخ نشأتها فذلك فضل يرجع لنصير المرأة، ومعزّز النهضة النسائية الاستاذ جرجي نقولا باز، فلم تستطع ميّ أن تضن عليه بهذه التحفة التي أزفّها إلى قراء «الفجر» وقارئاته مع الشكر الجزيل لحضرة الكاتب، والتحية العاطرة لميّ نابغتنا العزيزة).

من هذا الحديث استقينا معلومات هامة منها أن أول ما درسته ميّ بعد انتقالها من الناصرة إلى القاهرة كان اللغة اللاتينية، والرياضيات، والطبيعيات على يد الأستاذ «فلوري» الفرنسي، وأنها طالعت معه «أكابر منشئي اللغة اللاتينية»[1]. ثم درست اللغة الانكليزية على الأستاذ «فنس»، أحد خريجي جامعة كمبردج، والألمانية على يد الآنسة «تاشتر» الروسية الأصل، والايطالية في مدرسة الراهبات الايطاليات حيث كانت ميّ تدرّس فيها اللغة الفرنسية، كما التحقت بمدرسة بنات اليونان لدراسة اليونانية والرسم، وتعلمت الاسبانية بعد ذلك بنفسها، بموجب منهج «برليتز» لتعلّم اللغات. ولقد كان لميّ ولع شديد باللغات السامية القديمة دفعها إلى تعلم السريانية على الأب شكر الله شدياق.

هذه خلاصة حديث ميّ الشخصي إلى الأستاذ باز، ولكن لنا تعليق عليه حرصاً على الأمانة التاريخية، إذ ربما يعتقد القارىء أن ميّ أتقنت اللاتينية والسريانية. الصحيح هو أن مي تلقّت دروساً خاصة في هاتين

---

(١) هذه العبارة منقولة من حديث ميّ للأستاذ جرجي نقولا باز المشار اليه.

اللغتين، وألمّت بهما إلماماً كان أثره مفيداً في تضلّعها باللغات الأوروبية الحيّة، ولكنها نفت في رسالةٍ كتبتها إلى الأستاذ جبر ضومط عام ١٩٢١ أن تكون لها معرفة جيدة بالسريانية:

(. . . كل هذا الاسهاب والشطط لأقول إني لا أخجل لقلة بضاعتي «السريانية»، أنا التي لم أتعلّم قواعد اللغة العربية، أعني أني لم أتعلم منها الأوليات التي يلوكها التلاميذ، ولا يهتمون لها في المدارس الشرقية ذات الصفة الأجنبية. نعم، أستطيع أن أقول إني لم أتعلم العربية في غير حبّي لها)[1].

ويضيف الأستاذ باز في مقالته قوله:

(وعلّمها «فالنتينو» و«فلنشلي» الايطاليان البيانو والغناء، كما علمها «يوركس» النمساوي الكمنجة، والثلاثة من أشهر الموسيقيين في وادي النيل. وتعلمت، دون معلّم، عزف العود والقيثار).

إن من حق ميّ أن تتباهى بانها تعلمت العربية وحدها، وبفضل دأبها وجهدها الشخصي، لفرط حبها لها، واعتزازها بقوميتها. الدروس الأولية التي تلقتها بالعربية على الأب الخوري الياس صفير عند راهبات عينطورة لم تكن كافية لخلق أديبة طموح، وهذا ما أدركته بنفسها بعد يقظتها المدهشة في مصر منذ عام ١٩١١. وكأن عدوى يقظة الأمة المصرية آنذاك اجتماعياً، وثقافياً وأدبياً وعلمياً وسياسياً وقومياً قد سرت إلى تلك الفتاة الموهوبة التي وضعتها ظروف حياتها في وسط صحافي وثقافي واجتماعي متوثّب للنهوض،

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: (١٦٩) وفي الرسالة ذاتها كتبت ميّ تقول: «ان لي ميلاً خاصاً لدرس اللغات السامية ونبش أصولها، وأسرّ بالاهتداء الى وجوه القرابة بين ألفاظها وألفاظ اللغة العربية كما يسرّ الأحفاد بالعودة الى الماضي، ومراقبة تفرّع الآباء والجدود في شجرة الأسرة القديمة.

فأشعلت فيها جذوة حماسة كانت كامنةً في أعماق نفسها. ناهيك عن طموحها الكبير، وشجاعتها في تخطي أية عقبة لتحقيقه. فيقظتها هذه جعلتها تُطلق على نفسها اسم «ميّ» ودفعتها إلى اتقان لغة بلادها، والعزوف عن الكتابة باللغة الفرنسية، وحتى عن كتابة الشعر حين أدركت أنها مدعوة للاسهام في تلك النهضة، وأن لها موعداً مع النثر العربي في أكثر من موضوع ومجال!

ومن يقرأ تاريخ مصر في مطلع القرن العشرين يدرك أن ميّ استحقت لقب «فريدة العصر» الذي أطلقه عليها الأمير شكيب أرسلان في رسائله إليها، ولقب «النابغة ميّ» الذي أطلقه عليها كبار كتاب زمانها كمطران، والجميّل، والعقاد، وصرّوف والملاط، وغيرهم، وما ذلك إلا لأن المثقفات من النساء كنّ نادرات، والكاتبات العربيات كن أندر، فلم تعرف مصر سوى وردة اليازجية، وعائشة التيمورية قبل ميّ، ومن ثم ملك حفني ناصف، ولبيبة هاشم وروز اليوسف الصحافية المشهورة، وهدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية، اللواتي عاصرنها. أما سائر النساء فقد كنّ محرومات من التعليم الثانوي، لافتقار مصر يومئذٍ إلى مدارس للفتيات لأن الانكليز لم يسمحوا بإنشاء مدرسة ثانوية للبنات في أي مدينة من مدن القطر المصري طوال إشرافهم على وزارة المعارف:

(لقد عرفت القاهرة يومئذٍ مدرسةً واحدة هي «المدرسة السنيّة الابتدائية» وكانت ناظرتها انكليزية، تصرّ على البرقع للتلميذات وهن في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر. وكان معلم اللغة العربية يُفصَلُ من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه، واتخذ البنطلون والجاكيته. وتقدمت الآنسة نَبَوِيَّة موسى لامتحان الشهادة الثانوية في سنة (١٩٠٧) من بيتها، فرفض «دنلوب» المستشار الانكليزي لوزارة المعارف قبولها في الامتحان، ولكنها استمرّت على الكفاح، وأحدثت ضجة في الجرائد، وتقدّمت في السنة التالية فقُبلت ونجحت. ولكن الانكليز تنبهوا فلم تفز فتاة مصرية بعدها بالشهادة الثانوية منذ (١٩٠٨) إلى (١٩٢٩) حين تقدّمت الفتيات اللاتي أنشأت لهن

وزارة المعارف مدرسةً ثانوية عام ١٩٢٥، أي بعد إعلان الاستقلال بسنتين)[١].

لهذا نرى أن ميّ كانت ملزمةً بتعلّم العربية وآدابها وتاريخها على نفسها، في بادىء الأمر، ثم استفادت من صداقاتها الناشئة مع أعلام العصر ومفكريه الذين وجهوا مطالعاتها، وشجعوها على اقتحام ميدان الكتابة والخطابة. كان أستاذ الجيل: أحمد لطفي السيّد على رأس هؤلاء فقد قالت ميّ عن فضله وتأثيره في حديثٍ أدلت به إلى مجلة الهلال:

(في سنة ١٩١٤ أرادوا أن يؤسسوا نادياً أدبياً مختلطاً من الشرقيين والغربيين بدعوة من «الكونتيس أولغادي لبيدق» فدُعيتُ للاشتراك فيه. كان بعض المجتمعين من الوزراء السابقين، ورؤساء الوزراء، وممثلي الدول الأجنبية وقريناتهم، والأدباء، والعلماء، وكبار القوم. وفي هذا الاجتماع قال لي الأستاذ لطفي السيد باشا، أثناء حديثه معي:

ـ لا بدّ يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم لكي تقتبسي من فصاحة أسلوبه وبلاغته.

فقلت له:

ـ ليس عندي نسخة من القرآن الكريم.

فقال:

ـ أنا أهدي إليك نسخةً منه.

وبعث إليّ به مع كتب أخرى فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربي، وما

---

(١) تربية سلامة موسى ـ ص: ٤٠ و ٤١.

في القرآن من روعةٍ جذابة ساعدتني على تنسيق كتابتي)[1].

وختمت ميّ حديثها الآنف الذكر للهلال بهذه العبارات:

(وفي خلال الحرب العالمية التحقتُ بالجامعة المصرية، فكنت أدرس فيها تأريخ الفلسفة العامة، وتاريخ الفلسفة العربية، وعلم الأخلاق على المستشرق الاسباني «الكونت دي غلارزا» وتأريخ الآداب العربية على الشيخ «محمد مهدي» وتأريخ الدول الاسلامية على الشيخ «محمد الخضري» إلى أن انتهت الحرب الكبرى وقامت الحركة الوطنية المصرية. وهنا كانت يقظتي الأدبية الصحيحة، والخَلْق الجديد الذي أمدّتني به تلك الحركة بروحها.

وعلى هذا أستطيع أن أقول إن أهم ما أثّر في مجرى حياتي الكتابية ثلاثة أشياء: أولها النظر إلى جمال الطبيعة، والثاني القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة، والثالث الحركة الوطنية التي لولاها ما بلغتُ هذه السرعة في التطوّر)[2].

وهكذا نرى أن هذه الأديبة الناشئة إنكبت على قراءة القرآن الكريم، واقتبست منه فصاحة اللسان التي اشتهرت بها، وجمال البيان، ولم تكتف بما بلغته من الجودة في كتابة المقال، وما اكتسبته من مطالعة كتب التراث التي أهداها اليها لطفي السيد كالكامل للمبرّد والأغاني للأصفهاني والعقد الفريد لابن عبد ربه، وما كانت تتعلمه من مساجلات أدباء عصرها في ندوتها الأسبوعية، إنما تطلعت إلى استكمال ثقافتها بالانتساب إلى الجامعة المصرية وهي في الثلاثين من العمر! ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أنها تتلمذت أيضاً في الجامعة المصرية على الأستاذ «ورذم»، وأقامت مع زملائها طلبة الآداب الانكليزية حفلة في فندق شبرد لوداعه ألقت فيها كلمة تحية واعتراف بالجميل باللغة الانكليزية، نشرت في «المحروسة». وكان من أساتذتها في الجامعة الشيخ

---

(١) و (٢) «الهلال» - ج (٣٨) - عدد فبراير ١٩٣٠ - ص: ٤٠٠ و ٤٠١.

المرصفي، ونخبة من المستشرقين الذين كانوا يحاضرون فيها أمثال «الكونت دي غلاررزا» الاسباني، والأستاذ «جوزيف شاخت» الألماني، و«كارلو الفونسو نللينو» الايطالي، كما زاملت فيها طه حسين، وزكي مبارك، فكانت تتسابق معهما في تلقي الدروس وفي الامتحانات، وتمتاز بين الطلاب المصريين، والطالبات الاجنبيات بتوقّد الذهن، وقوة الحافظة، والاجتهاد والجدّ، ولم يكن في الجامعة آنذاك فتاة مصرية واحدة.

كانت الجامعة المصرية أهليةً في ذلك العهد، افتُتحت رسمياً في ٢١ ـ ١٢ ـ ١٩٠٨ باحتفال رعاه الخديوي بعد انقضاء سنتين على اقتراحٍ بإنشائها قدّمه إليه مصطفى كامل الغمراوي، من أعيان بني سويف. وكانت قد تشكلت لجنة تحضيرية لهذا الغرض في منزل سعد باشا زغلول، وبرئاسته وعضوية قاسم أمين الذي انتُخب أميناً للسر، وحسن سعيد الذي انتخب أميناً للصندوق. واقتصرت الدروس فيها على العلوم العالية الأدبية والفلسفية والتأريخية يلقيها الأساتذة المتعاقدون خُطباً على الطلاب حتى غاية شهر آذار سنة ١٩١٤. ففي ذلك التاريخ احتفلت مصر بوضع الحجر الأول لبناء الجامعة الرسمية في القاهرة، في أرضٍ مساحتها ستة أفدنة وهبتها لها الأميرة فاطمة إسماعيل (عمة الخديوي عباس حلمي) تقع في «بولاق» بالقرب من قصرها بالدقّي. في تلك الحفلة ألقى الشاعر «شوقي بك» قصيدةً مدَحَ فيها كرم الأميرة، وأسرتها وجاء في مطلعها:

يا باركَ الله في عباس من ملك ... وبـاركَ الله في عمـاتِ عبـاسِ
ولا يـزل بيتُ إسماعيـل مرتفعـاً ... فرعُ أشمُّ، وأصلٌ ثـابتُ الراسِ
وبـاركَ الله في أسـاسِ جـامعـةٍ ... لـولا الأميرة لم يُصبـح بأسـاس
يا عمةَ التاجِ ما بالنيل من كرمٍ ... إن قيسَ بحرُكُم الطامي بمقياسِ!

ولقد ذكرت صحف مصر ومجلاتها كرم الهبة الملكية العظيمة بكثير من التبجيل للأميرة فاطمة التي وقفت ستمائة فدان أرض من أجود أطيانها لإنشاء

مباني الجامعة، ووهبت لها أيضاً مجوهراتٍ بلغت قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه مصري. وصدر أمر ملكي بتعيين حسين رشدي باشا الذي كان رئيساً لمجلس النظار (الوزراء) في ذلك التارِيخ، رئيساً لمجلس الجامعة.

استطاعت ميّ في سنوات التحاقها بالجامعة المصرية القديمة الأربع أن تطرح عن كاهلها الهموم الحياتية اليومية، ولاسيما الاقتصادية التي أتعبتها في أول عهد سكناها في مصر، وخرجت من القوقعة التي حبست نفسها فيها من قبل، فانطلقت في الأوساط الأدبية، والاجتماعية والوسط الجامعي واثقةً من نفسها، راضيةً عليها، متوثبةً لتحقيق أمنياتٍ كبيرة تتلاءم وطموحها، ونفسها الكبيرة. قد نستغرب كيف كانت تجد الوقت لمتابعة الدراسة العالية، والاشراف على «المحروسة» والتحرير فيها، وفي غيرها من المجلات، والإعداد لمجالس «الثلاثاء» في ندوتها، ولكن السرّ في التوفيق بين جميع هذه النشاطات يكمن في قدرتها على التنظيم، وتحرّرها من الأعباء المنزلية كافةً، والاستفادة من كل ساعة وفرصة. مذكراتها في الجامعة التي كانت تنشرها في «المحروسة» عام (١٩١٥) والتي صدرت في كتابها «سوانح فتاة» تُعرب عن أنها قضت مرحلة هانئة، طافحة بالحماسة، من أسعد مراحل حياتها فلقد وصفت كيف كانت تسبق الطلاب جميعاً إلى قاعة الدرس مبتهجةً، متشوقة إلى الجوّ الجامعي الطافح بكل جديدٍ ممتع، وتجلس وحدها في قاعة الدرس قبل وصولهم فتكتب خواطرها:

(كم من تأمّل التقط موضوعه نظري بين وريقات شجرة خضراء تتمايل أمام النافذة، وكم من حلمٍ لمحت خطوطه مرسومة في جوّ قاعة الدرس، وشاهدت ألوانه متخلّلة خيوطَ الأشعة المطلّة علينا. أفكار، وتأمّلات، وأحلام رفرفت عليّ حيناً، وغنّت في نفسي كالأطيار!).

وكانت تهرب من زميلاتها الأجنبيات في أثناء الفرص القصيرة بين درسٍ وآخر، هرباً من ثرثرتهن الفارغة حول أخبار المجتمع والأزياء، وتلجأ

إلى قاعة المطالعة تقرأ، أو تتأمل طويلاً في صور أعلام الفكر العالمي المعلقة على الجدران فتكتب خواطرها:

(... إن للأمكنة أرواحاً، وفي هذه الغرفة روح تناجيني، وسرٌّ أطمع في اجتلاء غوامضه.

... في منتصف الجدار، إلى اليمين، صورة «فيكتور هوغو» في شيخوخته، ويده تحمل جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة كأنما يناجي الأجيال قائلاً: «ها أنذا! أنا فيكتور هوغو الذي أنالته الحياة مجداً، وثروةً، وحباً، أنا ذاك الذي شاخ في المنفى فكان سعيداً في الشقاء». وإلى جانب هوغو أرى الفيلسوف الرياضي «ديكارت» الذي قال «فولتير» في وصفه إنه جعل العميان يبصرون إذ بيّن للقرن الخامس عشر أخطاء القرون الخاليات)[1].

ولا تنسى ميّ الاعراب عن فرحتها بوجود صورة لأديبة مرموقة هي «مدام دي سيفينييه» فتتأملها طويلاً، وتُطري فيها الفكر النسائي المتألق، والاسلوب الأدبي المشوّق، والمنطق السليم، وتتمنى أن تبلغ المرأة العربية المتوثبة إلى النهوض أرفع درجات العلم والفن، ومدارج التفوّق والرقيّ الصحيح.

وهذه ميّ تعطي رأيها في التعليم الجامعي المختلط لصديقها في لبنان الأستاذ جبر ضومط عام ١٩٢٠:

(أذاعت بعض صحفنا قرار كليتكم[2] بشأن قبول الفتيات في الدروس مع الشباب، فتناولني ازاء هذا القرار عاملان اثنان أحدهما اجتماعي، والآخر شخصي: أما العامل الأول فاستحسان وتحبيذ وأما العامل الآخر... فسيأتي ذكره في السطور التالية:

---

(١) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: (٨٠).

(٢) وتقصد بها الجامعة الأميركية حيث كان الأستاذ ضومط يدرّس فيها علم اللغة العربية والبيان.

طالما سمعت عن مساوىء التدريس المختلطة، وكنت أقابل تلك الأحكام الضالة بالتصديق قبل الاختبار. بيد أني، في السنوات الأخيرة، تبعت في الجامعة المصرية دروس تاريخ الآداب الانجليزية والفرنساوية، ودروس الفلسفة العامة، والفلسفة العربية وعلم الأخلاق، فلم أر مدة سنواتٍ أربع نظرةً واحدة مزعجة أو غير مرضية. بل كنت بالعكس أشعر بأن حضوري ورفيقاتي في تلك المحافل الفكرية إنما هو بمثابة الزكْوَة[1] لاجتهاد الطلبة، كما أنه كان يجعلهم دائمي الانتباه إلى ألفاظهم وحركاتهم، حتى وإلى لهجة أصواتهم، وما يتخلّلها من ارتفاع وانخفاض. ومراقبة النفس ومحاسبتها على هذه الصورة أسهل أساليب التهذيب، وأضمنها نتيجةً، وأوفرها نبلاً إذ لا إرغام فيها، يلتمسها المرء حرّاً، ويتحداها مختاراً)[2].

ولميّ رأي من نوع آخر في التعليم الجامعي، يجدر بأن يُعرف لدلالته على صواب تفكيرها، نشرته مجلة الهلال عام **١٩٣٩** كان من أهمّ ما جاء فيه، بعد أن دعت إلى ضرورة جعل التعليم الابتدائي إجبارياً:

(... ولكنني، في الوقت نفسه، لست من القائلين بإطلاق التعليم الجامعي للأذكياء وغيرهم، لأصحاب الاستعداد الطبيعي، ولمن لا استعداد عندهم للإستفادة من هذا التعليم. بل يجب أن يقتصر على ذوي المواهب الذين يمكن أن يستفيدوا ويُفيدوا، ويستطيعون أن يهضموا العلوم والفنون العالية، وينتجوا انتاجاً مبتكراً نافعاً يرفع مستوى الحياة العقلية والاجتماعية في الأمة. وليس الغرض من التعليم الجامعي أن تخرّج الجامعة نُسخاً من الكتب الدراسية، فالكتب كثيرة على نحو ما تقول الأقصوصة الظريفة: لقد قابل رجلٌ صديقاً له فأراد أن يفاخره بعلمه فقال له:

---

(١) التطييب، وربما قصدت بها: التحميس.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١١٦.

ـ «لقد حفظت «البخاري» كلّه...».

فأجابه:

ـ «لقد زادت نسخة من صحيح البخاري إذن في البلد...»

فنحن لا نريد من التعليم الجامعي نُسَخاً من الكتب المطبوعة، ولكننا نريد عقولاً ناضجةً منتجة. وهذه غاية لا يمكن تحقيقها ما لم نختار لكل كلية من كليات الجامعة المستعدين أصحاب المواهب، وهذا ميسور من الاطلاع على درجات الامتحانات، ومن توجيه الطلبة إلى النوع الذي يميل إليه كل واحد منهم بطبعه وميوله).

وشرحت ميّ رأيها في هذا الموضوع بأسلوب المفكرة، المثقفة الرصينة، مقترحةً وضع التلميذ المناسب في الكلية المناسبة لموهبته، وأكدت على «أن العبرة في التعليم الجامعي بالكيف لا بالكم». ولا ريب في أن الذين عرفوها، وقدروا علمها وأدبها أمثال الدكتور فؤاد صروف، والأستاذين سلامة موسى وأحمد حسن الزيات وغيرهم، كانوا على حقٍّ عندما قالوا: إنها سبقت عصرها بخمسين عاماً في نضجها، وبُعْدِ نظرها. وظلت ميّ طالبة علم من المهد إلى اللّحد بلا مغالاة: كانت لا تقدم بحثاً للنشر إلا بعد التمحيص والمطالعة في موضوعه، والتدقيق، فلنقرأ ما كتبت إلى صديقها الدكتور يعقوب صروف الذي كانت تدعوه «أستاذي» في بعض رسائلها إليه:

(... ألجأ إلى القواميس حينما أكتب مقالةً، ولا أثبت أمراً فلسفياً كان أو اجتماعياً أو تاريخياً إلا بعد البحث والتنقيب في لغتين أو ثلاث لغات أو أربع لأكون على ثقة مما أبديه!)[1].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٣.

وعندما قدّمت لقراء العربية سيرة الأديبة الرائدة ملك حفني ناصف «باحثة البادية» نشرت فصولها في المقتطف عام ١٩١٩ قبل أن تنشرها في كتاب عام ١٩٢٠ وكانت بينها وبين الدكتور يعقوب مراسلة ممتعة، جلت ما كان مجهولاً من صفاتها، وصفات المرأة والمفكرة، والكاتبة المثقفة. كتبت إلى صاحب المقتطف تعتذر عن تأخرها في إرسال إحدى المقالات عن الباحثة لتوعّكٍ في صحتها إبان موجة حرّ ورطوبة في القاهرة (في ١ ـ ٧ ـ ١٩١٩) وكان ما قالته له:

(... ولا أحب أن أكتب إلا ساعة أشعر بأني متمتعة بالكتابة، ولا سيما أن الفصول الباقية[1] بيت القصيد، وعليها مدار البحث لأني سأتكلم عن الباحثة ناقدةً، ومصلحةً لتعيين ما دلَّتْ عليه من الخطأ، وأرشدت إليه من سُبُل الاصلاح. وهو أمرٌ يستدعي عنايةً خاصة، وتنقيباً دقيقاً في كل سطر خطّته)[2].

وظلّت ميّ تنهل من العلم، ولا ترتوي، حتى في أسفارها إلى الغرب التي قامت بها بعد موت أبويها. ففي صيف عام ١٩٣٢ ذهبت إلى انكلترا، لا للسياحة والترفيه عن النفس الحزينه لفقدان والديها، ولا للاقامة في الفنادق كما يفعل السياح عادةً، إنما لتتابع في جامعة لندن دروساً في الأدب والفن والتأريخ، تعدّها الجامعة في فصل الصيف. ولو لم نعثر على مغلف رسالة بين أوراقها الشخصية بعث بها صديقها المستشرق الدكتور جوزيف شاخت إلى عنوانها في الجامعة لما علمنا بهذه النبذة عن وَلَعِها بالمعرفة والعلم، وانتهازها الرحلات للنهل من ينابيعها، وهي في السادسة والأربعين من العمر! وهذه صورة عن عنوان البطاقة البريدية المذكورة آنفاً:

---

(١) تقصد فصول سيرة «باحثة البادية».

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٧٩.

MISS MAY ZIADE

UNIVERSITY OF LONDON

HOLIDAY COURSE - KING'S COLLEGE

CAMPDEN HILL ROAD

LONDON W.8

31.7.32.20-2

Miss May Ziadé

University of London Holiday Course

King's College

Campden Hill Road

London W.8

From

Prof. Dr. Joseph Schacht

Königsberg Pr., Brahmsstr. 5

وفي الصيف التالي، آنست في نفسها رغبةً في السفر إلى إيطاليا وهي في غمرة الأحزان، لا للتعرّف إلى آثارها التاريخية والفنية والبحث عن السلوان في ربوعها الفتانة، إنما لاستكمال دراسة لغتها، وتأريخ آدابها وفنونها، وكانت قد زارت إيطاليا في رحلة سابقة قامت بها مع والديها عام ١٩٢٥. فمن

رسالة الكاتب الايطالي «فالنتيو بيكـولي» اليها في ٢٥ ـ ٥ ـ ١٩٣٣ علمنـا بالغرض من رحلتها الجديدة إلى بلد ميجيلا نجلو ودانتي إذ كتب إليها باللغة الإيطالية ما يلي:

(تجدين طيّة المعلومات المطلوبة عن «جامعة بيروجيـا» واليك بعض الايضاحات الضرورية أرسلها بسرعة قبل سفرك.

أحب أن أؤكد لك، قبل كل شيء، أن «بيروجيا» هي إحدى أجمل المدن الايطالية، فهي تقع على هضبة في قلب إيـطاليا، وفي البقعـة التي انطلقت منها حركة الرهبان الفرنسيسكان، بجوار بلدة «أسّيزي». مناخها حار بعض الشيء في شهر آب، ولكن الهواء العليل يرطبه دوماً. وفيها نُزُلٌ عائلي أعرفه يُدعى «ڤيلاّ ڤيستا» تديره إحدى صـديقاتي، وسـوف تجدين لـديها استقبالاً ممتازاً.

أما عن الجامعة فإن منهجها يتألف من فصلين، في الأول يُدرّس فقه اللغة فقط، ويهدف إلى إعداد المعلمين، وأما الفصل الثاني، وهو ما يهمّك أكثر، فهو يتألّف من مجموعة محاضرات ودروس جامعية تقدمها شخصيات علمية رسمية تُدعى إلى الجامعـة لهذا الغـرض، وكثيراً مـا تنصبّ هذه المحاضرات على الفن، وعلم الآثار انطلاقاً من الفن الايطالي، وهي كبيرة الأهمية، ومتقنة للغاية، وقيّمة، أياً كان الاستاذ المحاضر).

وهكذا أشبعت ميّ رغبتها في اكتساب مزيدٍ من الاطلاع على التراث الأدبي والفني في إيطاليا، وقضت في بيروجيا جزءاً من الصيف لا نعلم مدته على وجه التحديد، فأوحت إليها إقامتها فيها بمقطوعة أدبية رائعة في مبناها ومغزاها جعلت عنوانها: «من ذكريات الصيف: صلاة يوم الأحد»[١]. وقد

(١) يجد القارىء هذه المقالة بخط ميّ وتوقيعها في الصفحات الملحقة بهذه السيرة التي خصصناها لما عثرنا عليه من أعمالها الأدبية غير المعروفة حتى يومنا الحاضر.

وصفت فيها كاتدرائية «سان بيترو» والكنائس التي زارتها في مدينة «بيروجيا» وصفاً دقيقاً ممزوجاً بتصوير مشاعرها في ذلك اليوم. إن «صلاة يوم الأحد» التي حالفنا الحظ بالعثور عليها بين أوراقها ومخطوطاتها المشردة في مصر صفحات من أدب ميّ الخالد، خطتها بقلبها المفجوع، لا بيراعها فحسب، وأبدعت في وصف نصب تذكاري أقيم في ردهة المعبد تخليداً لذكرى الجنود الايطاليين الذين استشهدوا في الحرب العالمية الكبرى.

وإذا عدنا في الحديث إلى ميّ، طالبة العلم التي لا ترتوي نلحظ مثابرتها عليه دونما انقطاع تقريباً. ولا ريب في أنها أسرفت على نفسها في الدرس والمطالعة، والكتابة والعمل الفكري إسرافاً أضرّ بصحتها في نهاية حياتها، وحرمها من متعٍ كثيرة، وذلك بدليل ما كتبته إلى صديقها أمين الريحاني سنة ١٩٢٠ حيث قالت:

(. . . أما تأخري عن الكتابة إليك فسببه الكتابة نفسها. لقد قتلني القلم والدرس، ومنذ أربعة شهور لا أدري على أي أرضٍ أعيش. ما أكثر المقالات التي يطلبها أهل الصحف والمجلات، وما أكثر الخُطب التي يريدها منظمو الحفلات الخيرية والأدبية! وأنا واقعة بين نارين: فإما اعتذر وأُغضب القوم، وإما ألبي طلباتهم فتصير عظامي مكاحل في شهور قليلة. . . ولا تلبث أنت يا صديقي البعيد أن تسمع بموت تلك الفتاة، وحيدة أبويها)[1].

كانت ميّ تتحرق أسفاً على قصر عمر الانسان الذي يحول دون ما يرتجي من العلم، فكتبت إلى الاستاذ جبر ضومط في ١٤ ـ ٨ ـ ١٩٢١ رسالة عرجت فيها على هذا الموضوع فقالت عن شغفها بالعلم:

(. . . وطالما قادني هذا الميل إلى التفكير في قصر الحياة إزاء سلسلة المعارف الانسانية. فكيف يتمكن صاحب النفس الوثابة التي لا تشبع بقوت

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ألبرت الريحاني ـ ص: (١٨٠).

الفكر، ولا ترتوي بماء التأمل، كيف يتمكن من الإلمام، لا أقول بجميع العلوم أو ببعضها، بل بواحدٍ منها فقط، بواحدٍ دون غيره؟ كيف يتمكن من ذلك وسنوات حياته معدودات، بينا العلم الواحد تنبثق منه فروع يـزداد عددها كل يوم، وتشتبك بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة بعلومٍ أخرى شتى؟

يقول أهل فلسفة «معلهش وأنا مالي» إنه ما دام الانسان عاجزاً عن معرفة كل شيء، كلما تعلّم زاد جهلاً لاستشعاره بالكثير الذي يتعذّر الوقوف عليه، فما هي الغاية من التعلّم؟ دعنا إذن على جهلنا البسيط دون أن نجعله بالعلم مركّباً. هذا ما يقولون، ونحن الذين نشفق عليهم، هم المبتلون بهذه العقلية الموقفة كل دافع إلا تنهّد ساعة اليأس، والشعور ببطلان جهادنا ـ ومثل تلك الساعة غير قليل في حياة أهل البحث والفكر ـ نتساءل ما إذا كانوا مخطئين أو مصيبين، غير أن تلك الحالة النفسية لا تدوم، ولله الحمد، فلا نلبث أن نهبّ قائلين: «إلى الأمام! لئن كان القليل وحده طوع يدي فسأستفيد بهذا القليل الاستفادة كلّها حتى أصير به كبيراً»[1].

لقد جاهدت ميّ واستفادت مما تعلّمت الاستفادة كلها، وصارت به امرأة كبيرة، ومحدثةً وخطيبةً وكاتبةً كبيرة، يتباهى بشخصيتها وبأدبها ونبوغها تأريخ الأدب العربي الحديث.

وأخيراً ينبغي أن نشير إلى أن ثقافتها ورقيّها كانا يضفيان على وجهها وطلعتها نوراً وصفها بعض الذين عاصروها، منهم الدكتور منصور فهمي الذي أشار في محاضراته عنها إلى روحها الزاخرة بالنور.

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٦٨ ـ ١٦٩.

الكاتبة

(إن صياغة الأفكار أصعب وأوجع من صياغة المعادن الثمينة، والأحجار الكريمة. إنها ليسكب عليها المرء قوى نفسه أحياناً، ويغذيها من حشاشته، ويرويها من دماء حياته. وإن كان في ذلك مشقة فإن كذلك فيها مجداً عظيماً. وكأن المجد لا يُدفع ثمنه إلا من دماء الحياة، وسويدات القلوب!

ميّ[1]).

كان من أهداف النهضة الأدبية التي عاصرتها ميّ التجديد في الكتابة بتنقية الأسلوب من التعقيد والتطويل، وتنشيط حركة الترجمة والنشر للاطلاع على العلوم والفنون والروايات الغربية التي أخذت تستهوي القراء. وميّ، قبل كل شيء، كاتبة مقالة مجيدة منذ أن استهلت نشاطها الفكري في مصر سنة ١٩١٢، وقد اعترف لها المؤرخون والنقاد بالاسهام في ترقية «أدب المقالة» الهادفة إلى توعية الناشئة. تبارت مع رهط من كبار كتاب عصرها في هذا اللون التعبيري الهام، فنشرت مقالات عديدة في حياتها، تناولت فيها موضوعات اجتماعية وأدبية، ووجدانية وقومية، ونقدية أحياناً. وإننا نلحظ أن بعض كتبها المنشورة: «كـ «سوانح فتاة»»، و«بين الجزر والمدّ» و«ظلمات وأشعة» و«كلمات واشارات» تضمنت تلك المقالات التي ظهرت في «المحروسة» و«الزهور» و«الهلال» و«مجلة سركيس» و«الجريدة» والمقتطف و«الأهرام».

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص ٨٦، وهو مقطع من احدى رسائلها الى الدكتور يعقوب صروف، المؤرخة في ٨ ـ ٧ ـ ١٩١٩.



ميّ زيادة

أما مشاركتها في حركة الترجمة فقد تجلت في ثلاثة أعمال أولها: رواية «ابتسامات ودموع» للكاتب الألماني «فريدريك ماكس مولر»[1] التي كان عنوانها باللغة الألمانية: «الحب الألماني ـ Deusche Liebe» ولكنها غيّرته بما يتفق مع ذوقها. ولما كانت غير متمكنة من الألمانية يوم نشرت هذه الرواية بالعربية سنة ١٩١٢ أعادت النظر فيها ونشرتها مرة ثانية سنة ١٩٢٠. والعمل الثاني الذي قدمته مترجماً كان رواية: «رجوع الموجة»[2] للكاتب الفرنسي

---

(١) «فريدريك ماكس مولر ـ FREDERIC MAX MULLER ـ ١٨٢٣ ـ ١٩٠٠.

(٢) عنوان الرواية المذكورة بالفرنسية هو «LE RETOUR DU FLOT».

«برادا» فنشرت فصولها مسلسلة في المحروسة سنة ١٩١٥، ثم جمعتها في كتاب صدر سنة ١٩١٦. وكان العمل الثالث رواية: «الحب في العذاب» للكاتب الانكليزي «كونان دويل»[1]، وقد بدّلت عنوانها الذي كان: «اللاجئون ـ The Refugies» ونشرتها في «المحروسة» فصلاً بعد فصل، ثم في كتاب مستقل سنة ١٩١٧.

أغلب الظن أن ميّ اختارت هذه الروايات الثلاث لتلاؤمها مع نزعتها الرومنطيقية، وذوقها الفني، ولكنها لم توفّق في هذا الاختيار إذا ما قسناه بالروايات الغربية الجيدة التي ترجمها بعض كتاب عصر النهضة ومنها: آلام ڤارثر للشاعر «غوتي» التي نقلها للعربية الأستاذ أحمد حسن الزيات، و «ماجدولين» أو «تحت ظلال الزيزفون» لـ «ألفونس كار» التي ترجمها مصطفى لطفي المنفلوطي، و «البؤساء» لـ «فيكتور هوغو» التي ترجمها طانيوس عبده، وغيرها كثير.

إن من يتابع نشاطها في حقل الصحافة قبل الحرب العالمية الكبرى وبعدها، يرى بوضوح أنها كانت تتسلق درجات سلّم النجاح في مقالاتها وأبحاثها بسرعة. لقد تبوأت مكانة مرموقة منذ بداية عهدها بالنشر ولكن الفارق كبير بين ما نشرته وهي في مستهل عمرها الأدبي، وبين ما قدمت في العشرينات حيث تبلورت شخصية الكاتبة المتفوقة، ونضجت ثمار فكرها وقلمها. وإن ما يسترعي الانتباه في سيرتها الأدبية وضوح الرؤيا لديها في الحكم على كتاباتها، وقدرتها على نقد أعمالها بنفسها، ذلك أنها كتبت رسالة إلى الأستاذ إميل زيدان، صاحب الهلال، الذي كان يعدّ للنشر كتابها: «سوانح فتاة» سنة ١٩٢٢ جاء في نهايتها قولها:

(... بعض تلك المقالات ستوضع في مجموعاتٍ أخرى، وبعضها

---

(١) «كونان دويل ـ CONAN DOYLE ـ ١٨٥٩ ـ ١٩٣٠ ـ كاتب اسكتلندي له روايات متعددة، كان طبيبا في افريقيا الجنوبية.

الآخر لن أضعه في مكان، ولا في زمان، ويخجلني أني وضعت اسمي تحته يوماً، ولو مبتدئة!)[1].

ولا ريب في أنه كان لتشجيع أصحاب الصحف والمجلات الأدبية في مصر آنذاك أثر بالغ في تنمية شخصيتها الأدبية، وفي بناء شهرتها، فقد رحبوا بظهور موهبتها، وقرظوا مقالاتها منذ البداية. تلقى الأستاذ انطون الجميل خواطرها التي نشرتها في «المحروسة» سنة ١٩١٥ بالفرح، وأعرب عنه في رسالة قال فيها:

(يا ميّ

قرأت اليوم ما كتبته في يومياتك عما جال في صدركِ أثناء الدقائق التي قضيتها بين صور مشاهير الكتاب، وتلوت على مهلٍ، كمن يتلو صلاةً أو يترنم بأنشودة، ما أوحى إليكِ من الالهام منظر أمراء الفكر «فولتير» و«هوغو». ما أجمل هؤلاء الرجال، بل أنصاف الآلهة، تذيع مفاخرهم بعد أجيال فتاة شاعرة، تمجّد أرواحهم بلغةٍ لم يعرفوا منها إلا الإسم، فتاة هي وليدة جبل الزيتون، وربيبة الأرز، ونزيلة وادي النيل، تنشر مآثر أبناء «السين» بلغة سكان المضارب. أنت لست بالغريبة عن هذه الأرواح الخالدة، كما أنها ليست بالغريبة عنك، فمحبّو الحقيقة كمحبي الجمال، أولاد طينٍ واحد، بل أبناء أسرة واحدة)[2].

ورحب بقلمها الأستاذ سلامة موسى على صفحات «المستقبل» و«الهلال» في أول نشأتها، ثم أخذت تكتب للهلال سنة ١٩١٧ استجابة لدعوة صاحبها فأرسلت مقالتين كانت الأولى بعنوان: «تحية إلى الهلال»[3]. والثانية بعنوان: «ما هي اليوجا»، وقد علقت المجلة عليهما بما يلي:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٩١.
(٢) أطياف من حياة ميّ ـ طاهر الطناحي ـ ص: ٤٥.
(٣) الهلال ـ ج ٢٦ ـ عدد اكتوبر ١٩١٧ ـ ص: ٩ ـ ١٠ ـ و ٧١ ـ ٧٨.

(فالمقالة الأولى تنم عن أدب الكاتبة، وجمال تعبيرها، وبُعد خيالها، والثانية تدلّ على علمها، وغزارة مادتها، وسعة اطلاعها).

ثم دعاها الدكتور يعقوب صروف للتحرير في مجلة المقتطف فأخذت تزوّدها بمقالات وأبحاث اجتماعية وثقافية وتاريخية وطدت مركزها بين كبار كتاب العصر، وكانت أولى تلك المقالات عن الكاتبة الفرنسية: «مدام دي سيفينييه» ومن ثم استرعى انتباه الكثيرين أن المقتطف كانت تقدم مقالاتها على مقالات مصطفى صادق الرافعي الذي كان (أكبر منها سناً، وأرصن عبارة وأثبت قدماً في الأدب) حسبما جاء في رسالة عتاب وجهها إلى الدكتور صروف الاستاذ محمود أبو رية، تلميذ الرافعي. ويقول الأستاذ وديع فلسطين (إن الدكتور صروف ردّ عليه برسالة أطلعني عليها قال فيها ما معناه إن الأمر كله رهن اعتبارات المطبعة، وإن من المصادفات، غير المقصودة، أن تجيء مقالات ميّ قبل مقالات الرافعي)[1].

وينبغي أن نذكر هنا أن آخر مقالة كتبتها ميّ في حياتها كانت بعنوان «تحية الأعياد»[2] وذلك قبل وفاتها بأقلّ من سنة.

أما أسلوب التراجم التي قدمتها فهو سهل، مطابق للوصف الذي جاء في قصيدة شاعر القطرين لرواية: «ابتسامات ودموع»، وتقريظه لها:

حُلْوٌ كَخَمْرِ القسوس صَفْوٌ كدمعِ العروسِ

سمحٌ كوجه الضحوكِ،

أخَالَنا النثرُ شعراً لِلّهِ درُّكِ دَرَّا

لا عاشَ مَنْ يشنوك[3].

---

(١) الأديب ـ حديث مستطرد عن ميّ بقلم وديع فلسطين ـ عدد سبتمبر ١٩٧٤ ـ ص: ١٣.

(٢) مجلة الطالبة ـ العدد التاسع من السنة الثالثة ـ عدد يناير ١٩٤١ ـ ص: (١ ـ ٣).

(٣) ديوان خليل مطران ـ الجزء الثاني ـ ص: ٣١٠.

كما كانت تنشر بعض المقالات باللغة الفرنسية في «لوجورنال ديجيبت ـ Le Journal D'egypte» وفي «البروغري ـ Le Progrés» فنشرت في «البروغري» مقالة بعنوان: «المسلمة اليوم ـ La Musulmane Aujourd'hui» شرحت فيها ابحاث «باحثة البادية» الاصلاحية: «النسائيات»، وأشادت بذكرها وبجهودها.

إن لمي رأياً في التراجم عن الأدب الغربي يتفق وآراء أدباء النهضة وهو أن أدبنا الحديث مفتقر إلى التطوير والتطعيم بالآداب العالمية التي أخصبها العلم والفن فسبقتنا أشواطاً. كانت ترى أن الدعامة الأولى لأدبنا العربي هي حركة ترجمة واسعة ننقل فيها نماذج من علوم الغرب وفلسفته وآدابه لتغذية عقولنا وأذواقنا، وتقوية مداركنا، ذلك أن الغرب قد سبقنا في عطائه العلمي والفني في القرون الأخيرة، وبنى حضارةً جديرة بأن نتعرف إليها، ونقتبس منها ما يلائم مجتمعنا وثبتنا وأهدافنا، وبهذا التطعيم يشرق أدبنا قوياً، رصيناً، جديداً في تصوّره وصوره. ولم يفت ميّ التنبيه إلى أهمية الحفاظ على طابعنا العربي، وهويتنا الشرقية، في مقالاتها وخطاباتها والأحاديث الصحفية التي أدلت بها، وهذا ما حدا بالكاتب الفرنسي: «راؤول فارغون ـ Raoul Fargon» إلى تقديرها، والاشادة بغيرتها على النهضة العربية الحديثة، والطابع الشرقي، في كتابٍ نشره في القاهرة سنة ١٩٣١ بعنوان: «ملامح شخصيات من مصر ـ Silhouettes D'egypte»[1]. لقد أفرد لميّ، «الكاتبة العربية المتمصّرة»، فصلاً بعنوان: «الكاتبة النابغة» تحدث فيه عن ثقافتها الكبيرة، ونبوغها وشخصيتها، وذكر أنها تُعدّ كتاباً عن نساءٍ عربيات باللغتين الفرنسية والانكليزية سيصدر بعنوان: «أصوات النساء الشرقيات ـ Voix Des Femmes D'orient» ولكن هذا العمل لم ير النور، والمرجّح لدينا أنه كان من ضمن المشروعات الأدبية التي لم تنجزها.

---

(١) ملامح شخصيات من مصر ـ راؤول فارغون ـ ص: ٣٧.

مؤلفاتها :

كان أول كتاب نشرته ميّ، وأنجح كتاب لها سيرة: «باحثة البادية». وهو دراسة أدبية اجتماعية، وتاريخية ونقدية لحياة ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسمها المستعار «باحثة البادية» ولكتابها «نسائيات» ودورها الطليعي بالنهضة النسائية والاجتماعية في مصر، والبلاد العربية.

أحدث كتابها عن الباحثة دوياً كبيراً في الأوساط الأدبية في سائر أرجاء الوطن العربي وفي بلاد المهجر، إذ وجد فيه القراء والكتاب عملاً في فنّ السيرة جديداً من نوعه، ممتازاً في البحث والتحليل، والعرض والنقد، مما مكن دعائم شهرتها، وعزّز مكانتها الأدبية بين كبار كتاب العصر. وقد نشرته دار الهلال في القاهرة عام ١٩٢٠، وقدم له الدكتور يعقوب صروف.

عرفت كاتبتنا باحثة البادية عام ١٩١٣ عبر مقالاتها في «الجريدة» وفي «المؤيّد» الداعية إلى تعليم المرأة، وحفظ حقوقها التي منحتها إياها الشريعة الإسلامية، وتحريرها من الجهل والعبودية لتحرير المجتمع برمته. كانت تلك المقالات نواة كتاب «نسائيات»[1] فأعجبت ميّ بالكتاب وبصاحبته وبدعوتها الاصلاحية المتزنة، المستوحاة من دعوة قاسم أمين لاصلاح الأسرة والمجتمع التي نشرها في أواخر القرن التاسع عشر بكتابيه: «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، وأحدثت ضجة كبرى يومئذٍ في مصر. ثم تمّ التعارف بين الكاتبتين شخصياً، وتحول إلى صداقة فكرية زادت ميّ تقديراً لشخصية «باحثة البادية». وفي عام ١٩١٨ ماتت «الباحثة» فحزنت ميّ عليها وفقدت بموتها صديقةً أثيرة، وزميلة ورائدة تأثرت بها وأحبتها لمزاياها الكبيرة. وبعد أن رثتها بمقالة تتناسب مع مقام الباحثة[2] فكرت بتقديم دراسة وافية عنها فكان كتاب «باحثة البادية» الذي صدر بعد عامين قضتها ميّ في البحث عن كل

---

(١) لقد نشرت مقالات باحثة البادية في جريدة «الجريدة» المصرية قبل ان تطبع في كتاب «نسائيات».

(٢) الهلال ـ ج ٢٧ ـ عدد نوفمبر ١٩١٨ ـ ص: ١٥٣ ـ ١٥٤.

ما اتصل بحياتها وكفاحها، ودورها في النهضة الجديدة، وأخذت تنشر فصوله في حلقات متتابعه في المقتطف.

لم يكن في مقدمة الكتاب بقلم الدكتور يعقوب صروف أية مغالاة في تقييمه، وإبراز حسناته ولا سيما عندما قال إنه أنموذج جديد في كتابة السيرة العلمية، والتقيّد بأصول هذا الفن الأدبي لما تضمن من دراسة شاملة لحياة الباحثة، ونقدٍ محكم، وتحليل لأعمالها. ويخيّـل للقارىء أن ميّ تقمّصت شخصية الباحثة ورافقتها في سائر مراحل حياتها، إذ لولا ذلك لما تمكنت من سبر أغوار نفسها، واستخراج لآلىء فكرها، وسامي مراميها. كما أنه يشعر بصبر ميّ على التدقيق في كل شاردةٍ وواردة، وكل عبارةٍ وموقف، وبقدرتها على التصوير والتحليل مما يجذبه إلى عالم الباحثة، ومعاناتها الفكرية والنفسية جذباً قوياً. أما النهج الذي اتبعته في تبويب فصول الكتاب، والربط بينها، وتفصيل موضوعاتها، فهو النهج الفني لكتابة السيرة عند الغربيين الذي اقتبست منه بنية هذا الكتاب النفيس. ولقد كانت سباقةً في تقديم سيرة من هذا النوع، وأول امرأة عربية تنشر كتاباً عن امرأة أخرى.

تسلم جبران كتاب الباحثة في نيويورك بالبريد فقرأه معجباً، مأخوذاً وكتب إلى ميّ ما يلي:

(ما قرأت قط كتاباً عربياً أو غير عربيّ مثل «باحثة البادية». ولم أر في حياتي صورتين مرسومتين بمثل هذه الخطوط والألوان. لم أر في حياتي صورتين في إطارٍ واحد: صورة امرأة أديبة، مصلحة، وصورة امرأةٍ أكبر من أديبة، وأعظم من مصلحة. لم أر في حياتي وجهين في مرآةٍ واحدة ـ وجه امرأةٍ يخفي نصفه ظلّ الأرض، ووجه امرأةٍ يغمره نور الشمس. قلت: «وجه امرأةٍ يخفي نصفه ظلّ الأرض» لأنني شعرت منذ أعوام، ولم أزل أشعر، بأن باحثة البادية لم تتملّص من محيطها المادّي، ولم تتجرّد مما يساورها من المؤثرات القومية والاجتماعية حتى حلّ الموت قيودها. أما الوجه الثاني، الوجه اللبناني المغمور بكلّيته بنور الشمس، فهو في عقيدتي وجه أول امرأةٍ شرقية تعالت حتى بلغت

ذلك الهيكل الأثيريّ حيث تنزع الأرواح أجسادها المصنوعة من غبار التقاليد والعادات، والزوائد وقوة الاستمرار. هو وجه أول امرأةٍ شرقية أدركت وحدة الوجود، بما في الوجود من الخفيّ والظاهر، ومن المعروف وغير المعروف. وغداً بعد أن يطرح الزمن ما يكتبه الكتاب، وينظمه الشعراء، في «هوّة» النسيان يظلّ كتاب «باحثة البادية» موضوع اعجاب الباحثين، والمفكرين، والمستيقظين.

أنت يا ميّ صوت صارخ في البرّية. أنت صوت ربانيّ، والأصوات الربانية تبقى متموّجة في الغلاف الأثيريّ حتى نهاية الزمن)[١].

وتناولت الأديبة «سلمى صائغ» الكتاب بالتقريظ والاطراء حيث وجدت أن البراعة في البحث، والعمق في الدراسة مما يرفع صاحبته إلى مرتبة «كتاب الطبقة الأولى»، وأنها «ملأت فيه الفراغ الفكري في العالم النسائي». وكان مما كتبته سلمى صائغ عن ميّ في كتابها «باحثة البادية»:

(كتابها ثلاثة مؤلفات في واحد: نظريات «قاسم أمين» في تحرير المرأة، وأجمل ما كتبته «باحثة البادية» في اصلاح شؤونها، وشروح ميّ على هذا التحرير، وهذا الاصلاح.

... وليست ميّ المخلصة نحو الباحثة بأقل جوداً نحو قاسم أمين. فقد ذكرت أَحَدَّ سهامه، تلك السهام التي رمى بها العالم الشرقي بقلبه، وكأنها خافت أن ينسى الشرق جهاد محرّر المرأة فجاءت بما نشرت من أقواله نذيرةً ومذكرة)[٢].

أما الدكتور فؤاد أفرام البستاني فلقد صنّف كتاب ميّ عن الباحثة بين

---

(١) الشعلة الزرقاء ـ رسائل جبران خليل جبران الى مي زيادة ـ تحقيق وتقديم سلمى الحفار الكزبري وسهيل بديع بشروئي ـ ص: ٩٧ ـ ٩٨ من الطبعة الأولى.

(٢) النسمات ـ سلمى صائغ ـ بيروت ١٩٢٣ ـ ص: ١٤٢ ـ ١٤٣.

أفضل كتب النقد الأدبي في مقالة مطولة رحّب فيها بظهور أديبة عربية تضاهي كبار الأدباء، وأشاد ببراعتها في تصوير شخصية الباحثة، والمقابلة بينها وبين قاسم أمين، وكان عنوان مقالته: «أثر المرأة في النقد الأدبي الحديث»، فقال فيها:

(. . .لا حظّ في نقد المرأة الا للمرأة، كما أنه لا نصيب في نقد الرجل الصحيح إلا للرجل، فالرجل والمرأة عالمان منفصلان في دقائق الشعور، ولطائف الأفكار، ومقاييس الأحكام خاصة. عالمان منفصلان، وأكاد أقول مقفلان لولا ما كان من تفاعلهما أحياناً في تلك الساعات القليلة التي يشتركان فيها مخلصَيْن، فيرقيان بالفكر البشريّ إلى قمة سامية.

هكذا كان شأن ميّ في نقد «باحثة البادية» وفي نقد قاسم أمين. أحاطت الشخصية الانثوية بباحثة البادية حتى أدق ملاويها، فبسطتها لنا على أسلوبٍ شفافٍ رائع. وانصفت قاسم أمين بما لم ينصفه أحد، فقابلت بينه وبين الباحثة في بحثٍ هو في الأوج من الدروس الأدبية العصرية.

وباحثة البادية مسلمة متعصبة، مصرية، كاتبة، ناقدة، مصلحة. وإذاً أفلم يكن من الضروريّ أن تقوم بدرسها امرأة متمصّرة، كاتبة، ناقدة، مصلحة، تجتهد في تفهّم روح «المسلمة المتعصبة»؟ وهكذا كان)[1].

وبعد أن شهد لها بأنها بلغت من التحليل العقلي أعمقه، ومن تصوير العواطف أقصاه أخذ عليها تقصيرها في بحث موضوع تعدّد الزوجات، والضرّ الذي خاضته «باحثة البادية» في مقالاتها، وعزاه إلى أن ميّ لا تشعر شعور الباحثة، وإن تكن امرأة لكونها فتاة مسيحية، ثم قال:

(. . . وإذاً فهي لا تتهوّر في الحكم بأمرٍ لا يشترك في تفهمه عقلها وشعورها، أو نأمل من ناقدٍ أن يكون أوفر إخلاصاً لفنه؟).

---

(١) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ بيروت ـ ١٦ آذار ١٩٣٨ ـ ص: ٨.

وجدير بالذكر أن مي انتُخبت عضواً مراسلاً في «الرابطة القلمية» في نيويورك بعد صدور كتابها «باحثة البادية»، وأن الاستاذ ميخائيل نعيمه الذي كان مستشاراً للرابطة ومقيماً في نيويورك سنة ١٩٢٠، أعلمها بذلك وبأنه كان لكتابها النفيس صدى استحسان عام في البلاد العربية وفي المهجر[١].

سوانح فتاة:

هو الكتاب الثاني الذي جمعت فيه ميّ بعض مقالاتها المنشورة في الصحف المصرية والمجلات منذ سنة ١٩١٣ وقد صدر عن دار الهلال سنة ١٩٢٢، وكانت رسالة وليّ الدين يكن إليها التي اقترح عليها فيها جمع «سوانحها» في كتاب مقدمة له. والكتاب يعرّفنا بنشاطها الأدبي ومسيرتها الصحفية، وآرائها في الحياة، وتطلعاتها المستقبلية.

غاية الحياة:

وهو كتيّب صغير تضمن محاضرةً ألقتها في القاهرة سنة ١٩٢١ بدعوة من جمعية: «فتاة مصر الفتاة» وقد دعت فيها المرأة إلى الأخذ بالعلم لمشاركة الرجل في نهضة المجتمع والأمة، وللانعتاق من سائر أنواع الاغلال: (فلا تبقى عبدة المجتمع، ولا عبدة الرجل، ولا عبدة قلبها، وهو أعظم جائر مستبد!) وقد علقت جريدة المقطم على المحاضرة بهذه العبارات:

(نظرت ميّ إلى الحياة نظرةً قد تكون أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، ولكنها رفعت غاية الحياة، ولا سيما حياة المرأة، إلى مستوى إن لم يتيسّر بلوغه في هذه الدنيا فلا بأس بأن يكون غاية توضع نصب العيون، وتتوق النفوس إلى بلوغها).

كلمات وإشارات:

صدر هذا الكتاب عن دار الهلال سنة ١٩٢٢ أيضاً، وقد جمعت فيه ميّ خطباً ألقتها في نوادي القاهرة الثقافية، ودور الجمعيات الخيرية، وجلها

(١) من حديث الأستاذ ميخائيل نعيمه الينا الذي اجريناه ببيروت في ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٧٥.

الغربي، والحثّ على الاحسان والاخاء. وقبل صدور هذا الكتاب كتبت ميّ رسالة إلى الأستاذ اميل زيدان جاء فيها ما يلي:

(مع هذه الكلمة جميع أصول «كلمات واشارات» ومجموعها ١٦ خطبة، وسأشفعها بلائحة تسلسلها لأوفّر عليك تعب البحث والمراجعة.

أما خطبة: «سوريا الجائعة» فلم تُلق، ولم تنشر في صحيفة أو مجلة، كذلك «الشجرة» التي ألقيت في الاحتفال الذي أقيم في بيروت، فربما رأيت نشر احداهما في الهلال المقبل. ولعلّي أوفق إلى إرسال نبذتين أو أكثر في أواخر الأسبوع الآتي لتنشر في باب «هنا وهناك» كأنها صادرة عن قلم التحرير)[1].

من الجملة الأخيرة في هذه الرسالة نستدل على أن ميّ كانت تحرر في الهلال باب «هنا وهناك» بدون توقيع، وأن موهبتها الصحفية كانت، إلى جانب موهبتها الأدبية والخطابية، وراء نشاطها الفكري الغزير الذي كرست له حياتها كلها.

ظلمات واشعة[2]:

وقد نشرته دار الهلال سنة ١٩٢٣ وجمعت فيه مقالاتٍ لها أدبية واجتماعية ووجدانية، وأبحاثاً في اللغة والتاريخ والفن من أجود آثارها. كما أن هذا الكتاب يعكس للقارىء لمحات من شاعريتها، ومن ذاتها القلقة، ويجلو ثقافتها الكبيرة، ودقة حكمها على الموضوعات الهامة التي عالجتها. ولا بد من الاشارة إلى أن بعض الكتاب استغربوا انتقاءها لعنوان الكتاب، فقد نشرت المقتطف تعليقاً عليه في باب: «التقريط والانتقاد»، جاء فيه ما يلي:

(عنيت مطبعة الهلال بجمع ما كتبته نابغة الكتاب في هذا العصر، ولا

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: (١٨٠).

(٢) لقد ترجم هذا الكتاب المستشرق الأستاذ فرنسيسكو غبريللي الى اللغة الايطالية ونشره في روما سنة ١٩٤٥.

ندري لماذا جعلت عنوانه «ظلمات وأشعة»، ولماذا قدّمت الظلمات؟ ونحن لا نودّ أن نرى في حياتها غير الأشعة، أشعة السرور، أشعة الشعور بأنها قامت بما يُطلب منها لبنات وأبناء نوعها. أشعة الابتهاج بأن عملها عرف قدره أبناء العربية من أقاصي الهند إلى أقاصي أميركا. أشعة الاعتزاز بأن الفتاة الشرقية تفاخر أنبغ فتيات أوروبا وأميركا بما تنشئه حتى في لغاتهن.

كل من يقرأ «أنا والطفل» أو «نشيد نهر الصفا» أو «الساعة المفقودة» أو «يا سيدة البحار» أو «كن سعيداً» أو كل فصلٍ من فصول هذا الكتاب يُخيّل إليه أنه يتلو شعراً فاض من نفسٍ ملأى بالمعاني السامية، نفس تستمدّ صورها من أفق روحيّ فوق المادة)[١].

وأغلب الظن أن الدكتور يعقوب صروف هو الذي كتب هذا التعليق للشبه الكبير بين ديباجته وديباجة رسائله الشخصية إلى ميّ التي نشرناها في كتاب: ميّ زيادة واعلام عصرها ـ وثائق جديدة ١٩١٢ ـ ١٩٤٠.

المساواة:

وفي العام ذاته طلعت ميّ على قراء العربية بكتابٍ جديد من تأليفها عنوانه: «المساواة»، فكان له وقع كبير في الأوساط الفكرية آنذاك، تجاوز حدود الاعجاب إلى الدهشة! فلم يسبق تلك الأديبة أحد من مفكري عصرها في تخصيص كتاب لمثل تلك الدراسة الهامة التي عالجت فيها مشكلات أزلية كالرق والعبودية والمساواة على ضوء تطورات جديدة نشأت في الغرب، وفي روسيا السوفياتية كالشيوعية، أو كالاشتراكية الثورية. وقد مهدت لكتابها ببضع صفحات، وأفردت فصولاً لتأريخ كل مذهب من المذاهب السياسية والاجتماعية، قديماً وحديثاً. ولم يفتها التحدث عن الديمقراطية والارستقراطية والفوضوية والعدمية حديث المطّلع على المشكلات الانسانية،

---

(١) المقتطف ـ ج ٦٢ ـ عدد فبراير ١٩٢٣ ـ ص: ١٨٨.

المؤمن بلزوم القضاء على الرق والعبودية والفاقة، ومختلف وسائل الاستثمار والاستعمار.

يقع الكتاب في مئة وثلاثة وستين صفحة، أما مقدمته فقد استهلتها بهذه العبارات، بعد أن صوّرت الفوارق الطبقية في المجتمع الانساني ومن أبرزها الغنى والفقر: (... إزاء هذين النقيضين عمد المفكرون إلى المقابلة والاستنتاج، وقام المحرومون يصرّون صريراً، وانبرى النظريون يعيّنون حقوق الناس على الناس، ومثّل الشاعر الحماسي «هايني» دوره فأرسل زفرات كأنها المتفجرات هولاً وتحريضاً)[1].

ومن ثم تحدثت عن تمرّد العبيد في العصور الغابرة عند الاغريق والرومان والمصريين، وتوقّفت بعد ذلك عند الثورة الفرنسية وحقوق الانسان، و«نبذ الاقطاع القائم على تفاوت الحقوق والواجبات». ولم يفتها أن تشير إلى كتاب «كارل ماركس»: «اتحدوا يا عمال العالم» وأثر زعماء الثورة الاشتراكية في العالم الحديث أمثال «لاسال» و«أَنْجِلِسْ» و«هوبس». وخلصت إلى القول بأن هتافات الشعوب المأخوذة بالنظريات والمذاهب الجديدة كثيراً ما تخطىء في تفهم مرامي الاشتراكية فتحسب انها دعوة لمشاركة الغنيّ بغناه، والوجيه بوجاهته في حين أن مشكلة المساواة هي أهم المشاكل الدولية في عصرنا لأنها تشمل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية.

وتختم ميّ مقدمة كتابها على هذا النحو:

(وإنها «وتعني المساواة» مع الحرية والاخاء لتهزّ نفسي وقد لمستها منذ أن كان لي نفس تتحرّك. غير أني وصلت إلى نقطة أودّ عندها تحليل كل شعورٍ وتأثير: ما هي المساواة؟ وأين هي؟ وهل هي ممكنة؟ هذا ما أرغب في استجلائه في الفصول الآتية دون اندفاع ولا تحيّز، بل بإخلاص من شكّلت

(١) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٢ و ٣.

من جميع قواها النفسية والادراكية محكمة «محلّفين» يستعرضون خلاصة ما تقوله الطبيعة، والعلم، والتأريخ ليثبتوا حكماً يرونه صادقاً، عادلاً)[1].

مما يلاحظ في فصل «العبودية والرق» حوار خياليّ بين عبيد أسبارطة (ص: ٦٢) وعبيد القرون الوسطى اشترك فيه أنصار العبودية الدائمة، يغلب عليه الطابع الرومنطيقي، فلو تخلّت ميّ عن الأسلوب الرومنسي فيه وتغلغلت إلى صلب «الواقع والمأمول» بموضوعية لأصابت توفيقاً أكبر في بحثها، ومع ذلك لا ننكر أنها أحاطت به من كل جوانبه من خلال مطالعاتها باللغات الأجنبية، وأن شعورها الانساني، وفهمها العميق للمشكلات، وثورتها على الظلم والاستغلال والاستعباد كانت رائدها في كتابته.

وإن ما يُدهش حقاً في هذا الكتاب إحاطة ميّ بالموضوعات التي عالجتها، ولاسيما في فصل «الاشتراكية الثورية» حيث نفذت إلى عمق الحقيقة، وكتبت بكل جرأةٍ ووضوح ما يلي:

(بين الناس اليوم شعور قوي بأن اليهود هم الذين ابتدعوا الاشتراكية وما والاها انتقاماً من الشعوب والأجناس والأديان التي اضطهدتهم عشرين قرناً، لم يكن لهم فيها حرية ولا وطن ولا كيان، وسعياً لنشر سلطانهم على العالم. لذا عملوا في تأسيس «المؤتمر الدولي الأحمر»[2]، «الانترناسيونال»، وأقاموا إزاءه في «فيينا» تحالف المموِّلين الذي دُعي «المؤتمر الدولي الذهبي» ليقبضوا على ناصيتيّ القوة في المعمور: وفرة العدد، ورأس المال. ويستشهد الناس بأن غالبية زعماء البلشفية من اليهود، كما أن كبار الممولين في العالم يهود يمدّون البلشفية بالمساعدة السرّية رغبةً في نشرها بقصد ابتزاز المال أيضاً ذلك لأن الثورة العامة مضاربة مالية وسياسية تروّج سوقها الصحافة العالمية بلهجاتٍ متناقضة، وزعماء الصحافة يهود أيضاً!)[3].

---

(١) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٦.

(٢) وتقصد به ميّ مؤتمر العمال الدولي الذي أقامه كارل ماركس.

(٣) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٤ ـ ١١٥.

ثم نراها بعد ذلك تفضح كذب الاسرائيليين، وتصف لجوءهم لأخسّ الوسائل من أجل بلوغ مآربهم الخطيرة، وتكشف اللثام عن استيلائهم على الصحافة في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية التي كانت قاعدة الاعلام الكبرى. ثم نوّهت في ختام هذا الفصل، بما أصاب اليهود من اضطهاد، وما تعرضوا له من إهانات في عصر القيصرية الروسية فقالت:

(ذكرت «الاتهام والدفاع» لأنه نقطة ذات أهمية خاصة في هذا الاضطراب الشامل، ليس استجلاؤها بالممكن في الوقت الحاضر، ولن يكشف أسرارها إلا المستقبل).

والقارىء يزداد إعجاباً بميّ، وتقديراً لجولاتها الفكرية عندما يتذكّر أنها كتبت تلك الفصول سنة ١٩٢٣، ولم يكن قد انقضى على الثورة الشيوعية غير خمس سنوات... والأغرب من هذا نبوءتها بانتشار الاشتراكية في عدد كبير من بلاد العالم، ولم يفتها أن تحذّر من عواقب طغيان دعاة الاشتراكية، وتطرفهم الهادم للقيم الأخلاقية والجمال! ويذكرنا تخوفها من خنق دعاة الاشتراكية المتطرفة للحريات بدافع مطامعهم الشخصية بكتاب: «الطبقة الجديدة الحاكمة ـ La Nouvelle Classe Dirigeante» للكاتب اليوغوسلافي الكبير: «ميلوفان دجيلاس ـ Milovan Djilas» الذي نشره سنة ١٩٥٧، ونفي من بلاده على أثره.

وحين تحدثت عن الديمقراطية، وأوفت الموضوع حقه عرّجت على البلاد العربية فقالت: (... وهنا تقضي الوقائع التاريخية بالاعتراف أن اسم الديمقراطية جديد في هذه البلاد ولكن معناها غير جديد لأن الاسلام كان أبداً ديمقراطي المبادىء، ديمقراطي الأساليب. وهل من ديمقراطية أتمّ من أن نرى الملوك يتخذون لأنفسهم من الجواري زوجات شرعيات، ويرفعونهن إلى مراتب الملكات؟ وهل من ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم

يرتفعون بكفايتهم الشخصية، ورجاحة عقولهم فيحملون أعظم الألقاب، ويُقلَّدون أجلّ المناصب؟)[1].

وعندما تحدثت عن الولايات المتحدة الأميركية وقفت عند التمييز العنصري بين البيض والسود لتقول:

(يخيّل إلينا أن أقرب الأمم إلى الديمقراطية هي الأمة الأميركية لقلة ما وراءها من التقاليد، فهل حالت المساواة دون ما يُقابل به البيض والسود من ازورار واحتقار؟ هل حالت الحرية والمساواة دون هدر الدماء، والتشنيع والتفاضل؟)[2].

وفي رأيها أن العبودية الاقتصادية أشدّ هولاً من أية عبودية سياسية إذ كتبت تقول:

(وماذا عسى تنفع الحرية السياسية حين يبقى من لا شيء عنده عبداً لمن عنده شيء، يواصل العمل ساعاتٍ طويلة، ويفني قواه في الكدّ والاجتهاد؟ لماذا يبقى عبداً؟ يبقى عبداً لأن الحكومة اهتمت بالانتاج وأهملت التوزيع. وليس النقص في قلة الانتاج، فهو موفور، إلا أن سوء التوزيع يمنح قوماً فيصبحون موالي، ويحرم قوماً فيمسون عبيداً. أولئك يتنعّمون ولا يعملون، وهؤلاء يبذلون حياتهم في العمل بلا أملٍ، ولا عزاء)[3].

وبعد أن بحثت موضوع «الفوضوية» وبيّنت أخطارها في جرّ الأقوام إلى ثورات عمياء، انتقلت إلى «العدمية» وقارنت بين هذا المذهب الفلسفي، وبين الفوضويّة، مستشهدة بأقوال العلماء والمفكرين عبر التأريخ:

(أي مستنير يعلم أن التطوّر ناموس الحياة، ولا يبصر الزوائد الخرافية التي تشين الأديان، والخلل في محاسن القوانين والشرائع؟ أي متعلم ذكي في

---

(١) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) و (٣) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٠ ـ ١١٢.

هذا العصر، وفي كل عصرٍ، لا يكون «عدمياً» بعض العدمية على طريقة «لفروف»؟ أي نفسٍ تتألم وترى الآخرين يتألمون فلا تنهض محتجةً سرّاً أو علناً؟ ومن ذا الذي يسميه الناس عظيماً فتتناقل ذكره الأجيال إن لم يكن ذاك الذي يقضي على قديمٍ ضارّ، ويوجدُ جديداً نافعاً في عالم الأدب والعلم، والاجتماع والاختراع؟ ولكن ما كل جديدٍ بالنافع، وما كل ثائر بالصائب: فكم من تمرّدٍ ليس إلا تطاولاً ومباهاةً، وكم من مُعْدمٍ، كالجزار أو الجلاد، يفعل ليتقاضى الأجرة!)[1].

وإذا تحدثت عن الحروب ومآسيها فإنها تصوّر فظائعها ومسؤوليتها في إطلاق وحشية الإنسان، وتشجيعه على ابتداع أساليب القتل والتعذيب. وإذا خاضت في موضوع الشقاء الانساني، تصوّر الظلم والجهل ولكن سرعان ما تجرفها العاطفة، وتسيطر على منطقها، فتستدرك استرسالها مع العواطف لتقول:

(اعترف بضعف هذا المنطق، ووهن هذه الحجة إزاء إغارات الساخطين، واعترف بضرورة الثورات أحياناً لأن بعض المشاكل الاجتماعية لا يُحلّ بغير هجمات الكواسر، كما أن بعض الأمراض المزمنة لا تشفى بغير العمليات الجراحية)[2].

أما لماذا لجأت ميّ إلى الخروج عن مخطط دراستها بكتابة فصلين شاذّين عن الفصول السابقة في ختام الكتاب، فهذا ما لم نجد له مبرراً، ففي فصل «يتناقشون» نجد حواراً بين ثمانية أشخاص، كانت هي أحدهم، يدور حول الاشتراكية، والجمعيات الخيرية، والخليط العجيب في المجتمع المصري. وهذا

---

(١) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٤٥ ـ اما «بطرس لفروف» الذي ذكر في المقطع فهو أحد أساطين مذهب «العدمية» القائل ان الشرط الأساسي لاصلاح اجتماعي وسياسي هو ان يحافظ على تضامن الأسرة، ويصون الحرية والقيم والأخلاق.

(٢) المساواة ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٥٦ ـ ١٥٧.

الحوار ليس قصةً، ولا مسرحية إنما هو لوحة طريفة وواقعية، كان من الأفضل أن تُفصل عن الكتاب، أو ألا تنشرها الكاتبة أبداً لما فيها من غثٍّ وسمين، وتناقض في الأفكار، و«تحيّزٍ واندفاع» مغايرين لما جاء على لسانها في مقدمة كتابها. وإذا كانت ميّ قد خرجت من أبحاثها بنتيجة مفادها أن جميع المحاولات لتطبيق المساواة عبث وهباء، فقد كان أجدر بها أن تعلن هذا الرأي في فصل ختاميّ بأسلوب البحث العلمي الذي اتبعته في الفصول السابقة، وأن تتجنب الوقوع في استطرادات أدبية، ولوحات عاطفية. وإن ما نقوله عن فصل: «يتناقشون» ينطبق كذلك على الفصل العاشر والأخير وعنوانه: «مِن عارف»، وهو رسالة تلقتها من أحد القراء يوم كانت تنشر فصول «المساواة» في المقتطف، والأرجح أنها من إنشائها الذي لا يغيب نَفَسُه وأسلوبُه عن دارس أدبها. ومع ذلك نتساءل: «أليس لكل عالمٍ هفوة، ولكل جوادٍ كبوة»؟ وما دامت هذه سنة التفوق فلا يضير ميّ إذن ذلك الحشو الملحق بكتابها النفيس الذي نال استحسان اعلام العصر، وما زال كتاباً قيماً.

عندما قرأ الأمير شكيب أرسلان فصوله في «المقتطف» استغرب أن تكون ميّ كاتبتها وحسبها مترجمةً عن إحدى اللغات الأوروبية، فأعرب عما ساوره من شكوك إلى صديقه الدكتور يعقوب صروف في رسالةٍ بعث بها إليه من سويسرا حيث كان يقيم، فأجابه صاحب المقتطف برسالة جاء فيها قوله:

(... وأرجّح أن ميّ لم تترجم شيئاً مما جاء في «المساواة» ترجمةً لأنها تتكلم معي في كل المواضيع الفلسفية والعلمية والادبية كما تكتب، فإنها قوية الذاكرة إلى حدٍّ يفوق التصوّر، وقد قرأت كثيراً من الكتب في اللغات التي تحسنها)[1].

ذكر الأستاذ محمود الشرقاوي هذه الرواية في فصل عن ميّ أدرجه في كتابه: «إبراهيم ناجي الشاعر والانسان»، وردّدها معاصروها في أحاديثهم في

---

(١) ابراهيم ناجي الشاعر والانسان ـ محمود الشرقاوي ـ ص: ٢١٦.

مصر وفي لبنان، أما الأمير شكيب أرسلان، أمير البيان، فقد أضحى من أكبر أصدقائها، وأكثر المعجبين بعلمها وأدبها وشخصيتها الفذة حتى أنه أطلق عليها لقب: «كاتبة الدهر، ونادرة العصر»[1].

وأما الذين كتبوا عنها بعد موتها ومنهم الدكتور منصور فهمي وأمين الريحاني ووداد سكاكيني، وأنور الجندي، وفتحي رضوان، وسلامة موسى، ومحمود الشرقاوي، وطاهر الطناحي، ووديع فلسطين، فقد أجمعوا على تقدير هذا الأثر والثناء على كاتبته. ولكن السيدة املي فارس ابراهيم خالفتهم في الرأي، مع أنها اعتبرت «المساواة» الكتاب الأساسي في انتاج ميّ. ولقد حيرتنا في نقدها إذ كانت تارةً تحبذ وأخرى تستنكر، تنتقد حيناً، وتعذر حيناً آخر، والمثال على ما نقول هو أنها وجدت ميّ: (مزعزعة الايمان بالمساواة أصلاً، تسود كتابها كله رنّة حذرٍ وارتياب وتشاؤم)[2]. ومن ثم عذرتها لأنها: (علّلت أسباب هذه المشاعر تعليلاً وافياً، فهي محقة عندما قالت على لسان «عارف»: «صرنا اليوم في عصر الكلام الرنان، تتلاطم فيه ألفاظ الشرف والعظمة، والحرية والمروءة، والاحسان والتعاون»)[3] ولم تلبث السيدة املي أن عادت إلى النقد فكتبت تقول:

(إن أديبتنا، برغم الاطلاع الذي تبديه في هذه المجموعة، تفتقر أحياناً إلى صحة القياس، كما تفتقر إلى ضبط بعض الاصطلاحات بمفهومها العلمي. وهذا يقودها بالنتيجة إلى شبه يأسٍ من قضية المساواة)[4].

وبعد أن شرحت «المساواة» كما تفهمها هي اتهمت ميّ: (بتضييق كلمة «طبقات» بمعناها العلمي، وربط وجود الطبقات الاجتماعية بالكفاءة الشخصية، وتقسيم العمل، والذهاب في تأويل «المساواة» مذاهب غريبة)[5].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٢٠.

(٢) و (٣) أديبات لبنانيات ـ املي فارس ابراهيم ـ ص: ١٤١.

(٤) أديبات لبنانيات ـ املي فارس ابراهيم ـ ص: ١٤١.

(٥) أديبات لبنانيات ـ املي فارس ابراهيم ـ ص: ١٤٢.

ومن هنا نستخرج أن كلتا الكاتبتين تنظر إلى هذا الموضوع الشائك بمنظار مختلفٍ كل الاختلاف، فبينما نستشفّ من كتاب ميّ ايمانها بالعدالة الاجتماعية، ورغبةً أكيدة في تطبيقها، نلحظ أن السيدة املي فارس تريد من المساواة تطبيق النظام الشيوعي، وهذا ما يباعد وجهات النظر بينهما، مع أن غايتهما ربما تكون واحدة في الحرص على انصاف الطبقة العاملة، والدعوة إلى الاخاء.

بين الجزر والمدّ والصحائف:

وفي عام ١٩٢٤ صدر لمي كتابان آخران: «**الصحائف**» و«**بين الجزر والمدّ**»، وهما يتضمنان مختلف المقالات والأبحاث التي نشرتها، إلا أننا نجد في «الصحائف» مذكرات شخصية كتبتها في أيام الدراسة بلبنان، والتنقل منه إلى فلسطين، ونشرتها في «المحروسة» عام ١٩١٥ بعنوان: «يوميات عائدة» و«رحلات السندباد». كما نجد فيه دراسات تحليلية ونقدية في شعر «شبلي شميّل» وكتاب جبران خليل جبران «المواكب»، ومقالات عن «بيير لوتي»، و«مدام دي سيفينييه»، وأحاديث وذكريات طريفة عن «ولي الدين يكن» و«اسماعيل صبري» و«رسالة مفتوحة إلى لطفي السيد» كانت قد نُشرت في جريدة «الجريدة» و«مجلة سركيس» و«المحروسة» في آنٍ واحد عام ١٩١٤، وأقوالاً وحكماً، ومقالات أخرى. ولما تلقى مصطفى صادق الرافعي «الصحائف» كتب إلى ميّ في ١٥ ـ ٣ ـ ١٩٢٤ هذه الكلمات:

(تلقيت هديتكِ الثمينة من كتاب «الصحائف» الذي زاد في صحائف حسناتِك، ولا ريب أن كل كتاب تضعينه يتحوّل كتاباً في الثناء على فضلكِ وأدبك، فيُغني عن كثير)[١].

وأما «**بين الجزر والمد**» فهو يضم أجود مقالات ميّ وأبحاثها في قضايا

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٥١.

اللغة والأدب، والفن والمجتمع، ورأيها في إعجاز اللغة العربية ومسايرتها لكل تطوّر، وضرورة التمسك بها، وتحبيذها لتعلّم اللغات الأجنبية، وشرحاً ممتعاً للموسيقى والفنون ينمّ على ذوقها الرفيع، وثقافةٍ موسيقيةٍ وفنية كبيرة. ويُعتبر هذا الكتاب الذي قدمه للقراء سلامة موسى أثراً قيماً من آثارها التي كتبتها وقد توضحت في ذهنها رسالة الأديب العربي ومسؤوليته.

عائشة التيمورية:

وفي عام ١٩٢٥ صدر لها كتاب ثانٍ في أدب السيرة عن «**عائشة التيمورية**» قدمت فيه دراسة تحليلية لحياة الشاعرة المصرية التي عاشت في أواخر القرن التاسع عشر، فتناولت عصرها وآثارها الشعرية والنثرية بأسلوب جديد، على غرار كتابها عن «باحثة البادية». وحتى لا يفوتها شيء مما يتصل بنشأة «التيمورية»، وتأريخ أسرتها، حرصاً على اتقان العمل، والأمانة التاريخية، كتبت إلى الأديب محمود تيمور تستوضح ما كانت تجهله وتسأله: (هل كانت لها أخت أو أختان؟ في أي بيتٍ وُلدت؟ هل كان زوجها حاكماً في السودان؟ هل سافرت إلى الآستانة؟ وما هي مؤلفات والدها؟) فردّ عليها الأستاذ تيمور برسالة مستفيضة في ٢ - ٤ - ١٩٢٣ بين لها فيها ما كان خافياً من تفاصيل متعلقة بحياة بطلة السيرة، وختمها بالعبارات التالية:

(... هذا ما تيسّر لي جمعه لكم راجياً أن تتنازلوا بقبوله، وإني مستعدّ لأي عمل آخر، وتفضلوا بقبول وافر الاحترامات)[1].

وردة اليازجي:

وهي محاضرة عن هذه الأديبة الرائدة ألقتها ميّ سنة ١٩٢٢ بدعوة من

---

(١) لقد عثرنا على رسالة الأستاذ محمود تيمور الى ميّ المنوّه بها في مصر عند السيد نجيب زيادة، ابن عمها، فتكرّم بتقديمها لنا، مع مجموعة من أوراقها الشخصية الهامة، لمساعدتنا في هذا العمل.

الشابات المسيحيات في القاهرة، فكانت دراسة مستفيضة عن اليازجية وعصرها نشرتها «المقتطف» ثم نشرتها مطبعة «البلاغ» في كتاب مستقل سنة ١٩٢٥.

رسالة الأديب إلى المجتمع:

وهذه أيضاً محاضرة من أشهر محاضرات ميّ نشرتها في كتيبٍ مستقل جمعية «العروة الوثقى» التي دعتها لالقائها في الجامعة الأميركية ببيروت سنة ١٩٣٨ إبان إلقاء الحجر عليها في لبنان.

«الظل على الصخرة ـ The Schadow On The Roc» وهذه رواية كتبتها ميّ باللغة الانكليزية ونشرتها في فصول متسلسلة في مجلة «السفنكس ـ Sphinx» القاهرية ولكن أحداً لم يعثر بعد على اعداد تلك المجلة للحكم عليها، والتمكن من ترجمتها، والأرجح أنها نشرت سنة ١٩١٧ فقد جاء ذكر هذه «القصة الطويلة المؤثرة»[1] في كتاب الصحفي الفرنسي: «راؤول فارغون ـ Raoul Fargon» الذي تضمن دراسة عن ميّ إلى جانب دراسات أخرى لبعض كبار الشخصيات المصرية.

آثار ميّ المفقودة:

إن لميّ آثاراً أدبية كتبتها في حياتها، ولا سيما في آخرها، حدّثت عنها أصدقاءها ولم يُعثر عليها حتى غاية اليوم. فقد وضعت كتاباً عما قاسته في بيروت إبان وجودها في مصح الأمراض العصبية والعقلية سنة ١٩٣٨، سمّته: **«ليالي العصفورية»**، أشار إلى هذا الكتاب الأساتذة أمين الريحاني، وخليل الخوري، وأسعد حسني، والزعيم فارس الخوري، والأستاذ مصطفى مرعي (الذي رافع في قضية الحجر عليها بمصر سنة ١٩٣٩) ولكن هذه المخطوطة الثمينة ما زالت محفوظة عند أنسبائها في لبنان، وما زالوا يرفضون

---

(١) ملامح شخصيات مصرية ـ راؤ ول فارغون ـ القاهرة ١٩٣١ ص: ٣٧.

السماح بجمعها ونشرها[1]! فعسى أن يتكرموا بجمعها ونشرها بعد أن عفا زمانها، وانقضى زهاء نصف قرنٍ على قضيةٍ هزّت الضمير العربي في حينها. وقد أتى على ذكر هذه المؤلفات الأستاذ أسعد حسني في مقالةٍ له على هذا النحو:

(وقد تركت ميّ طائفة من المؤلفات النافعة قبل وفاتها كانت تعدّها للطبع لولا ظروف الحرب الناشبة، واستحكام أزمة الورق! وإنا لنرجو من أفراد أسرتها الكرام أن يعملوا على طبعها إكمالاً لرسالتها الرفيعة: فليس أعظم من أدب ميّ ثروةً، وليس أجدر منه بالبقاء والخلود)[2]. أما الزعيم السوري الأستاذ فارس الخوري فقد أطلعتنا حفيدته الأديبة كوليت خوري على صفحة من مذكراته المخطوطة التي تعدها للنشر وفيها عن ميّ ما يلي: (... وعادت ميّ بعد محنتها إلى بيتها في مصر حيث وضعت عدة مؤلفات أكثرها عن نكبتها الأخيرة، وقال الذين قرأت لهم فقرات من هذه الروائع إنهم لم يسمعوا، ولم يقرأوا أسلس وأبلغ وأنفع وأطلى من هذه الصفحات).

كما قال فيلسوف الفريكة أمين الريحاني في كتابه: «**قصتي مع ميّ**» الذي نشره شقيقه الأستاذ ألبرت الريحاني مؤخراً (سنة ١٩٨٠) إن ميّ كانت عاكفة على ترجمة: «**النقد العقلي الصافي**» للفيلسوف «كانت ـ Kant»، وهذا أيضاً من آثارها الضائعة أو المخفية! غير أننا عثرنا بين أوراقها المشردة على ست صفحاتٍ بخطها فقط من دراسة أعدتها عن الشاعرة المتصوفة رابعة العدوية، وعلى مخططٍ لمسرحيةٍ بعنوان: «من بيروت إلى الفريكة» غير كامل. ويجد القارىء مخطط المسرحية في فصل: «اصطيافها في الفريكة»، من هذا الكتاب، وصفحات دراستها عن رابعة العدوية في ملحق له ضمن باب: «صفحات مطوية من أدب ميّ».

---

(١) لقد أطلعنا على أوراق منها لدى ابن ابن عمها السيد جان زيادة في بيته بمدينة جونية وأعلمنا ان ما تبقى من الكتاب موجود عند قريب آخر لميّ لم يقبل بذكر اسمه.

(٢) «المجلة الجديدة» ـ العدد ٣٨٦ ـ تاريخ ٢٦ ـ ١٠ ـ ١٩٤١.

وبمناسبة ذكر رابعة العدوية ينبغي أن نشير إلى حديث ميّ مع العالمة المتصوفة الشيخة فاطمة اليشرطي[١] التي قامت بزيارتها في القاهرة سنة ١٩٢٠ بصحبة الزعيم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والسيدة حرمه. فلقد حدثتهم ميّ عن عزمها على ترجمة كتاب عن رابعة العدوية نشرته في لندن المستشرقة الانكليزية: «مارغريت سميث ـ Margaret Smith»، لشدة إعجابها بالشاعرة المتصوفة، وبالكتاب الذي اطلعت عليه عنها!

وهنالك كتاب آخر كانت تعده ميّ، أو ربما أنجزته لإيفاء الذين أسعفوها في محنتها المروّعة حقهم، حدثت عنه الكثيرين في آخر حياتها، وقالت إن عنوانه: «المنقذون». كما أن هنالك كتاباً آخر كانت تعدّه للنشر في إبان مأساتها بلبنان أتى ذكره في التقرير الطبي الذي وضعه الدكتور الجنرال مارتان عن حالتها الصحية في شهر أيار سنة ١٩٣٨ على هذا النحو: (... وإنها تقوم بأعمال أدبية، وتهيء مؤلفاً عن الفينيقيين في قصائد هوميروس)[٢].

وقبل أن نخوض في موضوع النقد الأدبي الذي برزت فيه ميّ يجدر بنا أن نبحث عن نقادها. كانت تخشى النقد إذا ما وُجّه إليها بأسلوب لاذع، وتتأذى منه كثيراً سواء أكان منشوراً، أو متناقلاً على ألسنة الناس. فقد أكد الأستاذ عبد القادر المازني[٣] هذا الكلام إذ سبق له أن تهجّم عليها في حديثٍ له منتقداً عناوين كتبها: ظلمات واشعة، وابتسامات ودموع، وبين الجزر والمدّ... ويقول الشاعر عبد الكريم الكرمي إن المازني كان كاتباً ناشئاً

---

(١) من حديث الشيخة الفاضلة فاطمة اليشرطي الينا الذي أجريناه في بيتها ببيروت بتاريخ ٢٥ ـ ٤ ـ ١٩٧٢، رحمها الله.

(٢) المكشوف ـ عدد ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٣٨ ـ ص: (٩).

(٣) ابراهيم ناجي الشاعر والانسان ـ محمود الشرقاوي ـ ص:٢١٧ وعصر ورجال ـ فتحي رضوان ـ ص: ٣٦٠.

يوم بلغت ميّ ذروة الشهرة فاستهجن أسلوبها الرومنطيقي، وذوقها في انتقاء العناوين لمؤلفاتها، غير أنه اعترف بفضلها بعد أن قرأ لها، وأشاد برقيّ أدبها.
وتناهى إلى ميّ نقد لاذع لبعض مقالاتها صدر عن الأديبة الشاعرة ماري عجمي صاحبة «العروس» فعبرت عن استيائها للأستاذ جبر ضومط، فكتب إليها في ٢ ـ ٥ ـ ١٩٢٤ يقول:

(يوم الأحد بعد الظهر جاءني في بيتي صلاح لبابيدي وأمين رشيد نخلة الشاعر، وابن البك الشاعر يطلبون مني أن أترأس حفلة في بيت صلاح أفندي لتكريم الآنسة ماري عجمي، فأبيت عليهم أن أترأس حفلةً تقام احتفاء بمن تسومع عنها أنها ذرّت غباراً على ميّ من ورائها، فأنكروا أشد الانكار أن يكون صدر منها شيء من هذا القبيل. وقال أمين نخلة إنه سأل ماري عجمي عن هذا الذي تسومع فأنكرته أشد الانكار بكل ما في نفسها من العزة والاباء، وقالت إنه محض فريةٍ واختلاق)[1].

كما أن اعتزاز ميّ بأدبها، وأنفتها، من الصفات التي اشتهرت بها، وجعلتها تعتب على صديقها الكبير الدكتور يعقوب صروف، وتتألم لما خطه في إحدى رسائله إليها ناقداً أسلوبها، فكتبت إليه في ١٤ ـ ٧ ـ ١٩١٨ رسالةً حاذقةً تستنكر ما كتبه، وتسترضيه في الوقت ذاته معترفةً بأفضاله عليها، وشاكرةً اهتمامه بها، وبما تخصّ به «المقتطف» من مقالاتٍ وأبحاث، وهذا ما قالته في أحد مقاطع تلك الرسالة:

(... ولئن شعرتُ بأن كبريائي يأبى قبول التبكيت والتقريع من أي واحدٍ من الناس، مهما كان عظيماً، فإن إجلالي لرجل الفضل والعلم والنبل يرضى بلومه، وإن كان فيه عنيفاً، ويعترف له بجميع الحقوق عليًّ لأنه صديقي، ولأنه الدكتور صروف!)[2].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٥٦.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٤.

ومما يجدر ذكره في نهاية المطاف على مؤلفات ميّ، وآراء الكتاب فيها شيئان: الأول نقد الأستاذ ميخائيل نعيمه لرواية مكس مولر «ابتسامات ودموع» التي ترجمتها عن الألمانية، ولمحاضرتها: «غاية الحياة» فقد كتب يقول: (عندما تتحفنا ميّ بقصيدة منثورة نتلوها ونطرب، وعندما تفاجئنا ببحث انتقادي دقيق نطالعه ونعجب، لكنها عندما تعرّب لنا رواية من الطبقة الثانية أو الثالثة بين الروايات نطالعها ونسكت. وعندما تتفلسف لنا في «غاية الحياة» نضيع معها بين جبال من المفردات السمينة، والعبارات المنمّقة، ولا ندري أنسكت أو نصرخ). والأستاذ نعيمه يقرّ أن ميّ شاعرة وأديبة، وناقدة ذات منزلة رفيعة في عالمنا الأدبي، ولكنه يرى أن مكانتها لا تقاس بهذين الكتيّبين، كما أنه يأسف لكونها (لم تصرف وقتها في ترجمة كتاب أفضل من رواية مكس مولّر)[١].

والثاني القاء نظرة على بعض القصص القصيرة التي نشرتها مثل «الحب في المدرسة» و«شمعة تحترق» و«السرّ الموزع»، وعلى ما سمّته رواية تمثيلية ذات فصل واحد، في أربعة مشاهد، نشرتها في الهلال بعنوان: «على الصدر الشفيق»[٢]. إنها محاولات في القصة لا ترتكز على قواعدها الأساسية من حيث البناء القصصي، وتحليل شخصيات الأبطال، وجذب القارىء إلى المناخ الذي تدور فيه القصة. ففي قصص ميّ يغلب طابع السرد بأسلوب عاطفي، لا يخلو من السذاجة، مما يجعلها أقرب إلى الحكاية المروية منها إلى القصة القصيرة الفنية. ولميّ رأي في القصة العربية يستحق أن نقف عنده لحظةً، نجده في كتابها «عائشة التيمورية»، حيث كتبت تقول في تعليقها على قصة للتيمورية عنوانها «نتائج الأحوال»:

---

(١) الغربال ـ ميخائيل نعيمه ـ ص: ١٨٣ ـ ١٨٥ من الطبعة الأولى، وص: ٤٧٣ ـ ٤٧٨ ـ من المجلد الثالث لمجموعة اعماله الكاملة.

(٢) الهلال ـ عدد نوفمبر عام ١٩٢٣

(أدركني الإعياء في مراجعة هذه القصة المكتوبة بلغة «المقامات»، وهذا الفن بارقة للفن القصصي الحديث عندنا، ذلك الفن الذي ما زال في لغتنا وأدبنا جنيناً لم يبلغ قط عندنا طور النضج والقوة)[1].

نقد ميّ الأدبي

جولات ميّ في النقد الأدبي تستحق الوقوف عندها، والاطلاع عليها، فقد تصدّت للنقد بعد أن استكملت ثقافتها وتبلور ذوقها الأدبي. كانت تعرف أن للنقد شروطه وقواعده لا بد للناقد الذي يحترم نفسه، ويقدر مسؤوليته، من احترامها، وكثيراً ما شكت في أحاديثها الصحفية من افتقارنا إلى نقادٍ علماء منزّهين عن كل غرض في تناولهم الشعر والأدب، والشعراء والأدباء. معروف أنها نقدت رواية جبران (الأجنحة المتكسرة) في رسالة وجهتها إليه سنة ١٩١٢ نشرها الدكتور جميل جبر في كتابه: «رسائل ميّ». ونقلها عنه الكتاب الذين اهتموا بأدبها، ولكن ميّ في سنة ١٩١٢ غير ميّ في سنة ١٩١٩، ذلك أنها كانت يومذاك كاتبة ناشئة، ثم أضحت بعد ذلك كاتبة ناضجة، واسعة الاطلاع على الثقافتين العربية والغربية. وقد نشرت أبحاثاً نقدية قيمة تناولت فيها بعض أعمال جبران منها «المواكب» و«المجنون» و«يسوع ابن الانسان»، بتجرّد عن الهوى يدعو للاعجاب حقاً لأن جبران كان يحتل في قلبها أرفع منزلة. فلنقف عند نقدها لكتاب «المواكب» الذي نشرته في مجلة الهلال سنة ١٩١٩، فقد طافت في بحثها حول كتبه السابقة: «عرائس المروج» و«الأرواح المتمردة» و«العواصف» و«المجنون» الذي صدر باللغة الانكليزية، طواف الناقد الحاذق الذي يحكّم العقل والمنطق في تقييم الأعمال الأدبية. ثم أخذت تحبّذ فكرةً، وتستغرب موقفاً في معرض دراستها للمواكب، وتبحث عن شخصية جبران الفنية، وفلسفته في الوجود، وتمرّده بصورة خاصة، حيث كتبت تقول:

---

(١) عائشة التيمورية ـ ميّ زيادة ـ ص: ٢٠٦.

(أمتمردٌ هذا الذي لا تكاد تقرأ له فصلاً إلا وتعثر على ذكر القضاء والقدر، فتجد لهما في نظره يداً لا تغالب، وحكماً لا مردّ له؟ أمتمرد هذا القائل بالتناسخ، أي بالنشوء التدريجي، والتطور المحتّم خلال أعمار متتابعات؟ نعم إنه يعتنق نظرية التناسخ ليس باقتناع الفيلسوف المتمذهب، بل بعاطفةٍ روائية تبسط له مسرح الانفعالات والأهواء إلى أقاصي الدهور والأجيال بدلاً من أن تقتصر على عمر واحد، وأعوام بشرية محدودة. والقول بالتناسخ ينفي التمرد لأنه مضمر فيه التسليم بتقيّد المعلول بعلّته، وبرجوع كل حدثٍ إلى سبب قديم، غائر في الأعمار السحيقة)[1].

وتدعم ميّ رأيها بأمثلة من كتب جبران، وبما كتب في الأسطر الأخيرة من قصة «العاصفة» في كتابه: «العواصف»، حيث يقول: (... قد تكون المدنيّة عرضاً زائلاً، ولكن الناموس الأبديّ قد جعل الاعراض سلّماً تنتهي درجاته بالجوهر المطلق).

فتردّ عليه بما يلي:

(حسن جداً! إذاً نحن أمام رجلٍ متمرّدٍ على أنظمة البشر. ومن جهةٍ أخرى تراه يدافع عنا مفسّراً ما فيها من لَبْسٍ وإشكال، مقرراً أنها أعراض ضرورية للسير نحو الجوهر المطلق. وهو واثقٌ بذلك إلى حدّ الارتياب في زوال المدنية، فيقول: «قد تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً».

إنها عرض زائل بلا «قد» وبلا ريب، لأن كلَّ مقبلٍ يسير إلى الإدبار، وكلَّ صرحٍ يُدركه الخراب ليشاد غيره على انقاضه، وكلَّ مدنيّةٍ تنهار لتقوم مقامها مدنية جديدة. «قد»، «لو»، «هل»، «لكن»، «لماذا»، أهذه هي الكلمات التي ينصبّ فيها غيظ المتمرّدين؟)[2].

---

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ٦٧ ـ والهلال ـ عدد يوليو سنة ١٩١٩.

(٢) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ٦٩.

وتجول جولة أخرى في فكر جبران وأعماق نفسه، وما دوّن في كتبه لتلتقط عبارة تجلو لها ما كان غامضاً حين كتب يقول: (وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمرّدين لأرى أيهما أجلّ وأجمل). فترى في «سعادة المتمردين» نقطة جوهرية تبينّ لها بأن جبران متمرّد التمرّد اللازم للشعور بتلك «السعادة» المفاجئة، الفائضة على النفس احساساً جديداً لم تختبره من ذي قبل، وهزة عجيبة تنبسط لها جوانب الكيان. ثم تعلّل نزوع جبران، الشاعر الرمزيّ، إلى مهبط الوحي، وحاجته إلى الحماسة التي تحرّضه، وتمكّنه من الابداع، فهو فنان، ذو مزاجٍ سريع الانجذاب للألوان والعطور والألحان والنور فينشد:

هل تحمّمتَ بعطر وتنشفتَ بنور،
وشربتَ الفجرَ خمراً في كؤوسٍ من أثير؟

وتعقّب قائلةً:

(فكيف لا يبحث مثل هذا المزاج عن خبراتٍ غير مألوفة؟ وأي شيءٍ أطرب للفنان من الضرب على اليد القوية التي سنّت قوانين الاجتماع واصطلاحاته، لا سيما إذا قاومت إحدى رغباته، أو قاسى بسببها العذاب يوماً)[1].

وكانت ميّ أول من تبينّ أثر نيتشه في كتابه «المجنون»، بل من أوائل النقاد الذين أشاروا إليه، ولكنها شرحت ما بين الكاتبين من اختلاف في صياغة الأفكار. وبعد أنْ أطرت موهبته الأصيلة في الرسم والكتابة، رأت أن شخصيته، بل ذاتيته، لم تدرك بعد ذروة اقتدارها، وأنه مازال «يتسلّق كتف الجبل الذي قيّدته الأقدار بالتصعّد عليه»، وتنبأت بأنه: (سيتابع الصعود «متمرّداً» ما دام كلفاً بهذا النعت... وراء ستور الهجو والتهكم بالرموز

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧١.

والأمثال، ولكنه سيصل يوماً إلى القمة فنسمع منه عندئذٍ أجمل أنغامه، ونلمح أسمى هيئة من نفسه الفنية السنيّة التي تسطع في أرجائها الأضواء، وترعى في جوانبها الأظلال).

وصدقت ميّ في نبوءتها التي نوّهت بها سنة ١٩١٩ لأن جبران بلغ قمة المجد يوم نشر «النبيّ» سنة ١٩٢٣. وهذا نموذج آخر من جولاتها الموفقة في النقد الأدبي نجده في مقالٍ عنوانه «النشيد القومي المصري» قارنت فيه بين نشيد شوقي الذي فاز بالمسابقة، ومطلعه:

لنا الهرمُ الذي صَحِبَ الزَّمانا ومِنْ حِدْثانِهِ أَخَذَ الأمانا،

ونشيد محمد الهراوي الفائز بالدرجة الثانية، ومطلعه: [الوافر]

فيا وادي الكنانةِ لن تزولا وفيكَ النيلُ يجري سَلْسَبيلا،

فنقدت البيتين التاليين من قصيدته:

فيا ابنَ النيلِ هزَّ لواءَ مصرا وهيِّء في النجومِ لَهُ مقرّا
وَعِشْ في ظِلِّهِ العالي إماما واطلع بالهلالِ عليْهِ فَجرا

نقداً عنيفاً لما في معانيهما من «غلوّ» بديعي هو في رأيها من ألزم عيوب الآداب العربية، إذ (كيف يكون لواء مصر في النجوم ويعيش ابن النيل في ظله وهو في مصر، بالقارة الافريقية من سيارة الأرض؟ هذا ما لا يستطيع تفسيره أحد، وليس له من تفسير ممكن سوى أن الشاعر وجد أمامه معنى قديماً، ذا طنين مرضيّ فاستعاره ضارباً صفحاً عن مخالفته أبسط أصول العلم والمنطق.

أما شوقي فقد جعل الوطنية غير الدين:

جعلنا مصر ملَّة ذي الجلالِ وألَّفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصفٍّ من عوالٍ يشدّ السمهريُّ السمهريا

وليس هذا التآخي في حب الأديان بجديدٍ عند شوقي، بل تجده في كثيرٍ من قصائده. وأي طبيعة سمحة، رحبة، لا تدرك أن الدين رابطة بين الخالق والمخلوق، بينما القومية هي الرابطة الدنيوية التي ما داخلتها فكرة الدين الا أنزلت المحن بالقوم، وفرقت شملهم، فلا يقوم لهم قائمة، ولا تُضمن لوطنهم حياة هنيئة بغير التكاتف والاتحاد[1].

وكان آخر نقدٍ لميّ في حياتها، نقدها لكتابيّ الأستاذ توفيق الحكيم: شهرزاد، و«أهل الكهف» سنة ١٩٣٤ ضمن رسالة بعثت بها إليه، من غير أن تعرفه شخصياً. وقد نشر توفيق الحكيم هذه الرسالة مرتين: مرة في كتاب أصدره سنة ١٩٧٧ بعنوان: «وثائق من كواليس الأدباء»، ومرة أخرى في مجلة «اكتوبر» ضمن مقالة كتبها بعنوان: «وهكذا أهملت ميّ!» فأبدى فيها أسفه الشديد لتقصيره في الردّ على رسالتها الرائعة، معترفاً بإعجابه الكبير «بعلمها وذوقها الأدبي» لأنها قيّمت كتابيه التقييم الصحيح، وبرهنت فيه عن إدراك عميق، ونظر بعيد، وهي «في أوج النضج الفكري والحيوي عند المرأة»[2] حسب تعبيره. وهذا نص رسالة ميّ إليه:

(حضرة الأديب الكبير

لأعرب عن نوع إعجابي بشهر زادك اعترف بأني اقتنيت «فتيان الكهف» بغية تعقّب شخصية الكاتب: تلك الشخصية البعيدة الغور، المتحركة مع ذلك، الشفافة في الأجواء السحرية التي تُشغف بها وتبدعها، فأستولي، ولو استيلاءً موقوتاً، على العنصر الأساسي في تلك الشخصية. ولكني لم أفز من هذه الناحية بشيء، ولم يزدني كتاب «أهل الكهف» إلا شعوراً بأن شخصية المؤلف ـ ككل صورة صاغها ـ لا تفتأ تطارد نفسها، وتبزّ نفسها إذا ما عثرت عليها حيناً، فما تكاد تغزو في فنها منطقة، وتنشىء

---

(١) بين الجزر والمدّ ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧٦ ـ ٨١.

(٢) مجلة اكتوبر ـ عدد اكتوبر سنة ١٩٧٧.

صورة حتى تكون قد تجافت تلك المنطقة، وتحوّلت عن تلك الصورة. وإذا بكل انتهاء يدفع بتطلّعها إلى ابتداء.

أشْعَرني كتاباك بأن «بيرانديللو» مصرياً يتولّد عندنا، وذلك من الشواهد على أن الحضارة الفكرية في مصر ماضية في التوغّل إذ ليس من هو أدرى منك بأن الفرق الجوهريّ «المشتمل على فروقٍ لا تحصى» بين الحضارة والافتقار إلى الحضارة هو أن الافتقار إليها غرار واحد تطبع عليه جميع الشخصيات، بينما الحضارة في ازدهارها تشبك كلّاً من شتى الشخصيات في قالبٍ مستقل. ونسيجٌ من نوعٍ خاص هي شخصيتك الجديدة، الكثيرة التملّص والتقلّص)[1].

وشكرته في ختام الرسالة لأنه عرّفها «بشخصية فنية كانت تظن أن أعواماً عديدة ستنقضي قبل أن يتجلى مثلها في اللغة العربية». وهي تعني بالطبع شخصية توفيق الحكيم!

خصائص أدب ميّ وأسلوبه وأثره

لقد أجمع دارسو أدب ميّ الذين عاصروها والذين جاؤوا بعدهم على أن أدبها ذو طابعٍ لبنانيّ في شكله وموضوعه، وأنه متأثّر بالبيئة اللبنانية التي نشأت فيها وبصفوة أدباء لبنان في المهجر. وهذا الأستاذ أحمد حسن الزيات يفسر لنا لماذا: (لأن الأدب اللبناني كان وحده، في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، مظهر الحياة والجدّة والتنوّع في الأدب العربي الحديث. فبينما كان الأدب المصريّ يصدر عن الأزهر، والأدب العراقي يصدر عن النجف، والأدب السوري يجري على أسلوب هذين الأدبين، كان الأدب اللبناني يصدر عن مدارس تتسم بسمة الدين، ولكنها تعترف بوجود

---

(١) وثائق من كواليس الأدباء ـ توفيق الحكيم ـ ص:٧٣ ـ ٧٤ ـ وقد أجازنا الأستاذ الحكيم بنشر هذه الرسالة القيمة في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها»، فكان موقعها على الصفحة ٤٣٥ منه.

الدنيا. فهي تعلّم العلوم الحديثة، وتلقّن اللغات الحيّة، وتعتمد في أدب القلب على الانجيل، وفي أدب اللغة على القرآن. وقد بيضت الكتب الصفراء، ورتبت المعاجم المشوّشة، ونشرت الكتب المقبورة، ولقحت الآداب العربية بالآداب الأوروبية. وكان من ثمر هذا اللقاح طلائع هذه النهضة من آل اليازجي والبستاني والشرتوني، وزيدان وصروف، وشميّل والريحاني، ومطران وجبران، كما كان لا بدّ لماري زيادة العربية أن تجني ثمر الثقافة مما غرس الفرنسيسكان والأميركان والمارون، وأن تقتبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقتطف، وأن تناجي عنادلها الغردة في رياض مصر، وخمائل لبنان، ومنارة الدنيا الجديدة)[1].

وللدكتور طه حسين رأي مماثل، أعرب فيه عن أثر الثقافة الغربية في تغذية أدبها العربي، مما يطابق رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) في خصائص أدب ميّ حيث قالت: (لقد تمثلت بميّ نهضة جيلٍ عربيٍّ برمته فكرياً وقومياً، تلك النهضة التي قامت على سواعد مفكرين وأدباء وشعراء مصريين ولبنانيين، كان اطلاع أكثرهم على الثقافة الغربية ضئيلاً. فإذا قسنا إمكاناتها الفكرية والتعبيرية بمعاصريها لوجدناها تمتاز عنهم بتمثّل الثقافة الغربية التي تأثرت بها، وتفوّقت فيها، على أبناء وبنات جيلها)[2].

إن شجاعة ميّ وطموحها هما السبب في انكبابها على اتقان اللغة العربية والكتابة فيها بعد أن بلغت السادسة والعشرين من العمر، لذا ينبغي على الباحث عن أسلوبها أن يفرّق بين كتاباتها منذ سنة ١٩١٢ وكتاباتها بعد أن تخرّجت من الجامعة المصرية سنة ١٩١٨ مع أن صفة السلاسة لازمته في المرحلتين. لقد كانت، في بدء عهدها بالكتابة، تتعثّر أحياناً بالتعبير العربي،

(١) وحي الرسالة ـ أحمد حسن الزيات ـ الجزء الثاني ـ ص: ٣١٣.

(٢) أدلت الدكتورة بنت الشاطىء بهذا الحديث لكاتبة هذه السيرة في بيروت بتاريخ ٣٠ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ يوم أمتها ملبية دعوة المجلس الثقافي الاسلامي لالقاء محاضرة فيه.

وتستعمل في خطبها الأولى ومقالاتها ألفاظاً أعجمية مثل «الهارموني» و«السوناتا» و«الكوتليتا»، في حين أنها تبنّت بعد ذلك المصطلح العربي فأخذت تورده عقب الأعجمي فتكتب مثلاً: الشعر الغنائي، أو «الليريكي» والشعر المفجع أو «الدراماتيكي»، وتتحاشى استعمال الكلمات الدخيلة ليقينها بأن اللغة العربية غنيّة للغاية، تستجيب إلى منجزات العصر العلمية والفنية. وكانت تفكر باللغات الأجنبية حين تكتب بالعربية، قبل أن تسلس لها العربية القياد، بدليل أنها كتبت إلى الدكتور يعقوب صروف، في ١٤ ـ ٧ ـ ١٩١٨ ما يلي:

(لئن كان تعبيري أجنبياً في أحيانٍ كثيرة فما ذلك إلا لأن مطالعاتي ودروسي بلغات الغرب. وإن كنت مذنبة بعدم اتقان العربية كما ينبغي، فقرب عهدي بها عذر مقبول، على ما أظن، لا سيما أنني لم أتعلمها بغير السمع والرغبة، أي كما يتعلم المرء لحناً سمعه فوافقت نغماته ميول نفسه. ولعلي لم أعن بها إلا امتثالاً لصوت «الوراثة المتقطعة ـ Atavisme» أي أن يقظة الدم العربي الجاري في عروقي نبهّت فيّ حب هذه اللغة، ورغبة استعمالها للتعبير عن الأفكار المتزاحمة في دماغي: وما أكثر تلك الأفكار، وما أقصر باعي في إبرازها للوجود!)[1].

واعترفت مي في أول حديث صحفي لها أدلت به لسلامة موسى، ونشره بـ«المستقبل» عام ١٩١٤ أنها كانت تقرأ شعر «لامارتين» و«شيلي» و«كيتس» ونثر «ملتن» و«راسكين»، وأن «برناردشو» يعجبها إنما تكره تطرفه. ولكنها دخلت الجامعة المصرية عامئذٍ، وتأثرت بمحاضرة ألقتها فيها «لبيبة هاشم» عن الفتاة العربية، واتصلت بهدى شعراوي، وباحثة البادية، وعزمت على اتقان العربية والتحرر من طغيان التفكير باللغات الأجنبية، فكان لها ما أرادت. والقارىء المتتبع يلحظ الفارق الكبير بين أسلوب مقالاتها الأولى:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٤.

«دمعة الروح» و«الفتى» و«الثمر الجنيّ» التي نشرتها في المحروسة والزهور، وأسلوب ما نشرت بعدئذٍ في الهلال والمقتطف، ومن ثم في الأهرام الذي تميّز بالاشراق، والعبارة الصافية، المتحررة من شوائب أسلوب القرن التاسع عشر وبما فيه من حشوٍ وتكرار واستعارات ركيكة. وإن ما يقال في تطوّر أسلوبها وترقيته ينطبق على تطورّها الفكري، وهذا واضح في آثارها، كثيراً ما دعا معاصريها إلى الاعجاب، إذ قلما عرفوا كاتباً يدأب دأبها على ترقية أسلوبه وفكره ونفسه. ففي ربيع عام ١٩٢٣ قدّم سلامة موسى صورة لها ضمن أبحاث نشرها في الهلال بعنوان «صور موجزة لأدباء العصر» جاء فيها ما يلي:

(... ومركز ميّ في الأدب العربي فريد في وقتنا الحاضر. فهي امرأة تكتب لرجال، وليس معنى هذا أن النساء لا يقرأن مؤلفاتها، فربما هنّ لا يعرفن كاتبة أكثر منها، ولكن جمهور النساء القارئات عندنا قليل جداً، فكثرة قرائها إذن من الرجال.

... وفي ميّ شيء كبير من عمق الاحساس وبسطته، فهي تفهم بنبوغها عقلية الرجال، كما تفهم بطبعها عقلية النساء. ومن هنا ندرك اهتمامها بجملة موضوعات أدبية واجتماعية. وهي في وصفها الأديب، إنما تصف شعورها حين تقول: «الأدب فن التعبير عن العواطف والميول والتأثيرات نثراً ونظماً. فالشعر فرع من الأدب. والشرط الجوهري للكاتب هو أن يكون ذا إحساس قوي يتأثر بجميع الحوادث. فإذا نقص هذا الشرط تلاشى الكاتب الأدبي. وكيف يؤثّر من لا يكون متأثراً؟ إلا أن الذكاء يتعب، والعلم يعذّب، والحرية الفكرية تقلق النفس، ولكن إذا عرفت كيف تضرب على أبواب القلوب سمعت الجواب دواماً».

... أما عن ترقية نفسها فلست أعرف أديباً يُعنى بذلك بمقدار عنايتها. فهي تعرف خمس لغاتٍ أجنبية، وتجيا الكتابة في اثنتين منها. وليس

أدلُّ على ذلك من هذه الكتب التي تخرج من قلمها الواحد في إثر الآخر، وكلّ منها يفضل سابقه. فقد كانت منذ أعوام تدرس الصوفية الهندية، ثم أعقب ذلك درس الاشتراكية، وغيرها من الآراء الاجتماعية. إنها تجري على سنن الحياة بالتطور المستديم)[١].

وأخذ عليها سلامة موسى، في نهاية مقاله: «ميلها إلى التزويق في كيفية تسطير السطور، فتراها تبدأ سطراً جديداً، لا لغاية الا للزينة والزخرفة».

وأخذ غيره عليها تقليد أسلوب جبران خليل جبران، فساءها ما سمعت وكتبت إلى الدكتور يعقوب صروف ما يلي: (لو أردت أن أقلّد أحداً لقلّدتك أنت، لكني أكره التقليد الذي يشوّه المقلَّد، ويمسخ المقلِّد)[٢].

ولا ريب في أن لأسلوب ميّ طابعه الذاتي، وأنه بعيد الشبه بأسلوب جبران، فأسلوبها واقعيّ، مشرق بوضوحه، جذاب بشاعريته، بينما أسلوب جبران رمزيّ جانح إلى الغموض والخيال. كما أن أدبها ذو طابع تقليدي في محافظته، معتدلٌ في رفض العقيم من التقاليد، بينما أدب جبران سابح في الأثيريات، ثائر بعنفٍ على التقاليد والمجتمع، ولكن الأديبين يلتقيان في نزعتهما الاصلاحية. وكان الأستاذ العقاد يفضل كتابة ميّ على كتابة جبران لأنها أكثر التزاماً بقواعد اللغة العربية. ومن الذين وجدوا أسلوبها أرقى من أسلوب جبران وأنقى منه المستشرق الدكتور «أزفالدو ماتشادو» الذي درّس الأدب العربي الحديث في جامعة بوينس آيرس، ونشر كتاباً عنوانه: «ذكرى ميّ وتقييم آثارها»[٣] كان قد ألقى فصوله في محاضراته باللغة الاسبانية. وفي المهجر أديبة لبنانية معروفة هي السيدة ليلى نفاع، عرفت ميّ عبر المراسلة،

---

(١) الهلال - ج ٣٢ - عام ١٩٢٤ - ص: ٧٤٩ - عدد أول ابريل.

(٢) رسائل ميّ - جميل جبر - ص: ٤٧ - ٤٨.

(٣) ذكرى ميّ وتقييم آثارها - RECUERDO-Y VALORACION DE MAY «أزفالدو ماتشادو - «OSVALDO MACHADO» ص: ٨.

وأعجبت بأدبها، وترجمت إلى الاسبانية فصولاً منه في كتاب نشرته في الأوروغواي عام ١٩٣٨ عنوانه «أصوات من الشرق، Voces De Oriente»، ضمنته تراجم لبعض مقالات جبران خليل جبران.

أما الأديب الكبير توفيق يوسف عواد فقد خصّ ميّ بفصل من فصول كتابه «فرسان الكلام» فكتب في وصف أسلوبها ما يلي: (ميّ في أدبها السامي، للفظ عندها معناه، وللمعنى لفظه، وللعبارة مدّها وجزرها، وللفكر صفاؤه، وللمنطق مداخله ومخارجه، وللعاطفة أتونها المضطرم ورمادها المذرور، وللمخيّلة أجنحتها الخفاف اللطاف، وأجواؤها البعيدة المترامية، والأغوار التي ليس لها قرار)[1].

ويرى فيلسوف الفريكة أن لميّ: (أسلوباً خاصاً في الانشاء، خاصاً بمزاجها، بذوقها، باتجاهاتها وبشتى العوامل النفسية والذهنية والروحية، فتراها فيه الأديبة المحدثة، والأديبة المحققة، والأديبة المرشدة، والأديبة اللاهية، فيترقرق النور خلال هذه المزايا الشخصية، ويكسبها شيئاً باهراً، ساحراً في نقاوته وهدأته واضطرابه، في حنانه ونقمته، في سخريته وتهكمه. إنه لينذر في كتابنا اليوم نساءً ورجالاً من تتجلى هذه المحاسن كلها في أسلوبهم)[2].

قالت ميّ في كتابها «باحثة البادية»: «إن الكتابة أكثر الفنون دقّةً وعسراً». وإن القارىء ليلحظ عنايتها الفائقة بانتقاء العبارات، والأناقة في عرض الأفكار، وتبويب الأبحاث، ولولا ذلك لما تبوّأت تلك المكانة الرفيعة بين كبار كتاب عصرها، ولما كان القراء ينتظرون مقالاتها في أمهات الصحف والمجلات، ولما كانت الأهرام تنشر مقالاتها في صفحتها الأولى، كمقالتها في رثاء سعد زغلول: «هجع جبار الوادي». ولا بد من الاشارة أيضاً إلى براعتها في تكييف أسلوبها حسب ما يقتضيه الموضوع: فهو رقيق، شاعري في

---

(١) فرسان الكلام ـ توفيق يوسف عواد ـ ص: ٣٠.

(٢) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٢٢.

النفحات الوجدانية، ووصف الطبيعة، شجيٌّ في مواقف الرثاء[1]، حماسيّ في الدعوة إلى النضال، وسلس في الدراسات الأدبية المتنوعة، والخطب، والمحاضرات. ولهذا كانت شهادة شيخ النقاد، مارون عبود، الحكم الفاصل في أسلوبها حيث كتب يقول: (يحس القارىء أنها قرأت كثيراً، وتمثلت ما قرأته متسماً بطابعها الشخصي. والذي عندي أن ميّ ليست ممن يرسلون المقال عفو الخاطر، بل تنقّح وتحكّك، فإذا كان الحطيئة عبد الشعر فميّ أمة النثر)[2].

ومع ذلك وُجد من اتهمها بانتحال أقلام الرجال، فلا ريب في أنها طربت لهذا الاتهام، وان وجدت فيه استخفافاً بقدرة المرأة على الابداع... فقد كتب إليها الأب انسطاس الكرملي في ١٨ - ٩ - ١٩٢٠ حول هذا الأمر فقال: (لأدبك هنا في العراق عشاق كثيرون: فمن قائل إن الكاتب هو رجل يكتب عنك المقالات، ومن قائل إنها لكِ، لكن أحد الأدباء ينقح لكِ العبارة، ومن قائل إنها من نتاج فكرك وقلمك، وأنا من هؤلاء الأخيرين، وأول من أيّد هذا الرأي بأدّلةٍ لا ترد فقلّ المخالفون)[3].

وهنالك ميزتان من أهم ما اتسم به أدب ميّ: سمة الجمال وسمة الخلود. يدرك القارىء سمة الجمال إذ سرعان ما يتملكه شعور بأنه دخل روضة ساحرة تنتشي بها النفس، ويبتهج الفكر، سواء عندما تناجي الكاتبة الطبيعة، أو تبكي على «المغرّد الصامت»[4]، أو تجول في الذكريات، أو تنشىء سير الرائدات. أما سمة الخلود فإنها تكمن في جوهر هذا الأدب الرفيع: في الفكر الذي أملاه، وفي الروح الحرة والنزعة المثالية الناضحتين

(١) من الذين رثتهم ميّ في كلمات تأبينية، أو مقالات نذكر: أحمد كمال، وفتحي زغلول، وباحثة البادية، وداود بركات، والدكتور يعقوب صروف، والزعيم سعد زغلول، ووالدها الياس زيادة.

(٢) جدد وقدماء - مارون عبود - ص: ١٤٧.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: (١١١).

(٤) ظلمات وأشعة - ميّ زيادة - ص: ٣٣ - ٣٨.

منه. إن من يقرأها اليوم، وقد بلغ البعد الزمني بينه وبين تاريخ كتابة تلك الآثار ما يزيد على نصف قرن، يحسبها وليدة عصرنا الحاضر. لقد دافعت ميّ عن العربية الفصحى، وعارضت بعنف شيوع العامية، وما زلنا نغار على العربية الفصحى غيرتنا على حضارتنا ووحدتنا، ونحارب دعاة العامية ومراميهم المغرضة... ودعت إلى التعليم، لا لكي نتحرّر من الجهل فحسب، بل لنسهم في بناء أسرةٍ أفضل، ومجتمع ووطن أرقي، وما زلنا ندعو إلى التعليم ومحو الأمية، في كل بلدٍ عربي لأننا في حاجةٍ ماسةٍ لنهضة صحيحة شاملة لا تقوم إلا بتحرر الرجال والنساء على السواء. ودعت كذلك إلى تقديس الحرية، حرية الأوطان والأفراد، حفاظاً على الكرامة الانسانية، ومن منا لا يقدّس الحرية، ولا يعلم أننا نخنق كل موهبةٍ، ونمنع كل تقدم، وَنَئِدُ كلّ خيرٍ وأملٍ وعزة إذا خنقناها! ووعت ميّ مسؤولية الكاتب، ومسؤولية المواطن فدعت أبناء جيلها وبناته إلى تمثّلها، ووضعها نصب الأعين والضمائر في كل ما يفعلون، وما زلنا نتخبّط في ظلمة التخلّف، ولا سيما في جهلنا أصول التربية القومية، وما زلنا نفتقر إلى كتابٍ مسؤولين، وآباءٍ وامهاتٍ مسؤولين، ومواطنين مسؤولين، وحكامٍ مسؤولين.

وبديهي أن أي كاتب يتميّز انتاجه بهذه الصفات يؤثّر في قرائه وعصره وتطوّر الأدب في بلاده، ولهذا قال عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، في تقييم أدب ميّ: (لقد أثّرت ميّ زيادة في الحياة الأدبية العربية تأثيراً عميقاً جداً ظهرت بعض صوره أثناء حياتها، وستظهر صوره الأخرى بعد وفاتها بزمنٍ قصيرٍ أو طويل)[1].

شهادة أخيرة بأدب ميّ تتفق مع رأي الدكتور طه حسين، هي شهادة الأستاذ أحمد حسن الزيات حين ختم افتتاحية «الرسالة» التي خصّ بها ميّ، بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاتها، بالعبارات التالية:

(... أما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم: «ما سمعت

---

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٧٨.

شعر امرأةٍ إلا أحسست فيه الضعف» فقيل له: «أوكـذلك الخنساء ؟» فقال في لهجة الفطن المحترس: «أوه! تلك فوق الرجال!».

ونحن نقول في ميّ ما قال بشار في الخنساء، ونزيد عليه أن ميّ هي الأديبة الكاملة في تأريخ الأدب العربيّ كله!)[1].

تُرى هل كان الأستاذ الزيات مغالياً في هذا الحكم؟ لا، أبداً! لأنه أطلقه بتجرّد، وعن يقين بأن تأريخ الأدب العربي لم يعرف قبل ميّ أديبةً تضاهيها في ثقافتها، وانفتاحها على الأدب العالمي، ونبوغها في الكتابة واسهامها في النهضة الأدبية والاجتماعية الحديثة. كانت عدة ميّ الفنية غنيةً لاطلاعها على كتب التراث العربي، والروائع الغربية، فتميّز أدبها بالمادة الخصبة، والرؤيا الشاملة، والصور المبتكرة. لقد سارت على منهج أكابر الكتاب عند العرب كالجاحظ وابن المقفع وابن سينا وابن رشد، الذين كانوا يدرسون اللغة والفقه، وعلم النبات والحيوان، والشعر والفلسفة والبلاغة، والموسيقى والفلك والسيرة، وما تناهى إليهم من العلوم المنقولة عن اليونان والفرس. ولا ريب في أن نصيب الكاتب من العطاء الجيّد يقاس برصيده من العلم والثقافة. وخير ما قيل في هذا الصدد رأي الناقد الكبير الأستاذ مارون عبود بأسلوب ميّ حين كتب يقول:

(ميّ غربية شرقية في تفكيرها، تفاعلت في قلمها الثقافتان فكان نتاجها تعبيراً رصيناً لم تظفر بمثله أنثى قبلها. إن ميّ الكاتبة خير كاتبة عرفها الشرق العربي، وهي في أسلوبها المتين تبزّ الكثيرين من الفحول، كما قيل في بنت عمّها الخنساء. في منثورها رائحة شعر ذكية، وفي تعبيرها موسيقى بعيدة الأثر. كان أدب المقالة مسيطراً في عهد صباها فتأثرت كغيرها بأسلوب الشدياق والحداد واسحق وغيرهم من كتاب القرن التاسع عشر، ثم ضمّت إلى قسماتها الفنية بعض ملامح جبرانية، ريحانية)[2].

---

(١) الرسالة ـ عدد ٨ ديسمبر ١٩٤١ ـ الصفحة الأولى.

(٢) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٤٦.

مختارات من أقوال ميّ

(اتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الاخلاص والصدق والحميّة والتحمّس لكل شيءٍ حسن وصالح وجميل لأنه كذلك، لا عن رغبةٍ في الانتفاع منه.

ميّ)[1]

لكل كاتب ومفكر كبير أقوال تسترعي الانتباه وتُعجب إما في حسن صياغتها، وإما في ابتكار معانيها، أو جمال صورها، وكثيراً ما تذهب مثلاً أو قولاً مأثوراً يجري على ألسنة الناس، ويستشهد به الباحثون في أدب الكاتب. وقد استوقفتنا أقوال من هذا النوع في كتب ميّ وخطاباتها، ومحاضراتها ورسائلها، اخترنا منها النماذج التالية:

(يجب أن يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان. يجب أن يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه. يجب أن يرى حقوقه مهضومة يُزدرى بها ليفهم أن حقوق الغير مقدسة يجب احترامها.

الحياة الانسانية ثلاث خطوات: خطوة من الجهل إلى المعرفة، وخطوة من المعرفة إلى الارتقاء، وخطوة إلى ذلك اللامع هناك في أقاصي الآمال: إلى المثل الأعلى الذي نجهله ويحيينا جميعاً.

---

(١) رسائل ميّ - جميل جبر - ص: ٤٠ - ٤١، من رسالة ميّ إلى الدكتور يعقوب صروف.

التأريخ الشرقي تأريخ مجدٍ وفخر، ولكن هناك شيئاً أعظم منه هو الذكاء الشرقي الذي أوجد التأريخ.

الاحسان إلى الناس لا يقوم بإعطائهم مالاً وقوتاً وثياباً يتمتعون بها دون تعب، فيحسبون الحصول عليها من حقوقهم، بل الاحسان اليهم في فتح عيونهم وأفهامهم ليدركوا أن الذي لا يؤدّي واجباً لا حقّ له في شيء.

الثورة ككلِّ جرأة: في وقتها، ومكانها عبقرية وانتصار، وفي غير ذلك حماقةٌ واندحار.

المسؤولية صارمة تثقّف الذات القومية والذات الفردية. المسؤولية غير ملاينة ولا مهادنة، وهي من أكبر البواعث على نفض دثار الخمول، وتكوين صفات النبل والكرامة.

السلاسل والقيود أقلّ رموز العبودية هولاً! القيود في دمائنا وأهلنا وأوطاننا. القيود في رغباتنا وحاجاتنا. القيود في بشريّتنا.

الدين رابطة بين الخالق والمخلوق، بينما القومية هي الرابطة الدنيوية التي ما داخلتها فكرة الدين إلا أنزلت المحن بالقوم، وفرّقت شملهم، فلا تقوم لهم قائمة، ولا تُضمن لوطنهم حياة هنيئة بغير التكاتف والاتحاد!

لا يقوم الحاضر إلا على قاعدة الماضي، فليذكر هذا أولئك الذين يقولون بالهدم المطلق.

الحرية ليست الاباحية كما يزعم كثيرون، والفرق بينهما أن للأولى حدوداً تحترمها، وللثانية حدوداً تتجاوزها.

الصداقة تزرع الحياة أزهاراً.

كيف تستطيع الأفعى الزاحفة على الأرض أن تفهم النسر المحلّق في الفضاء؟

قضبان النوافذ في السجن تنقلب أوتار قيثارةٍ لمن يعرف أن ينفث في الجماد حياة.

ما أنت في الاجتماعات إلا بعض الناس، أما في عزلتك فجميع الناس بعضك.

الدموع الراسبة في أعماق القلوب تذيب منا الكبرياء والغرور، وتأتينا بخبرةٍ عجيبة تدنينا من جوهر الأشياء، وتُخرج منا الحكماء والأنبياء.

إذا أحبت المرأة ذاتها حباً رشيداً كانت لنفسها أباً وأماً وصديقة ومرشدة، وأنمت ملكاتها بالعمل، وضمنت استقلالها بكفالة عيشها، لأن الأهل الذين تتكل عليهم قد يموتون، وللأخوة والأخوات عائلاتهم وسبلهم في الحياة، والأصدقاء يتغيرون وينسون، والثروة الطائلة قد تنقلب هباءً، أما هي فلا تخون ذاتها، ولا تنسى ذاتها، ولا تفقد ذاتها.

صديقك الحقيقي هو الذي يعرف أنه يضربك ضربةً عظيمةً عندما يرى ضرورةً لذلك، غير أنه لا يفعل ذلك إلا بمحبة.

الصداقة الحقيقية نادرة لأنه ندر من يعرف الجمع بين القساوة والرقّة.

الجمال هو الابتسامة في جبين الانسانية العابس.

الجمال هو الملجأ في صحراء الحياة.

النفس البشرية تشبه بركة الماء مهما راقت صفحتها، وتلألأ سطحها، حرِّكها قليلاً تتعكر وتكفهرّ بما ركد في أعماقها من الأوحال...

إن في انتظار الجزاء ما يقلّل من قيمة العطاء.

إن يوماً يبرز فيه العقل وقد ثقّفه العلم والمعرفة بقرب عواطف هذّبتها يد الألم والرحمة ليوم تتدفّق فيه البركات على العالم سيولاً!).

هذا غيض من فيض نلحقه بفصل ميّ الكاتبة للدلالة على نظرتها للحياة والناس، ومشاعرها الانسانية النبيلة، وحكمتها. وإن لم تكن سائر

أقوالها مبتكرة فإنها مسكوبة بقالبٍ جميل في وضوحه وبساطته. أما عن الحكمة عند ميّ فلقد نوّهت بها جريدة المقطم عام ١٩٢١، في إثر أولى محاضراتها في القاهرة «غاية الحياة»، بهذه العبارات: (خُلقت ميّ لتكون شاعرة في نثرها، كما أُعدّت لتكون حكيمة في شبابها. إنها تصوغ المعاني والآراء الحكيمة في آنيةٍ من البللور الصافي، أو الصيني، أو «السيفر» الباهظ الثمن).

الخطيبة والمحاضرة

ليس كل كاتب خطيباً إنما ميّ كانت خطيبةً عظيمة سحرت الجماهير في مواقفها الخطابية في مصر وسورية ولبنان. لقد أثبتت، في كل مناسبة ألقت فيها خطبة في الثلث الأول من القرن العشرين، أنها أميرة المنابر، والخطابة فنّ يتطلب صفات متعددة، أهمها الصوت الحسن، واللفظ الصحيح، والديباجة المشرقة، والوقفة اللائقة، والإشارات الملائمة للموضوع. وتجلت موهبتها الخطابية مذ كانت تلميذة صغيرة السن، وذلك بدليل ما جاء في رسالة الأستاذ شبلي ناصر رزق المؤرخة في ١ ـ ١٠ ـ **١٩٢٥** التي بعث بها إليها من الأرجنتين فقال:

(عرفتك شخصياً أيتها النابغة منذ تسعة عشر عاماً أي قبل مهاجرتي إلى الأرجنتين، عندما كنت معلماً في الناصرة، وكنتِ حضرتك في ذلك الوقت صغيرة. ولكن أمائر الذكاء، وشارات النبوغ كانت ظاهرة على جبينك الوضاحِ عندما كنتِ تلقين خطبك في الحفلات المدرسية)[1].

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٠٤.

اصطافت ميّ في لبنان صيف سنة ١٩١١ بعد أن نشرت ديوان شعرها باللغة الفرنسية وأخذ اسمها يلمع في الأوساط الأدبية فأقام لها بعض الأدباء حفلة تكريم في «ضهور الشوير» في «عرزال جميل» ضمن أحراج الصنوبر، عُرف باسم: «الكوخ الأخضر»، كانت تقضي فيه ساعات طوال تكتب وتطالع وتتأمل. ترأّس الحفلة الأمير قبلان أبي اللمع، وخطب فيها رهط من الأدباء اللبنانيين من مقيمين ومغتربين كانوا يصطافون في وطنهم الأم، وَحَضَرَتْهَا شخصيات مصرية وسورية ونسائية وُجدت يومئذٍ في «ضهور الشوير» فألقت ميّ خطبة موجزة ولكنها رائعة في سبكها ومعانيها المناسبة للمكان والمقام، وفيها قالت:

(. . . وغداً عندما أعبر عتبة هذا الكوخ الصغير الذي جعلته حفاوتكم عظيماً سأنظر إليه بعينين جديدتين لأنكم نبّهتموني إلى أنه على فتاة هذا الجيل أن تهدم حدود شخصيتها الفردية الضئيلة لترى المجموع ممثلاً في ذاتها: فتنتفع لتنفعه، وتسير لتسيّره، وترتقي لترقّيه)[1]. وفي العام التالي دُعيت إلى بكفيا يوم الاحتفال بعيد العذراء فألقت خطبة موفقة في نهاية احتفالٍ أدبيّ أقيم لتكريمها، دعت فيها أبناء الوطن العربي إلى التضامن والاتحاد، بعد أن استعرضت التاريخ استعراضاً موجزاً بليغاً، منذ عهد الفينيقيين حتى مطلع القرن العشرين[2].

وكان ظهورها خطيبةً لأول مرة في مصر في حفلة التكريم التي أقيمت بدار الأوبرا في القاهرة لشاعر القطرين خليل مطران، في شهر نيسان سنة **١٩١٣**. دُعي إلى تلك الحفلة الرسمية كبار الكتاب العرب المغتربين ومنهم جبران خليل جبران الذي أرسل كلمةً من نيويورك، فاقترح الأستاذ سليم سركيس على ميّ القاءها نيابةً عنه، وهذه ميّ تحدثنا عن تلك الحفلة بقلمها:

(لا أكتم أني تهيّبت هذا الموقف أمام أقطاب الأدب والعلم والوجاهة

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧ ـ ٩.

(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠ ـ ١٦.

فصارحت والدي بذلك ولقيت كل التشجيع. جلست بين الخطباء أمام المنصة في مساء الرابع والعشرين من شهر ابريل ١٩١٣ بعد أن أوصاني الأستاذ سليم سركيس بأن أبيّض وجهه، واعتمدت على الله. وجاءت ساعة الخطابة، فلما حان دوري شعرت بقشعريرة تنساب في عظامي، وبالخوف يدبّ في نفسي، وكان بجانبي زكي باشا فلمح الوهم على وجهي، وأسرّ إليّ بكلمة لطيفة مشجّعة. وقد عُزف قبل دوري فاصل موسيقي فأثّرت الموسيقى في نفسي، وساعدتني أنغامها على السيطرة على أعصابي فنهضت وألقيت كلمة جبران: «الشاعر البعلبكي» بحماسة، واتبعتها بكلمتي، ويظهر أن الإلقاء كان ناجحاً إذ قام الأمير محمد علي، رئيس الحفلة، وصافحني وهنأني)[1].

نشرت المحروسة وصفاً مسهباً للحفلة، وتعليقاً على كلمة جبران التي ألقتها ميّ، والكلمة التي عقّبت فيها على كلمته بقلم: «سمير» جاء فيه:

(... واستنهض الطرب والإعجاب الأمير الجليل محمد علي باشا فمشى إليها وهنأها «بما آتاها الله من بيانٍ ساحر، ونفسٍ طماحة إلى المعالي والآداب، وقال وهو يصافحها: أهنيك يا آنسة، ونهنىء أنفسنا بك!».

فيا فتاة الأدب، ويا آنسة الشعر والشعور لقد تفضلتِ على المصريين بحبكِ الطاهر، فتفضلي بقبول إعجاب مصريٍّ يرى الفتاة بغير أدبٍ يزيّنها، وعلم يسمو بها عاطلةً، وإن حملت فوق صدرها من الحليّ والجواهر أثقل الأحمال. ولولا يُقال: «محرّر في جريدة أبيها يداهن ويجامل، ويتودّد ويتقرّب» لقلت: عروس الشرق تخطب في موقفها الكمال لأهله، والحياة الشريفة لبناته)[2].

وذكر المحرر في كلمته أن الفاصل الموسيقي الغنائي قد أدّاه الموسيقي المبدع سامي أفندي الشوّا، والمطرب زكي أفندي مراد. قد نستغرب اليوم

---

(١) مذكرات ميّ ـ ص: ٥٧.

(٢) المحروسة ـ العدد رقم ١٢٩٤ ـ تاريخ ٢٧ ابريل ١٩١٣ ـ الصفحة الثالثة.

المغالاة باطناب مزايا خطيبةٍ شابةٍ وقفت على منبر الجامعة المصرية بين رهطٍ من كبار الخطباء والشعراء ، ولكن ميّ كانت في ذلك العصر فلتةً من فلتات الدهر، وكانت صحافة العصر ومحافله الأدبية متشوّقة لظهور شخصية نسائية تباري أهل القلم والخطباء . ولم تبقَ صحيفة أو مجلة في القاهرة آنذاك إلا وهلّلت لاكتشاف نبوغها في الأدب والخطابة على حدٍّ سواء، فذاع صيتها في مصر وفي سائر الأقطار العربية. وهذا الدكتور طه حسين يصف ولادة ميّ الخطيبة في مذكراته تحت عنوان: «عندما خفق القلب لأول مرة:

(واحتُفل ذات مساء في حجرة من حجرات الجامعة القديمة بتكريم خليل مطران، رحمه الله، وكان الشعراء ينشدون في الاحتفال الشعر، وكان الخطباء سيلقون فيه الخطب، فاعتذر الفتى إلى أستاذه في الجامعة من حضور الدرس، وآثر شهود ذلك الحفل. وفيه سمع كثيراً من الشعر، وكثيراً من الخطب فلم يحفل بشيء مما سمع. لم يعجبه شعر حافظ في ذلك المقام مع أنه كان كثير الاعجاب بشعره، ولم تعجبه قصيدة مطران لأنه لم يفهم منها شيئاً، ولم يذق منها شيئاً، وربما أحسّ فيها إسرافاً من الشاعر في التضاؤل أمام الأمير الذي أهدى إليه ذلك الوسام، فقد شبّه نفسه بالنبتة الضئيلة، وشبّه الأمير بالشمس التي تمنحها الحياة والقوة والنماء. لم يرض الفتى عن شيءٍ مما سمع إلا صوتاً واحداً سمعه فاضطرب له اضطراباً شديداً أرّق له ليلته تلك. كان الصوت نحيلاً، وكان عذباً رائقاً، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه في خفةٍ إلى القلب، فيفعل فيه الأفاعيل، وكان صوت الآنسة ميّ التي كانت تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى)[1].

ولا بد من الإشارة إلى أن ميّ لم تكن تلفت الأنظار بجمالها لأنها لم تكن من الجميلات، ولا بزينتها لأنها لم تكن من المتبرجات، إنما كانت تستهوي القلوب وتنال اعجاب الناس بوقفتها الرصينة على المنابر، وسحر بيانها وأدبها الجم. وقد شبهتها مجلة الزهور بالشمس حيث كتبت تقول:

---

(١) مذكرات طه حسين ـ ص: ٤٥ ـ ٤٦.

(في الحفلة التي أقامتها مجلة سركيس في الرابع والعشرين من الشهر الماضي احتفالاً بالانعام على خليل أفندي مطران بالمجيدي الثالث تجلّت هذه «الشمس» بأحلى مظاهرها، وألقت من قرصها الذهبي المتقد أشعة الحب والوئام والصفاء على مصر وسوريا اللتين كان يمثلهما في دار الجامعة نخبة من الأدباء والفضلاء والوجهاء في القطرين الشقيقين)[1].

ويبدو أن الجمهور يومئذٍ أعجب بكلمتها التي عقّبت فيها على كلمة جبران بعد أن القتها أكثر من اعجابه بكلمة جبران نفسه. وقد حافظت ميّ على مكانتها الخطابية الرفيعة منذ ذلك التاريخ حتى نهاية حياتها ولم تنقطع عن الظهور خطيبة أو محاضرة إلا في فترات مرضها أو حدادها. خطبت في مدينة طنطا مرتين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٢٠ تلبيةً لدعوة الجمعيات الخيرية فيها، وخطبت في القاهرة وفي الاسكندرية عدة مراتٍ ما بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٢٨ إذ كانت الدعوات تتهافت عليها للإسهام في أعمال البرّ والاحسان، ولمناصرة النهضة الحديثة. ولعل أكثر ما يسترعي الانتباه اهتمامها بموضوع المساواة سنة ١٩٢٠، ومعالجته في خطابٍ دعتها لإلقائه جمعية الاتحاد والاحسان السورية بالقاهرة، وذلك قبل صدور كتابها «المساواة» بثلاث سنوات. كان عنوان خطابها «ظلّ الإله الثاني» وقد تحدثت فيه عن الظلم المحيق بالطبقات العاملة، وحذّرت من اندلاع براكين ثورية إذا ما تقاعست السلطة الحاكمة عن انصاف المحرومين، وقد عنت بـ«الإله الثاني» المال، كما دعاه السيد المسيح[2].

كانت قاعات النوادي تغصّ بالناس في مواعيد خطبها فيضطر بعضهم إلى الوقوف في الردهات للاستماع إليها لأن خطبها كانت حدثاً عظيماً في ذلك الزمان. وقد بلغ اعجاب السيدات فيها مبلغاً دفعهن، أكثر من مرة، لإلقاء باقات الزهر، وقطع الحليّ الخاصة بهن على المنبر تحيةً لنبوغها، وتعبيراً عن

---

(١) الزهور ـ الجزء الثالث من السنة الرابعة ـ عدد مايو ١٩١٣ ـ ص: ١٦١.

(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٢١ ـ ١٢٧.

مشاعرهن نحوها، كما أنها حُملت ذات مرة على الأكتاف بعد نزولها من المنصة لشدة ما ألهبت مشاعر الجمهور في خطابها الرائع[١]. كما شهد أكثر من شاهد أنها كانت تستدرّ دموع المستمعين، وتشحذ هممهم للعطاء والاحسان حين تصف اليتم والحرمان، وأنها كانت تحفز الهمم للنهوض، وتشحن النفوس بالأمل حين تستعرض تاريخ المرأة عبر الأجيال، وتثير موضوع حقوقها، وواجباتها تجاه نفسها وأسرتها والمجتمع، وأنها كانت تستحوذ على اعجاب الكبير والصغير، المتعلم والأميّ حين تتناول موضوعاً وطنياً أو أدبياً بأسلوبها المشوّق، المطعّم بالاستشهادات الملائمة. يضاف إلى ذلك أثر جاذبيتها، بل نوع من المغناطيسية في شخصيتها كانت تستولي على انتباه الجمهور، وتسحره بما يسمع، وتجعله متمنياً أن يقف الزمن حتى لا تنتهي ساعة الخطاب، إذ كانت الصلة بين قلبها ولسانها صفة من أبرز صفاتها الخطابية، وكان كلامها سالماً من معرّة اللحن، وصوتها رائقاً عذباً لا يُملّ وقعه على الآذان.

تحدّث الكتاب عن خطب ميّ المشهورة ولكن أحداً لم يذكر دعوة من نوعٍ خاص تلقتها من نقابة عمال القطر المصري، فقد وجدنا بين أوراقها الشخصية بطاقة دعوة للخطابة وجهها إليها رئيس تلك النقابة الدكتور محجوب ثابت يدعو فيها «الآنسة النابغة ميّ» لمشاركة النقابة في احتفالها بالعيد المئوي لمولد ساكن الجنان الخديوي اسماعيل باشا، مجدد نهضة مصر، في الساعة السابعة والنصف من مساء ١٨ يناير سنة ١٩٢٠، «بالسرادق المقام بشارع المطبعة الأهلية ببولاق». ورسالة من مجلس إدارة النقابة بتوقيع الوكيل الأول علي حسن فرحات هذا نصّها:

(إلى الآنسة النابغة ميّ:

تحية عمال مصر، وحبهم واعجابهم، وإليها دعوتهم أن تشاركهم

---

(١) هذه الرواية منقولة عن حديث السيدة سعاد معمّر الأشقر (ابنة خال ميّ) مع مؤلفة السيرة الذي جرى في «بيت شباب» بلبنان في صيف سنة ١٩٦٩، وتؤكد السيدة سعاد انها ما زالت تذكر ذلك المشهد اذ كانت تستمع الى ميّ بصحبة أبيها ووالدي ميّ اي عمتها نزهة وزوجها الياس زيادة.

الذكرى التي كانت هي أول الداعين إليه. والعمال الذين اشتركوا مع الآنسة في هاجس ضميرها يتمنون أن تكون مشاركتها لهم بأكثر من تشريفها، بأن تلقي كلمة الجنس الرقيق، وكلمة الشباب المثقف، وإلى اللقاء).

شركة تعاونية

نقابة عمال القطن المصرى

المسجله تحت نمرة ٨١٠

بشارع المطبعة الاهلية سكة جلال الملك نمرة ٧

بولاق مصر

نمرة (٩١٢)

تحريرا فى ١٤ .... سنة ١٩٢٠

الى الآنسة النابغة "مى"

تحية عمال مصر. ومحبيهم وأحبابهم.

وأليك دعوتهم أن تشاركهم احتفال الذكرى. التي كانت هي أول الداعين إليه.

والعمال الذين اشتركوا مع الآنسة في هاجس ضميرها. يتمنون أن تكون مشاركتها لهم

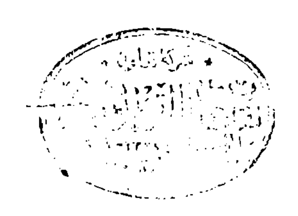
بأكثر من تشريفها، بأن تلقي كلمة الجنس الرقيق، وكلمة الشباب المثقف.

وإلى اللقاء

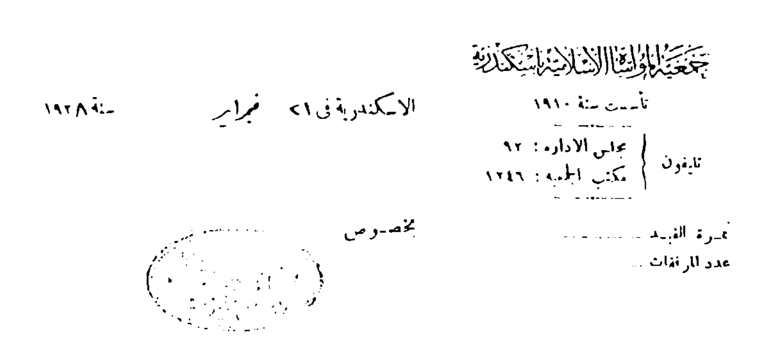
عن مجلس ادارة

نقابة عمال القطن المصرى

الرئيس الأول



ووجدنا بين أوراقها رسالة من رئيس جمعيـة المؤاساة الإسـلامية في الاسكندرية محمد فهمي عبد المجيد، يدعوها فيها لإلقاء خطبة عن الاحسان وأثره في المجتمع الإنساني في مساء الاثنين ٢٧ فبراير ١٩٢٨ خلال الحفلة التي عزمت الجمعية على إحيائها لمساعـدة الفقراء الـذين تعولهم. ونـوّه رئيس الجمعية بأن جمعيته على استعداد لدفع نفقات السفر ذهاباً وإياباً، والضيافة في فندق كلاريدج، كما هو واضح في صورة الرسالة المدرجة أدناه!.



جمعية المواساة الإسلامية بإسكندرية

تأسست سنة ١٩١٠

الاسكندرية في ٢١ فبراير سنة ١٩٢٨

تليفون: محل الادارة: ٩٢ — مكتب الجمعية: ١٢٤٦

نمرة القيد ...

عدد المرفقات ...

بخصوص

حضرة الآنسة الفاضلة والأديبة المحترمة السيدة مي زيادة

بمزيد التحية والاحترام أتشرف بإحاطة علم حضرتك أن جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية المشمولة برعاية حضرة صاحب الجلالة الملك وبرئاسة شرف حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون عزمت على إحياء ليلة خيرية لمساعدة فقرائها الذين تعولهم وذلك بمناسبة شهر صيام رمضان المعظم في مساء الاثنين ٢٧ فبراير ١٩٢٨ بفندق كلاريدج وسيطرب فيها الحاضرين حضرة الأستاذ محمد أفندي عبد الوهاب.

وقد رأينا أن نزيد في بهجة هذه الحفلة فاخترنا أن نقترح على حضرتك التفضل بمساعدتنا مساعدة أدبية بإعداد كلمة عن "الإحسان وأثره في المجتمع الإنساني" وتتكرمي بإلقائها على الحاضرين وهم من علية القوم وكبار الوجهاء من الجاليات الأجنبية وذلك في فترة الاستراحة بين أدوار الغناء وإذا أمكنت فالجمعية على استعداد لدفع مصاريف السفر لحضرتك ذهابا وإيابا وكذلك ضيافتك في فندق كلاريدج في هذه الليلة.

ونتشرف بأن نرسل لحضرتك مع هذا نسخة من تقرير الجمعية عن أعمالها في سنة ١٩٢٧ باللغتين العربية والفرنسية للاطلاع عليها ولتكوين فكرة عن حالة الجمعية منذ نشأتها وما تؤديه من الخدمات نحو البائسين.

وتفضلي بقبول عظيم الاحترام

رئيس الجمعية

وهنالك رسالة أخرى تفيد بما كانت عليه ميّ من كرم يدٍ ونفس في معاضدة المشروعات الخيرية والثقافية، وما كان لخطبها في تلك الحفلات من أثرٍ وتأثير، و«فيوضات قدسيّة» كما كتبت رئيسة جمعية مدرسة «يد الإحسان السورية الأرثوذكسية بالاسكندرية»، السيدة «إسباسيا أبو شنب» في رسالة شكرٍ وفخر هذه صورة عنها:

SOCIÉTÉ des ÉCOLES de BIENFAISANCE
SYRIENNE-ORTHODOXE
(YAD EL EHSAN)
ALEXANDRIE
Fondée en 1905

جمعية مدارس يد الاحسان
السورية الارثوذكسية
بالاسكندرية
تأسست سنة ١٩٠٥

Alexandrie, le 192

الاسكندرية في ١٩/ ٥/ سنة ١٩٢٨

حضرة النابغة الآنسة العزيزة مي زيادة المحترمة

عرضت كتابك الكريم على هيئة الجمعية فأكبرت فيك تلك العاطفة القومية الملتهبة التي تعلم القريب والبعيد كيف تكون التضحية في سبيل الذين لمحتهم الحياة ونالتهم مكائد العيش فبالك من كريمة. وبالك من فاضلة تسمو بآدابها وفضلها الى حيث تشرف النفس الانسانية كلها بما تطرحه من مثل اعلى لجمال النفس وسمو الاخلاق الجليلة

وان نفسي لا أنسى أيتها الآنسة الكريمة تلك الفيوض القدسية التي أتحفت بها الحفلة بما ألقيته على الحاضرين من درس وعظة. حتى اخذنا نشعر نحوه النشاط. بذاتيتنا وفي حدتنا وحتى اكتسبنا فخراً واي فخر. وسنظل مكرمتك هذه الى ساعتنا فكرماً ذاكرين لك بمزيد الفخر والاعجاب جميل شعورك ورقة احساساتك. وبكرم نفسك واباء لازلت النعمة التي تفيض منها اشرف العواطف وتتدفق منها الصحيح الاحساسات الانسانية النبيلة واسلمي لمن يذكرك بالفخر الاعجاب

رئيسة جمعية مدرسة يد الاحسان
السورية الارثوذكسية بالاسكندرية

أما رسالة نقابة الصيادلة المصرية التي بعث بها سكرتير تلك النقابة « أيوب فرح » إلى ميّ في ٣ يناير ١٩٣٠ فإنها لا تقل أهميةً عن سابقاتها ، وفيها يقول :

(سيدتي الفاضلة الآنسة الجليلة ميّ :

أرجو أن تغفري لي جرأتي في مخاطبتي إياكِ من غير سابق معرفة. فلقد أصبحتِ بشهرتك وبعطفك على الجميع مقرّبةً من قلوب الجميع. والجمهور يشعر بأن العظيم ، المتفوّق ، النابغ هو ملك له ، لذا سامحينا إذا كنا نعتقد إزاءك بما يشبه هذا الاعتقاد .

فإنك يا آنستنا العظيمة إذا خطبتِ مَسَسْتِ أوتار القلب، وإذا كتبتِ ملكتِ منا مشاعر النفوس، فسمعنا كلماتك بلهف، وقرأنا كلماتك بشغف لأنك تتكلمين من قلبك، وتكتبين بعاطفتك الرقيقة. كتبتِ عن الفقر والفقراء فأجدتِ الوصف، ولمستِ عاطفة الشفقة والحنان، وتكلمتِ عن النبوغ المدفون، وكرّمتِ الأمانة في «صبحي المكوجي الصغير»، وبالجملة فقد ضربتِ في كل موضوعٍ عالجتيه بسهمٍ صائب. ونحن جمهور الفقراء نأخذ كل ما يجود به قلمكِ الفياض كما يتلقى النبيّ الوحي، أو كما يتلقى الشاعر الفكرة.

لهذا جئت نائباً عن جميع زملائي الصيادلة لانتدب قلمك الرحيم ليدافع عنا أمام حيفٍ ومظالم وقعت علينا).

والرسالة طويلة كالمقدمة شرح فيها سكرتير النقابة الخَطْبَ الذي أَلَمَّ بالصيادلة لبيعهم أدويةً مسكّنةً للأوجاع، في حالاتٍ طارئة، بدون «تذاكر طبية»، أو (بتذكرةٍ طبية، فيها ذكر لبعض المواد المخدّرة ولكنها غير مستوفاة الشروط، وهذا ما أدى إلى الحكم بالسجن ثلاثة أشهر على ستةٍ وعشرين صيدلي، وغرامة قدرها جنيه) وقد دافع كاتب الرسالة عن زملائه الذين يخدمون الإنسانية، وناشد ميّ إثارة الموضوع في الصحافة لإنقاذ سمعة أولئك الصيادلة وعائلاتهم من الفاقة، بهذه العبارات :

(... قد تستغربين تكليفك الدفاع عنا ولكن لا تستغربي يا سيدتي العاقلة، فالصحف ضاق ذرعها من شكوانا، على اتساع جنباتها لكل هراء. والجمهور صُمّت آذانه عن سماعنا، ولو أنه في استعدادٍ لسماع كل سخيف. ولكن عقيدتنا في قلمك السحريّ هو أنك تتغلبين على هاتين الصعوبتين، وستفتح لك الجرائد أنهارها. وسيعي الجمهور ومصلحة الصحة كل ما تقولين).

من المؤكد أن ميّ لم تتدخّل في أمرٍ دقيق، متعلّق بوزارة الصحة وقوانينها إذ لم نجد في الصحف المصرية الصادرة في شتاء عام **١٩٣٠** أية مقالة لها أو كلمة في هذا الموضوع، إنما أوردنا فقرات من هذه الرسالة لكونها مخطوطة تدلّ على مكانة ميّ الخطيبة والمحسنة في قلوب مختلف طبقات الناس الذين عاصروها.



رسالة نقابة الصيادلة

ASSOCIATION
DES
PHARMACIENS D'ÉGYPTE
Siège Social: 43, Rue Madabegh
Téléphone 3489 Ataba
CAIRE

نقابة الصيادلة المصرية
٤٣ شارع المدابغ
تليفون ٣٤٨٩

مصر في ٤ يناير ١٩٢٠ Le Caire, le

سيدتي الفاضلة الآنسة الجليلة مي

أرجو أن تغتفري لي جرأتي في مخاطبتي إياك من غير سابق
معرفة . فلقد أصبحت بشهرتك . وبعطفك على الجميع مقربة من قلوب
الجميع . والجمهور يشعر بأن العظيم . المتفوق . النابغ هو ملك له
لذا سامحينا إذا كنا نعتقد إزاءك بما يشبه هذا الاعتقاد .
فأنك يا آنستنا العظيمة إذا خطبت مسست أوتار القلوب .
وإذا استبكيت ملكت منا مشاعر النفوس . فسمعنا كلامك بلهفة . وقرأنا
كتبك بشغف . لأنك تستطيعين من قلبك وتكتبين بعاطفتك الرقيقة
بحثت عن الفقر ، وعن الفقراء فأجدت الوصف . ولست ممن نسيها عالم الشفقة
والنائمين . تحدثت عن الينبوع المفقود . وكتبت الأمانة في " سبيل الأدب العظيم " . والآن
فقد ندبت في نقل موضوع بالجملة يسهم صاحبه ومن جمهور القراء نأخذ ال
ما يجود به قلمك الفياض كما يتلقى النبي الوحي . أو كما يتلقى الشاعر الفكرة .
لهذا جئت نائباً عن جميع أصدقائك الصيادلة لأنتدب قلمك الرحيم
ليدافع عنا أمام حيف وظلم وقعت علينا . ونستعين على هذا القلم
بلطفك وشفقتك . وجميل إحساسك . وها أنا أوجز شرح الخطب
الذي ألم بنا . وخطبنا يا آنستي العظيمة هو إنسانيتنا في مهنة الإنسانية
المنتجة . حتى يحدث أن يأتي للصيدلي رسول من قبل مريضه بتذكرة طبية بها بعض
المواد المخدرة وتكون غير مستوفاة الشروط الكتابية في ساعة متأخرة من
الليل . وهو يعلم أن المريض يتلوى في فراشه من شدة المرض الذي قد يكون مغصاً
كلوياً . أو قد يكون مغص كبدي . أو قد تكون نزلة رئوية حادة تستلزم النجدة . وقد يكون نزيفاً

ASSOCIATION
DES
PHARMACIENS D'ÉGYPTE
Siège Social: 43, Rue Madabegh
Téléphone 3489 Ataba
CAIRE

نقابة الصيادلة المصرية
٤٣ شارع المدابغ
تليفون ٣٤٨٩ عتبة

Le Caire, le   مصر في

يطلب الاستئناف. فيكون الصيدلي المتهم في أصعب المواقف فهو إما أن يرفض
تركيب التذكرة إلا بعد استيفائها وهذا محال في مثل هذه الظروف. فيكون مسئولاً
أمام الجمهور، وأمام ضميره، وأمام آداب الإنسانية. وإما أن يصرف التذكرة، ويكون
مجرماً أمام محكمة النقض يستأهل عقوبة الشرع أمام المحاكم الجنائية

ولا يمكن أن يحاكم فيها بسبب ٢٦ صيدلياً ويحكم على كل منهم بغرامة.
وبالإضافة شهور إيقاف عن العمل. ومعنى ذلك أن ٢٦ صيدلية تتعطل شغلها، وينتظر
بعضهم ٤ شهور لأنه ارتكب جرماً. لأنه أنقذ مريضاً في وقت الشدة. بل معناه حرمان
٢٦ عائلة من مورد رزقها ٤ شهور كاملة.. هذا فضلاً عن تشهير سمعة
الصيدلي عموماً. والحرمان منهم شهوراً من ممارسة مهنته.

أن تستشيرين بعض القضاة عنا. وكما أن تستنجد يا سيدتي النائبة. فاعرف
أننا نرجو من شعورنا مع أن شبابنا يتبارى لكل هذا. والجمهور [illegible] آذاننا عن سماعنا [illegible]
أنه في [illegible] وتحت عقيدتنا في ذلك أسرى [illegible] مستقلين
[illegible]

وتفضلي

وتفضلي يا سيدتي العزيزة بقبول فائق الاحترام

المخلص

أيوب تريج

سكرتير نقابة الصيادلة المصرية

يقودنا الحديث عن ميّ الخطيبة إلى مواقفها الخطابية المشهورة إبان رحلاتها إلى سورية ولبنان تلبيةً لدعوات تلقتها من المحافل الأدبية فيهما. أول دعوة تلقتها كانت من لجنة الاحتفال باليوبيل المئوي لبطرس البستاني في نهاية شهر كانون الأول عام ١٩١٩، فاعتذرت عن المشاركة شخصياً ولكنها أرسلت خطاباً عنوانه «الشجرة»[١] ألقي نيابة عنها في الجامعة الأميركية، وكان له وقع كبير يومذاك. وأما الدعوة الثانية التي وجّهتها إليها أندية دمشق الأدبية فقد لبّتها فسمعت من الخطباء والشعراء أجمل الكلام، وأسمعتهم مثله في العاشر من شهر تشرين الأول عام ١٩٢٢. وصلت ميّ إلى دمشق بصحبة والديها في الرابع منه، ونزلت في فندق «فيكتوريا» حيث كان يتوافد الكتاب والشعراء والأديبات لتحيتها والتعرّف إليها عن كثب بعدما عرفوها عبر مقالاتها ومؤلفاتها. أقيمت الحفلة في «قصر البللور» بدمشق، وخطب فيها الدكتور مرشد خاطر باسم النادي الأدبي الماروني، والسيدة روز شحفة باسم النادي النسائي، والدكتور توفيق قندلفت باسم النادي الأدبي، والأديب انطون الأشقر باسم النادي الكاثوليكي، والأستاذ فائز الخوري، كما ألقى الشعراء خليل مردم بك وشفيق معلوف وحليم دموس قصائد تكريماً لها وتمجيداً لنبوغها في الأدب، ولدورها الطليعي في النهضة. علّقت صحف دمشق كألف باء والقبس والعمران وفتى العرب على الحفلة الكبرى التي دامت ساعتين وجمعت صفوة الدمشقيين المعجبين بميّ، وكتبت الأديبة الشاعرة ماري عجمي مقالاً وافياً في مجلة العروس التي كانت تصدرها، وقالت فيه إنها قامت بزيارتها بصحبة السيدة أليس قندلفت، قبل الحفلة: (صرفنا ما ينيّف على الساعتين في محادثة الآنسة، ثم ودّعناها وفي النفس نزوع إلى البقاء)[٢]. ثم وصفت الحفلة وما قيل فيها على هذا النحو: (ترأست الحفلة السيدة روز عطا الله شحفة وافتتحتها شاكرةً للحضور جميل احتفائهم بالمرأة الأديبة الدالّ

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زياد ـ ص: ١١٩.

(٢) مجلة العروس ـ العدد الصادر بتاريخ ١١ ـ ١٠ ـ ١٩٢٢.

على نهضتهم، ثم أسهبت في تعريف الآنسة ميّ وامتداح اجتهادها، ووقفها حياتها على الدرس والإنشاء والتعريب. ونهض الخطباء على أثرها فأجاد الدكتور البارع مرشد أفندي خاطر أيما إجادة، إلا أن قوله إن الذي دفع بالآنسة ميّ وغيرها إلى رفع لواء الأدب هو حبّ التفوّق انقاصٌ من قدرها لا يقصده، ولا تريده، فإذا لم يكن الدافع الوحيد للكاتب أو البطل أو غيرهما مجرّد خدمة الأمة بتخفيف الشقاء عنها، عن طريق تحصيل العلوم، وتقوية الملكات العقلية والأدبية، لن يبلغ مستوى رفيعاً، ولكان ذلك التفوّق عقيماً لا ترجى معه فائدة! وخطب المحامي الأديب الأستاذ فايـز بك الخـوري في الفروق بين حقوق المرأة الشرقية وحقوق المرأة الغربية، وتخلّلت الفكـاهة كلامه. وألقى الأديب انطون أفندي أشقر كلمة جميلة في وجوب تعليم المرأة، وامتاز الدكتور توفيق قندلفت بشرحه نظرية علمية قياسية شرحاً دقيقاً، وتبعه شفيق أفندي معلوف بقصيدة. كان من الشعراء خليل مردم بـك رئيس جمعية الرابطة الأدبية وهو من أسمى فتيان دمشق جاهاً، وأعلاهم في الأدب كعباً، وقد اتخذ من الأديب عبدالله أفندي نجار أسطوانة حيّة إذ أنابه بإلقاء قصيدته لأن صوته لا يمكّنه من تلاوتها، إلى أن جاء دور الآنسة ميّ فودّت لو تلقي خطبتها من المقصورة حيث جلست إلا أن الجمهور استنزلها إلى المسرح مقـاطعاً إيـاها بـالتصفيق الحاد فتقـدمت رئيسة الحفلة، وعـرّفتهـا بكلمـة هي موجزة هذا نصّها: هذه ميّ! إنها أفصح مقالٍ، وأوضح مثالٍ لتعريف نفسها! فرأى القوم بميّ ملامح الشرقيّة، وبتقاطيع وجهها، وإتقان أساليب الايماء ملامح العربية، وسمعوا في لهجتها الموسيقية ضربات قلبها في كل معنى ذكرته في خطابها المنشور في صدر هذا العدد، وقد تفنّنت باشاراتها، عدا عن بلاغة ألفاظها)[١].

هذه شهادة أديبة وصحفية رائدة، وشاعرة مجيدة بالأديبة ميّ، ضيفة

---

(١) مجلة «العروس»، عدد ١١ ـ ١٠ ـ ١٩٢٢.

دمشق، وإنها بحق لشهادة قيمة دوّنتها ماري عجمي في مجلتها. وسرعان ما ذاعت بين الناس القصائد الثلاث التي ألقيت في تلك الحفلة، فردّدتها الألسن، ونشرتها الصحف والمجلات. استهل خليل مردم بك قصيدته بهذه الأبيات:

تحيةً طيبةً إلى النبوغ العربيّ
ونظرةً خاشعةً إلى بهاء الأدبِ
قد جمعتِ بينهما «ميٌّ» بأمي وأبي

ثم ولّاها ملك الأدب باسم الأدباء:

ولاة أمر الأدب ولوكِ ملك الأدبِ
وقلّدوك أمرهم، وذاك أعلى الرتب
وبايعوك بالتي عزّت على المطلبِ
وانقاد في بيعته كل عصيٍّ أو أبيّ

وتغنّى شفيق معلوف بمزايا ميّ وموهبتها في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بِنْتَ الجبال ربيبةَ الهرم هيهات يجهل اسمها حيّ

وكان من أجمل ما جاء فيها هذان البيتان:

بمثلِ ميّ تقيم أمتنا صرحاً يوطده الزمان الآتي
هيهاتَ أن نلقى لنا وطناً إن لم يقم بسواعد الغاداتِ

ورحّب بها حليم دموس، شاعر الشباب كما كانت تسميه، بقصيدةٍ طويلة من أبياتها قوله:

بردى رحِّب بمن حَنَّت إلى مائك العذب، وذياك الشذي،

يا ابنة الشام انظري: نابغةً مثلها، بين العذارى، لم تري
نغمة علوية خالدة أبداً آياتها في أذني

كانت خطبة ميّ موجزة، بليغة ورد فيها قولها:

(ها أنذا في المدينة الآرامية الكبرى، عاصمة الملوك والخلفاء والفاتحين، حاضرة البلاد التاريخية، وآية الجمال في الصحراء، ولكني أشعر بأني في دمشق الجديدة، في الفيحاء الفتاة التي تستجمع قواها بعد الجراح والآلام، وتتحفّز للنهوض والصعود نحو قمة الارتقاء. ولئن تعاون الكرم منكم، وحبّ تنشيط العلم في جعل هذا المساء لي عيداً فقد أريتموني فيه رموزاً طالما تقت إلى حقيقتها. ففي اتحاد الأندية رأيت رمزاً لاتحاد الأمة، وفي ارتفاع صوت المرأة قرب صوت الرجل رأيت دليلاً على تنبّه الكرامة فيها، واعتراف الرجل بحقوقها، واستعداده لمساعدتها. وفي اتفاق المحمديّ والعيسويّ على الترحيب بأختهما السورية رأيت عنواناً لمحو فروق المذاهب، ومتانة الوحدة القومية.

مظهر جليل تبدّت فيه وطنيتكم النبيلة، وإنما هو الذي يوحي إليّ أن أهتف قائلةً: «لَكُم عائلة فَرَقّوها بترقية المرأة واصلاح الرجل. لكم فكر فثقفوهُ بالوسائل العصرية الممكنة. لكم عمل فأتقنوه كائناً ما كان لأن الأعمال الكبيرة لا تقوم إلا باتقان الأعمال الصغيرة. لكم زراعة وصناعة فحسّنوها ما استطعتم، ولا تيأسوا إزاء الفشل. في حياتكم أفراح وأحزان فاستفيدوا بها لتقوية شخصياتكم وإنمائها. لكم ماضٍ عظيم فكونوا له أهلاً بتهيئة مستقبلٍ عظيم. لكم روح شرقي، ولغة شرقيةٌ فأنعشوها وروّجوها لا تعصّباً ولا تعنّتاً. لكم فنّ شرقي فاجعلوه أثراً ثميناً في متحف الثروة الإنسانية. لكم دين وعقيدة فكونوا بهما أحراراً. ودعوا المؤذنين والنواقيس ينشدون أنشودة المحبة والخلود بينا أنتم تردّدون نشيد الحياة إذ تقولون: الله أكبر، لا إله إلا الله ونحن أبناء قوميةٍ واحدة!)[1].

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ جمع وتحقيق وتقديم سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٢ ـ ١٣.

وختمت ميّ خطابها بعبارات الشكر للذين احتفوا بها، وبتحية دمشق، واعتذرت عن ردّ زيارات «الذين شرفوها» مع والديها بالسلام عليها لارتباطها بمواعيد مماثلة في بيروت مع أدباء لبنان.

وفي وطنها الأصلي أقيمت لها حفلات تكريم خطبت في كلٍّ منها وأبدعت: الأولى أقامتها جامعة السيدات في محفل السلام ببيروت في ٢٣ تشرين الأول عام ١٩٢٢، فافتتحت الحفلة الآنسة أمينة خوري، ثم تكلمت فيها الآنسة عفيفة صعب، صاحبة مجلة «الخدر»، والسيدة ماري بتلوني، والآنسة ماري ينّي (وهي الأديبة الكبيرة السيدة ماري يني عطاالله) والآنسة ألماس سلمان، كما ألقت الآنسة كريستين خوري أبياتاً من نظمها. وقد اقتصرت تلك الحفلة على السيدات فقط، فكانت بينهن المسلمات والمسيحيات، السافرات والمحجبات، وبديهي أن سائر الكلمات التي ألقيت في الحفلة، ومنها خطاب ميّ، ركّزت على يقظة المرأة، وواجباتها في النهضة الحديثة.

يعود الفضل في وصف تلك الحفلات، ونقل ما ألقي فيها من خطب وقصائد إلى الأديبة والصحفية الرائدة التي عاصرت ميّ، وكانت إحدى المعجبات بها، وهي السيدة جوليا طعمة، فقد أعدت كتاباً خاصاً بميّ وتكريم الأدباء لها صدر عن دار مجلتها: المرأة الجديدة في بيروت سنة ١٩٢٤ بعنوان: «ميّ في سوريا ولبنان»، وصدّرته بكلمة تليق بها وبالمحتفى بها. وبفضل هذا السجلّ علمنا بأن «الشبيبة الفتوحية»[١] في كسروان أقامت لميّ حفلة تكريم في مغارة أفقا التي يتدفق منها نبع أدونيس، ولكنها تخلفت عن الحضور لوعكة صحية ألمت بها، فعتب عليها المحتفون، وألقى رئيس الجامعة الفتوحية الأستاذ شكر الله الجرّ قصيدة جميلة في الحفلة مطلعها:

يا دار «مية» بالفتوح تكلمي   أين الخليّ من الشجيّ المغرم[٢]

---

(١) كانت منطقة كسروان اللبنانية تدعى: «فتوح كسروان» ابان الحكم العثماني، وتمتد من البحر الى سهل البقاع.

(٢) ميّ في سوريا ولبنان ـ ص: ٢٤.

أخلت معاهدك النوى فتصرّفت فيك الخطوب تصرّف المتسلّم

ولشكر الله الجرّ في ميّ قصيدة ثانية مطلعها:

أما للركب عن ميٍّ حديث تحنّ له الجوارحُ والنفوسُ
تحمّله النسائمُ من ذراها، وما حملت هو الدرّ النفيس[1]

كما ألقت ميّ في بيروت خطاباً كان له صدى كبير في المحافل الأدبية بلبنان خلال حفلة التكريم الثانية التي أعدتها لها «عصبة الأدب» في ٢٣ - ١٠ - ١٩٢٣، وكان عنوانه: «الحركتان الصالحتان». وهذا وصف للاحتفال وللخطاب نقلاً عن جريدة «المعرض» البيروتية، لصاحبها الأديب ميشيل زكور:

(شاءت بيروت أن تكرّم «ميّ» فكانت حفلتها زينة الحفلات أدباً ووطنية وذوقاً. لا أقول شيئاً في الخطباء والشعراء الذين أجادوا، وإنما أذكر أنني ما تأثرت بخطاب، ولا ملكني كلام خطيب كما تأثرت بخطاب ميّ، وكما ملكني كلامها[2]. إنها لم تكن على المنبر تلك الفتاة الضعيفة اللطيفة، الشاعرة بعجز المرأة، خصوصاً في هذا الشرق أمام قوة الرجل، بل كانت الشرق الناهض بأسره وقد تمثّل أمام سامعيه بشخص فتاةٍ تبرهن للعالم أن المرأة وُجدت لتكون لها حقوق الرجل وواجباته.

وقد تكلمت نصف ساعة، ورغماً عن الزكام المؤلم الذي كان ملمّاً بها فقد تمنى الحاضرون لو تتكلم ساعات لأنها كانت أخطب من وقف على المنبر، معنًى وإلقاءً وتعبيراً، بلا جدال.

وقد خطر لي، وميّ تلقي خطابها البديع، وتأسر سامعيها بمعانيه حتى

---

(١) ميّ في سوريا ولبنان - ص: ٢٦.

(٢) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة - وقد نشرت المقتطف الخطاب المذكور في عدد يناير ١٩٢٣ - ص: ١٢٠ - ج (٦٢).

لا يُسمع بينهم تردّد الهمس، لو أن اللبنانيين يجمعون كلمتهم على أن تكون ميّ ممثلتهم في المجلس النيابي، تدافع عن لبنان بما أوتيت من فصاحة واخلاص ووطنية صادقة، إذن لأوجدوا لهم هناك قوة لا يغلبها برهان على أهلية اللبنانيين للاستقلال. ولماذا لا يكرّم لبنان نابغته فيجعلها في المقام الذي جعل الأتراك فيه نابغتهم «خالدة أديب»؟)[1].

امتدت تلك الحفلة إلى وقتٍ متأخر من الليل لتزاحم كبار الأدباء والشعراء على المنبر بغية تكريمها في وطنها الأم، فبعد أن افتتح الحفلة فيليكس فارس ملقياً كلمة «العصبة»، خطب كل من الأساتذة جميل بيهم وجرجي باز، والأميرة نجلاء أبي اللمع صاحبة مجلة «الفجر» وسلمى صائغ، وعبد الحليم اللاذقي، وراجي الراعي، وألقى شبلي الملاط رائعته التي مطلعها:

ألا حملوا إليكَ حديث ميّ — كأزهار الخمائل في شذاها
وهل رصدوا فرائدها الغوالي — كأبراج الكواكب في سماها

وألقى ميشال أبو شهلا قصيدة مطلعها:

حيِّ النبوغَ وكرّم الأدبا، — يا شعرُ هذا بعض ما وجبا
مجد الحياة لأمةٍ عرفت — قدر الأديب فنالت الأربا

وكان بين الشعراء المحتفين الياس فياض فألقى قصيدة مطلعها:

يا ميّ والأيام لم — تترك خيالاً لي بخاطرْ
ماذا يحاول في مديحكِ — شاعرٌ بالعجز شاعرْ

وذكرت جريدة «الشعب» عقب الحفلة (أن من كان يمثّل «هوغو» و«لامارتين» و«موسيه» فيها هو حضرة القومندان «ترابو» - كما قال فيليكس أفندي فارس). ولعل أجمل خطاب ألقي يومذاك خطاب الأديب راجي الراعي صاحب «قطرات الندى» وعنوانه: «القطرات الثلاث» إشارة إلى أن

(١) ميّ في سوريا ولبنان - ص: ٦١.

لقلم ميّ ثلاث قطرات: قطرة السماء والبحر الزرقاء، وقطرة الليالي وعللها السوداء، وقطرة القلب والعاطفة والحب الحمراء... كانت خطبة ميّ ذات موضوع شيّق وقد عنت بـ «الحركتين الصالحتين» اللتين جعلتهما عنواناً لها الجهود الواجب بذلها لتحرير المرأة، لأن بتحريرها تنهض الأسرة، ومن ثمّ تحرير الأمة باذكاء مشاعرها الوطنية، وتعزيز وحدتها، وحقوق الإنسان فيها. وبعد أن شكرت غيرة «عصبة الأدب» على النهضة العربية، وأكّدت «أن من أدّى واجبه في محيطه كان مؤدياً ما عليه نحو الإنسانية من واجبٍ عام، ختمت خطبتها قائلة: (وطني يحتاج إليّ احتياجه إلى كل فردٍ من أبنائه وبناته. وطني يحتاج إليّ، وعيون إخواني فيه ترعاني. أريد أن أبعث حبي لأبناء وطني لهيباً. أريد أن أسكب نفسي في نفوس أبناء وطني كوثراً، أريد أن أنسى صغائر الحياة وظلمها وقيودها لأرتفع فوق ذاتي فأضاهي أبناء وطني رفعةً وجمالاً. أريد أن أتعب فأتقن عملي وأسير وأبناء وطني في سبيل التقدم خطوةً، أريد أن أحيا رغم الجراح والآلام لأكون في حياة وطني الناهض حياةً!)[1].

وفي اليوم التالي طلعت جريدة «البرق» على القراء تطنب بـالحفلة والمحتفى بها وخطبتها حيث كتبت عنها ما يلي: (إنها درس في الاجتماع والوطنية لن ننساه، وإن طريقة إلقائـه كانت روحـانية، سمـاوية، تـأخذ بالألباب، وتستهوي الأفئدة)[2].

انهالت الدعوات التكريمية على الأديبة الفذة في إثر نجاح حفلة عصبة الأدب، فدعتها المربية السيدة ماري كساب، مؤسسة المدرسة الأهلية للبنات في بيروت لزيارة مدرستها وإلقاء كلمة في طالباتها. جرى هذا الاحتفال يوم الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول، ومع أن ميّ كانت تشكو من زكام حادّ فقد لبّت الدعوة، وسمعت من الكلمات الترحيبية أجملها، إذ حيّت ماري كساب النبوغ المتمثل بشخصية الضيفة، وبما في كتاباتها من نفحات

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) ميّ في سوريا ولبنان ـ ص: ٩٥.

روحية تلهب حماسة الجيل الصاعد، ومجّدت الآنسة مريم زكا تضحيات ميّ في سبيل توجيه النشء، والدفاع عن العربية، والدعوة إلى اليقظة والتضامن. وقد ختمت كلمتها باسم الهيئة التدريسية والطالبات بقولها: (سلام عليك يا ميّ، وحياكِ الله يا زينة النساء وفخرهن! هذه تحية مدرسة وطنية تأمل أن تحفظي لها، في زاوية أفكارك، ذكرى صغيرة فتكوني لها نصيرة لأنك وطنية حرّة)[1].

وبعد أن ألقت الطالبات أمامها كلمة رقيقة، وأنشدن قصيدة تدرّبن عليها للترحيب بها وقفت ميّ تخاطبهن بهذه العبارات:

(أخواتي الصغيرات، وصديقاتي المربيات الفاضلات: أقف أمامكن الآن بملء السرور، أقف هذا الموقف وأنا أشعر بخشوع أكبر مما أحسّ به في المواقف الكبيرة الرسمية لأني في مدرسة وطنية حرة تنشىء الفتيات على محبة العلم، وتربي الروح الوطنية في قلوب الأحداث، إني أقف بخشوعٍ وتهيّب لأنكن محطّ آمال البلاد، ومحققات أماني الذين يتوقعون لها مستقبلاً مجيداً. وأنحني باحترام أمام رئيسة هذه المدرسة المجاهدة مع مساعداتها في سبيل التعليم، والتعليم عمل شاق يحتاج إلى استعدادٍ وخبرات، وجلدٍ وذكاءٍ حاد. إنه لجهاد يحتاج إلى بسالة الصناديد، والمعلمات جنديات، «إذا صحّ أن نؤنّث كلمة جندي لأن نظام التعليم تجنّد» قائمات لنصرة الحق، والذود عنه لإعلاء شأن العلم، ورفع منار الأدب.

إني أحببت هذه المدرسة الوطنية ونظامها الجميل، ولقد سرّني ما أظهره الجميع من حبّ التفاني في خدمتها. ولن أنسى ما لقيته هنا من كبير الحفاوة لأنّ ذكركن، وصدى الأنغام الشجية المطربة التي سمعتها سيبقيان في قلبي)[2].

---

(١) ميّ في سوريا ولبنان ـ ص: ١٠٦.

(٢) ميّ في سوريا ولبنان ـ المرأة الجديدة ـ ص: ١٠٣ ـ ١٠٤.

بعد تلك الحفلة توجهت ميّ إلى زحلة لتستجمّ فيها مع والديها فهبّ أدباؤها وشعراؤها لاستقبالها وأقاموا حفلة كبيرة على شرفها في وادي «البردوني»، فنهض الدكتور ابراهيم شحادة يرحب بها، وتلاه الأستاذ جوزيف أبو خاطر فألقى خطاباً بليغاً عدّد فيه مزايا المحتفى بها بأسلوب رقيق جاء فيه قوله:

(سمعتهم يتغنّون بذكائها، وذهنها الوقاد، ونبوغها العجيب فظننت القول مبالغاً فيه. ثم قرأت لها بعض النفثات فأطربتني وأكبرت تلك الروح العالية التي تكاد تُلمس من خلال سطورها. وتاقت مني النفس إلى سماع حديثها إلى أن أتيح لي الاجتماع بها فإذا بي أمام النبوغ المجسّم، والذكاء الغريب. فتاة حديثها السحر الحلال، وكلامها عين البلاغة، تلمّ بشتى المواضيع من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها، وتناقشك فيها بطريقةٍ خاصة، وأسلوبٍ عجيب، فلا تلبث أياً كنت أن تعترف بعلوّ كعبها، وقد سلبت عقلك ولبّك، وأفحمتك ببيانٍ بليغٍ، وحججٍ قاطعة تدلي بها فتخال نفسك أمام أشهر الفلاسفة والعلماء.

سمعتها تناقش شبل دموس، ودموس نابغة في الشرق، وتجادل جبر ضومط، وللأستاذ ضومط مقامه الكبير في عالم الأدب، وتدخل وإياهما في مواضيع وأبحاث شتى، فأطرقت منذهلاً وقلت:

واستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صدق الخِبْرُ الخَبَرَ)[1]

وتخلل الحفلة عزف على العود وغناء في وادي زحلة الجميل الموحي بالفن والجمال، فارتجل الشاعر الشعبي نقولا زهير، صديق السيدة جوليا طعمة وأحد المعجبين بالمرأة الجديدة ووثبتها الأدبية «قرادي» من النوع الرائع بعفويته، وجمال صوره وابتكار معانيه:

البردوني ومي زيادة خديها مني شهادي

---

(١) ميّ في سوريا ولبنان ـ المرأة الجديدة ـ ص: ١٠٩.

وجـودك عـامَـيِّـةْ زحـلة	الـبـحـر الـزاخـر وزيـادي
وجـودك عـامـيّـة زحـلة	تـأسمـع لفـظك مـستحلي
لـفـظك أحلى مـن المِـحْلي	اسـمـحـي لـي بـيـزوّادي
مـن عـذوبـة ألـفـاظـك	بـتـتـغـذى ورود ريـاضـك
وسهم أل تـرميه لحـاظـك	كـان سـبـب استـشـهـادي
خـطاب الـنـادي البـيـروتي	أدهـشـنـي وزاد سـكـوتـي
عيشي إن شـاالله مـا تموتي	دمـت فـخـر الـمـبـادي![1]

شجعت ميّ نساء بلادها، مسلمات ومسيحيات، فخرجن من دورهن سنة ١٩٢٢ للاشتراك في حفلات التكريم التي أعدت لها، حتى إن بعضهن كن يصطحبن بناتهن لرؤيتها على المنابر، والاصغاء إلى خطاباتها، فقد نشرت المرأة الجديدة كلمة كتبتها السيدة الكسندرا يني غنطوس في ٢٣ ـ ١٠ ـ ١٩٢٢ نستجلي منها رأي المرأة العربية بميّ، وتأثرها بسحرها وبالرسالة التي كانت تحملها. نقلت السيدة غنطوس حواراً جرى بينها وبين فتاتها الصغيرة حول اسم ميّ، ويبدو أن الطفلة حسبت أنه مشتقّ من اسم «أمي»، فقالت لها أمها:

(كلا يا ابنتي، فالفرق مثل الصبح ظاهر، ولكن ميّ هي بالحقيقة أمك وأمي، وأم الشرق بأسره لأنها أم النهضة الحديثة، وإذا ما رجونا للشرق يوماً مستقبلاً باهراً فالمستقبل الباهر هو من النهضة النسائية التي تدير دفّتها أمثال «ميّ»). ثم خاطبت ميّ بهذه العبارات: (لقد مجّدك الخطباء يا ميّ وأظهروا ما لك من فضل ونبوغ، وما أبدعتِ من آياتٍ بينات، وأما أنا التي اختمرت روحي بكلمة من كلماتك، أنا التي ثملت جوارحي بكوثرها، واهتزّت مشاعري بموسيقاها، إنما أتكلم اليوم لأظهر لك فضلاً جديداً سيعمّ ناشئة سوريا ولبنان ألا وهو أن كل أمّ سمعتك ورأتك باتت مثقلةً بواجب

---

(١) ميّ في سوريا ولبنان ـ المرأة الجديدة ـ ص: ١١١.

يحتّم عليها أن تعدّ للمستقبل فتاةً فيها نسمة من روحانية «ميّ»)[1].

وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل ركب الغرور ميّ وقد تسابق الناس، على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم في تكريمها، وتبجيلها، وهرع الأدباء والشعراء في دمشق وبيروت وزحلة لاستقبالها وتحية العبقرية في كلماتهم وقصائدهم؟ ولكن معاصريها أجمعوا على تواضعها الجم، ودماثة خلقها، إجماعهم على أنها آية من آيات الطبيعة الساحرة التي تغدق عطاياها بدون حساب، ولا تعرف التكبّر والغرور. كان من أرقّ المزاح الذي سمعته قول الدكتور يعقوب صروف لها في رسالة وجهها إليها إلى بيروت، في إثر ورود أخبار تكريمها وتمجيدها فيها آنذاك، حيث قال:

(خطبتك في بيروت بديعة، قرأتها في جريدة «الشعب» وأتمنى ألا تنشرها مجلة هناك في هذا الشهر حتى يسبق «المقتطف» إلى نشرها في الشهر التالي. وقرأت أيضاً ما قيل فيكِ نظماً فتضاعف سروري بك وبالذين عرفوا الفضل فقدروه قدره، وصرت أخشى أن تتكبّري علينا يا ستي!)[2].

تابعت ميّ رسالتها عبر خطبها المتعددة فلم تدع فرصة إلا وانتهزتها للحثّ على العلم والتضامن، وتمجيد الفكر الإنساني واللغة العربية. كما تعرّضت لموضوع الإجرام في خطابها (الدموع)[3] الذي ألقته في دار الأوبرا بالقاهرة بدعوة من الأحرار القوميين إبان الحركة الوطنية في مصر، فشرحت دوافع الإجرام في المجتمعات ودافعت عن المجرمين محمّلةً مسؤولية تفشي الإجرام إلى المجتمع الظالم. وفي خطابها: «فضل الآداب» ركزت على أهمية العلم والأدب في رفع مستوى الأمم، وقالت بأسلوبها المشهود: (السيف قاهر معاقب أما الفكر فمثقّف ملطّف. السيف يغزو الممالك داحراً كتائب وجحافل، ويُشهر الحروب واضعاً بين الإنسان والإنسان جدران حقدٍ كثيفةٍ،

---

(١) ميّ في سوريا ولبنان ـ المرأة الجديدة ـ ١٩٢٤ ـ ص: (١٠٠).
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٠٢.
(٣) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٣ ـ ١١١.

أما الفكر فلسيفه خفّة الهواء، وهول الصواعق. بذلك السيف الذي يُدعي القلم يُشهر الفكر حربه المجيدة: حرب الروح على المادة، حرب الحكمة على الجهل، حرب العدل على الطغيان، حرب الواجب على الخمول، بل حرب العمل والصلاح السائرة بالإنسان نحو صروح الارتقاء والضياء. بالقلم الذي هو أداة البيان، بالقلم وحده يُبرز كل شعب آدابه، أي عصير فكره وروحه، وما هو إلا عصير جزءٍ من فكر الإنسانية وروحها)[1].

وفي حلفة تكريم أقامتها هي لوداع أستاذها في الجامعة المصرية المستشرق الإسباني «الكونت دي غلاررزا» تحدثت عن اللغات القديمة فقالت:

(الإغريقية واللاتينية ارتفعتا حيناً إلى أوج الحياة والعظمة ثم هبطت كل منهما مع مدنيتها. أما أختهما الثالثة، لغة مكة والحجاز والعراق، فلها الغلبة ولها البقاء، ولا يزيدها كرّ الدهور إلا فتوةً وجمالاً لأن لغة القرآن لغة خالدة)[2].

تدلنا هذه النماذج المقتضبة على أن مي كانت تنتقي في خطبها من العبارات أوضحها، ومن الصور أوقعها، ومن المعاني أكثرها نفاذاً إلى قلوب الناس وعقولهم. ولا ريب في أن مادتها الفكرية الخصبة مكّنتها من تناول موضوعات متنوعة في سائر خطبها التي كانت خلواً من التكرار المملّ، والكليشات الخطابية. كان آخر خطاب ألقته في لبنان عام ١٩٢٢ قبل العودة إلى مصر عن «كولومبوس وفتح أميركا»[3] وقد دشّنت فيه «قاعة وست ـ West Hall» في جامعة بيروت الأميركية. نشرت الخطاب المذكور المقتطف، وعلقت عليه منوّهة بأن هيئة الجامعة شرعت في عقد اجتماعات أسبوعية في «وست هول» (يُدعى إليها كل كاتب أو شاعر ذي ميّزة فكرية ليلقي خطبة في

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ٩٨ ـ ٩٩.
(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الأول ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧٨.
(٣) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٣ ـ ٢٠.

موضوع يختاره إفادةً للطلبة. ولما كانت الآنسة ميّ عازمة على العودة إلى مصر مع والديها قبل يوم الجمعة، المقرّر لتلك الدعوات، عقد الاجتماع يوم الثلاثاء، ودعي إليه جمهور كبير من الطلبة القدماء وغيرهم من الفضلاء، وهي أول فتاة دُعيت للوقوف على ذلك المنبر. وقد كُتِبَ إلينا أن الحضور من الشرقيين سرّوا بأن أولى المدشّنات له كانت فتاةً سورية)[١].

قضت ميّ شتاء عام ١٩٢٣ وربيعه في القاهرة حيث استأنفت نشاطها الأدبي تكتب المقالات والرسائل، وتؤلف الكتب والأبحاث، وتستقبل رواد ندوتها كل ثلاثاء . وقد بعثت برسائل شكر إلى الذين احتفوا بها، وتلقت رسائل متعددة منهم ومن المعجبين ، فكانت رسالة الشاعر خليل مردم بك إليها من أجمل ما تلقته، وأكثره تعبيراً عن رفعة مكانتها، وأثر خطبها، والرسالة مؤرخة في ٢٣ ـ٥ ـ ١٩٢٣، وهذا نصها:

(سيدتي: تشرفت بكتابك وشكرت تلطفك بتهنئة العيد، كما شكر لك ذلك أخوتي في الرابطة الأدبية الذين يرجون أن يكونوا عند حسن ظنك بهم من حيث التآخي، وتأليف القلوب، وجمع الكلمة على المضيّ بالجهاد الأدبي، والذين ما زالت « نواقيس » أفئدتهم تقرع للنهوض منذ سمعوكِ تؤذّنين « أذان » الاخلاص ليلة « جمعة » الأدب في دمشق .

لا زلتِ آخذة بأيدي مريديكِ، المعجبين بنبوغك، والله يحفظك ويعزّ بك دولة الأدب سيدتي)[٢].

وفي صيف ١٩٢٣ توجهت مع والديها، على عادتها في رحلاتها الصيفية، إلى لبنان حيث كانت تنتظرها حفلة تكريم كبرى أقامها الأستاذ جبر ضومط في مقره الصيفي في سوق الغرب، المعروف باسم «قصر غمدان»[٣].

---

(١) المقتطف ـ ج ٦١ ـ عدد ديسمبر ١٩٢٢ ـ ص: ٤٥٠.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢١٩.

(٣) اسم قصر فخم في صنعاء كانت تسكنه ملوكها، أطلقه الأستاذ ضومط على قصره الصيفي في لبنان.

في مساء الخامس من شهر آب. حضرت الحفلة السيدة جوليا طعمة وألقت فيها كلمة ترحيبية بميّ وبوالدتها السيدة نزهة ونشرت في مجلتها «المرأة الجديدة» وصفاً مسهباً لها وللخطابات والقصائد التي ألقيت فيها. توالى على الخطابة الأستاذ جبر ضومط، والدكتور فؤاد صروف، والسيدة جوليا طعمة، والأستاذ جرجس الخوري المقدسي، والأستاذ جميل بيهم، والسيدة هدى صليبي ضومط[1] صاحبة الدار، (وألقى الشاعر أمين أفندي نخلة الحداد قصيدة عصماء نالت استحسان الجمهور وإعجابهم) هذا مطلعها:

هاتي بيانك ينجدني بتبياني
فقد رأيت فصيح القول جافاني

إذ ليس لي شعر شوقي في بلاغته،
ولست في صوغ شعري مثل مطرانِ

ولا تطيع القوافي مرقمي وفمي
كحافظ الشعر في مصر وسودان)

ثم خاطب ميّ فقال:

ميّ وحسب فتاة الشرق نابغة
فلا يقال وأخرى فيه صنوان

أخت الرجال بعقلٍ راجح وذكا
وفوق أكثرهم في رفعة الشان

عالجتِ أدواء هذا الشرق فانفتحت
من بعد غمض لأهل الشرق عينان

---

(١) السيدة هدى حرم الأستاذ جبر ضومط هي ابنة الأستاذ متري الصليبي ناظر المدارس السكتلندية في جبل لبنان، ووالدتها هي السيدة هيلانة بارودي رئيسة مدرسة البنات الانجيلية في «الشوير» قبل الحرب الكبرى.

وصـحـتِ فـيـهـم بـقـولٍ كـلـه حـكـمٌ
فـليـسـمـعـن مـن لـه، يـا مـيُّ، أذنـان[1]

ومن الطريف الذي يجدر ذكره رواية حدثنا بها الدكتور فؤاد صروف فقال: (دعاني الأستاذ ضومط في صيف عام ١٩٢٣ إلى زيارته في مصيفه بسوق الغرب وأعلمني بأن ميّ تقيم مع والديها في فندق «خَلَفْ» وأنني مكلّف باصطحابها منه إلى «قصر غمدان» حيث يقيم على شرفها حفلة شاي كبيرة، ومكلّف أيضاً بإلقاء كلمة أمامها. فسعدت بالمهمة، وذهبت في مساء الخامس من شهر آب إلى فندق «خَلَف» بعربة حنطور فحيّيت ميّ ووالديها ورافقتهم فيها إلى بيت الأستاذ ضومط. وأذكر أنني جمعت مقتطفات من مقالاتها، وأبحاثها وكتبها المنشورة وألّفت منها كلمة ترحيب عنوانها «باقة أزهار» ضمنتها جملاً من عندي للوصل بينها، فكانت كلمة لطيفة إنما صبيانية نظراً لقلة خبرتي بالخطابة، ولصغر سني يومئذ إذ كنت في العشرين من العمر)[2].

كما حضر حفلة الأستاذ ضومط الدكتور إبراهيم شحادة، زوج ابنته السيدة منيرة ودعا ميّ ووالديها، وعدد من الأدباء والشعراء إلى حفلة غداء أقامها بعد أيام في زحلة على ضفاف البردوني. كانت ميّ سعيدة بلقاء أصدقاء لها قدماء، غير أنها سرحت مع أفكارها بعد الغداء، فسألها الدكتور شحادة إلى أين وصلت في شرودها؟ فأجابته على الفور، وهي تنظر إلى الوادي والجبلين المحيطين به: (جبلان عاشقان ولكنهما لا يلتقيان، وما النهر الذي يسيل بينهما إلا دموعهما...!)[3].

---

(١) مجلة المرأة الجديدة - ج (٢) - ص: ٢٠٢.
(٢) جرى هذا الحديث في بيت الدكتور فؤاد صرّوف في ١٦/٥/١٩٧٧.
(٣) من حديث الدكتور ابراهيم شحادة والسيدة منيرة حرمه الى مؤلفة السيرة في ١٧ - ٤ - ١٩٨١.



الأشخاص الموجودون في هذه الصورة هم من اليمين إلى اليسار: **الجالسون** : هيلانة ابنة الأستاذ جبر ضومط، حرم خليل سكر، السيدة هدى صليبي زوجة الأستاذ جبر ضومط، الأستاذ جبر ضومط، ومنيرة ابنته الثانية حرم الدكتور ابراهيم شحادة.
الواقفون: السيد خليل سكر، نجيب ضومط، إميل ضومط، مي، ميخائيل ضومط، الدكتور ابراهيم شحادة.

أما أعظم الحفلات الأدبية التي دعيت للاسهام فيها فقد كانت حفلة جمعية «تهذيب الشبيبة السورية» في منتدى «وست هول» بالجامعة الأميركية ببيروت في مساء ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٢٥. وُجهت الدعوة إليها قبل بضعة أسابيع من تاريخها، ثم تلقت رسالة من الأستاذ أنيس الخوري المقدسي بتاريخ ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٢٥ جاء فيها ما يلي:

(سيدتي ميّ

أخذت جرائد بيروت تلهج بالحفلة التي ستقام في ٣٠ مايو والتي ستشرق فيها من تَرَيْنَنَا في شوقٍ عظيم إلى رؤيتها مرةً ثانية على منبر الجامعة، وبين المعجبين بها في بيروت.

... وأرجو أن تتكرمي عليّ بأول فرصة بموضوع خطابك، وإذا أمكن بعبارة في سطرين أو ثلاثة تستخلصين فيها زبدة الخطاب، إذ قد ننشر ذلك مع بروغرام الحفلة ـ أظن أن خطاب الدكتور فياض سيكون الأول، ثم القصيدة، وبعد ذلك خطابك، فهل ترين ذلك مناسباً؟ على كل حال سيتخلّل الحفلة أنغام موسيقية تزيدها رونقاً.

أرجو أن تعلميني برقياً، أو غير ذلك، بيوم قيامك من مصر، ويوم وصولك، وعن أي الطرق لنلاقيك، ونقوم بالخدمة اللازمة. وختاماً فائق الاحترام، ودمت للمخلص.

(أنيس المقدسي [١]).

استُقبلت ميّ في بيروت بما يليق بمقامها، وترأس الحفلة الوجيه نجيب بك سرسق، وبعد أن تلا كل من الأستاذين منصور جرداق ونجيب مصوّر كلمات عن تاريخ الجمعية وغايتها أتى دور الخطباء. نهض الدكتور نقولا فياض الذي قدم من مصر أيضاً وأنشد أبياتاً من رائع شعره في ميّ باتت مشهورة في المحافل والأوساط الأدبية:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٨٠ ـ ٢٨١.

يا ميّ هذي ساعة الميعاد
فسلي فؤادك عن خفوق فؤادي
بي مثل ما بكِ، وحشة وصبابة
ما بين لقيا ساعةٍ وبعاد
تمشي إلى الوطن القديم خواطري،
فتردها الذكرى لذاك الوادي
وأرى جلال سناك يا أفق الهدى
فأحار بين الصمت والإنشاد
قد جئت أحمل من جديد تحيتي
لك ما يحدّث عن قديم ودادي
وأعيد أحلام الصبا بك بعدما
مرّت، وما عهد الصبا بمُعادِ
ولقد هجرت الشعر حتى عقّني،
وبك استعنت فنلت بعض مرادي
وأصبت من وحي الشباب بقيةً
فنظمتها لشباب هذا النادي

ثم ألقى خطبةً، عنوانها «أنا وأنتم»، تلاه بعدها الأستاذ أنيس المقدسي فألقى قصيدة عنوانها «المعرّي يتجدّد» ولكن مسك الختام كان خطبة ميّ: «دروس من الصحراء». فمنذ أن استهلتها إلى أن ختمتها كانت العيون والنفوس مشدودة إليها، تستجلي السحر فيما ترى وتسمع لأن الأديبة الضيفة كانت ساحرة على المنابر، وخطبها كانت غذاءً للعقل والروح معاً. قالت مداعبةً ومخاطبة الشاعر نقولا فياض، والأستاذ المقدسي:

(حمل الدكتور فياض قيثارته وأنشد فأثار في الأوتار زوبعة أنغامٍ وألحان، وحرّك في النفوس كوامن النزعات والأشجان. وما أتى على نشيده إلا

وقد حطّم القيثارة، وقطع الأوتار، فلم يترك لأحدٍ بعده أن يرسل زفرةً، أو ينغّم لحناً. إلا أنه بانشاده قد شدّ من نفوسنا الأوتار وهيأها للاصطفاق على وقع كل شدوٍ وكل تطريب، وكانت أولى نتائج سحره المعجزة التي شهدنا: لقد أبصر الأعمى، وثاب متشائم المعرّة إلى الخالق والخلائق، وهو الذي ألفناه يهجر الحياة، ويحلّ مشكلتها بأمنية اليأس والعناد، ويمقت بني الإنسان فيقول:

فأفٍّ لعصريهم نهارٍ وحندسٍ
وجِنْسَيّ رجالٍ منهم ونساءِ!

فإذا به يتوب توبةً علنيةً خالصةً على يد كليم الله في هذه الحفلة، كاهن بيت المقدس: الخوري المقدسيّ...، وكان عليّ أن احتفظ بالنسب أنا كذلك، فإن لم يكن ثمة توبة أعلنها، أو كلمات كتسبيح الموسيقى أرسلها، فصمتٌ عبقريٌّ مبين! غير أني خطوت من القارة السوداء إلى القارة السمراء لأتكلم، وأراني هنا للمرة الثانية بعد الحرب التي عمّدتنا معمودية الألم والقلق، فيفيض الحنين في جوانحي، وتتسابق التحيات إلى شفتيّ: فسلاماً أيتها الجامعة الكبيرة التي ضممتنا لتشعرينا، مرةً أخرى، بأنك كنتِ، ولا تزالين، حصناً من حصون اللغة العربية، وأنك كنتِ وما تزالين تزهرين من شبيبتنا ربيعاً بعد ربيع، وتنشئين من رجالنا جيلاً بعد جيل!)[1].

واسترسلت ميّ في القاء دررها تتجوّل، في التاريخ العربي، والصحراء العربية التي انبثقت منها الديانات والحضارات، جولة العالم الأديب، المتفرّد بأسلوب العرض والإداء. ومن نافلة القول أن نشير إلى أن أكفّ الجمهور الذي احتشد لسماعها في قاعة «وست» عبرت عن الإعجاب العام بتصفيق طويل، وهتافات حماسية، وأنها وُدعت بما استُقبلت به من حفاوةٍ بالغة. وقد نشرت مجلة المورد الصافي في عددها الذي صدر في حزيران سنة ١٩٢٥

(١) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة - ص: ٢٧ - ٣٤ - ومجلة «المورد الصافي» ج (١٠) عدد حزيران ١٩٢٥ ص: ٣٣٦ - ٣٤٢.

الخطاب (الذي هو أشبه بالمحاضرة) برمته، والكلمات والقصائد التي ألقيت في تلك الحفلة الرائعة التي لم يشهد منبر الجامعة الأميركية لها مثيلاً .

وقبل أن تعود إلى القاهرة لبّت دعوة الأستاذ محمد شعيب العاملي لزيارة «دار المعلمين» في بيروت، وألقت أمام الأساتذة والطلاب خطبة قوبلت بالتصفيق والهتاف لنبوغها، فصعد الأستاذ العاملي إلى المنبر وعقّب على خطبتها شاكراً قبولها دعوته، وممجداً رسالتها الأدبية وأسلوبها الذي لا يُبارى في الكتابة والخطابة. وختم كلمته متمنياً لها باسم أسرة التعليم والطلاب حياة طويلة مثمرة لكي يفيد منها الوطن العربي، وتتمثل بها الأجيال.

بلغت شهرة ميّ ذروتها في تلك السنة، وتجاوزت العالم العربي إلى العالم الغربي حيث بدأت تنشر مقالات في مجلة «الشرق الحديث ـ Oriento Moderno» في روما ، وحيث شرع بعض المستشرقين بترجمة بعض مقالاتها وكتبها إلى اللغات الأوروبية . وفي ٢٤ ـ ١١ ـ ١٩٢٥ دعاها الاتحاد النسائي المصري للاشتراك في احتفال أقامه بمناسبة الذكرى السابعة لوفاة الرائدة : « باحثة البادية » فألقت ميّ خطبة رائعة كان مما جاء فيها قولها :

(إننا في طريقنا إلى غايات خطيرة، قومية وإنسانية وروحية، تحدو بنا جهود العاملين، وتنير سبلنا أفكار الراحلين، ففاخرن يا أخواتي المصريات بأن تكنّ عاملات في هذا الموكب العظيم، كما تفاخرن بأن لكن شعاعاً نسوياً يزيد في النور السنيّ الطاهر المنبعث من قبور الخالدين)[١].

وفي أواخر شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٢٦ أقام النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية في القاهرة حفلة تكريم لميّ ألقت فيها خطبة بعنوان: (الغرائز السيكولوجية الثلاث) كانت تدشيناً لقاعة المحاضرات فيه. كانت تلك الخطبة علمية تناولت ميّ فيها «علم النفس» الحديث بأسلوب جذاب مبسّط فكان مما قالته:

---

(١) المقتطف ـ ج (٦٨) ـ عدد يناير ١٩٢٦ ـ ص: ٧٤.

(أصبحت «السيكولوجيا» في أوروبا منذ نصف قرن، ولا سيما في الأعوام الأخيرة، علماً مفصلاً منظماً، قائماً بذاته، ترجع إليه جميع العلوم الاجتماعية والجنائية والتاريخية والعمرانية، بعد أن كانت فرعاً من الفلسفة النظرية ، وما وراء الطبيعة . فدرس « غوستاف لوبون » سيكولوجيات الشعوب والجماعات والمهن، ودرس علماء الاجتماع من الفرنسيين والإنكليز والألمان والنمسويين والروس والطليان سيكولوجيات الأمم والمراتب، ودرس الأطباء الحاذقون سيكولوجية المرضى والأمراض، ودرس رجال الشرع والقضاء سيكولوجيات الجرائم والمجرمين، حتى التاجر عمد إلى سيكولوجية زبائنه يعالجها بالاعلان والترغيب، ويسيطر عليها من أقرب جهاتها منالاً. وما ذلك إلا لإدراك هؤلاء أن العلاقة متينة بين الجسد وبين ما نسميه النفس، ذلك الجوهر الغامض الكامن في الجسد ، والذي هو مصدر الاحساس فيه والحياة) [1] .

كما أن لميّ خطبة توجيهية ألقتها في المدرسة الأهلية ببيروت بتاريخ ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٣٨، يوم لبّت دعوة مديرتها السيدة وداد قرطاس المقدسي لحضور حفلة توزيع الشهادات على خريجاتها. كانت ميّ يومئذٍ تقيم في شقة مؤقتة برأس بيروت وقد نقضت محكمة البداية الحجر الذي ألقاه عليها أهلوها إبان مأساتها في لبنان ، فوجدت في مخاطبة شابات المدرسة الأهلية جزءاً من رسالتها الأدبية، ودعتهن إلى العمل والعطاء، والوفاء والإبداع بأسلوبها الجميل الذي كان يزيد في جماله حبها لنهوض الشبيبة، وإيمانها بما تقول. وهذه إحدى فقرات خطبتها:

(كل ما بين أيديكن من أسفارٍ ودفاتر، وكل ما تتخرجن عليه من مبدأ خلقي سامٍ ،وكل ما في خدمتكن من أدوات وحوائج إنما هو من نتاج جهود الذراري والأنسال في مختلف البلدان، وهو الارث العظيم للأجيال.

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ٥٨ ـ ٥٩.

وعليكن أيتها الشابات أن تدخرنه وتقدرنه حق قدره، وأن تعملن على تنميته بالممارسة والعمل ريثما تنقلنه إلى الجيل الطالع بعد جيلكن. وهكذا تكنّ رادّات إلى الماضي دينه، قائمات بواجبكن تجاه الحاضر، مودعات في ذمّة المستقبل ديناً . وبهذا يصبح الفرد الواحد منا حلقةً ثمينةً في سلسلة الإنسانية . وإني أرى أنكن تملأن بحسنكن الظلام ألواناً، وعطوراً وألحاناً)[١].

هذا عن ميّ الخطيبة، أما ميّ المحاضرة فإن لها في هذا المجال الأدبي جولات موفقة، ودراسات ممتازة قدمتها في مختلف المحافل الثقافية والمعاهد العلمية ما بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٤١ لم يسبقها إليها أحد من أديبات العربية. وكما قلنا عن الخطابة نقول عن المحاضرة فكلاهما فنٌّ من فنون الفكر والبيان، له منهجه وأسلوبه ولا يمكن لأديب أو عالم أو فنان أو إنسان أن يبرّز فيه ما لم يكن موهوباً، ومتقناً لقواعده.

يكفي أن نطّلع على أولى محاضراتها التي ألقتها في الجامعة المصرية سنة ١٩٢١ بعنوان «غاية الحياة» لنشهد لها بأنها كانت رائدةً في هذا المجال. تألّف جمهور المستمعين يومذاك من طلاب الجامعة وأساتذتها، وشخصيات كثيرة دعيت للاستماع إليها، كان بينها عدد غير قليل من النساء، وبعد أن ألمّت بموضوعها بصوت متزن، وجمل مركّزة، عارضةً آراء الحكماء والفلاسفة والمفكرين بالحياة وغايتها، عبر القرون، توجهت إلى النساء فناشدتهن لتكون أعمالهن:

(غابة جليلة يقمن بها عاليات الجباه، تحت أكاليل العزم والجهاد، وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة، وحلّت محلّها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع، ولا عبدة الحاجة، ولا عبدة الرجل، ولا عبدة قلبها، وهو أعظم جائر مستبدّ! بل نظرة من أصبحت سيدة نفسها تطيع مختارةً، وتعمل

---

(١) جريدة بيروت ـ عدد ٢٩ ـ ٦ ـ ١٩٣٨ ـ ص: (١) و (٢) و (٣).

بهدوءٍ من فاز فتكتشف عند كل خطوة جمالاً جديداً، وتبتهج كل يوم كأنها خُلقت خلقاً جديداً)[١].

ثم تحدثت عن الحقوق والواجبات، وعن معـاني السعادة الإنسـانية ومراميها للنهوض بالأفراد والأمم، وختمت محاضرتها النفيسة التي استغرقت ساعة حسبها الجمهور بضع دقائق، لتُفاجأ بإقبال بعض السيدات على المنصة لتقبيلها، وحملها على الأكتاف...

وقد تلقت ميّ رسائل تهنئة كثيرة كانت إحداها من شاعر القطرين خليل مطران، فخاطبها قائلاً: (يا سيدتي ميّ: لا تزيدينني على الأيام إلا اعجاباً بك، وإكباراً لقدرك. محاضرتك «غاية الحياة» مليئة معارف متنوعات، تسطع الآراء فيها سطوعاً، وتتدفق الخواطر من كل جوانبها)[٢].

وكانت محاضرتها الثانية في القاهرة عن الأديبة الرائدة «وردة اليازجي» التي سبقت بنات جيلها في القرن التاسع عشر بفطنتها وجرأتها في نشر الكثير من الشعر وبعض النثر. أما محاضرتها عن «رسالة الأديب إلى المجتمع» التي ألقتها في الجامعة الأميركية ببيروت في ١٩٣٨/٣/٢٢ فقد أحدثت ضجة كبرى في المحافل الأدبية والقضائية، لما لابسها من ظروف قاهرة، وذلك إبان مأساتها في لبنان التي أفردنا لها فصلاً لاحقاً. ألقت تلك المحاضرة تلبية لدعوة جمعية «العروة الوثقى» الأدبية، وقالت في تعريف الأدب وتحديد موقف الأديب:

(الأدب من أهم المقومات للشخصية، وربما كان الأصح أنـه حجر الزاوية في تكوين الذاتية الفردية، وبالتالي الذاتية القومية. وميزته في أنه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم، فله أن يتغذى بها ليعالجها على طريقته الخاصة. ولكم كانت المنتجات الأدبية سابقةً للبحث العلمي، ومُعينةً على

---

(١) غاية الحياة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٢٢.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٤٧.

الخروج من حيّز القياس والافتراض إلى حيّز التطبيق العلمي والاختراع! أليس أن شاعرية الشعراء طارت إلى أجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطائرات؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وأدباء دواماً) ألم تنـاج أرواح الأحباب، رغم شاسع الأبعاد، قبل أن يصبح الراديو أداةً من أدوات المنزل؟ ومنذا الذي لم يقرأ ، ولو كتاباً واحداً من كتب « جول فيرن » ، الأديب الفرنسي الذي وصف الانطلاق من الأرض إلى القمر وصفاً علمياً، قبل أن يقوم علماء «الستراتوسفير» برحلاتهم الجوية، وحدّث عن أعماق البحار في سفنٍ ذات أجهزة ميكانيكية دقيقة قبل أن تحتوي أساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجري في اليمّ، وعلى صفحة الماء؟)[1].

وبعد أن ذكرت مؤلفات « ولْـز » ذات الصبغة العلمية التي تنبأ فيها بمستقبل تغدو الآلة فيه مسيطرة على العالم، وتُنَظّم على ضوئها حياة اجتماعية جديدة، عرّجت على الشرق العربي فتناولت موضوع يقظته الحديثة قائلةً:

(. . . لا تكون حركات اليقظة منتظمة في بادىء الأمر، كما أن إرادة المستيقظ لا تكون مستقرة، ثابتة، إنما تظل غائمةً بعض الوقت. شعوبنا، على همّتها وتحفّزها، ما زالت قلقة، مضطربة، وأدبنا، على وفرته وغزارة مادته، ما فتىء مضعضعاً، غير واثق من نفسه، غير مستقر، فما هي حاجتنا اليوم من الناحية الأدبية؟ إذا كان الأدب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية بحسناتها وسيئاتها، بنورها وظلامها، بتقاليدها وأوهامها، بيأسها ورجائها، إذا صحّ ذلك، وهو صحيح، فنحن نحتاج اليوم إلى صوت الأديب، ورسالة الأديب)[2].

---

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٥٩ ـ ١٦١ والجدير بالذكر ان جمعية «العروة الوثقى» طبعت هذه المحاضرة في كراسٍ مستقل وصدّرته بالعبارات التالية: (كانت المحاضرة القيمة التي ألقتها الآنسة ميّ عن رسالة الأديب عنـواناً لصفحة جديدة في حياتها وحياة العروة الوثقى وحدثاً بارزاً في تاريخنا الأدبي).

(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٦١.

لكأن ميّ، في تحليلها واقع الشرق العربي سنة ١٩٣٨ تتحدث بيننا، في الوقت الحاضر، وتحضّنا على اليقظة، بل تعبّر عن حاجتنا إلى صوت الأديب يوقظ فينا العزائم والضمائر، ويرشدنا إلى سبيل الخروج من الأنفاق التي نتعثّر فيها، أنفاق الظلم والذلّ، للسير يداً بيد في دروب العدل والكرامة والحرية!.

اتفقت آراء الكتاب والصحفيين والناس على الاعجاب بتلك المحاضرة، وتقريظها، وكان من أبلغ ما نُشر عنها مقالة الأديب الكبير توفيق يوسف عواد، ولما يزل يومئذٍ في أوج الشباب،وهذا بعض ما جاء فيها بريشته المبدعة:

(أنا لم يُتح لي الحظ أن أسمع ميّ قبل الحدث الذي ختم على فمها الأدبي طول عامين، فلم يكن لي فضول المقابلة بين الأمس واليوم من حيث الوقفة، والحركة والصوت. ولكني قرأت لميّ كثيراً مما نثرت ونظمت فإذا هي هي، ميّ كما عرفها ظني يجدها حسّي على متناول اليد حقيقةً من لحمٍ ودمٍ، أروع من صورة المتصوّر، وأحب من كل ما تزخرف الظنون.

هذه هي ميّ كما عرفتها في ظني، بل هي فوق ما كنت أعرفها. متعٌ منها حرمني إياها البعد، للعين منها نصيب، وللأذن نصيب من حركات الخطيب وإشاراته، وثوراته وانعطافاته، وأصواته الهابطة الصاعدة، مع فصاحة بيانٍ، ولسانٍ رقبناه طول ساعة فلم يتعثّر بكلمة، ولم يلحن بحرف)[١].

أما آخر مرة وقفت فيها ميّ على منبر الجامعة الأميركية، وآخر مرة ظهرت فيها أمام الجمهور في لبنان فقد كانت في مساء العشرين من شهر كانون الأول سنة ١٩٣٨. دعتها جمعية «العروة الوثقى» بإصرار لعقد ندوة مع طلاب الجامعة وأساتذتها فأبدت استعداداً لتلبية الدعوة، وعكفت على إعداد

(١) فرسان الكلام ـ توفيق يوسف عواد ـ ص: ٢٩ ـ ٣٠ ـ وكانت جريدة «النهار» قد نشرت هذه المقالة بعد ان القت ميّ محاضرتها في شهر آذار سنة ١٩٣٨.

حديثها في بيت الأستاذ خليل الخوري حيث كانت تحلّ ضيفةً عليه وعلى أسرته، قبل رجوعها الأخير إلى مصر في مطلع سنة ١٩٣٩. ففي مساء اليوم المقرر للندوة غصت قاعة « وست » بجمهور من الأساتذة والطلاب ، والصحفيين والكتاب الذين بلغ عددهم زهاء سبعمائة شخص، وقوبلت ميّ لحظة اعتلت المنبر بتصفيق حارّ، ثم تركت المجال للأستاذ الدجاني، رئيس العروة الوثقى لإلقاء كلمة الجمعية، فرحب بها معبراً عن علوّ مكانتها في العالم العربي أديبةً مجليةً، ومفكرةً مبدعة، وأستاذة جيل. وبعد أن شكرته، وقد بدا عليها التأثر الشديد، أخذت تتحدث بطلاقتها المعهودة عن الربيع: ربيع الطبيعة، وربيع الشباب، وربيع الفكر فأسرت قلوب المستمعين منذ أن استهلت الحديث، الذي أمسى محاضرةً قيّمة، ودام ساعة وربع الساعة. وصفت الربيع القابع في أعطاف الشتاء، وخلصت إلى القول أن ربيع الفكر شباب دائم لا يمسّه الهرم، ولا يطاله العدم. ثم شبّهت الشرق الأوسط بالربيع في توثّبه للتقدم والازدهار، وقالت إن رسالة الجامعة الأميركية، وعملها الدائب في إعداد الشبيبة لحياة أفضل يشبه عمل المزارع في إعداد الأرض، وزرعها بالبذور والنباتات لتصبح جنة أزهار وثمار. كما قارنت بين الشرق والغرب فقالت إن الغرب الذي سبق الشرق في العصور الحديثة بما قدّم للإنسانية من اكتشافات علمية ما زال مديناً للشرق الذي أعطى للعالم بأسره الأنبياء الحكماء الذين قادوه إلى طريق الحق، ورحاب النور، وإلى الإيمان بالله واحد، وبقدرة الإنسان المفكر على الإبداع[1].

ما زال بعض الذين شهدوا تلك الأمسية يذكرونها ولكن نصّ المحاضرة بكاملها من جملة أوراق ميّ الضائعة والمشرّدة، فعسى أن يهتدي إليها الباحثون لضمها إلى مجموعة محاضراتها القيمة.

هذا عن آخر محاضراتها في لبنان، أما في مصر فإن لها محاضرات

---

(١) عن مجلة «الكلية ـ AL KULLIYAT» ـ الصادرة باللغة الانكليزية عن الجامعة الأميركية في بيروت تاريخ ٥ ـ ١ ـ ١٩٣٩ ـ ج (٦) ـ ص: ٧.

أخرى، كانت إحداها عن الكاتب الايطالي «ماريني»، وقد ألقتها في القاهرة بدعوة من «الجمعية الجغرافية» وذكرها فتحي رضوان في كتابه «عصر ورجال» دون أن يذكر تاريخها فكتب ما يلي:

(كانت القاعة ممتلئة فلم يبق مكان لواقف أو جالس، ولما ظهرت ميّ على المنصة وفي يدها منديل، ورأسها تميل في دلالٍ لطيف يميناً ويساراً راحت الأنظار تتابعها وتلاحق حركاتها في شغفٍ باد. ولم تدخر ميّ بدورها وسعاً في أن تحرك شجون السامعين بنبرات صوتها، فكأنها مطربة! والحق اني لا أذكر هذه المحاضرة حتى أراني أخلط بينها وبين أم كلثوم في حفلاتها الغنائية. كانت المحاضرة عن الكاتب الايطالي «ماريني» ومذهب «المستقبلية ـ Futurism»، وعلى الرغم من الأفكار الفلسفية التي كانت تدور حولها المحاضرة فقد أحسن الحاضرون الإصغاء، وقاطعوا المحاضرة الخطيبة بالتصفيق، وخرجوا وكأنهم سمعوا غناءً شجياً، أو موسيقى جميلة)[1].

أغلب الظن أن هذه المحاضرة قد ألقيت قبل وفاة والد ميّ سنة ١٩٢٩، ومع أن جلّ محاضراتها كانت باللغة العربية فقد ألقت محاضرة باللغة الفرنسية عن «عائشة التيمورية» في نادي أصدقاء الثقافة الفرنسية بالقاهرة بدعوةٍ منه في شهر آذار سنة ١٩٣١.

ومن رسالةٍ مخطوطة (عثرنا عليها بين أوراقها المشرّدة) بعث بها إليها «وندل كليلاند ـ Wendell Cleland» مدير قسم الخدمة العامة في الجامعة الأميركية بالقاهرة في ٢٨ ـ ٤ ـ ١٩٢٨، علمنا بأنها ألقت في تلك الجامعة ثلاث محاضرات:

(أودّ أن أتقدم إليك بالشكر العميق نيابةً عن قسم الخدمة العامة على تكرمك بتقديم ثلاث محاضرات، وقد كان من دواعي فخرنا أن تظهر مواهبك في حرم جامعتنا. ونحن نقدّر بشكل خاص الفكر المرهف والجهد

---

(١) عصر ورجال ـ فتحي رضوان ـ ص: ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

الجميل اللذين وضعتهما في تلك المحاضرات مما جعلها ممتعة، وذات قيمة تربوية. ولا حاجة للتكلم نيابة عن الجمهور لأن تقديره كان واضحاً)[١].

ومما يجدر ذكره هو أن ميّ دشّنت قاعة: «أد هوك ـ Ad Hoc» الثقافية في الجامعة الأميركية آنذاك، ولكن نصوص تلك المحاضرات ما زالت مفقودة، لا يوجد لها أثر في محفوظات تلك الجامعة.

وفي الخامس من شهر تموز سنة ١٩٣٤ وجّه الأستاذ وندل كليلاند رسالة أخرى إلى ميّ للتشاور معها في برنامج محاضرات الجامعة الأميركية المنوي دعوتها لإلقائها في خريف تلك السنة، وقد جاء فيها ما يلي، بعد أن أعطاها فكرة عن الموضوعات المطروحة:

(... لذلك فكرنا أن نطلب إليك معالجة «أهمية الأحداث الجارية» فتستعرضي بعضها، وتقدمي رأيك فيها. ولما كان هذا الموضوع لا يُعطى حقه في محاضرة واحدة، بل يصبح أكثر تشويقاً عندما يُقدّم في عدة محاضرات، أطلب منك أن تعالجيه مدة ساعة في كل شهر على هذا الترتيب: ٩ تشرين الثاني ـ ٧ كانون الأول ـ و٤ كانون الثاني.

أعلم أني أطلب منك مجهوداً أكبر من الذي قدمته لنا في السابق، ولكني أعتقد أنك ستجعلين من هذه المحاضرات أحد أمتع المظاهر في حياة القاهرة الثقافية)[٢].

ولا ريب في أن محاضرات ميّ المشار إليها كانت ممتعة، قيمة، فقد أسهمت بنشاطات الجامعة الثقافية، وقدّمت بحوثاً عن أهم الأحداث الجارية في تلك الحقبة من التاريخ، فأحرزت تقدير الأساتذة والأدباء والجمهور على حدٍّ سواء. لقد علمنا باقبال الناس على محاضراتها،واستحسانهم لها من رسالة

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٤٣ ـ وقد نقلنا الرسالة عن اللغة الانكليزية التي كتبت بها.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٣١.

ثالثة تلقتها من الأستاذ «كليلاند» في ١٥ ـ ١١ ـ ١٩٣٤ استهلها بهذه العبارات:

(العزيزة الآنسة ميّ:

فيما يتعلق بمحاضرتك التي ألقيتها مساء الجمعة الفائت، لا شك في أنك لحظت أن استمتاع الجمهور بها، «وقد بلغ عدده خمسمائة وخمسين شخصاً» كان عميقاً طول ساعة ونصف الساعة ونحن نعلم بالاختبار أن الجمهور الذي يملّ من محاضر لا يتردد في التعبير عن شعوره بمغادرة القاعة «جماعياً». فلم يحدث شيء من هذا في مساء الجمعة، بل أؤكد لك أن محاضرتك لقيت استحساناً كبيراً من قبلنا ومن المستمعين. كانت صيغتها طريفة، واحتوت على قدرٍ كبير من الحداثة، ولكن أحد الشيوخ لم يفهم لماذا لم ينحصر موضوعها بناحيةٍ معينة، فاعتبرها «مفككة»، غير أني أعلمته بأن هذا هو المقصود بعينه، إذ أردناها مناسِبةً لمجرى الأحداث الحاضرة)[1].

وختم رسالته على هذا النحو:

(مرة أخرى تقبلي شكري على محاضرتك الأولى، ونحن ننتظر الثانية في شهر كانون الأول بشوقٍ كبير، كما أني آمل أن تكون الحالة السياسية قد استقرت وقتئذٍ، وأن يكون الناس جميعاً على حالٍ من السرور كالتي تبدو عليهم حالياً)[2].

وردت جملة في رسالة الأستاذ كليلاند استرعت الانتباه إلى نشاط ميّ الغزير في تلك السنة، حين أتى على ذكر محاضرة أخرى لها ألقتها في «كلية البنات» فقال:

(... وقد سمعت أيضاً تعليقات متألقة عن محاضرتك في كلية البنات)[3].

---

(١) و (٢) و (٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٤٠ ـ ٤٤١.

إن ما يدهش الباحث عن نشاط ميّ الأدبي هو استمرارها في الكتابة، وعودتها إلى الجمهور في محاضرات ألقتها في السنوات الأخيرة من حياتها، بعد أن فازت بحريتها في أثر دعاوى الحجر عليها في لبنان أولاً ثم في مصر. ظلت ميّ حتى آخر حياتها، الأديبة المجدّة التي تحرق نفسها لمتابعة رسالتها، ومع أنها كانت في تلك الآونة العسيرة تغالب المرض واليأس، فقد استجابت لدعوات المؤسسات الثقافية ومنها دعوة الجامعة الأميركية في القاهرة حيث ألقت محاضرة نفيسة في نهاية سنة ١٩٣٩. أما الدليل القاطع على ما نقول فهو هذه الرسالة:

(العزيزة الآنسة مي:

قبل أن يتعرّض عبد المنعم بك رياض للحادث الذي أثر على نشاطه الكبير بفترةٍ وجيزة كان قد طلب مني أن أبعث إليك بالنيابة عنه، وعن قسم الخدمة العامة، رسالة شكر عميق على محاضرتك الممتازة التي ألقيتها في ١٥ كانون الأول. إننا نقدر لك مساعدتك تقديراً كبيراً، ونأمل بأن يكون هذا المجهود المشترك ذا فائدة حقيقية للشعب المصري. لقد سبق وشكرتك شفهياً ولكني أودّ أن تعلمي كم نحن مدينون لك. لقد نجحت المحاضرة نجاحاً عظيماً. مع أخلص تحياتي.

١٠/ ١/ ١٩٤٠ وندل كليلاند)[١]

ومن حسن الحظ أن «الهلال» نشرت نصّ المحاضرة المنوّه بها في عدد يناير سنة ١٩٤٠، وقد كان عنوانها: «حاجتنا إلى ثقافة اجتماعية». وليس النجاح الكبير الذي لاقته بمستغرب لما فيها من بحث علميّ شيّق في موضوع التيارات الفكرية، والاصلاحات الاجتماعية والثقافية على ضوء الواقع في مصر آنئذٍ. لقد تجلى فيها نضح المفكرة، وبلاغة الكاتبة وظرف الإنسانة بما عُرِفَ عن ميّ من لباقة ورصانة. قدمها أديب من أصدقائها هو الدكتور أمير

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٠٨.

بقطر[1] يبدو أنه أفاض بالكلام بأسلـوبه المشرق فردّت عليه تقول، قبل الشروع بإلقاء محاضرتها:

(المغزى الأدبي يتلخص عادةً في الجزء الأخير من الكلام، وعند فصل الخطاب، أما في هذا الموقف فقد كان الديباجة المشرقة! وأي شيء أدلّ على الثقافة الاجتماعية المكتملة من تعضيد الغريم للغريم في سبيل المصلحـة العامة؟ هذا هو الدرس الأدبي الذي ألقاه علينا عدوّي الحميم، وغريمي القديم الدكتور أمير بقطر!)[2].

وبعد أن أجادت في عرض الموضوع والإحاطة بكل جوانبه قالت:

(وصل بنا سياق الحديث إلى نقطة غاية في الأهمية وهي أن الضمير الاجتماعي لا ينفصل عن الضمير الأخلاقي، وأن الثقافة الاجتماعية والثقافة الأخلاقية متمّمة كل منهما للأخرى لتصبح روحاً ذات حيوية ديناميتية توحّد الأفكار والمشاعر، والأهداف والمساعي. الأفراد تحيا وتقضي، الأجيال تظهر وتختفي، أما المجتمع فباقٍ، والفرد بحياة المجتمع خالد. إن الفرد الذي يسعى بنيّةٍ حسنة، ويُحكم العمل حيث يجب أن يكون، وكما يجب أن يكون، ويساعد إخوانه في حيّز مقدوره يكبُر في عين نفسه، ويجد في داخل وجدانه حريةً أعظم، وثروةً أوسع، ويرى العالم أمامه أرحب، ويحسّ كرامة السيادة فيفهم عندئذٍ لماذا قيل: «سيد القوم خادمهم!» ولقد قيل كذلك: «العمل خير من العلم» ولكن لا بد لنا من العلم ليكون عملنا محكماً)[3].

أما محاضراتها الأخيرة فقد ألقتها أيضاً في جامعة القاهرة الأميركية في أوائل سنة ١٩٤١، أي قبل وفاتها بأقل من سنة، وكانت بعنوان «عِش في خطر». لقد ذكر هذه المحاضرة الأديب البحاثة الأستاذ وديع فلسطين في

---

(١) كان الدكتور أمير بقطر رئيساً لقسم التربية في الجامعة الأميركية بالقاهرة.

(٢) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٧٤.

(٣) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٧٩ ـ ١٨٠.

أحاديثه المستطردة عن ميّ ، التي نشرها في مجلة الأديب ، وذكرها محامي ميّ في مصر الأستاذ الكبير مصطفى مرعي في أحاديثه معنا، ولكن جميع المساعي التي بُذلت للعثور على نصّها باءت بالفشل. عنوان المحاضرة مثير للفضول، وأول ما يتبادر للذهن أنه يدور حول الحرب العالمية الثانية التي كان أوارها مستعراً في تلك السنة، وهذا ما جلاه لنا وأكده الصحفي الكبير الأستاذ ادجار جلاد صاحب: «لوجورنال ديجيبت ـ Le Journal D'egypte»» في مقالةٍ نشرها في جريدته، بعد وفاة ميّ بعشرة أيام، بعنوان: «ذكريات عن ميّ». فقد وفّى تلك الأديبة الكبيرة حقها بأسلوب ينبض بالوفاء والتقدير والاخلاص ، وهذه ترجمة المقطع الذي تناول فيه فنّها في المحاضرة:

(**محاضرة كبيرة**: رفعت الآنسة ميّ فنّ المحاضرة وقدرها إلى شأوٍ عالٍ. كانت تدرك أن المحاضرة ليست خطاباً، ولا قراءةً، إنما هي عمل فكري وفني ينبغي أن يشعر المستمع إليه بأنه من إبداع الساعة. وما زلت أحفظ ذكرى آخر مرة استمعت فيها إلى ميّ تحاضر في « قاعة إيورت التذكارية ـ Ewart Memorial Hall» في الجامعة الأميركية، في الفترة التي تخللت مرضها الأول ومرضها الأخير ، حيث كان عدد كبير من الناس يرقب الضعف في كلامها. . . ولكن أي أثر من آثار الوهن لم يظهر فيه! شرعت تتحدث بلهجةٍ أليفة، وعبارات هادئة بسيطة لخلق المناخ الملائم في القاعة، وحين وثقت بأن الجمهور أضحى مشدوداً إليها، بعد دقائق معدودات، وعلى أتمّ الاستعداد للحاق بها قادته ببراعةٍ إلى قمة الفكر، ورحاب الأدب، وعلم الأخلاق. ثم مجّدت الرأفة الإنسانية، واعتبرتها مثلاً أعلى إبان الحرب المفجعة التي كانت تدور رحاها في الغرب. وكان يتخلل المحاضرة، من حين إلى آخر، بعض الطرف والملح والملحوظات المشوقة دون أن يكون فيها ما يوحي بأن وراء ذلك الاسترسال العفوي، والظرف الفطري، إعداداً دقيقاً، وبحثاً عميقاً. كانت توحي للجمهور بأنها ترتجل ما تقول، وتُشركه بما تستنتج، وكانت أنوثتها الساحرة ظاهرة في رقة الصوت، وعذوبة التعبير، على ما في

الموضوع المطروح من جدٍّ وخطورة)[1].

ولعل أحسن ما يُختتم به هذا الفصل الاستشهاد بما كتبه الأستاذ حافظ محمود في هذا المعرض:

(لم يكن الإقبال على محاضرات ميّ لمجرد أنها خطيبة بليغة، أو امرأة جميلة، بل لأنها كانت، في نفس الوقت، خطيبةً مثيرة. كانت في عصرها أقدر الخطيبات على إثارة خيال الشباب، فأياً كان الموضوع الذي تعالجه في محاضراتها كان لا بد أن تمزج الكلام فيه بعبارات عن الحب والحسن، والجمال والخيال والآمال. ولهذا لم يكن غريباً أن تسمع بين الحاضرين من يستعيض عن التصفيق بالآهات عند بعض مقاطع المحاضرة)[2].

---

(١) لو جورنال ديجيبت ـ عدد ٢٩ تشرين الأول سنة ١٩٤١.

(٢) عمالقة الصحافة ـ حافظ محمود ـ ص: ١١٨.

ندوة الثلاثاء

(لو جُمعت الأحاديث التي دارت في ندوة مّي لتألف منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة العقد الفريد، ومكتبة الأغاني في الثقافتين الأندلسية والعباسية.

عباس محمود العقاد)[1]

عرف تاريخ أدبنا الحديث ندوات أدبية كانت تعقدها نساء رائدات أمثال نازلي فاضل في مصر وماريانا مراش، وماري عجمي التي كانت لندوتها في دمشق أهمية في جمع أندادها من الأدباء والشعراء العرب. ولكن ندوة ميّ كانت أكثر هذه الندوات أهمية، وأطولها عمراً لاستقطابها صفوة كتاب العصر، أصيل كل ثلاثاء على مدى عشرين سنة دون انقطاع تقريباً. تبلورت النهضة الأدبية الحديثة في عهد أولئك الكتاب الذين استناروا برسالة رواد عظماء حظيت بهم أمتنا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكان في طليعتهم الشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، والبستاني واليازجي وقاسم أمين.

---

(١) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ٢٠٨.

وما ميّ سوى علمٍ من أعلام طبقة الرواد الثانية التي اقتدت بطبقة الرواد الأوائل فكانت جيلاً من الأدباء والصحفيين والشعراء والعلماء يعتزّ بهم تاريخنا لما قدموا من خدمات للعلم والأدب والمجتمع العربي المتطلع إلى التحرر من الجمود والتخلف، والتواق إلى الحرية والتطور فكرياً واجتماعياً وقومياً. فلندع ميّ تحدثنا بنفسها عن تأسيس ندوتها:

(في سنة ١٩١٣ زارنا المرحوم الأستاذ سليم سركيس ودعاني لإلقاء خطاب جبران خليل جبران في حفل تكريم خليل مطران بك فقبلت الدعوة وكانت أول مرة وقفت فيها فتاة عربية تتكلم في حفلة رسمية تحت رعاية الخديوي. وبعد أن تلوت الخطبة ذيّلتها بكلمة من عندي لتحية المحتفى به، فلقيت من الحاضرين تشجيعاً عظيماً. وبعد ذلك ابتدأ يجتمع عندنا شبه «صالون أدبي» كل يوم ثلاثاء، مكث أعواماً تحت رياسة المرحوم اسماعيل صبري باشا، فاقتبست منه تهذيباً عربياً بما كان يُلقى فيه من أحاديث باللغة العربية الفصحى)[١].

ومع أن جمع الأحاديث والمناقشات التي دارت في هذه الندوة أمر محال فإن استقصاء ما نشره روادها في مؤلفاتهم وأحاديثهم الصحفية قادر على اعطائنا صورةً حيةً عن المناخ الذي كان يسودها، والأحداث الأدبية التي جرت فيها، وقادر على «سدّ الفجوة» التي تحدّث عنها الأديب البحاثة وديع فلسطين فكتب يقول:

(وإذا كان في تأريخ ميّ فجوة عميقة تحتاج إلى جهد الباحثين لسدّها فهي الفجوة التي تخلّفت عن ضياع كل ما قيل في ندوتها الأسبوعية، على مدى عشرين عاماً)[٢].

ينبغي أن نتعرف أولاً إلى الشخصيات الأدبية التي تعهّدت نجاح الندوة، وأن نصف المكان الذي كانت تُعقد فيه، بل الأمكنة التي عُقدت فيها

---

(١) «الهلال» - ج ٣٨ - عدد فبراير (١٩٣٠) - ص: ٦٥٩ - ٦٦٠.

(٢) «الأديب - عدد أيلول ١٩٧٤ - ص: ١٤.

لأن ميّ استقبلت رواد ندوتها في ثلاثة، بيوت أقامت فيها بالقاهرة تباعاً ، ما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٣٦ . وفي سائر تلك البيوت كانت توجد ردهة استقبال رحبة ، متصلة بغرفٍ متاخمة تُفتح أبوابها عند الحاجة لاستيعاب الزوار . وكان الطابع الشرقي يغلب على أثاثها ، وعلى اللوحات التي تزيّن جدرانها . في حين أن مكتبةَ ميّ النفيسة كانت أثمن ما في تلك الردهة لاحتوائها على كتب التراث ، ودواوين الشعر ، ومؤلفاتٍ قديمة وحديثة باللغة العربية ، ومجموعة من أجود الآثار باللغات الفرنسية والانكليزية والايطالية والألمانية ، كلها مجلّد ومنسّق أفضل تنسيق[١] . كما كانت توجد إلى جانب ردهة الاستقبال الكبرى غرفة للموسيقى تلجأ إليها ميّ للعزف على البيانو أو العود ، إما وحدها ، وإما مع بعض أصدقائها الأثيرين ، أثاثها بسيط ، وثير ، وأهم ما فيها آلة البيانو ، والعود ، وفونوغراف ، ومجموعة أسطوانات ، وكتب نوطة موسيقية ، غربية وشرقية . ولا ريب في أن شغف ميّ بالخطوط العربية على أنواعها هو ما دفعها لانتقاء قصيدة الإمام الشافعي التالية، مكتوبة بخطٍ فارسي، ووضعها في صدر بيتها:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى
وحَظُّك موفورٌ، وعرضُك صيِّنُ

لسانُك لا تذكر به عورة امرىءٍ
فكلك عورات، وللناس ألْسُنُ

وعينُك إن أبدت لك معايباً
فصُنها وقل: يا عينُ للناس أعْيُنُ

وعاشر بمعروفٍ، وسامح من اعتدى،
وفارق ولكن بالتي هِيَ أحسَنُ

(١) لقد أهدى الدكتور يعقوب صرّوف الى ميّ مجموعة المقتطف، وخزانة كتب كبيرة من الخشب المحفور سنة ١٩١٨، وأعلمتنا بذلك ابنة خالها السيدة سعاد معمّر الأشقر لدى حديثنا معها عن ميّ في بيروت سنة ١٩٧٢ .

كان أول بيتٍ أقامت فيه بالقاهرة يقع في شارع مظلوم رقم ١٤، ففيه تأسست ندوة الثلاثاء سنة ١٩١٣، ومنه انتقلت إلى شقة أوسع واقعة في شارع المغربي رقم ٢٨، سنة ١٩١٤. كانت تلك الشقة في الطابق الخامس من عمارة ليس فيها مصعد مما أرهق بعض رواد الندوة، أمثال الدكتور شبلي الشميل ويعقوب صروف في الصعود إليها، ومع ذلك كانا يحرصان على المشاركة في الاجتماعات الأدبية. وظلت ميّ مع والديها في تلك الشقة حتى سنة ١٩٢٧ حيث انتقلوا منها للسكنى في بيتٍ أجمل منها وأفضل يقع في شارع علوي رقم (١) خلف مبنى جريدة الأهرام، وفي عمارة تملكها الجريدة. قطنت ميّ في ذلك البيت مع أبويها، وبقيت فيه وحدها بعد موتهما، وخرجت منه إلى لبنان سنة ١٩٣٦ بصحبة نسيبها الدكتور جوزيف زيادة في إبان مرضها النفسي الذي سنأتي على تناوله في فصل لاحق.

كانت واجبات الضيافة في الندوة الأسبوعية تقتصر على شراب الورد، والقهوة المعطرة بماء الزهر، أو الشاي في الأيام الباردة، ولم تكن تخلو من بعض الحلويات الشرقية والغربية.

أما رواد الندوة، وجلهم من رجال الفكر والعلم واعلام البيان فقد أعجبوا بميّ الكاتبة والمحدثة والشابة المهذبة الفاضلة وأنزلوها أرفع منزلة في نفوسهم. كان الشاعر اسماعيل صبري، وسليم سركيس، والدكتور شبلي شميّل، ونجيب هواويني، والمطران دريان، وأنطون الجميّل وخليل مطران من أوائل روادها، ثم انضم إليهم كل من أحمد لطفي السيد «أستاذ الجيل» ووليّ الدين يكن، وعباس محمود العقاد، وادريس راغب، وطه حسين، وزكي مبارك، وسليم البستاني، وسلامة موسى، وتوفيق حبيب، وأمين واصف، ويعقوب صروف، واميل زيدان، وحسن نائل المرصفي، وحمدي يكن، وعبد القادر حمزة، ومصطفى عبد الرازق، ومصطفى صادق الرافعي، وداود بركات، وأحمد زكي باشا، وعبد العزيز فهمي، واحسان القوصي، وأسعد خليل داغر، ومنصور فهمي، والشيخ رشيد رضا وأخوه محيى الدين

رضا، وادجار جلاد، وإبراهيم المصري، وفتحي رضوان، وفؤاد صروف، ومحمد عبدالله عنان. كان من السيدات اللواتي يحضرن الندوة أحياناً: هدى شعراوي، وإيمي خير، وحرم شكور باشا، ومن الشعراء: أحمد شوقي، حافظ إبراهيم وخير الدين الزِّركلي، إلى جانب زوّار أخر، عرب وأجانب، سنأتي على ذكرهم في حينه.

حديث ميّ العذب، ولطفها الجمّ، وذكاؤها المتوقد من الصفات التي جعلت أعلام عصرها في شوقٍ دائم إلى أمسيات يوم الثلاثاء حتى لكأن اسماعيل صبري عبّر عن حالهم حين أنشد يقول:

روحي على بعض دور الحيّ هائمة
كظامىء الطير تواقاً إلى الماءِ
إن لم أمتّع بميًّ ناظريّ غداً
أنكرتُ صبحَك يا يوم الثلاثاءِ!

وصف سليم سركيس الندوة فقال: (مساء كل ثلاثاء يتحوّل منزل الياس أفندي زيادة، صاحب المحروسة، إلى منزلٍ فخمٍ في باريس، وتتحوّل الفتاة السورية، التي لا تزال في أواخر العقد الثاني من عمرها، إلى «مدام دو ستايل»، و«مدام ريكامييه»، و«عائشة الباعونية»، و«ولادة بنت المستكفي» و«وردة اليازجي»، في مدارك وشخص الآنسة ميّ. ويتحوّل مجلسها إلى فرع من سوق عكاظ فتروج المباحث الأدبية والفلسفية والعلمية في مجلس يحضره اسماعيل صبري، ولطفي السيد، وشبلي شميّل، وخليل مطران، وأحمد زكي باشا. هؤلاء جميعاً يهزّون بأحاديثهم ومناقشاتهم أغصان شجرةٍ ذات ثمر، ويحركون وردةً ذات أريج، والآنسة ميّ بينهم تناقش هذا، وتدفع حجّة ذاك)[1].

المسلم والمسيحي، المؤمن والملحد، المحافظ والمتحرّر كانوا يؤمون كعبة

---

(١) أضواء على الأدب العربي المعاصر - أنور الجندي - ص: ٢٦٧ - ٢٦٨.

الأدب في بيت الأديبة ميّ، البارعة في إدارة الحديث، وضبط المناقشات وينسون كل تباينٍ في معتقداتهم، وميولهم السياسية والأدبية، وقد وصف الدكتور فؤاد صروف ميّ في ندوتها فقال:

(... وكنت أزورها مع من يزورها من الأدباء في يوم استقبالها فلا ينقضي عجبي من الذهن الحاضر، والعلم الواسع، والحديث المؤدب المتدفق، والبراعة في توجيه أية مناقشةٍ تدور)[1].

ووصف تلك البراعة الدكتور منصور فهمي فقال:

(... وكانت ميّ تدير الحديث من غير أن تظهر بمظهر المتزعمة في النادي، أو المتصدّرة في الحفل، مما يدلّ على ناحيةٍ من نواحي خلقها الجميل)[2].

أما الدكتور طه حسين فإن له حديثاً عن الصالونات الأدبية في مصر قارن فيه بين ندوة الأميرة نازلي الارستقراطية، ذات الطابع السياسي، وبين منتدى ميّ الديمقراطي والأدبي الصرف. ولما زار ولي الدين يكن مكتبة ميّ وحضر أولى جلسات ندوتها بعث إليها بقصيدةٍ استهلها بهذين البيتين:

يا ميّ بين الأقلام والكتبِ
كالشمس بين الأقمار والشهبِ
أحييتِ عهد القريض والأدب
جدّدتِ للأدب رونق العرب[3]

وأما ما نشره الأستاذ العقاد عن الندوة، وما نقله من طرائف ومناقشات كانت تدور فيها فقد أعطانا صورةً نابضةً بالحياة عنها وعن صاحبتها، ومنه قوله:

(... وما تتحدث به ميّ ممتع كالذي تكتبه بعد رويّةٍ وتفكير، فقد

---

(١) على الطريق ـ فؤاد صرّوف ـ ص: ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) محاضرات عن ميّ ـ منصور فهمي ـ ص: ١٨٤.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٩.

وُهبت ملكة الحديث في طلاوةٍ ورشاقةٍ وجلاء، ووُهبت ما هو أدلّ على القدرة من ملكة الحديث، ونعني به ملكة التوجيه، وإدارة الأحاديث بين الجلساء المختلفين في الرأي والمزاج والمقام، فيكون في مجلسها عشرة: منهم الوزير، والموظف الصغير، ومنهم المحافظ والمغالي بالتجديد، ومنهم المرح الثرثار والوقور المتزمّت، فإذا دار الحديث بينهم أخذ كل منهم حصّته على سنّة المساواة والكرامة، وانفسح مجال القول لرأيه وللرأي الذي ينقضه، وانتظم كل ذلك في رفقٍ ومودةٍ ولباقة، ولم يشعر أحد بتوجيهها وهي تنقل الأحاديث من متكلمٍ إلى متكلم، وموضوعٍ إلى موضوع كأنها تتوجّه بغير موجّه، وتنتقل بغير ناقل، وتلك غاية البراعة في هذا المقام.

وكانت لها فطنة للضحك تُحيي المساجلة، وتزيّن الحوار، ولكن فطنتها للمواقف المضحكة كانت أدقّ من فطنتها للنكتة، واشتراكها فيها. وكانت كبيرة الاعجاب بفكاهة المصريين التي تسمّيها: «النغاشة» أو «القافية التي لا تعذر ولا ترحم» ! بحث بعض أساطين الشرقيين بعد الثورة الوطنية في توحيد الزيّ الملائم للبلاد الحارة، وكان أحمد شفيق باشا، صاحب الحوليات والمذكرات المشهورة، رئيساً لجماعة الرابطة الشرقية، وحريصاً على إشاعة الزيّ الموحّد بين الأمم العربية، وأمم الشرق الأدنى عامةً. ولفرط حرصه على هذا لم ينتظر اقناع الناس، فلبس الزيّ الذي ارتضاه، ومشى به في طرقات العاصمة إلى محطتها، مؤثراً المشي على الركوب ليراه السابلة في تلك الطرقات الحافلة، وكان يوم ثلاثاء، ونحن في مجلس الآنسة ميّ، والزوار كثيرون حين أقبل بعض الفضلاء يبتسم كمن يغالب ضحكةً جامحة، فسألته:

- (مِمّ تضحك؟) فقال:

- (كنت اللحظة أعبر دار اللواء فناداني أمين واصف بك وسألني: «أرأيت شفيق باشا في زيّه الجديد؟ والله لقد حسبته مسجوناً، مسوقاً إلى محطة العاصمة لتسفيره إلى الليمان!»)[1].

---

(١) مستشفى المجانين في مصر.

وميّ تعرف شفيق باشا، وتعرف أمين بك، وتعرف أن الأول رئيس الثاني في جماعة الرابطة الشرقية، ومع هذا لم يرحمه حين جاء في طريق القافية! ولن أنسى كيف غالبت ضحكاً لهذه المفارقة «المصرية»، وهذا التشبيه العابث، فاندفعنا جميعاً نضحك، وهي تضحك، حتى اغرورقت عيناها بالدمع، وحتى قال الأستاذ مصطفى عبد الرازق بحيائه المعروف:

- (ما بالنا أيها الأخوان نضحك هذا الضحك، وننسى وقار المجلس؟).

فهتف به الأستاذ خليل مطران مداعباً:

- اضحك يا أخي! من الذي يجد الضحك ويفرّط فيه؟.

وكانت سهرة ضاحكة من سلامها إلى وداعها، وكانت ميّ في تلك الليلة كأحسن ما كانت بشاشة وأنساً، وغبطةً وإقبالاً على الحديث والمسامرة، رحمها الله. ما رأيتها بعد ذلك في صورة آنس من تلك الصورة وتلك البشاشة كلها! وذلك الذكاء كله الآن في التراب بعد سنوات مُسحت فيها النضرة، ورانت الغمّة، ونضب معين الأمل والغبطة، وطال الألم والعذاب. ألا ما أسخف الحياة!)[1].

وروى الأستاذ العقاد في المقالة ذاتها التي نشرها بعد وفاة ميّ الحادثة التالية:

(تذاكر الأدباء في مجلسها يوماً مناقب رجل من أعظم رجالات المصريين فشاركتهم الاعجاب به والثناء عليه، واستأذنت بعد ذلك أن تلومه أمامهم في أمرٍ صغير فقالت:

«كنت في الجامعة المصرية فقدمني إليه الأستاذ لطفي السيد وتفضل وأطرى كتاباتي العربية والإفرنجية، بما شاء له فضله وتشجيعه. ولا أدري لماذا نسي الزعيم العظيم أنني عربية، وأنني كاتبة عربية، فاختار أن يخاطبني بالفرنسية، ويصرّ على مخاطبتي بها، مع إجابتي له بالعربية على كل سؤال!».

---

(١) «الرسالة» - العدد ٤٣٥ - ٣ نوفمبر ١٩٤١ - ص: ١٣٣٥.

وبدا عليها حقاً أنها غضبت لعربيتها من أن يخاطبها مصري عظيم بغير لغته ولغتها، وهي هي التي تتقن خمس لغاتٍ، وتكتب بكل لغة كتابةً يرضاها القراء من أبنائها. ولقد تكون الواحدة من بناتنا، وما تُحسن لغةً واحدةً كلاماً، فضلاً عن الكتابة، ثم لا تزال شرطن بها في البيت والطريق مع أبناء جنسها، كأنها لا تفهم لغةً غيرها..

وواجب لميّ في عنق العربية أن تغار على أدبها كغيرة ميّ على نسبتها إليها، فما عرفتُ كاتبةً أفضل من ميّ وأقدر، وأجلّ، وليس فضل الندوة هنا بأقلّ من فضل الاحسان والاتقان. حياها الله في ذكراها!).

كانت اللغة العربية الفصحى هي السائدة في الندوة، على ما كان يتخلل جلساتها من نوادر تُروى باللهجة المصرية، وقد جاء حديث الشيخ مصطفى عبد الرازق مؤكداً ذلك حيث قال:

(كان حديث ميّ في الغالب بالعربية الفصحى،ومع تأنقها في شأنها كله، وفي حديثها على الخصوص، فإنها كانت تصل إلى جعل اللغة العربية الفصحى لغة حديث في مجمعٍ راقٍ ليس كل شاهديه من أنصارها، من غير أن يشعر أحد بأن حديثها أقلّ سلاسةً، أو أظهر تكلّفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية الدارجة، أو المتكلمين بأي لغةٍ من اللغات الحية الراقية)[1].

معروف أنه كان لأستاذ الجيل: أحمد لطفي السيّد أثر كبير في توجيه دراسة ميّ، وتبنّيها اللغة العربية في كتاباتها، واتقانها، وهو من أقدم أصدقائها وأكثرهم اعتزازاً بها، وهذا حديث الكاتب كامل الشناوي عنهما في هذا الصدد:

(كان لطفي السيد محدثاً لبقاً يتخيّر الجملة في كلامه، ويُحسن استعمال صوته ارتفاعاً وانخفاضاً. وكانت الأناقة حائرة بين قوامه وهندامه وكلامه!

---

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ٤٠٠ ـ ٤٠١.

ولكنه لم يعشق ميّ، ولم تعشقه ميّ: كان يحب جوّها المشبع بالجمال والذكاء والثقافة، وكانت تحب جوّه المشبع بالذكاء والثقافة وحدهما. قدّم إليها أحد أصدقائه من المصريين يوماً فأخذ صديقه يحدثها بالفرنسية، فلما غادر الصالون قالت للطفي السيد: «كيف يحدثني باللغة الفرنسية؟» فقال: «هل كان يجب أن يحدثك بجميع اللغات التي تعرفينها؟» فقالت: لا ... إنما يجب أن يفهم أني لست «خواجايه...» أنا عربية، فلا ينبغي إلا أن يكلمني بالعربية!)[1].

ونعود مرة أخرى إلى وصف الأستاذ العقاد لأقطاب الندوة:

(لطفي السيّد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف، وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت الخجل، كأنه الصبيّ في مجلس الفتيات، وانطون الجميل وأسلوب بائع الجواهر في العرض على الهوانم، وشبلي شميّل وأسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور، وخليل مطران وأسلوب موليير على غير مسرح التمثيل، وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالون من أشهر الصالونات، ومصطفى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة التي يغني الاطلاع عليها عن السماع، واسماعيل صبري وأسلوب الشاعر الذي يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق التلميح والكتابة، وأحمد شوقي وأسلوب الايماء من بعيد.

وكثيراً ما كان شميّل يحمل على أدباء عصره حملات منكرة، ويصيح بهم في المجلس، كأنهم حاضرون أمامه، يخاطبهم ويخاطبونه: «فضّونا من غلبتكم يا أدباتية، يا أولاد الكلب!» فكانت ميّ تجيبه كلما صاح هذه الصيحة:

ـ «قلمك يقول إننا أولاد القرد، ولسانك يقول إننا أولاد الكلب، فمن من الوالدين الكريمين تستقرّ نسبتنا إليه يا ترى؟»)[2].

---

(١) الذين أحبوا ميّ ـ كامل الشناوي ـ ص: ١٤ ـ ١٥.

(٢) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ٢١١ ـ ٢١٢.

ومن حسن الحظ أن ميّ دوّنت بعض ذكريات ندوتها في مقالاتها، فقالت:

(أذكر لاسماعيل صبري مجالس رائعة عندنا مع المرحوم المطران دريان يتطارحان فيها الشعر ، وأمامهما الدكتور شميّل راكباً على كرسيّه كالقائد يمتطي جواداً في صميم المعركة ، ويلقي الأوامر الموجزة الخطيرة في فيالق الميمنة ، والقلب ، والميسرة لتنقضّ على العدوّ كالصواعق . . كذلك كانت نبرات الدكتور شميّل وإشاراته ، ومعاني عينيه القادحتين شرراً ، إلا ساعة الهدوء والضحك ، على صهوة الخيزران ! ثلاثة مختلفو القوة والمذهب والميل في الدين والعلم والفكر ، ولكنهم لم يفترقوا مرةً إلا على اتحادٍ ووئام)[1].

ذلك أن الدكتور شميل كان ملحداً، متأثراً بمذهب «داروين»، كما كان أديباً وعالماً ومفكراً. ومعروف أنه كان كبير الاعجاب بميّ، لا يفوّت جلسةً من جلسات ندوتها، ولا يأبه بتسلّق درجات السلم السبعين للوصول إلى بيتها رغم أنه كان مصاباً بالربو! كان يعاملها كابنته، ويؤنّبها لفرط جدّيتها فيقول لها مداعباً: «يا أمّ شبلي!»، وميّ التي قرأت كتابه في شرح «نظرية النشوء والارتقاء» لداروين، وكانت مؤمنةً إيماناً راسخاً، لم تتوانى هي أيضاً عن معارضته ومناقشته في ذلك الموضوع، حتى أنها قالت له يوماً:

- «إني أعجب لك كيف تكفر بالله، وتؤمن بداروين!» كما كانت تقول لأصدقائها: «إنه متعصّب للإلحاد!» ولكن هذا التباين في العقيدة لم يؤثر في شيء على حبها له، وحرصها على صداقته، والحزن عليه عندما توفي سنة ١٩١٧.

وهنالك «صديق مزمنٍ» لميّ ووالديها، على حدّ تعبيرها، كان من أوائل رواد ندوة الثلاثاء هو نجيب الهواويني ، خطاط القصر الملكي . والهواويني

---

(١) مذكرات ميّ زيادة - الروائع العالمية - ص: ٩١.

عُرف بلطف المعشر، والبديهة الحاضرة، والنكات الطريفة، وكثيراً ما كان ضحية الدكتور شميّل في بعض الجلسات.

أما الشاعر الرقيق وليّ الدين يكن فقد كان من أعزّ أصدقاء ميّ عليها، ومن أوائل أعضاء ندوة الثلاثاء، وأكثرهم مواظبة على حضور جلساتها، فلندعها تصفه لنا بقلمها الساحر:

(... وللألحان والألوان تأثير شديد في نفسه. قال لسماع فتاةٍ تغني بصوتٍ خافت: «هذه نسمات البوسفور»، أما تلك القطعة الموسيقية المرقصة، المعروفة باسم «كارمن سيلفا» فكان لا يرى البيانو مفتوحاً إلا ويسارع طالباً أن تُعزف له.

رأيت نظره جامداً في إحدى زياراته لنا، ولما سألته ما به قال مشيراً إلى زهرة ليلكية في ثوبي:

ـ «هذه! يحزنني هذا اللون الليلكي!».

فحاولت نزع الزهرة، فقال:

ـ «لا تفعلي أرجوك! يحزنني أن أراها، ويحزنني أكثر من ذلك أن تُنزع!».

وأنشدنا في ذلك المساء أبياتاً من شعره الحزين)[1].

ولا بد من القول بأن وليّ الدين يكن كان يسمي الندوة: نادي الفضل، ويشيع فيها أنساً وظرفاً ورقة، على الرغم من الرزايا التي نزلت به في حياته. وقد حزنت ميّ عليه حزناً شديداً بعد وفاته سنة ١٩٢١، ونشرت في مجلة «الفجر» البيروتية مقالاً بعنوان: «شيء عن وليّ الدين يكن» تحدثت فيه عن مزاجه المرهف، وأدبه الجم، ورقة حاشيته، وكرهه لكلمة «أيضاً» واستيائه من رداءة خط الدكتور شميل. كما ذكرت شدة تأثره

---

(١) مذكرات ميّ زيادة ـ الروائع العالمية ـ ص: ٩٤.

بالألحان والألوان ، وشغفه بالرسم ، واعجابه بشعر خليل مطران ، وروت لنا الحادثة التالية :

(كان له ولع بتحليل مطران وشعره فرأيناه مرةً يضطرب وتتغير ملامح وجهه لمجرد سماع أبياتٍ من قصيدة مطران: « الأسد الباكي»وهي:

أنـا الأسـد الـبـاكي، أنـا جـبـل الأسى
أنـا الـرمس يمشي دامياً فـوق أرمـاسي،
فـيـا منتهى حبي إلى مـنـتـهى الـمـنى،
ونـعـمـة فـكـري فـوق شـقـوة احـسـاسي،
دعـوتـك اسـتـشـفـي إلـيـك فـوافـني
عـلى غـيـر عـلمٍ مـنـك أنـك آسـي!

ثم هتف ولي الدين بك: «كفى!» وبعد سكوت قصير قال لخليل مطران:

ـ آهٍ خليل، خليل! لو سُئلتُ كيف يُنظَّم موكب دفني لتمنّيت أن ترثيني أنت بأبياتٍ ينشدها عزيز نصر، على مقربة من نعشي السائر! أريد أن أشيَّع على هذه الصورة في موكبٍ ينظمه سليم سركيس)[1].

وجّه ولي الدين يكن رسالة إلى ميّ في ٢٣ نيسان ١٩١٤ أطنب فيها بجودة مقالاتها، واقترح عليها أن تجمعها في كتاب بهذه العبارات الرائعة:

(فصولك الغضّة تعلو بالمدارك، وتنير جوانب النفوس، فلا تدعيها كالأوراق التي تخضرّ في الربيع، وتذوي في الشتاء. إجمعيها غضّةً، وكلّلي بها رؤوس هذه الأعوام. الناس يا ميّ في حاجةٍ إلى هذه الأنغام الإلهية)[2].

ولكن ميّ لم تجمع مقالاتها ولم تنشرها في كتاب، كما تمنى عليها أن

---

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ٨١ ـ ٨٢.
(٢) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ من المقدمة ـ ص: (٩).

تفعل، إلى ما بعد وفاته ببضع سنوات. ففي سنة ١٩٢٢ أثير في الندوة موضوع جمع مقالاتها في كتاب، واقترح عباس محمود العقاد أن تكون رسالة ولي الدين المشار إليها مقدمةً للكتاب، فوافقت ميّ، وطاب لها أن يكون عنوانه «سوانح فتاة». تعهّد الأستاذ اميل زيدان بطباعته في «دار الهلال»، فوجّهت إليه رسالة في ٢٢ ـ ٦ ـ ١٩٢٢ كان مما جاء فيها قولها:

(... لقد كُتب هذا الاقتراح عندنا في مجمعٍ حضرة الأدباء، وكان الغرض منه أن يوضع مقدمةً لمجموعة مقالات، بعضها ستوضع في مجموعاتٍ أخرى، وبعضها الآخر لن أضعه في مكانٍ، ولا في زمان، ويخجلني أني وضعتُ اسمي تحته يوماً، ولو مبتدئة! فها قد أخذ الاقتراح المكان المعدّ له، ويصح فيه القول إنه لم يذهب سُدىً. ورجائي أن تقول ذلك، أي أن تلك الرسالة كُتبت لتكون مقدمةً، في الكلمة اللبقة، كجميع كلماتك ـ التي ستحلّي بها مجموعة «سوانحي» هذه)[١].

ويوم سُئلت عن أقرب صديقين لها وأقدمهما: أنطون الجميّل وخليل مطران قالت:

ـ «إن انطون بائع جواهر... وخليل يملك الجواهر!».

لقد كانا حقاً أقرب صديقين لها، وكانت بينها وبين مطران مداعبات محببة إلى نفسها، ومعزّة خاصة، ولكنه كان يأخذ عليها أنها تجامله إلى حد الرياء... سمع منه هذا النقد الشيخ مصطفى عبدالرازق الذي كان ذا حظوةٍ كبيرة لديها، فدافع عنها وقال لمطران:

ـ «إن ميّ لا ترائي، ولكنها تجامل في رشاقة»[٢].

وعلى ذكر الرياء تجدر الإشارة إلى نفور عبد القادر المازني من المجاملات في الندوة، بعد أن حضر إحدى جلساتها بصحبة العقاد، فقد كتب يقول:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٩١.

(٢) الذين أحبوا ميّ ـ كامل الشناوي ـ ص: (١١).

(تلقيت من ميّ ذات يوم :طاقة مكتوبة بخط جميل تدعوني فيها إلى زيارتها في يوم ثلاثاء. وقد استغربت يومئذٍ حسن الخطّ، وتوهمت أنها استكتبت أحد الخطاطين، وعددت ذلك من التكلّف الذي لا داعي له.. وأحسب أن الأستاذ العقاد هو الذي هوّن عليّ الأمر، وشجعني على قبول الدعوة، وعرّفني أن هذا خطّها، لا خط خطاط، فلم أجد مناصاً بعد ذلك من تلبية الدعوة الكريمة)[1].

وبعد أن وصف تلك الجلسة والخطابات التي ألقيت فيها، وترحيب ميّ الحار بالأدباء، أضاف يقول:

(فما أنا من رجال الصالونات، ولست أُحْسِنُ هذا الضرب من الكلام، وما جئنا هنا ليثني بعضنا على بعض...)[2].

كان المازني الكاتب الوحيد الذي ظن أن صالون ميّ ارستقراطي يتبارى الجلساء فيه بالكلام المعسول،، والمجاملات المفرطة ولكنه اعترف في حديثه إلى محمد عبد الغني حسن، بعد موت مي، بمكانتها الكبيرة في الأوساط الأدبية آنذاك، وبأنه قصّر معها يوم أهدت إليه كتابيها: «الصحائف» و«ظلمات وأشعة» لأنه لم يتناولها بأي فصلٍ من فصول كتابه النقدي: «حصاد الهشيم»: حتى أنه ندم على ذلك التقصير الذي نعته بـ«قلة الذوق»، وختم حديثه عنها واصفاً زيارته الوحيدة لندوتها بهذه العبارات:

(وبدا الناس ينصرفون، وهمّ الأستاذ العقاد وهممت بالخروج فأخّرتنا، واستبقتنا ـ استغفر الله واستبقت أيضاً الأستاذ خليل مطران ـ وجلسنا نحن الأربعة في حجرة الاستقبال الكبرى، وكان نصيبي الإصغاء مطرقاً حيناً، وناظراً إليها حيناً آخر، ومعجباً في الحالين).

يكاد المازني يكون الوحيد الذي لم يكرّر زيارته لندوة الثلاثاء لنفوره من الاجتماعات الكبيرة المختلطة، حيث تكثر المجاملات، ويسود التكلف،

---

(١) و (٢) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

وهذا ما يسوقنا إلى الاعتراف بأن المجاملات كانت من شروط الآداب في المجتمع المصري والمجتمعات العربية المتأثرة بالتقاليد التركية. ولا ريب في أن ميّ تأثرت بالبيئة التي عاشت فيها، فسايرتها، وكانت تغالي أحياناً في تلك المجاملات مما حدا بالأستاذ فتحي رضوان إلى القول، في إثر انضمامه للندوة سنة ١٩٣١:

(ولما أتيح لي أن أنضمّ إلى هذه الزمرة الرفيعة، زمرة ندوة ميّ، خُيل إليّ أنني أدخل عالماً سحرياً. وصوت ميّ تشوبه رنة حزن لا أدري إذا كانت طبيعية أو مصطنعة وهي تقطّع عباراتها وكأنها تلحنها كأغنية. وخرجت وقد خُيّل إليّ أنني نجحت في أن أظفر لنفسي عندها بمكانةٍ خاصة. وبقيت على هذا الوهم حتى تبيَّنت فيما بعد أن أكثر الذين تتاح لهم فرصة زيارتها، والجلوس معها، يخرجون بنفس الشعور)[١].

كان لجرس صوتها تأثير كبير في جلسائها يشبه السحر، حتى أن الدكتور طه حسين وقع تحت ذلك السحر، وكتب عنه في معرض وصف زيارته الأولى للندوة فقال:

(وفي مساء الثلاثاء رأى الفتى نفسه، لأول مرة في حياته، في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال، حفيَّةً بهم، معاتبةً لهم في رشاقةٍ أيّ رشاقة، وفي ظرفٍ أيّ ظرف، وفي حديثٍ عذبٍ يخلب القلوب ويستأثر بالألباب.

وطال المجلس، وكثر الزائرون، ودارت أكواب الشاي، والفتى في مكانه لا يكاد يحسّ من ذلك شيئاً، قد ملك الوهم عليه أمره كله، فهو لم يشهد مثل هذا المجلس قط، وليس له عهد بمثل ما يجري في تلك المجالس من المراسم، ولا بما يُتّبع فيها من التقاليد والعادات. كان منكراً لنفسه، منكراً لمن حوله وما حوله إلا شخصين هما الأستاذ لطفي السيد والآنسة ميّ.

---

(١) عصر ورجال ـ فتحي رضوان ـ ص: ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

وقد انصرف الزائرون جميعاً وخلا للأستاذ وتلميذه وجه ميّ فخاضت مع الأستاذ في بعض الحديث، وأثنت للفتى على رسالته في أبي العلاء فأغرقت في الثناء ، واستحيا الفتى شيئاً، ولم يحسن أن يشكر ثناءها . فتتردّد الفتاة شيئاً ، ثم تقدم بعد أن تعلن إلى الفتى أنها إنما تقرأ على الأستاذ هذا المقال لأنه هو الذي يعلّمها العربية والكتابة.

قال الفتى في صوتٍ مختنقٍ، ولفظٍ مجمجم:

- «كما يعلمني أنا».

فقالت:

- «فنحن إذن زميلان».

وقرأت المقال وكان عنوانه: «وكنت في ذلك المساء هلالاً». وسُحر الفتى، ورضي الأستاذ، وانصرفا بعد حين، وفي نفس الفتى من الصوت ومما قُرىء شيء كثير!)[1].

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فقد كان قليل التردد على الندوة، قليل الكلام، كثير الشرود إذا ما حضر، يدخن ويحلّق بخياله مع دخان التبغ. وقد بلغ اعجابه بميّ حداً دفعه إلى وصفها بهذه الأبيات:

أسـائِـلُ نفسي عمـا سبـاني، أَحُسنُ الخلقِ أم حُسْنُ البيـانِ؟
رأيـتُ تنـافسَ الحُسْنَيْنِ فيـهـا كـأنـهـمـا لِمَيَّـةَ عـاشـقـان،
إذا نـطقَتْ صبـا عقلي إليهـا، وإن بَسَمَتْ إليَّ صبـا جنـاني،
ومـا أدري أَتَبْسِمُ عن حنيـنٍ إليّ بقـلبهـا، أم عـن حنـانٍ،
أم أن شبـابَهـا راثٍ لـشيـبي، ومـا أدهى زماني من كيـاني![2]

---

(١) مذكرات طه حسين ـ ص: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) لم نجد هذه الأبيات في ديوان شوقي، انما نقلناها عن كتاب الأستاذ محمود الشرقاوي: «ابراهيم ناجي الشاعر والانسان» ص: ٢١٥، وقد خصّص فيه فصلا عن «ميّ».

وكانت ميّ مفتونة بشعر شوقي، تحفظ الكثير منه وتنشده أحياناً في ندوتها، بإلقائها المتميّز الذي أطراه الدكتور يعقوب صروف في إحدى رسائله إليها المؤرخة في ٢٣ ـ ٨ ـ ١٩١٨، فقال:

(... وإني مرسل إليك الآن المجلد الثامن عشر من المقتطف وفيه رحلتي إلى أوروبا وموضوعها «مشاهد أوروبا»، وتجدين في وداع باريس، ووداع لندن شعراً، أو ما يُشبه الشعر، تسليتُ به وأنا هناك. ولكن أين ذلك من قصيدة شوقي التي أسمعتنيها البارحة، ولم يزل صوتك يرن في أذنيّ! لو سمعها شوقي من فيكِ لتضاعفت قيمة شعره في نفسه)[١].

لم تخل جلسات الثلاثاء من مناقشات في علم اللغة، وفنون البيان، والاهتمام بتصريف الأفعال، حتى أن صدر الأستاذ حمدي يكن قد ضاق، ذات مساء، من جفاف تلك المناقشات، والإبحار فيها، فكتب إلى ميّ في ٨ ـ ١٢ ـ ١٩٢٣ يقول:

(... وأما فرض الزيارة فواجب الأداء، وسيكون في الأسبوع الذي يلي هذا الأسبوع، على شرط ألا يكون فينا من يُصرّف فعل «آمَنَ»، ثم يتوسّع فيه إلى ما لا يطاق، مما تفرقع له جوانبي، فإني أحاول أن أنسى ما خرق «طبلة أذني» في اجتماعنا الماضي!)[٢].

أعلمنا الدكتور طه حسين في حديثه عن ميّ الذي أدلى به لمحمد عبد الغني حسن، بعد وفاتها، أنه حظي بسماع غنائها وعزفها على البيانو مع بعض الأثيرين من أصدقائها، عقب ارفضاض الجلسات، والاهتمام بالقراءات الأدبية، والمناقشات النقدية، حيث قال:

(وقد أتيح لي أن أكون من خاصة ميّ بفضل الأستاذ لطفي السيد فكنت أتأخر في الصالون حتى ينصرف الزائرون، وما أكثر الليالي التي

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٦٤.

(٢) مي زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٤٣.

انصرفوا فيها، ولم يبق منهم إلا الأستاذ لطفي السيد، ومحمد حسن نائل المرصفي، رحمه الله، وأنا. في ذلك الوقت كانت ميّ تفرغ لنا حرة، سمحةً فنسمع من حديثها وانشادها، ومن عزفها وغنائها. ويظهر أني لن أنسى صوت ميّ حين كانت تغنينا أغنيةً لبنانيةً مشهورة: «يا حْنَيِّنَة!» وتغنينا في اللغات المختلفة، وباللهجات العربية المختلفة!)[1].

أما رجال السياسة فقد كانوا يغشون الندوة للاطلاع على الحركة الفكرية، فإذا ما تطرقوا إلى السياسة وملابساتها وجدوا من ميّ إعراضاً كلياً عن الكلام، بدليل ما قاله الأستاذ انطون الجميّل في هذا الموضوع:

(لم تشغل السياسة ميّ قط عن الأدب. كانت تتحاشى الخوض في غمارها، أو الدخول في معتركها، ومع ذلك كانت تقرأ معظم الصحف السياسية، وتتبع الأخبار، وتساير التطورات، فإذا جرّ الحديث في ناديها إلى السياسة، وانساق الزائرون في تيارها رأيتَ ميّ وقد تحوّلت إلى الإصغاء، واتجهت إلى الإنصات، وأعرضت عن الكلام جانباً)[2].

ذلك أنها كانت حريصة على تكريس جهودها كلها للأدب والفكر والنهضة، فكان لها ما أرادت وأضحت ندوتها، بعد العشرينات، محجةً لصفوة الأدباء المقيمين في القاهرة، والوافدين إليها. وكثيراً ما أعدت جلسات خاصة في ندوتها لتكريم كبار الزوار تكريماً للأدب نفسه، ورغبةً في توطيد أواصر المعرفة والتعاون بينهم وبين أعلام عصرها في مصر، زملائهم في خدمة النهضة الأدبية والاجتماعية والقومية. فعندما قدم القاهرة العالم الأب انسطاس ماري الكرملي من بغداد سنة ١٩٢١ احتفلت به في ندوتها، وتلقت منه رسالة شكر، بعد رجوعه للعراق، جاء فيها قوله:

(... إذا واجهتِ الدكتور صروف، ولطفي بك، وخليل مطران بك،

---

(١) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٢) ميّ أديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ٢١٠.

وسليم سركيس،وكل من عرّفتني إليهم، أرجوكِ أن تهدي إليهم أصدق تحياتي، وفقك الله، وبارك في أيامك، وأعانك في أمورك)[١].

ودعاها الكرملي في الرسالة ذاتها: «قطب الرحى في تكريم الأدباء».

ويوم زار أمين الريحاني القاهرة سنة ١٩٢٢ أقامت حفلةً كبرى على شرفه، ألقت فيها خطاباً نشرته «المقتطف» بعنوان: (الريحاني وفضل المشرق) وفيه قالت:

(. . . غير أني ما ذكرتُ الريحاني إلا ذكرت أنه كان جليسي يوم كنتُ أتلقن اللغة العربية على نفسي، أتلقنها على حبي لهذه اللغة التي أباهي بأني لم أدرسها على أستاذ. كان جليسي في «الريحانيات»، وكانت «الريحانيات» من الكتب الخمسة أو الستة التي عرفتني باتجاه الفكر العربي الحديث في صيغتيّ الشعر والنثر)[٢].

وكان من الذين كرمتهم في ندوتها الأستاذ جبر ضومط سنة ١٩٢٣ لدى زيارته للقاهرة، فألقت خطاباً ترحيبياً طرحت فيه موضوع القومية والعنصرية للنقاش. حضر الحفلة ما يقرب من سبعين شخصية، سادة وسيدات، فاستهلت كلمتها بقولها:

(أيها السادة: عندما عهد إليّ والدي أن أقوم أمامكم بالواجب العذب، واجب الترحيب والامتنان، كنت أقرأ «لماكس نورداو»[٣] كتاباً ورد فيه رأي من الآراء المعروفة لهذا الكاتب وهو قوله: «إن الشكر الذي يزعمونه إقراراً بجميلٍ حاضر، أو سابق، إنما الغرض منه اقتناصُ جميل جديد!».

فأغرتني هذه المغالطة الشيقة، ككثير من مغالطات «نورداو»، وطفقت أقلّبها على وجوهٍ شتى لأتبينّ الغاية التي أرمي إليها ـ على غير معرفةٍ مني بعد أن فاز منزلنا بتشريفكم، وضمكم ساعةً بين جدرانه السعيدة بحضوركم).

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٧٣.

(٢) المقتطف ـ ج (٦٠) ـ عدد مارس ١٩٢٢ ـ ص: ٢٥٣.

(٣) ماكس نورداو ـ MAX NORDAW ـ كاتب مجري وعالم معروف ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٢٣.

وبعد أن عدّدت مناقب المحتفى به، ومن أجلّها دأبه في تدريب عدد كبير من طلاب العلم على حبّ اللغة العربية، التي كان يدرّسها في الجامعة الأميركية في بيروت (الكلية الأميركية كما كانت تُسمى آنذاك) عرّجت على ذكر الروابط القومية بين أهل العلم والقلم، ونوّهت بالاحتفال السخيّ الذي أعدّه لها الأستاذ ضومط في منزله في سوق الغرب بلبنان، قبل عام خلا. وقد ختمت خطابها الطويل بهذه العبارات:

(أما أنت أيها الأستاذ المسافر، فغداً عندما تجتاز الصحراء تمرّ بالعريش الذي يرونه الحدّ الفاصل بين مصر وسوريا، فتراه، وأنت الشرقي الصميم، يداً خضراء، يد السلام والرجاء الجامعة بين القطرين، رغم أهوال المفاوز، وقحط الصحراء. وحسبك يا سيدي فخراً وفضلاً أن تواصل ما قمتَ به إلى الآن، وهو نشر اللغة الجميلة، لغة القرآن، وتأييد العلم والعرفان، والدعوة إلى الثقة والتسامح، ومحبة الأوطان)[1].

نشر خطاب ميّ بكامله المجاهد الأستاذ محب الدين الخطيب، صاحب المطبعة السلفية في كتابه «الحديقة»[2]، ونقلته مجلة «الكلية» الصادرة عن الكلية الأميركية ببيروت مع تعليقٍ على الحفلة، ووصفٍ مسهبٍ لها على هذا النحو:

(وبعد تناول الشاي والحلوى وقفت الآنسة ميّ ورحبت بالحضور بخطابٍ نفيس، وقام بعدها الأستاذ ضومط وطلب أن يلطفوا به فيكفّوا عن مدحه، وأراد أن يلقي كلمته ليحول دون كلام غيره، فقاطعته الآنسة ميّ، وطلبت أن يُبقي كلمته إلى نهاية الاحتفال. وعندئذٍ وقف فؤاد أفندي صروف، أحد محرري المقتطف، وألقى خطبته، ثم تلاه سليم أفندي عبد

---

(١) مجلة الكلية - ج (٩) - عدد نيسان ١٩٢٣ - ص: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) الحديقة - محب الدين الخطيب - الجزء الأول من الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٢٣ م - ١٣٤١ هـ.

الأحد فألقى قطعة شعرية شائقة بعث بها السيد مصطفى صادق الرافعي من طنطا. وعقبه أسعد أفندي خليل داغر فأنشد أبياتاً رقيقة من الشعر، ثم وقف صاحب السعادة أحمد زكي باشا وألقى كلمةً لطيفةً عن المحتفى به. وعقبه خليل بك مطران فأنشد بيتين من الشعر، وحذا حذوه نور الدين بك مصطفى فتلا أربعة أبيات رقيقة، وقام السيد رشيد رضا وَفَاهَ بكلمةٍ طيبة عن الأستاذ ضومط وفضله كمعلم كبير. ثم ألقى رفيق أفندي جبور، المحرر في «المحروسة» أبياتاً من نظمه نوّه فيها بفضل آل زيادة والمحتفى به. وبعد ذلك طُلب من الدكتور منصور فهمي، أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية، أن يقول كلمة فنهض وأشار إلى الأستاذ ضومط قائلاً إنه السفير الفكري الذي كان يأتي إلى البلاد المصرية فيرغّب التلاميذ فيها بالدراسة في دار العلوم ببيروت حيث تُصقل عقولهم، ثم يعودون إلى وطنهم ليخدموه بما اكتسبوا من العلم والهمة والأخلاق. وهنا وقف الأستاذ ضومط فألقى كلمة طيبة في شكر المحتفلين به، وأثنى كثيراً على نبوغ ميّ، ولقبها بأميرة الكتاب، ثم قام الدكتور يعقوب صروف وذكر بالفخر والاعجاب نبوغ المحتفى به، وكانت خاتمة الحفلة كلمة وجيزة من حضرة لطفي بك السيّد)[1].

وفي سنة ١٩٢٥ انبثقت فكرة إقامة احتفال بيوبيل المقتطف الذهبي من ندوة الثلاثاء، وكانت ميّ البارة بوطنها، ونهضته واعلامها، صاحبة تلك الفكرة التي لاقت ترحيباً إجماعياً. وقد تألفت في بيتها لجنة ضمت شخصيات كبيرة فكان محمد توفيق رفعت باشا، وزير المعارف المصرية رئيسها، وكان الأساتذة عباس محمود العقاد وأحمد لطفي السيد وانطون الجميل، والدكتور طه حسين، وعبد القادر المازني، والدكتور أمير بقطر، والشيخ رشيد رضا، والشيخ مصطفى عبد الرازق، وادجار جلاد وأمير الشعراء أحمد شوقي من أبرز أعضائها، فانتخبوا ميّ أمينةً للسرّ. ويوم عقدوا اجتماعهم الأول ألقت خطبة استهلتها بهذه العبارات:

---

(١) «الكلية» - بيروت - نيسان ١٩٢٣ - ج (٩) - ص: ٢٨٠ - ٢٨١.

«حضرة صاحب المعالي، أيها السادة

بالأصالة عن نفسي، وبالنيابة عن والديّ أتشرف بأن أرحّب بكم في هذا المنزل الصغير، في هذه الغرفة الضيقة بمساحتها، ولكنها أرحب وأعظم ما تكون بحضوركم فيها. فكم من اجتماعٍ زاهرٍ عقد فيها، وكم من مناقشةٍ بين أهل العبقرية من الشرقيين والغربيين حرّكت في هذا الجوّ المحدود رواكد الأزمنة، وكوامن مما حجبته الحياة عن الأبصار والبصائر. وكم ذُكرت هنا أسماء كتابنا ومفكرينا، وكم مُحِّصت هنا آثارهم في الأدب والعلم والاجتماع. فأنتم الآن إذن في جوكم المألوف، وهو رحيب، زاخر بالتيارات الفكرية التي تتعارض فيه وتتلاقى»[1].

ثم دعتهم للتداول في برنامج الاحتفال التكريمي لأجلّ مجلةٍ علميةٍ أدبيةٍ في الوطن العربي، بمناسبة انقضاء خمسين سنة على تأسيسها. وقد استغرق الإعداد للاحتفال زهاء سنةٍ كرّست ميّ خلالها وقتها تتصل بالمؤسسات العلمية والثقافية وتراسل الأدباء والشعراء في البلاد العربية وفي المهجر، فلاقت دعوتها استجابة منهم للإسهام بتكريم العلم والفضل. وهذا ما جعل الاحتفال بيوبيل المقتطف الخمسيني الذي جرى في آخر شهر نيسان سنة ١٩٢٦ مظاهرةً عربيةً ثقافيةً واجتماعية ناجحة، وما حدا بالدكتور فؤاد صروف إلى ذكر جهدها الميمون في فصلٍ عن «ميّ والمقتطف» في كتابه: «على الطريق» بهذه العبارات:

«لقد اختيرت ميّ أمينة سرّ للجنة فوقع عليها عبءُ العمل، ولم تفتر لها همّة. ولما اكتمل عدد المدعوين في مساء ٣٠ ابريل ١٩٢٦ كانت ميّ المرأة الوحيدة التي جلست على المنبر مع أعضاء اللجنة، وخطباء الحفلة وشعرائها، وصاحبيّ المجلة، وكانت تشعّ رضىً وغبطةً لما نالته الحفلة من توفيق»[2].

---

(١) الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ـ ص: ٥.

(٢) على الطريق ـ فؤاد صرّوف ـ ص: ٢١٦.

وقد أشار انطون الجميّل إلى جهدها في رسالة وجهها إليها عقب الاحتفال فقال:

(. . . تذكرين كرماً منك وتلطفاً ما عانيناه في سبيل المقتطف. يا حبذا عيد المقتطف يا ميّ! ويا ما أعذب ما كلّفنا من عناءٍ وتعب، فقد أتاح لي أن أعرف فيك، فوق الكثير مما كنت أعرف، من رقة الطبع، وسداد الرأي، والصبر على المكروه، ما زادني اعجاباً برجاحة عقلكِ، وسموّ قلبك)[1].

من الشخصيات العربية التي وفدت إلى مصر، وحجّت إلى بيت ميّ، الشاعر خليل مردم، والعالم الأمير مصطفى الشهابي، فكتب خليل مردم مقالاً بعنوان «ميّ» نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق قال فيه، بعد أن وصف اطلالتها المشرقة:

(زرتها في دارها يوم الجمعة في ١٩ آذار سنة ١٩٢٦ قبيل سفري بساعتين، وكان معي حسين بك الحسيني. كان أمد الزيارة ساعتين، وكان مدار الحديث فيها على ما يأتي: الترحيب والمجاملة وشيء من الدعابة المملوءة خفراً، والثورة السورية، والرابطة الأدبية والنهضة المصرية، والتململ من الاستعمار الأوروبي. فكان من ترحيبها ومجاملتها قولها: إن مصر ترحّب بي، وإن أدباءها حريصون على التعرف إليّ شخصياً، وإن كانوا لا يجهلونني، وإنها سعيدة بلقائي. وأطرت رسالتي «شعراء الشام»، وقصيدتي في شوقي. وكان من دعابتها أن قدمت لي لفافةً، وأرادت أن تقدح عود ثقاب، فبادرت إليه قبلها، فقالت:

- «دعني أقبسك النار، ولا تخف فهي باردة. .».

قلت:

- «أنا أحرق نفسي».

ثم سألتني عن كارثة دمشق فقالت بصوتٍ مملوءٍ حنواً وبكاءً:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٣٢.

ـ «إن كان لا يؤلمك أن تقصَّ عليّ كيف وقعت الواقعة فحدثني».

قالت ذلك وهي مقبلة نحوي بوجهها، تفرك كفّها بكفها، ويقطع مجرى نظرها عني غضّ طرفها كأنما تريد أن تغيّض عبرة. قلت:

ـ «نعم يا سيدتي، من الألم ما يفيد».

وأخذت أقصُّ عليها ما شهدته بعيني من الواقعة فكانت تظهر ألماً وحزناً واستياءً وتقول:

ـ «لا أقدر أن أتصوّر دمشق خربةً محروقةً، تلك المدينة التي يتمثل بها جمال الشرق وجلاله، وتبعث في نفس الرائي الحرمة والروعة».

وتمنت انفراج الثورة السورية)[1].

أما الأمير مصطفى الشهابي الذي زارها سنة ١٩٣١ فقد أورد في كتابه الشذرات ما يلي:

(زرت الآنسة ميّ، كبيرة أديبات العربية في يومنا هذا بلا منازع، مع صديقي العلامة أمين باشا المعلوف، صاحب «معجم الحيوان» بعد أن تلطفت واجتمعت بي مع رهط العلماء والأدباء في فندق «كونتيننتال»، فإذا بي في دارها وكأني في هيكل الأدب الأسمى، وقدس النبوغ والعبقرية، وإذا بأحاديثها تنمّ على أدقّ ما تلمسه مشاعر إنسان. وقد خُيّل إليّ أنني في حضرة إحدى سيدات الملأ الأعلى اللواتي كنت أقرأ عنهن في كتب كبار الأدباء الفرنسيين. وما كدنا نودعها ونخرج حتى ابتدرني الصديق الأمين قائلاً: «إنها مخيفة!» فقلت: «صدقت يا باشا، وماذا أخافك منها؟» قال: «حدّة ذكائها، ووفرة معلوماتها الأدبية». فقلت: «أما أنا فأفرط إحساسها لدقائق الحديث حتى كدت أرى نفسي غير قادرٍ على مجاراتها!)[2].

إن وفرة معلومات ميّ التي أذهلت العلامة أمين باشا المعلوف كانت

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ـ ج ٣٥ ـ الجزء الأول ـ ص: ١٥٠ ـ ١٥٣.

(٢) الشذرات ـ الأمير مصطفى الشهابي ـ ص: ٢٨١.

موضع اعجاب سائر معاصريها، ومنهم الأستاذ إبراهيم المصري الذي حدّث الأديب البحاثة وديع فلسطين عن دهشته لما وقف عليه من ثقافتها الواسعة فنقل حديثه الأستاذ فلسطين وقال:

(روى لي جاري وصديقي الكبير الأستاذ إبراهيم المصري أنه كان يتردد على ندوة ميّ، وكان يتسلح بقراءة أحدث الكتب الفرنجية «الطازجة» لعله بذلك يتحداها ويُعجزها، ولكنه كان يُفاجأ دائماً بأنه لا يكاد يستهلّ الكلام في كتابه الوارد لتوّه في بريده الأدبي حتى تفيض ميّ في الحديث عنه وفيه، عن قراءةٍ واستيعابٍ دقيقين! ولم يستطع إبراهيم المصري أن يفوز عليها مرةً واحدةً في المتابعة الحثيثة لكل جديد)[1].

كما كتب الدكتور منصور فهمي واصفاً ندوة الثلاثاء وصاحبتها في إحدى محاضراته عنها هذه العبارات:

(وفي هذا المنتدى الذي عرفته، أول ما عرفته، في شارع علوي خلف مبنى الأهرام كانت تدور الأحاديث في شتى فروع الأدب، والعلوم، والفنون، وتذكر بالنقد أو التمجيد آثار العلماء والأدباء والفنانين. وكانت ميّ زهرة النادي، والمثيرة لتيارات الأحاديث، والمحبة للجميل في كل شيء، وبخاصةٍ لما يصدر من أفكار أهل الأدب والفن)[2].

إن ما يجدر بالذكر في الحديث عن هذه الندوة أن روادها كانوا يتأنقون في ملابسهم إلا واحداً هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي كان يصل من «طنطا» حيث كان يقيم، ويتوجّه رأساً من محطة القطار إلى بيت ميّ، وعليه كل ما في الطريق من غبار. . . فقد وصفه الكاتب كامل الشناوي على هذه الصورة، ثم روى الحادثة التالية:

---

(١) «الأديب» ـ حديث مستطرد عن ميّ وعصرها بقلم الأستاذ وديع فلسطين ـ عدد أيلول سنة ١٩٧٤ ـ ص: ١٣.

(٢) محاضرات عن ميّ ـ الدكتور منصور فهمي ـ ص: ١٨٦.

(. . . ولمحه حافظ إبراهيم يوماً وقد جاء في بدلةٍ جديدة فقال له:
- «أنت اليوم متنكّر يا مصطفى. . . أُمال فين التراب اللي على بدلتك دائماً؟. . . .)[1].

ولا ريب في أن مثل هذه المداعبات اللطيفة التي يمتاز بها اخواننا المصريون بموهبتهم في إتقان النكتة كانت تلطّف جوّ الجلسات، وتضفي على الندوة جواً مؤنساً، ممتعاً.

وهنالك شخصيات أجنبية كانت تحضر بعض جلسات الندوة، كان من أبرزها المستشرقة الايطالية الدكتورة ماريا نلّلينو، والطيار الفرنسي الرائد جول فيدرين الذي زار مصر سنة ١٩٢٨، وحيَّتـه ميّ بقصيدة من شعرها، حسبما ورد في مجلة الهلال:
(ولما قدم الطيار الفرنسي « فيدرين » إلى مصر ألّفت ميّ نشيداً بالفرنسية لاستقباله نشرته جرائد باريس الكبرى)[2].

كما زار ميّ في ندوتها القصصي الأميركي «هنري جيمس» وشقيقه العالم الفيزيولوجي «وليم جيمس»[3]، ووفدٌ من كتـاب الهند فـأعربت لهم عن اعجابها بطاغور، الشاعر العظيم، وحمّلتهم تحية اعجابٍ به واجلالٍ له. وفي ٣٠ من شهر نيسان سنة ١٩٢٣ بعث إليها أعضاء الوفد الهندي من كالكوتا رسالة هذا نصها:
(عدنا اليوم من زيارة طويلة لمدرسة طاغور «سانتينكتان - ميناء السلام» وطيّ هذا قصيدة انكليزية من الشاعر مهـداة إليكِ خـاصةً، واسمهـا: «طائر الصباح - Surul»)[4].

---

(١) الذين أحبوا ميّ - كامل الشناوي - ص: ١٤ - ١٥.
(٢) و (٣) الهلال - ج ٣٦ - عدد ابريل ١٩٢٨ - ص: ٦٦٠ - وجول فيدرين - JULES VEDRINES - هو طيار فرنسي رائد أوكلت إليه مهمات كبيرة ابان الحرب العالمية الأولى. واما نشيد ميّ فلم نعثر عليه في اي مكان.
(٤) الهلال - ج ٣٦ - عدد ابريل ١٩٢٨ - ص: (٦٦٠).

ونشرت الهلال نص القصيدة باللغة الانكليزية مشيرةً إلى أنها رمزية، وهذا نصّها مترجماً للعربية بقلم الأستاذ أمين ألبرت الريحاني:

طائر الصباح

طائر الصباح يغرّد

متى كان الطائر بشير الصباح قبل طلوع الفجر؟.

ومتى كان الليل يحضن السماء برياحه الباردة؟.

قل لي يا طائر الصباح،

كيف وجد رسول الشرق طريقه إلى أحلامك،

وسط الليل، وعبر السماء، وأوراق الأغصان؟

لم يصدقك العالم حين بكيت،

دنا موعد الشروق وولّى الليل هارباً

فاستيقظوا أيها النيام!

ارفعوا رؤوسكم بارتقاب أول شعاع

لتحظوا ببركة الأنوار،

وتغنّوا مع طائر الصباح

فرحين بنعمة الإيمان!

ربندرانات طاغور

وللأستاذ عبد المنعم شميس مقالة قيمة عن ميّ أتى فيها على ذكر ندوة الثلاثاء، وذكر زيارة بعض الأساتذة والكتاب الهنود لها الذين حملوا للشاعر طاغور تحيات ميّ له، واعجابها بنبوغه، وإجلالها لرسالته فقال:

(إن طاغور، شاعر الهند الكبير، أرسل إليها رسالة شعرية باللغة الانكليزية فقال:

أيتها الناعسة أفيقي من نومكِ

وارفعي جبينك في ارتقاب الصباح)[1]

---

(١) مجلة «الجديد» ـ عدد ابريل سنة ١٩٨١.

توفيت والدة ميّ في أواخر شهر شباط سنة ١٩٣٢ بعد وفاة أبيها بثلاث سنوات ونصف السنة، وكان حزن ميّ عليهما بالغاً، فانفرط عقد الندوة، إذ آثرت صاحبتها العزلة عن الناس. ولكنها استأنفت نشاطها الأدبي بعد سنتين من الحداد، وأخذت تستقبل بعض الكتاب، بين وقت وآخر، وتعقد معهم جلسات تشبه الندوات الأدبية، كان منهم الأستاذ أحمد حسن الزيات، والدكتور أحمد زكي، والأستاذ مصطفى عبد الرازق والدكتور طه حسين، والدكتور فؤاد صروف. ثم اعتزلت ميّ مرةً ثانية في أواخر سنة ١٩٣٥ حين داهمها المرض النفسي بسبب استبداد الأحزان بها، ومشكلات عائلية نجمت بينها وبين أهليها، تفاقمت في تلك السنة وأدت إلى المأساة المعروفة التي حلّت بها في لبنان سنة ١٩٣٦.

قامت ميّ بدورٍ كبير للتوفيق بين الأستاذ الزيات والدكتور طه حسين سنة ١٩٣٥، في اثر خصومة فكرية اشتدت بينهما، فاندفعت لمصالحتهما لحرصها على توطيد أواصر الصداقة، وتصفية القلوب بين الكتاب. فلندع الأستاذ الزيات يحدثنا عن مسعاها الحميد الذي تكلل بالنجاح، في افتتاحية مجلته «الرسالة» التي نشرها بعنوان: «مجلس نادر»:

(نعم، مجلس نادر! وندرته في طبيعة الغرض منه، وشخصية الداعي إليه، وقيمة الجالسين فيه. كان الغرض منه اصلاح ما بين أخي طه وبيني، وكانت الشخصية الداعية إليه هي الآنسة الجليلة «ميّ»، وشخصية ميّ، في عصور الشرق الأخيرة نادرة! وكان الجالسون فيه الدكتور طه، والأستاذ مصطفى عبد الرازق، والدكتور أحمد زكي، والأستاذ محمد عبدالله عنان. وكان البهو المترف الذي سمرنا فيه قد انسجم بأثاثه، ونظامه، وألوانه، وضوئه، مع ذوق الآنسة الشاعرة، فكان نمطاً من الحديث الصامت أذكى المشاعر، وألهم الأذهان في الحديث الناطق.

قالت الكاتبة، وقد انتظمنا حولها عقداً كانت هي واسطته:

- «أرجو أن تكونوا شخصاً واحداً».

فقال لها الدكتور طه:

- «نعم، وتكونين أنت روحه».

وعلى ظرف هذا الخطاب، وبراعة هذا الجواب جرى سقاط الحديث، وكانت الآنسة تصرّف الكلام، وتساجل هؤلاء الأعلام ببديهةٍ حاضرة، ولقانةٍ عجيبة، فمثلت لي صورة من صور أولئك الأديبات اللواتي أنشأن، باستعدادهن للأدب، مجالس في عهوده الزاهرة، كسكينة بنت الحسين، والولادة بنت المستكفي بالله، ومدام دورامبوييه، ومدام جوفرين، وأترابهن، مِمَّنْ وَفَّقْنَ بين البلاغةِ واللغة، وبين الذوق والأدب، وبين الفن والسموّ، ثم وشّين ثقافة عصورهن بألوانٍ شتّى من أناقة العرض، وجمال الأداء، وحسن المبادهة. فقدّرت في نفسي مبلغ ما تفيده المرأة المثقفة في مناهج الأدب، ومظاهر الفكر، وقواعد السلوك، وأوضاع العرف، وقلت: مساكين نحن! إذا ظفر أدبنا بهذه المجالس، فأنّى تظفر مجالسنا بهذه المرأة؟.

وتشقّق الحديث عن صورٍ شتى من لفتات الذهن النشيط، ثم مسحت ميّ بيدها الساحرة ما كان بين الصديقين، فإذا الماضي يعود كله، وإذا الحاضر يذهب كله. وعلاقة هذين الصديقين علاقة نشأت مع الصبا، وتوثقت مع الزمن، فلما نال منها العهد المجرم، الذي نال من كل شيء، جزعت الآنسة الكريمة فيمن جزع، وظلت تتحيّن المناسبة لسفارة الوفاق والمودّة حتى تمّ لها ذلك ليلة الأمس!)[1].

ثم وجَّهَ الأستاذ الزيات خطاباً مفتوحاً للدكتور طه عبّر فيه عن تقديره له، وخطاباً لميّ قال لها فيه:

(عزيزتي الآنسة ميّ:

جزعتِ أوّل الناس لهذا الخلاف الواغل عن باعثٍ من طبعكِ، وسعيتِ للصلح هذا السعي النبيل، بدافعٍ من نفسك، كل هذا وليس بيننا

---

(١) الرسالة - السنة الثالثة - العدد ٨٣ - تاريخ ٤ فبراير ١٩٣٥ - ص: ١٦٠.

غير العلاقة التي يبرمها الأدب بين أهله على بُعد! فأنا أسجّل لك في «الرسالة» هذا الحب الغريزيّ للخير، والاخلاص الطبيعي للعلم، والايمان الصادق بالأدب، والجهاد المتصل في تأليف القلوب بالمودّة، وتثقيف العقول بالمعرفة، وتغذية النهضة الفكرية بالإنتاج الخصيب. واسمحي لي أن أبشّر أصدقاء «الرسالة» وقراءها بأنكِ قبلتِ أن تدخلي في أسرتها، وأن تحملي نصيبك من دعوتها، وذلك فضل آخر منك يضاعف الشكر لك، وفوز جديد للرسالة يجدّد الشكر لله)[1].

وينبغي أيضاً أن نذكر مأثرةً أخرى لمي في اجتماعاتٍ كانت تعقدها في بيتها هي في الواقع امتداد لندوتها، والخدمات الأدبية التي قدمتها فيها، وبرهان على مكانتها الكبيرة، ومواقفها الحميدة مع كبار معاصريها، فقد زوّدنا بتفاصيل تلك المأثرة الثانية الأديب البحاثة الأستاذ وديع فلسطين حيث كتب ما يلي:

(عندما صدرت الطبعة الأولى من ديوان «أنفاس محترقة» للشاعر محمود أبي الوفا، بمقدمةٍ للدكتور فؤاد صروف، طلع الدكتور طه حسين على قرائه في جريدة «الوادي» بمقالٍ نقديّ عاتب فيه «صروف» لاهتمامه بتقديم هذا «النظم»، وقال عن شعر الشاعر إنه خلوٌ من الشاعرية! ثم فتح صدر جريدة «الوادي» لنقاد ذلك العصر فنشروا فيها سلسلة من المقالات، عن هذا الديوان الجديد، اتسمت بالغلوّ في النقد والتجريح. ولما قرأت ميّ مقالة طه حسين هاتفته هو وفؤاد صروف، ودعتهما لزيارتها في موعدٍ حدّدته لهما. وفي يوم الموعد جاء طه حسين أولاً، فاستصحبته إلى شرفة المنزل ريثما يحضر فؤاد صروف. كان طه حسين يعاني ضيقاً بسبب فصله من الجامعة المصرية، فلم يكد يجلس في مقعده حتى انقبضت عضلات وجهه، وأخذ يتأفّف، ويعيد التأفّف في نقمةٍ على أولئك الذين أبعدوه عن كلية الآداب. فأرادت ميّ أن تسرّي عنه فردّدت على مسامعه قول الشاعر:

---

(١) الرسالة ـ السنة الثالثة ـ العدد ٨٣ ـ تاريخ ٤ فبراير ١٩٣٥، ص: ١٦٢.

أَوَدُّ أَضْحَكُ للدنيا فيمنَعُني
أن عاقبتني على بعضِ ابتساماتي

فوجم طه حسين ثم سألها:

- «ماذا قلت؟».

فأعادت رواية البيت، فقال:

- «لِمَنْ هذا الشعر؟ فلم يعرض لي من قبل».

فأجابت ميّ:

- «لواحدٍ من الشعراء، والشعراء كثيرون نحفظ شعرهم وننسى أسماءهم...».

فألحّ طه حسين في معرفة قائل هذا الشعر الجميل الذي ارتاحت له نفسه فقالت له ميّ:

- «إنه لمحمود أبي الوفا!».

واربدّ وجهه حين سمع اسم الشاعر الذي قسا عليه قسوةً شديدة، وحدث نفسه قائلاً: «ماذا يقول الناس لو نُقلت إليهم هذه الواقعة وهم الذين قرأوا حكمي الجائر على هذا الشاعر، في حين أن بعض شعره لم أسمع به من قبل؟» وطلب من ميّ أن تكتم هذا عن الناس، ولا سيما عن الشاعر نفسه، ولكنها قالت:

- «بشرط ألا أكتمه عن فؤاد صروف الذي كتب مقدمة الديوان، وناله ما ناله من نقدك...».

وفي تلك اللحظة دقّ جرس الباب وكان صروف هو الطارق فانضمّ إلى مجلس الشرفة، وأخذت ميّ تروي له ما وقع مستئذنةً في ذلك طه حسين.. وهكذا أصلحت ما تصدّع بينهما، وكفّ الدكتور طه عن حملة التجريح النقدية على الشاعر أبي الوفا التي تسرّع في قيادتها[1].

(1) الأديب - عدد تشرين الثاني سنة ١٩٧٢ - أحاديث مستطردة عن ميّ بقلم الأستاذ وديع فلسطين - ص: ٤٨ - ٤٩.

وهنالك فضل آخر لندوة ميّ في تعريف أدباء عصرها بعضاً ببعض، ومنهم، على سبيل المثال، أحمد حسن الزيات وانطون الجميّل. فقد ذكر هذا الفضل الأستاذ الزيات في سياق خطابه الذي ألقاه يوم انتُخب عضوا في مجمع اللغة العربية في ١٧ كتوبر سنة ١٩٤٩

(عرفت صديقي الجميّل سنة ١٩٣٤ وكان لقاؤنا الأول في دار صديقتنا المرحومة «ميّ»، وكانت هي التي دبّرت هذا اللقاء ودعتنا إليه إذ سَمِعَتْهُ مراراً يذكرني بالخير، ويؤثر «الرسالة» بالثناء، فجمعت بيننا، وقالت بلهجتها الأنيقة وهي تعقد المعرفة بيني وبينه:
ـ «إن كلاً منكما يعرف وجهه في الوجوه، ولكنه لا يعرف أن ذلك الاسم لهذا الوجه، ومن سعادتي أن تتمّ معرفتكما عندي»)[١].

وليس غريباً، بعد كل ما تقدّم ذكره، أن تحظى ندوة الثلاثاء باقبال الأدباء والشعراء المرموقين عليها، وبتقديرهم لها ولصاحبتها، فقد اعترفوا لها بالفضل، وسجّل المؤرخون من بعدهم مآثرها بالفخر فكتب الأستاذ محمود الشرقاوي يقول:
(ولم يُقيّض لأديبة في ندوتها كما قُيض لميّ إذ أوتيت من الخصائص والمزايا ما أعانها على تحقيق رغبتها في الاجتماع الأدبي. والحق أن ميّ بذلت الشباب والذكاء والاخلاص لندوتها الجامعة فكانت تضفي عليها من تألّق نبوغها، وصفاء نفسها، وسحر حديثها ما استهوى العقول، وأضاء جوانب النفوس، وأروى الظمأ إلى السعادة الروحية، وكأنها في الندوة نبعٌ فياض بالمحبة والثقة، والإنسانية المثلى، يستقي منه الزائر، ويستزيد في كل خطرة)[٢].

كما أنه ليس غريباً أن تستقطب كتاب العالم العربي وشعراءه من كل

---

(١) من وحي الرسالة ـ أحمد حسن الزيات ـ الجزء الثالث ـ ص: ١٥١.
(٢) ابراهيم ناجي الشاعر والانسان ـ محمود الشرقاوي ـ ص: ١٣٤.

مكان ، والضيوف الأجانب الذين كانوا يؤمّون القاهرة ، ويرغبون في الوقوف على ظاهرة فريدة من ظواهر النهضة الأدبية في الثلث الأول من القرن العشرين . وربما كان من أجمل ما أنشده شعراء النهضة في وصف ندوة الثلاثاء ، ووصف ميّ قصيدة الشاعر اللبناني الكبير شبلي الملاط التي مطلعها :

ألا حملوا إليكَ حديث ميٍّ   كأزهار الجنائن في شذاها ،
وهل رصدوا فرائِدَها الغوالي   كأبراجِ الكواكبِ في سماها ،
وهل طافوا بمكتبِها وحجّوا؟   هنالك ، في الكنانةِ ، منتداها![1]

---

(١) ديوان شبلي الملاط ـ ص : ٣١٨ .

حَياتها العائليــة

(الحب العــائــلي لا يتمكّن ويــدوم بــين
أعضاء الأسرة الواحدة إلا بالتبادل والوفاء.
ويزيد حب الابن لوالديه بما يأنسه منهما
من الاهتمــام بــه، والتضحيــة في سبيلــه،
والعطف عليه.

ميّ)[1]

قضت ميّ حياتها في كنف والديها مغمورةً بحبهما، بارّة بهما إلى أن توفي أبوها وهي في الثالثة والأربعين من العمر، ثم أمها بعده بثلاثة أعوام ونيّف. كانت حياة تلك الأسرة في مصر محفوفةً بالوجاهة والرخاء الماديّ بسبب نبوغ ميّ الأدبي ونجاح جريدة «المحروسة»، فأقامت في بيوتٍ جميلة، واستخدمت سودانياً يدعى «بشير» لابتياع الحوائج المنزلية، وإعداد الطعام تحت اشراف والدتها التي كانت ربة بيتٍ ممتازة. ولما تزوج بشير عام ١٩١٤ تعاقدت السيدة نزهة مع امرأته لمساعدته في عمله، فأقاما معاً في المنزل، ثم تعهدت بتربية

---

(١) المرأة الجديدة - ج (٢) - ص: ١٩ - من رسالة كتبتها ميّ الى جوليا طعمة عام ١٩٢٢.

الطفلة التي رزقا بها إلى أن شبّت وذهبت إلى الصعيد مع والدتها. ولقد ظلّ بشير في خدمة آل زيادة إلى ما بعد وفاة أم ميّ بثلاث سنوات.

كانت السيدة نزهة تتمنى أن تتزوج ابنتها ولكن ميٍّ كانت تُعرِض عن الزواج، فنشأ خلاف كبير بينهما عكّر جوّ الحياة البيتية فترة طويلة من الزمن. كانت أمها تعلم أن تعلقها بجبران هو السبب في رفضها كل خاطبٍ يتقدم إليها، فكانت تصلّي وتدعو ربها إما أن يأتي جبران إلى مصر ويتزوجها، وإما أن تسلو حبّه، وتُقبل على الزواج من رجلٍ يليق بها[1]. لقد تقدم لخطبتها انطون الجميّل، وخليل مطران اللذان ظلا عزبين مثلها، ورجال من مصر ولبنان متعددون، ولكنها كانت تجد لكل خاطبٍ علّة! كتب الأستاذ عباس محمود العقاد عن اعراضها عن الزواج ما يلي:

(... وكانت تتحدث قليلاً جداً عمن يخطبونها كأنها تعتذر لرفض الخطبة بعد الخطبة لغير سببٍ وجيه في رأي الأصدقاء الذين قد يلومونها على اعراضها الدائم عن الزواج. قالت مرةً لمن سألها عن شابٍ خطبها من أسرةٍ غنيّة، ذات لقبٍ، غير مقبول: «أتريد أن تناديني غداً باسم مدام **بعجور**...» ونحن نذكر اسم «بعجور» هنا بدلاً من اسم الأسرة الصحيح رعايةً لشعور أبنائها الأحياء. وخطبها طبيب لبناني فعاتبها صديق له لأنها ردّته بشيءٍ من الجفاء فقالت: «إنه لطيف.. لطيف لا خلاف، ولكن اللطف الذي قد يسميه من شاء تأنثاً لا يعجبني!» وخطبها صحفيّ ثرثار كانت تصفه بيبوسة المخّ! وتحدّث بعضهم عن فتياتٍ لاهياتٍ، متطرفات في الحرية الاجتماعية، وأبدى إشفاقه من فوات حظهن في الزواج بمن يناسبهن فقالت ساخرة: «ولكن هؤلاء وأمثالهن يا أستاذ هن اللواتي يُسرع إليهن الأزواج من الأكفاء، وفوق الأكفاء!...) [2].

كان الدكتور يعقوب صروف صديقاً كبيراً لميّ، وبمثابة الأب الروحي

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من بنتيّ خال ميّ السيدتين عبلة وسعاد معمّر.

(٢) رجال عرفتهم - عباس محمود العقّاد - ص: ٢١٤ - ٢١٥.

لها فشكت والدتها إليه تعنّت ابنتها برفض الزواج، واعتراضها على كل خاطب، ورجته أن يقنعها باتخاذ موقفٍ أكثر ليونة. قبل الدكتور صروف الوساطة وحدّث ميّ بالموضوع فكتبت إليه رسالةً في ٩ ـ ٧ـ ١٩١٨ أعربت فيها بصراحة عن رأيها بالزواج فقالت :

(يزعجني الكلام في مسألة الزواج إذا كنت أنا السبب والموضوع، ولكني على رغم ذلك أقول لك إني أرى الأمر على عكس ما تراه والدتي فلا نتفق في ذلك مطلقاً. شروطها أن يكون غنياً صحيحاً، ذا مركزٍ حسن: «الرجل الذي ترضاه مي»، وأنا لم أفكر بعدُ بالأمر جلياً، لكن لا يهمني الغنى، ولا المركز الاجتماعي، حتى ولا العائلة لأني أعلم أن من كان «رجلاً»، جاء بكل ذلك، وكانت جميع المراتب، وصنوف الثروة، طوع ارادته. وإذا ورث كل ما يعتبره الناس شرطاً للسعادة، ولم يكن «رجلاً» فَقَد كلَّ ما عنده عاجلاً أو آجلاً، أو أساء أسلوب التمتع به والاستفادة منه. وأنا أقدّس الحياة العائلية، وأحترم الزواج، وأودّ ايجاد السعادة في بيتٍ أدخله، وزيادة أسباب رغده وعظمته، وايقاد شعلة الفكر فيه لأن في ذلك حياتي وسعادتي، وإلا أشقيت نفسي والغير معاً، وهذا ما لا أريده مطلقاً. فالشرط الأوّلي عندي هو التفاهم، لأن به السعادة، وبدونه الشقاء، لكن والدتي تظن أني، مع الزمن، أغيّر أفكاري، وهذا ما نراه في المستقبل: لكني أعتقد عكس ما تظن.

إني أخرج سريعاً من هذا الموضوع الشائك، ويصعب عليّ أن أقول كل ما قلته، حتى إليك أنت. لن أتزوّج قط على غير رأي والديّ، ولكني أحفظ حق الرفض. فقد ترى والدتي رجلاً جامعاً في نظرها لجميع الصفات من جمالٍ وغنىً وصحة ومركز اجتماعي، وأنا لا أشعر نحوه إلا بقليلٍ من الاشفاق الباسم. وكل ما أطلبه ساعة لا يرضيني من يعجبها هو أن أترك وشأني سعيدةً في وسط كتبي وأوراقي)[1].

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٣ ـ ٤٤.

يوم كتبت ميّ هذه الرسالة كانت في الثانية والثلاثين من العمر ، وفي أوج شهرتها، وإننا نستجلي مما قالت تقديسها الحياة الزوجية، وحرصها على رضا والديها، وإصرارها على الإحجام عن الزواج ما لم تتوفّر فيه الشروط التي تُرضي جميع تطلعاتها. ربما تكون مثاليتها المفرطة في الحب والزواج أحد أسباب هذا الإحجام، وربما يكون غرورها وراءه بعد أن تألّق نجمها في الصحافة والأدب، وذاعت شهرتها نابغةً فريدةً في عصرها، ولكن الأرجح هو تعلّقها بجبران الذي تمثّلت فيه فارس أحلامها ، والندّ الذي يليق بها . ولقد تطرّق الدكتور منصور فهمي إلى موقفها السلبي من الزواج في إحدى محاضراته عنها فقال:

(أكان من اليسير على ميّ، وهي من وصل بها ذكاؤها، وذوقها وفهمها في العلم لتكون في المنزلة العليا بين ذوي الأقلام، ولتكون دائرةً لمعارف فوّارةً ، مائجة ، أن تجد لها القرين الملائم ، والرفيق الموائم الذي يتناسب ذوقه وعلمه وأدبه مع ذوقها وعلمها وأدبها، لكي يتحقق بينهما العدل في تبادل الحب والتقدير؟ إن المرأة تنزع بوحي فطرتها السليمة للحياة الزوجية، وتودّ لو استوفت نصيبها المقدّر من تلك الحياة وروابطها، على أنها تودّ لو يكون الشريك أبلغ منها حظاً في مقوّماته ومميزاته التي تتفق مع مقوماتها ومميزاتها. أفكان من اليسير أن تجد ميّ الطموح ذلك الصاحب بين تلك الوفرة من أهل الفكر والقلم ممن كانوا يجتمعون حولها في منتداها العامر؟ لعل الطموح، ولعل السعة في مجال التخيّر كلاهما كان يعطّل ميّ من أن تتخذ لها شريكاً في الحياة، وفي الزمن المناسب، حين كانت حاجتها الأنثوية تدعو إلى هذا الرفيق المشروع)[١].

وظلّت عزبة لانقضاء الزمن المناسب للزواج، وظل قلبها متعلقاً بجبران الحبيب المغترب الذي كان يعد بالرجوع إلى الشرق في رسائله ولا يفي!... ظنت أن العلم والأدب يغنيان المرأة عن الزواج، وظلت مصرةً على هذا

---

(١) محاضرات عن ميّ ـ منصور فهمي ـ ص: ١٨١ ـ ١٨٢ .

الرأي تصرّح به لأصدقائها وأقربائها، وقد قالت لزوجة عمها الكبير حنا زيادة عندما سألتها عن السبب في إعراضها عنه عام ١٩١٩: (لأنني اقترنت بالعلم والأدب، ولا أريد أن يلهيني عنهما شيء!) ويرى الدكتور فؤاد صروف أن من جملة الأسباب التي حملتها على رفض الزواج رواسب تجربة عاطفية فاشلة مُنيت بها في مطلع صباها يوم خطبها ابن عمها نعوم فانخدعت به وألغت الخطبة. ولا بد هنا من الإشارة إلى أنها كانت كاملة الأنوثة، متأججة العواطف ومولعة بالأطفال ولعاً شديداً. تجلّت تلك المشاعر في بعض مقالاتها الوجدانية، وباحت للسيدة ايلين داود، ابنة أخت الأستاذ خليل الخوري بندمها على رفض الزواج، والحرمان من إنجاب أطفال، وذلك في بيروت عام ١٩٣٨ بعد انجلاء المحنة عنها. قالت السيدة إيلين: (كنت اجتمع بميّ في منزل خالي خليل عندما استضافها في بيته بعد رجوعها من مصيف الفريكة بجوار فيلسوفها أمين الريحاني. وكنت أماً لطفل جميل هو بكري «مكرم» أُحضره معي لزيارة خالي وعائلته فأولعت ميّ به، وكانت ترجوني ألا انقطع عن تلك الزيارات معه، فتجلس وتضعه على حجرها، وتشمّ رائحته بنهمٍ، وتقبّل يديه مراتٍ متتاليات وتقول: «إن مكرم يا إيلين ملاك رائع. إنه عصفور ساحر، فإياك أن تأتي إلينا بدونه!». فسألتها ببراءة: «فلماذا لم تتزوجي ما دمت مولعة بالأطفال إلى هذا الحد؟ لو فعلتِ لكنت أنجبت مثله، وربما أجمل منه؟» فأجابتني وقد تجهّمت تعابير وجهها: «واحسرتاه على نفسي يا صديقتي الصغيرة! إني نادمة حقاً لعزوفي عن الزواج، وحرماني من نعمة الأمومة. كنت أظن أن العلم والأدب يغنيانني عن الحياة الزوجية، وكانت أمي على حق في معارضتي وإصرارها على ضرورة الإقدام على الزواج، رحمها الله. والمرأة يا ايلين خلقت لتكون أماً، وزوجاً مسؤولةً عن بيتٍ لها وأسرة، إنه دور مقدّس فرضته عليها الطبيعة، ومن الغباء الإعراض عنه!»[1].

---

(١) افادتنا بهذا الحديث السيدة إيلين داود زوجة الأستاذ عزيز رحال في لقاءٍ اجريناه معها بمنزل نسيبتها السيدة عبلة الخوري ببيروت في ٦ - ٥ - ١٩٧٧.

الأدب والعمل الصحفي في حياة مي لم يكونا هواية إنما حرفة وهبت لها عمرها كله، فقضته مع والديها، خاضعةً لهما، ولسيطرة أمها عليها خاصةً إذ كانت تحظّر عليها الخروج من البيت بمفردها، أو مع أصدقاء تودّهم ويودّونها، وإن كانوا في عمر أبيها. عاشت أسيرةً لتلك التقاليد العائلية والاجتماعية، تحت مراقبة أم قاسية إلى درجة تفوق التصوّر، تراقب رسائلها، وتحضر ندوتها، وتمنعها من ممارسة حقها بالاستمتاع بالحرية. الدليل على ما نقول هو تذمّرها من ذلك الأسر في إحدى رسائلها إلى صديقها الكبير الدكتور يعقوب صروف حيث كتبت في ١٢ ـ ٥ ـ ١٩٢١ ما يلي:

(...ولو كنت رجلاً، أي لو كان لي تمام الحرية بالسفر والانتقال لطلّقت القلم والقرطاس شهوراً أقضيها في خلوةٍ سعيدة على قمم لبنان، بعيداً عن منازع البشر وأحاديث الاجتماع، واللطف المزيّف الذي ما أكثر ما يختفي وراءه من الكره والحسد وحب الأذى! هنالك أعيش مغتبطة بين الأشجار والصخور، لا أحمل قلماً إلا لأكتب رسائل خصوصية على ورقٍ بلدي إلى «فولتير»[1] العربي أملأها معاكسةً، وتعبيراً، وإعزازاً... ولكني فتاة فقط، ومهما تحررت الفتاة بفطرتها وميولها فهي أبداً عبدة والديها لا تفعل غير ما هما فاعلان. كذا شاءت العادة، وشاء الاصطلاح!)[2].

ولقد عجزت ميّ عن كسر طوق ما سمّته «العادة» و«الاصطلاح» لعدة أسباب من أكثرها أهميةً خوفها من اغضاب والديها، وحرصها على نقاوة سمعتها في بيئة محافظة لا ترحم الفتاة أو المرأة المستقلة في تصرفاتها الاجتماعية والشخصية، مسلمةً كانت أو مسيحيةً، ولا سيما إذا كانت متفوقة يُشار إليها بالبنان!

وعندما نقرأ المقطع التالي من إحدى رسائل الدكتور يعقوب صروف

---

(١) المقصود هو الدكتور يعقوب صرّوف نفسه الذي كانت تمنحه ألقاباً مختلفة في رسائلها إليه.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٤٠.

إليها ندرك وطأة التقاليد الاجتماعية الصارمة على حياة النساء والرجال معاً في ذلك العصر:

(... أنا مسافر مع الدكتور «نمر»[1] إلى أطيانه صباح الأربعاء، بعد غدٍ، وسأجتهد حتى أراكم قبل سفري، اليوم أو غداً، وستكون غيبتي قصيرة بضعة أيام. أليس من الأسف الشديد أنك لا تستطيعين أن تذهبي معنا؟ هنيئاً للأوروبيين والأوروبيات الذين كسروا القيود القديمة الجائرة. تصوّري كم تكون غبطتنا لو ركبنا ثلاثة أفراسٍ، وجلنا في تلك الحقول الخضراء نرى غنى الطبيعة، ونتحدث في المواضيع التي ألفناها، ويلذّ لنا الحديث فيها. نرى الشعر في الطبيعة فنسمعه ونلمسه، وننظر في عجائب الخلق فنمجّد خالقها. كثيراً ما قلت أنا والدكتور نمر إننا لو لم نتعلم لغات الأوروبيين، ونطالع كتبهم، ونطلّع على أساليب معيشتهم لكنا أنعم بالاً منا الآن ونحن لا نستطيع أن نجاريهم في كل شيء!)[2].

وكذلك لم تكن لمي صديقات تلتقي بهن، من حين إلى آخر، للترفيه عن نفسها بوسائل التسلية الطبيعية من نزهاتٍ ومزاحٍ، بعيداً عن جوّ الكتب، ومواضيع العلم والفلسفة لأنها وقفت نفسها على العلم والأدب، والاتصال بأعلام عصرها، والحياة البيتية مع والديها دون غيرهم من الناس! كان تأثرها بالبيئة التي نشأت فيها في البيت والمدرسة كبيراً فقد درجت على ممارسة الطقوس الدينية طول حياتها، ترافق أمها إلى الكنيسة في أيام الآحاد، وتؤمن ايماناً عميقاً وصفه الأستاذ العقاد بقوله: (كان عندها شعور بالتبتّل العميق في سليقتها الدينية)[3]. وكتب الأستاذ أمين الريحاني في هذا الموضوع فقال: (حتى الظلم، في أبشع صوره، لم يفقدها إيمانها بالله!)[4].

---

(١) الدكتور فارس نمر هو المقصود، أحد مؤسسي المقتطف والمقطم مع الدكتور صرّوف.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٩.

(٣) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ٢٢١.

(٤) قصتي مع ميّ ـ أمين الريحاني ـ ص: ٢١.

ولكن ايمان ميّ كان خالياً من التعصّب لأي دينٍ أو مذهب، فأعربت عن رأيها بالدين بقولها:

(اعتقد أن الدين علاقة سريّة بين الخالق والمخلوق. أعتقد أن كل امرىء يلاقي نتيجة أفعاله ولا يتحملها عنه أحد. اعتقد أن الله منح البشر حريتهم فعلى كل منهم أن يرى وجهة الخير أمامه، ويعبد ربه كما يشاء)[1].

كما أبدت رأيها بالصلاة فقالت: (لا أعرف شيئاً أجمل وأسمى من الصلاة في أي دينٍ من الأديان لأنها ترفع النفس إلى أعلى درجات الارتقاء للدنوّ من روح الحياة الكبرى. إنها مناجاة العابد للمعبود، وشكر المخلوق للخالق، واستعطافه لاستنزال عطاياه. إلا أني لا أستحسن الصلاة الآلية المستطردة على وتيرةٍ واحدة دون أن يشترك فيها العقل والقلب)[2].

اشتدّ حنين ميّ إلى خالها الحبيب بولص معمّر الذي كان يقيم في فلسطين مع زوجه «راضية صهيون» وأولاده السبعة فأغرته بالانتقال إلى مصر لتأنس هي وأمها بقربه، وهيأتا له مركز عمل ممتاز ضمن اختصاصه بشؤون المحاسبة الإدارية في مكاتب آل «لطف الله» الأثرياء في القاهرة. فنزح من فلسطين إلى مصر مع عائلته عام ١٩٢١، وبعد أن أقام في فندق «انترناسيونال» بضعة أيام استأجر بيتاً في جزيرة بدران بشبرا، إلى جانب كنيسة الموارنة[3]. ثم ألحق أولاده بمدارس القاهرة بفضل مساعي ميّ التي سجلت فتاتيه الكبيرتين عبلة وسعاد في مدرسة «البيزانسون». ولقد تفتحت عيونهما على حبها والاعجاب بشخصيتها أثناء سكناهما القاهرة حتى عام ١٩٢٩. كانت تصحبهما مع أخوتها في سيارةٍ لها مكشوفة من نوع «سانبيم»

---

(١) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٤٦.

(٢) سوانح فتاة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٥٦.

(٣) جميع المعلومات الواردة في هذا المقطع مستقاة من احاديث السيدتين عبلة وسعاد معمّر الشخصية عبر لقاءات متعددة معهما في بيروت. ويجد القارىء نبذة تاريخية عنهما في فصلٍ من فصول هذه السيرة عنوانه: (أهلوها ومنبتها).

ابتاعتها عام ١٩٢٥ للقيام بنزهات جميلة أيام الآحاد، ثم تستضيفهم لتناول طعام الغداء في البيت، وتبتهج بمحادثتهم وملاعبتهم. وكثيراً ما سمعوا عزفها على البيانو والعود، وصوتها الرخيم بالغناء في جلسات عائلية ذكّرت الأسرة بالليالي الماضية الحسان في الناصرة وحيفا. ولكن الانطباع الذي رسخ في ذاكرة بنتيّ خالها عبلة وسعاد عنها هو مسحة من الحزن كانت تشوب ابتسامتها، وآثار إرهاقٍ ظاهرةٍ في وجهها! كانت ميّ في الواقع كئيبةً في قرارة نفسها، تصطنع الفرح أحياناً مع أولاد خالها، وتمارس هواياتها المحببة، في أوقات فراغها القليلة، كالعزف على آلات الموسيقى، والتطريز، وترتيب البيت والمكتبة، ثم تنزوي للمطالعة والكتابة. فالمظاهر الخارجية لحياتها المحفوفة بالتكريم والتبجيل في المحافل الأدبية كانت تختلف عن واقع حياتها البيتية مع أبوين فخورين بها، ولكنهما عاجزين عن تفهّم مشاعرها الحقيقية. لقد حمّلت نفسها عبئاً أدبياً وثقافياً واجتماعياً أرهقها إلى درجة الإضرار بصحتها ما بين عام ١٩٢١ و١٩٢٧ حيث كانت تلبي طلبات الهلال والمقتطف والأهرام المتلاحقة لتزويدها بالمقالات والأبحاث، وطلبات الجمعيات الخيرية والأندية الأدبية لتقديم المحاضرات لها، وتستقبل الأدباء والشعراء كل يوم ثلاثاء في ندوتها الأسبوعية ، وتؤلف الكتب ، وتقوم بنشاطات أدبية مختلفة ككتابة الرسائل، وتهيئة الاحتفال باليوبيل الذهبي للمقتطف الذي استغرق إعداده بإشرافها أكثر من سنة! وها هي تصف ارهاقها آنذاك في خطابٍ بعثت به إلى السيدة جوليا طعمة:

(... أبطأت في مخاطبتك لكثرة ما تراكم عليّ من أعمالٍ فكرية جعلتني أتمنى أن يبعث الله إلينا بيشوع عصريّ له من السلطة على الأجرام، ومن قوة السحر الإلهي ما يوقف مسير الشمس قبيل الغروب! فإن عثرتِ على مثل هذا الكائن العجيب اطلبي إليه، رحمةً بي، أن يعتني بأمري، ويزيد نهاري عشر ساعات أخرى على الأقل!)[1].

---

(١) المرأة الجديدة - ج (٢) - ص: ١٩.

وكتبت إلى الدكتور يعقوب صروف في ١٢ ـ ٥ ـ ١٩٢١ تشكو إليه تعبها:

(. . . أختصر ما أمكن لأني أصبحت، بعد صداع الأمس، وعيني حمراء، عليلة. أتعلم أني جاءتني رسالة البارحة من صديقي وصديقك جبران يخبرني فيها أنه مريض بسبب الاجهاد: «اضطراب عصبي سببه الإجهاد»، فخلتني منذ تلك الساعة سائرة حتماً إلى ذلك لكثرة ما أُسرف من قواي)[١].

وكتبت إلى الأستاذ جبر ضومط في ١٤ ـ ٦ ـ ١٩٢٢ تعتذر عن تقصيرها بمراسلته لأنها كانت «ضحية العمل العقلي في هذه السنة»[٢] فردّ عليها يقول:

(. . . أعود فأذكر أنك كنتِ، كما ذكرتِ ضحية العمل في هذه السنة، فاذكري أنك لستِ بعدُ لنفسِك، فلا يحق لك إذن أن تكوني ضحية ارضاء الآخرين، مهما كانوا أعزاء عليك)[٣].

إن ما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن الإسراف في العمل كان الوسيلة الوحيدة لهروب ميّ من صراعها مع نفسها في تلك الفترة من حياتها حيث كانت صلتها العاطفية بجبران تتأرجح بين الجزر والمدّ، وتوقعها بالحيرة. كما كانت، في أسلوب حياتها، تضيق ذرعاً بالضغط المفروض عليها اجتماعياً مما زادها كبتاً، وانطواءً على الذات. لقد وجدت في المطالعة والكتابة المتنفّس الوحيد لها فغالت فيهما إلى درجة الارهاق لسدّ فراغٍ كبير في حياتها، وهي المرأة الغربية في ثقافتها، المتحررة في تفكيرها، التي قضت عمرها شرقيةً في سلوكها وأحاديثها وتصرفاتها. ولهذا كتب الأستاذ سلامة موسى يقول إنها

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٤٠ ـ اما رسالة جبران المنوّه بها فهي منشورة في «الشعلة الزرقاء» ص: ١١٥ ـ ١٢١ من الطبعة الأولى، والصفحة ٩٣ ـ ٩٧ من الطبعة الثانية.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٩٢.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٩٥.

(تعيش عيشة الغربيين في مظهرها، تتزيا بزيّهم، وتفكر تفكيرهم، ولكن قُدّر لها أن توجد في وسط شرقيّ، وللتقادير أحكام!) ولم يكن الدكتور فؤاد صروف مغالياً عندما قال إنها سبقت عصرها بخمسين عاماً!.

قامت برحلات متعددة إلى لبنان وسورية وفلسطين وأوروبا، وكانت تصطاف في لبنان كل عام تقريباً، ما عدا سنوات الحرب العالمية الأولى، ثم زارت ايطاليا وسويسرا وفرنسا حيث اكتشفت حضارة الغرب العمرانية والفنية والثقافية التي تمثّلتها، وأضحت الرحلة إلى أوروبا، منذ عام ١٩٢٢ متعة كبيرة في حياتها. جميع رحلاتها إلى لبنان وسورية، ورحلتها الأولى إلى الغرب كانت بصحبة والديها، ولكنها قامت بثلاث رحلات إلى فلسطين بمفردها: الأولى عام ١٩٢٣، والثانية عام ١٩٢٤ والثالثة عام ١٩٢٥ للاستجمام، وزيارة الأراضي المقدسة. ذكر الأستاذ ابراهيم سليم النجار زيارتها لمدينة القدس مع قافلة من الحجاج الايطاليين في مقالة نشرها في جريدة المكشوف روى فيها ذكرياته مع ميّ فقال:

(في سنة ١٩٢٣ جاءني في القدس رسول بكتاب افرنسي يقول: «وصلتُ هذا الصباح إلى القدس مع قافلةٍ من الحجاج الايطاليين ونزلنا في كازانوفا، فاسأل عني في الغرفة رقم ٢٥ لأني أودّ أن أراك». وكان التوقيع: «صاحبة الغرفة ٢٥». فأجبت على الرسالة ووعدت الرسول بالحضور، واحترت في من تكون السيدة المتكتمة، القادمة مع قافلة الحجاج الايطاليين. وشدّ ما كانت دهشتي عندما جئت الدير ورأيت أن هذه السيدة هي ميّ! أخبرتني أنها أحبّت زيارة القدس، وحدث أن مرّت هذه القافلة بالقاهرة فصحبتها. عرضت عليها رغبة بعض الأدباء في الاجتماع بها فأبت واعتذرت لضيق الوقت، ونظام القافلة، فألححت فقبلت، ودعوت لزيارتها مساء ذلك اليوم عشرين أديباً بينهم السكاكيني، وروحي عبد الهادي، وبعض كبار الأساتذة والقضاة فتحدثوا إليها، وتحدثت إليهم ساعتين. وإني لأذكر أنها

أخذت تتكلم عن كل جديدٍ فتعلّق الحضور على شفتيها وهي تتحدث بقوة الحجة، وخرج الزائرون معجبين بأدب فتاتنا التي نسأل الله لها الصحة والعافية)(١).

وقامت بالرحلة الثانية إلى فلسطين في صيف عام ١٩٢٤ بعد اصابتها بوعكةٍ صحيةٍ نوّهت بها والدتها في رسالتها المخطوطة إليها التي كشفت لنا أموراً هامة كنا نجهلها. والرسالة، كما يلحظ القارىء من الصورة المنشورة عنها، مليئة بالأخطاء اللغوية والعبارات الدارجة باللهجة المصرية، وهذا نصّها حرفياً نقلاً عن الأصل:

(عن مصر في ٢٥ِ اغسطس ١٩٢٤

فلذة كبدي ماري: [الكامل]

وصل الكتاب كتابكم فأخذته ولصقته من حرقةٍ بفؤادي

من أين لي قلمك السيال يا ميّ لأشرح لك عن ما ألّم بنا بعد فراقك من الوحشة والفراغ. وحياتك أننا نرى البيت فارغ فراغاً هائلاً كأن لا يوجد به أنيس ولا جليس فأنتِ أنت النور الذي يضيء لنا في هذه الحياة المظلمة. إنني اغبطك يا عزيزتي على سياحتك هذه الجميلة، ولو كانت متعبة، وستأتي الراحة بعد التعب، أتمّ المولى نعمه عليك، وأرانا وجهك السعيد على خير.

هنيئاً لك يا عزيزتي لزيارتك الأراضي المقدسة التي عطّرتها أنفاس الناصريّ الذكية، وبلّت ثراها دماؤه الطاهرة.

---

(١) المكشوف ـ ج (٤) ـ العدد ١٣٩ ـ تاريخ ٢١ ـ ٢ ـ ١٩٣٨.

يا لها من بشرى عظيمة اقترابك من مائدة الرب. كم سكبت من دموع الفرح، ودموع الشكر لله، وسألته عزّ وجلّ أن يثبتك في الخير، ويحسن مستقبلك، ويتمّ نعمته عليك. من خمسة عشر يوماً والحر هنا شديد جداً، وفي الليل أكثر من النهار، وهذه ما يسمونها الصيفية القصيرة.

تغيير الهوى ضروري لك جداً يا عزيزتي. ابقي بقدر ما تشائين فقط لاحظي صحتك، واحترسي من البرد، خصوصاً برد الليل. وإذا كان حاصل لك قلق خذي مسهل ينفعك جداً نظراً للتعب الذي تعبته. صلّي لأجل والديك في المحلات المقدسة، خصوصاً على القبر المقدس، وواصلينا بأخبارك السارة لأننا بانتظارها الساعة والدقيقة. لا تخرجي بسيارة أم بعربية وحدك. اذكري ما أخبرك به الدكتور صروف عن بناته وبنات الدكتور نمر ماذا عمل معهم السواق. والدك صحته جيدة جداً، كذلك والدتك فقط أفكارنا عندك، ودعواتنا ترافقك أينما حللتِ. بشير[1] بخير يسأل خاطرك، والبسابس[2] مبسوطين الاثنين البيض نزلوا للجنينة وهم يروحم ويجم إنما الأصغر لا أدعه يخرج خوفاً عليه لأنك تحبينه. إنني أحفظ الجوابات[3] والجرائد التي ترد لك وإذا كنت تريدين أن أرسلهم لك أخبريني. الجوابات من فرنسا.. وبالختام نلثمك مراراً. ونقبلك تكراراً، ودمتي سالمة لوالديك المفتخرين بك.

والدتك: نزها زيادة)

---

(١) السوداني الذي يقوم بخدمة الأسرة.

(٢) أي: القطط.

(٣) أي: الرسائل.

عن مصر في ٢٥ أغسطس ١٩٢٤

فلذة كبدي ماري

وصل الكتاب فتأخر ما احدثه
وصفحة من جريدة بغدادي

منذ ابتدأ حملكم الثقال يا أختي لا ارتاح لكم
عن ما الم بنا سعد فنقلت منه الوحشة القلق
وحياتكم اننا نرى البيت فارغ فارغاً جائعاً
كأن لم يوجد به انس ولم يجلس فأنت أنت
النور الذي يضيء لنا في هذه الحياة المظلمة.
انني اعطيك يا عزيزتي على سماحتك هذه
الجميلة ولو كانت صعبتهم وشتاً قاتلاً ارحم
بعد النفس اتم الملك نعمه عليكم وانا
وجهك السعيد على جسد
هنيئاً لك يا عزيزتي لقد رأيتك الارض

التي عطرتها انفاس الناصري الذكية
وبللت نداها وماؤه الطاهر
بالنهار منه شيء عظيمة امتلأت منه مائدة
الرب ثم سكبت منه دموع الفرح ودموع
الشكر لله وسألته عز وجل ان يشكره
في الغد ونحن مستقبله ويتم نعمته علينا
منه خمسة عشر يوماً والحر هنا شديد جداً
وفي الليل اكثر منه النهار وهذه ما تجوزنا
الصفحة القصدة
تغيير الهوى ضروري لكم جداً يا عزيزي
ابني نعيد ما نشأت منظر لاحظي صحتكم
واخشى منه البرد خصوصاً برد الليل
واذا كان حاصل لكم قلق خذي مسهل
بنفعكم جداً نظراً للتعب الذي تعبته
على الاجل ولدينا في المحلات المقدسة
خصوصاً على القبر المقدس وواصلنا

باخبارك السارة لدينا بانتظارها الطيبة
الساعة والدقيقة لا تخدعي بسياسة
ام سعدية وحدك اذكري ما افكر
به الدكتور محمود عنه بناته وبنات الدكتور
ماذا عمل معهم الشوق ولدي صحته
جيدة جدا نذكرك والدنيا منتظرانا ايضا
عندك ودعوتنا نأمل لو انها حملت
بشر بخير شأن خاصتك والناس
مسرورين تؤمنين البيض نذلها للجنة؟
وهم يروحون ويجيئون اما الاصغر لا داعي
يخرج خوفا عليه لا نحب تحية
انني احضر الجلابات والجلابيب التي تريدها
واذا كنت تريدين انه ارسلها لك اخبريني
الجلابات منه فورا . . وبالختام نلثمك
مرارا ونقبلك تكرارا ودمتي سالمة لوالديك المحبين لك
والدتك
مها رسالة

إن تحذير والدتها لها من التنقّل وحدها ، وتخويفها من عواقبه يدعو للاستغراب ، ويدلّ على سلطان أمها عليها ، وأثر عقليتها السيء في إضعاف ثقة ميّ بنفسها وبالناس !.. كما أننا ندرك من العبارات المتعلقة بالقطط ولع ميّ بالحيوانات الأليفة ، والقطط خاصة ، فقد كانت لها قطة جميلة في طفولتها إفتقدتها كثيراً بعد مغادرة الناصرة إلى عينطورة للدراسة فيها ، فذكرتها في قصة كتبتها بعنوان « الحب في المدرسة » إنتحلت فيها إسم « شجيّة » فقالت :

(... وأسندت شجية رأسها إلى خشب البيانو مغمضةً عينيها، ودموعها تسيل على خدّيها، شاعرةً بأنها وحيدة، كئيبة، مريضة، تودّ أن تنام ولا يزعجها أحد ، أو شيء ، إلا القطة الجميلة التي اعتادت مداعبتها في البيت . لو كانت هنا ! ولكن ، هل تصحب البنات القطط معهن إلى المدرسة؟)[1].

كما كان لها في مصر عصفور «كناري» اعتنت به واستأنست كثيراً فمات ذات يومٍ ورثته بمقالة عنوانها: «دمعة على المغرّد الصامت»[2].

أما رحلتها الثالثة إلى فلسطين فقد أشار إليها الأب أنسطاس الكرملي في رسالةٍ بعث بها إليها من يافا في ٦ـ ٦ ـ ١٩٢٥ فقال: (لا يمكنني أن أصف لك فرحي بزيارتك إياي لأني غير مستحق لها، فإنك غمرتني بها فضلاً لا يمكن أن أنساه)[3].

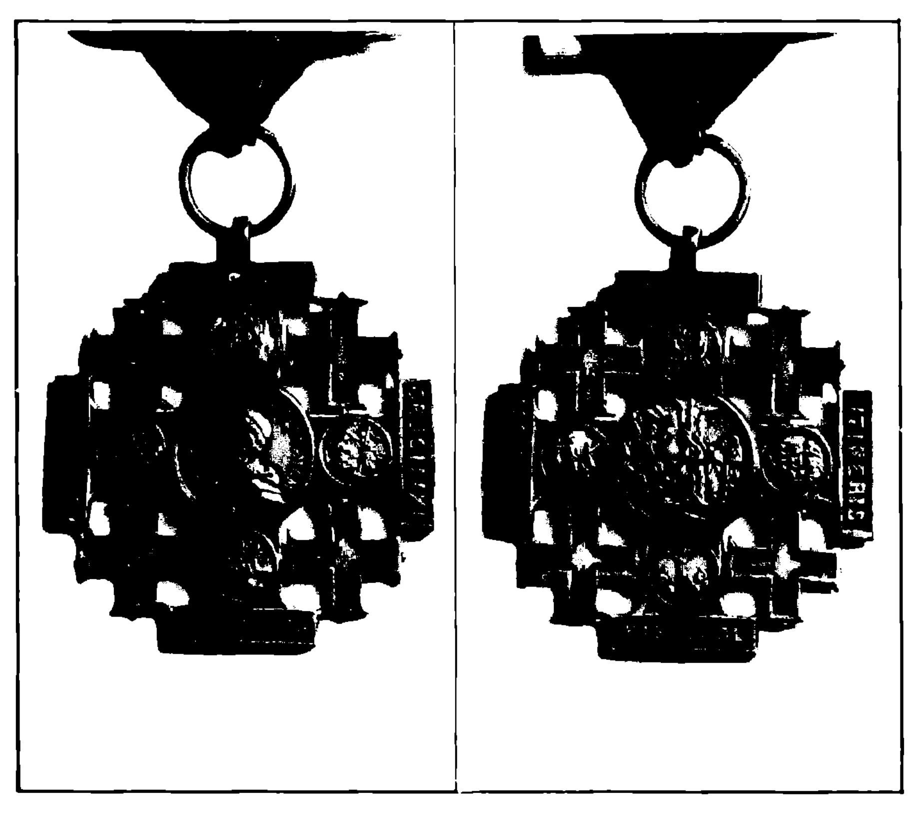
رجعت ميّ من تلك الرحلة لتقوم برحلةٍ أكبر إلى أوروبا حيث أقامت بضعة أسابيع في روما تزور معالمها الأثرية، وتتصل بأصدقائها المستشرقين والايطاليين ، فأتيح لها أن تقابل قداسة البابا فزارته مرتديةً عباءةً بيضاء وكوفية

---

(١) الهلال ـ عدد تشرين الثاني ١٩٣٤ ـ والمكشوف عدد شهر أيار ١٩٣٨ .
(٢) ظلمات وأشعة ـ ميّ زيادة ـ ص: ٣٣.
(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٩١ .

وعقالاً! أهداها الأستاذ محمد كامل شعيب العاملي، أستاذ الآداب والفلسفة في دار المعلمين ببيروت، ديوانه «الحماسيات»، وصورته بالزي العربي، بعد رجوعها من ايطاليا، فكتبت إليه رسالة في ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩٢٥ تقول:

(لك الشكر الخالص على اهدائي صورتك، ولا حاجة بك إلى الاعتذار عن الزيّ العربي فهو يروقني، ويعجبني أن أتزيّا به كما يعجبني أن أراه. والشاهد أني حظيت بمقابلة قداسة البابا في روما وأنا بالكوفية والعقال، وبرداء أبيض أشبه ما يكون بالعباءة البدوية)[١].



الوسام البابوي الذي أهدي إلى ميّ.

(١) مجلة الفكر العربي - ج (١) - العدد (٣) - ص: ١٢

ومما يجدر بالذكر أن البابا بيوس الحادي عشر قد منحها وساماً تقديراً لخدماتها الثقافية ونبوغها هذه صورة له من جانبيه[1].

استمرت حياة ميّ العائلية في كنف أبويها على هذه الوتيرة تكتب وتحاضر وتدير ندوة الثلاثاء الأسبوعية وتقوم برحلاتٍ ترفيهية إلى أن داهمتها المصائب المتتالية بوفاة والديها وجبران ما بين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٢. ولقد عاشت بعدهم حزينةً، وحيدةً، ومنغّصة لتردّي الصلات بينها وبين أقرب أقربائها في مصر وفلسطين ولبنان. سبق أن ذكرنا أن خالها بولص معمّر الذي كان أحب الناس إليها، والذي قدم إلى مصر مع عائلته عام ١٩٢١ للسكنى فيها قد غادرها عائداً إلى فلسطين عام ١٩٢٩ إثر خلافٍ نشب بينه وبين والدتها، فعكّر ذلك الخلاف الجو العائلي في بيتها، وآلمها الاضطرار إلى قطع الصلة به، ويوم رجع خالها إلى مصر عام ١٩٣١ لم يسأل عنها، ولا عن أخته نزهة بعد وفاة الياس زيادة، وكأنهما غريبتين لا يعرفهما، ولم يسمع بوجودهما. كما أشرنا سابقاً إلى الفوارق الكبيرة على الصعيدين الفكري والاجتماعي بينها وبين أبناء عمها الكبير حنا: الياس واغناطيوس اللذين كانا يعيشان في مصر، واسكندر المعروف باسم الخوري يوسف، المقيم في «شحتول». كانت العلاقات بين ميّ وبينهم وبين زوجاتهم جافةً، مقتصرة على التزاور في المناسبات الكَبيرة منذ زمنٍ بعيدٍ، وقد ازدادت تأزماً بعد وفاة والديها بسبب إرثها من أبيها إذ كانت أملاك « الياس زيادة » وإخوته في قرية شحتول مشاعة بينهم. ولا ريب في أنهم كانوا ينظرون إلى ميّ التي نبغت في مصر، واحتلت مكانة مرموقة في المجتمع والصحافة والأدب نظرة القريب المغمور إلى قريبِهِ المشهور التي لا تخلو من الحسد.

---

(١) لقد حظينا بالعثور على هذا الوسام ولسوف نقدمه، مع ما عثرنا عليه من أمتعتها الشخصية ومخطوطاتها الى لبنان في احتفالٍ بتدشين متحفٍ لها فيه إن شاء الله!

أصدقاؤها ومحبّوها

(جُنّنا بليلى وهي جُنّت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها!)

التقت بشخصية ميّ الأصالة والمعاصرة، وتعانق في مزاياها الشرق مع الغرب، العلم مع الأنوثة، الجاذبية مع الموهبة الفنية مما جعلها قبلة الأبصار، ومهوى القلوب. نعم لقد عشق ميّ بعض أدباء العربية وشعراؤها الذين عرفوها، والتفوا حولها في ندوتها الأدبية الأسبوعية عشقاً روحياً، وكان هؤلاء الرجال، على اختلاف أعمارهم ونزعاتهم، مبهورين برقتها وفتنتها، معجبين بنبوغها وعذوبة حديثها، فتغزلوا بها، وتباروا في إطرائها. (كان ظهورها بينهم كظهور زنبقة بريّةٍ رائعة في صحراء قاحلة... وهذا السناء الباهر الذي شعّ من روحها السامية هو المسؤول عن تهافت أدباء عصرها على عتبة قلبها!)[1] كما كتب الأديب أسعد حسني. والواقع الذي يثبته أكثر من دليل هو أنهم تساموا في مشاعر الحب والاعجاب التي حملوها لميّ، بدون استثناء، وأنها (بقيت محافظة على عذريّة قلبها، متنسكةً في دير الاعجاب، تغتذي بالقراءة،

---

(١) مجلة العالم العربي - ميّ أو قصة العروس التي زفوها الى الف حبيب - عدد مايو ١٩٥٥ - ص: ٦.

وتستكفي بالمناجيات الأدبية، وتقنع بالمطارحات الوجدانية)[1] كما قال الأستاذ وديع فلسطين. أما الأستاذ فتحي رضوان فقد كتب ما يلي:

(لم تكن ميّ رجلاً في ثياب امرأة، بل كانت امرأة حتى أطراف أصابعها، وقد استطاعت بأنوثتها الناضجة، ولطفها الأخاذ وأسلوبها الفريد في الحياة أن تكون مصدر إلهام رجال كثيرين أحبوها، وأسرفوا في الحب، وظنوا جميعاً أنها أحبتهم فأسعدهم هذا الظن، وحرّك وجدانهم، فأسدوا إلى الأدب العربي خدماتٍ، وأضافوا إليه صحفاً باهرة، الفضل فيها راجع إلى ميّ التي عاشت وحيدةً، وماتت في عزلة موحشة)[2].

ولا ريب في أن تأريخ الأدب العالمي مدين، عبر العصور، للكتاب والشعراء الذين أخفقوا في حبّهم لأن إخفاقهم هو ما أذكى مواهبهم الابداعية التي نستمتع بجمالها وسحرها.

وهذا الأستاذ توفيق الحكيم، الذي عاصر ميّ من غير أن يعرفها شخصياً، يبدي رأيه في هذا الموضوع بدافع استنكاره لمسلسل «العملاق» المشوِّه لصورة العقاد وصورة ميّ، فيقول:

(لم يثبت لميّ أية علاقة عاطفية بينها وبين أحد في مصر! كانت موضع اهتمام الرجال بها، وانبهارهم بشخصيتها وثقافتها الواسعة، وما قيل من أنها على جانب كبير من الجمال، في إطار الاحترام والمحافظة على كرامتها، مع لطفها مع كل المدعوين في صالونها بدون أن يبدو منها ما يسيء إلى سمعتها، وإلا كانت قد انتشرت عنها اشاعات سوء في كل مكان... وهذا ما لم يحدث قط مما يدلّ على أنها كانت «فعلاً» بعيدة، كل البعد، عن كل ما يخدش سمعتها، وسمعة صالونها، لذا كانت محلّ احترام الجميع)[3].

---

(١) مجلة «الأديب» ـ من مقالة الأستاذ وديع فلسطين حول كتاب محمد عبد الغني حسن: «ميّ أديبة الشرق والعروبة». عدد ديسمبر سنة ١٩٦٤.

(٢) عصر ورجال ـ فتحي رضوان ـ ص: ٣٣٨.

(٣) مجلة آخر ساعة ـ من حديث توفيق الحكيم الى الكاتبة علا المستكاوي ـ عدد ٢١ ـ ١ ـ ١٩٨١ ـ ص: ٤٤.



ميّ زيادة

كان عشاقها وأصدقاؤها، وهم صفوة أدباء عصر النهضة وشعرائه، يجهلون تعلّقها بجبران، إلا واحداً هو العقاد، وكانوا يعرفون جيداً أنهم يجالسون أديبة شديدة التحرّز والتكتم، عفيفة النفس، غالية الكرامة،

تحترم نفسها وتحترمهم، فبقوا على ودّها محافظين، وبصداقتها معتزين، وبحبها سعداء، سواء أكان حباً أبوياً أم عذرياً، أم روحياً إلى أن بعثرهم القدر، كلٌ في طريق. . .

ميّ والعقاد:

أما الأستاذ عباس محمود العقاد، الذي طاب لأصحاب الأقلام الخيالية التأكيد على أنه هام بميّ وأنها هامت بحبه، واجتمعت به في لقاءات سريّة[1]. . . فقد أفاض في الحديث عن ندوتها، ووصف روادها وموقفها منهم في كتابه: «رجال عرفتهم»، ثم تساءل:

(أكل هؤلاء عشاق؟.

وعلى كل من هؤلاء ينبغي لميّ إذا أجابت أن تجيب جواب المحبوبة التي تتقبل العشق ممن يدّعيه؟

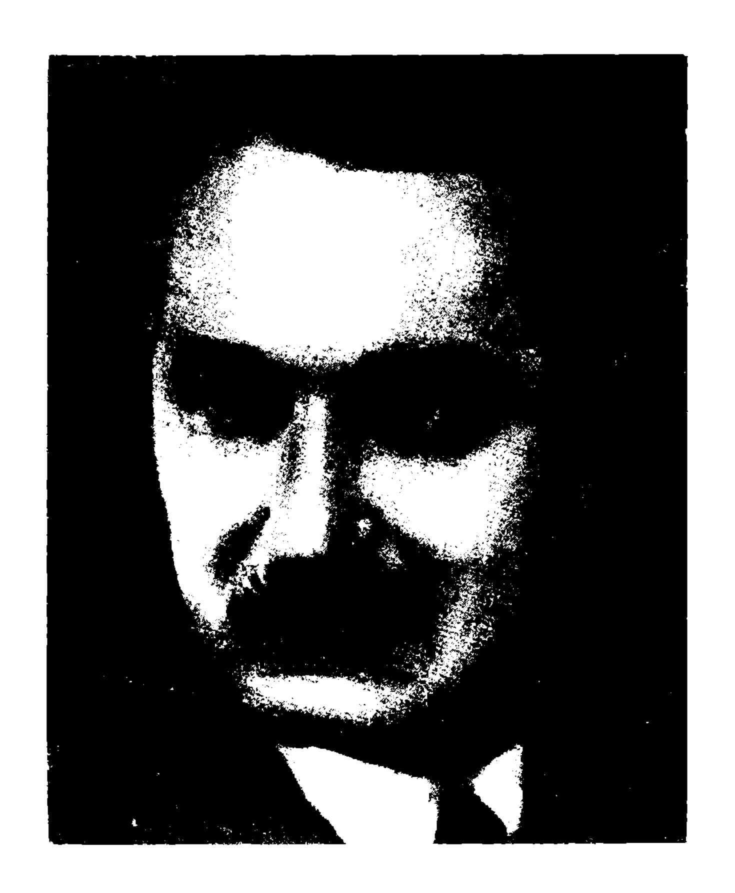
هذا هو الخاطر العاجل الذي يسبق إلى الوهم كلما ذُكرت تحيات الرسائل، أو القصائد أحياناً، من غير واحدٍ في هذه الزمرة المختارة.

وهذا هو الخاطر الذي تصحّحه لمحة سريعة أيضاً إلى طبيعة الندوة، وطبيعة التحية «العرفية» التي تناسبها، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن، إن لم نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية. وإن فات مياً أن تتقبل هذه التحيات، أو وجب عليها أن تصدّها بالعبوس، والغضب فليست هي زيارة «ندوة» إذن. . ولكنها زيارة واحدة قد تنتهي، كما تبتدىء، على باب الدار. وهذا هو تأويل الرسائل والقصائد على أسلوب الفن العاطفي، أو العاطفة الفنية بين صاحبة الندوة، وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار)[2].

---

(١) هذا ما ذكره ظلماً وافتراءً عامر العقّاد في كتابه التجاري عن عمه العظيم الذي جعل عنوانه: «غراميات العقّاد»، فردّدته أقلام بعض الصحفيين نقلاً عنه!

(٢) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقاد ـ ص: ٢١٠ ـ ٢١١.



عباس محمود العقاد

كانت علاقة الأستاذ العقاد، «الكاتب الجبار» كما كان يسميه سعد زغلول بميّ علاقة صداقة غرامية ـ Amité Amoureuse من النوع الجميل والمألوف في الروابط الودية بين الرجل والمرأة عندما تجمع الظروف بينهما، ويؤلّف الفكر بين قلبيهما، ولا سيما في حال التكافؤ بينهما في السنّ، وفي التربية. تعرّف إليها في سنة ١٩٢٠ يوم دعته للانضمام إلى ندوتها، وكان يومئذٍ في الواحدة والثلاثين من العمر، لأنه من مواليد ١٨٨٩، في حين كانت هي في الثالثة والثلاثين منه[1]، فأعجب بأدبها وثقافتها، وقوة حجتها في

(١) ذكر عامر العقّاد في كتابه «غراميات العقاد» ص: ٤٤ أن عمه عباس محمود العقّاد =

المناقشة، وأدهشته بحديثها العذب، وأنوثتها الفياضة، ومعـرفتها العميقـة بالفنون والشعر، وبراعتها في إدارة الجلسات، فوجد فيها فلتةً من فلتات العبقــريـة. ومنــذ ذلـك اليــوم أضحى من رواد نـدوتهـا الأسبـوعيــة المثابرين،وتولّدت بينه وبينها الفة ومودة، وصداقة حميمة تطوّرت إلى حبٍّ روحيّ عند العقاد باعترافه هو، وظلت صداقة قوية، والفة ومودّة عند ميّ التي كان قلبها مشغولاً بحبّ جبران وحده دون سائر الرجال! لقد اعترف العقاد بأنه أحب في حياته كلها حبّين في وقت واحد: حباً عنيفاً لامرأة فاتنة، حرّة في تصرفاتها أسماها «سارة» في روايته المشهورة، وحباً عفاً لميّ الكاتبة المثقفة الجميلة، المقيدة في تصرفاتها، المنطوية على نفسها التي أسماها «هند» في الرواية ذاتها. واعترف كذلك بأن حبه لسارة وحب سارة له أدى إلى صلات عاطفية وجنسية نعم فيها وشقي، في حين أن حبه لميّ قام عـلى الاعجاب والتقدير لمواهب الفكـر، ومجالي الـروح، ورقة الـطبع، ورفعـة التهذيب. فلندعه يصف لنا بقلمه صفات كل واحدة من هاتين الحبيبتين في هذه الرواية التي لا تعدو عن كونها سيرته الذاتية العاطفية ، فقد كتب في أحد فصولها ، وموضوعه : « حُبّان » ما يلي :

(لقد كانت سارة وهند مثالين من الأنوثة متناقضين: كلتاهما أنثى حقاً، لا تخرج عن نطاق جنسها، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحلّ محلّ الثانية، وتوشك أن تزدريها. ماذا أقول؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبساً من طبيعة الأخرى لولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها ، فتسمح للتمني أن يستحيل إلى نفور . فإذا كانت سارة قد خُلقت وثنيّة في ساحة الطبيعة، فهند قد خُلقت راهبة في دير من غير حاجة إلى الدير!!.

= عرف ميّ وهو في السابعة والعشرين من العمر وانها كانت يومئذ في الحادية والعشرين منه... وهذا خطأ من جملة الأخطاء التي وقع فيها، ولا سيما ان العقّاد قد أثبت وجوده في ميدان السياسة والأدب سنة ١٩١٩!!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود، ثم توشيها بطلاء الذهب، وترصّعها بفرائد الجواهر.

الحزن الرفيع، والألم الغزير شفاعة عند هند مقبولة إذا لم تكن هي وحدها الشفاعة المقبولة. أما عند سارة فالشفاعة الأولى، بل الشفاعة العليا هي النعيم والسرور...

تلك يومها جمعة الآلام، وهذه يومها شمّ النسيم!.

تلك تشكو ويخيّل إليك أنها ذات أرب في بقاء الشرور، وتستديم بها معاذير الشكوك، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيباً فوق نصيبه من الحلوى..

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت في السلك السياسي، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديماً في حاشية أمير مفراح!

كلتاهما جميلة، ولكن الجمال في هذه الحصن الذي يحيط به الخندق، أما الجمال في سارة فكالبستان لا حاجز دونه، وهو كالماء النمير، هو جزء من البستان لا حاجز دونه، وهو للعبور أكثر منه للصدّ والنفور.

تلك ذات طموح وهمم، وهذه تحسب الواقع الذي يوائمها خيراً وأشهى من كل مطمعٍ، وكل همة...

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف...)[1].

وهكذا نرى أن العقاد لم يدع مجالاً للشك في قسوة ميّ على نفسها، والتزمّت المفرط في طويتها، والكبت في سلوكها الاجتماعي والعاطفي. لقد

---

(١) سارة ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ١٧١ ـ ١٧٧ من الطبعة الثانية.

أعطتنا هذه المقارنة بين هند وسارة لوحةً حيةً لميّ المرأة الرازحة تحت قيودٍ موروثة، وقيودٍ أخرى فرضتها على نفسها أدهى وأمرّ، والتي كانت أيامها «جمعة الآلام!» ومع ذلك كانت امرأة كاملة الأنوثة، موحية بالحب، ملهمة للأدباء والشعراء، الشباب منهم والشيوخ، وبقيت حبيبةً على قلب العقاد الذي شغف بشخصيتها ومزاياها، وبقي وفياً لها، غيوراً على مصلحتها، باراً بصداقتها، شديد الخوف عليها من عواقب مغالاتها في التحرّز والاحتراس.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو كيف كانت ميّ تقابل العقاد في ندوتها، وبِمَ كانت تشعر نحوه في قرارة نفسها؟ إن ما نتلمّسه عن سلوكها معه، من خلال أحاديثه وكتاباته عنها، هو أنها كانت تودّه وتؤثره على غيره من أصدقائها، وتعتزّ بصداقته وزمالته، وترتاح إليه، وتخشى عليه من عواقب مقالاته السياسية العنيفة التي كان ينشرها في جريدة «البلاغ»، ويهاجم فيها عبد الخالق ثروت باشا، وبعض الحكام، بلا هوادة. لم يكن العقاد يجتمع بها إلا في ندوتها إذ كان يقضي جلّ أوقاته بين الجريدة والبيت، ورحلات خاطفة إلى مسقط رأسه في أسوان، فكان يكتب إليها الرسائل العذبة التي لم تكن تخلو من غزل رقيق. وكانت ميّ تقابل غزله المحتشم بإيماءة لومٍ من إصبعها عندما يؤم ندوتها، دون الإشارة إلى تسلّم رسائله.. فقد اعترف بحديثٍ إلى الأديبة جاذبية صدقي (أنه كان يستخدم مع ميّ، إذا ما اختلفا في الرأي، واحتدم الخلاف بينهما، طريقة واحدة: كان ينتظر مبادرتها بالحديث! ويترقّب منها الاعتذار إذا ما كانت متجنيةً عليه، فيذوب الخصام بينهما في الحال)[1].

كما ذكر الأديب البحاثة الأستاذ وديع فلسطين، في إحدى مقالاته، أنه اقترح على العقاد أن يكتب مقالاً: بعنوان «موضوعي، كيف أختاره» فنُشر المقال الذي كان يتضمن عبارة عن ميّ حُذفت منه، هذا نصّها: (ولا حرج اليوم من الاعتراف بأسلوب من أساليب الاختيار، لم يكن يخطر على بال أحد، عن

(١) مجلة القلم السودانية ـ العدد الثامن ـ سبتمبر ١٩٦٧ ـ من مقال عنوانه: «ذكرياتي مع العقّاد».

الحملة على بعض الطغاة المرهوبين لأننا كنا على ثقة - بعد كل حملة - من دقّ الهاتف، والاستماع إلى صوت إحدى الأديبات الناصحات بالتقيّة والتخفيف. . . فإذا طال العهد بالاستماع إلى ذلك الصوت، فالمقالة الأولى على أشدّها وأقساها تصيب الطاغية الذي اشتهر بالنقمة العاجلة بين زمرته القابضين على زمام الأمور. . . وقد يكون حقيقاً بها، وبما هو أشدّ منها، ولكنه لا ينال حقه كله في جميع الأوقات رعايةً للنصيحة المشكورة، على كرهٍ منا، ثم تحين الفرصة، في كل لحظةٍ نريدها، لتوفية الرجل حقه، وانتظار الهاتف الذي طال به عهد الانتظار. . .)[1].

ما أجمل اعتراف العقاد بشغفه بميّ، وتشوّقه لسماع صوتها العذب، واصطناع الفرصة لسماعه! هذا هو حبّ العقاد لميّ، وهذا هو حبها له، فمثلما كانت تمثّل له الحب العلويّ الشفاف، وتلهمه أجمل القصيد إن غاب عنها، أو سافرت إلى الغرب، كان هو يمثّل لها الحب السامي المنزّه عن كل غرض. لقد كانا عملاقين في دنيا الصحافة والأدب والثقافة والنهضة، وكان لكل منهما من الحفاظ على القيم الأخلاقية، والأنفة والشموخ واحترام الذات ما يعصمهما عن الانزلاق في هوّة النزوات الشهوانية الطائشة. وكان يحلو لميّ أن تغيظ العقاد، على سبيل المداعبة في مجلسها، فتنتهز فرصة إثارة موضوع إجتماعي عن زواج فلانٍ بفلانة مثلاً، عقب المطارحات الأدبية، وتصرّ عليه للمشاركة في الحديث، متخابثةً لإحراجه! فقد أتى على ذكر هذه الحادثة فكتب يقول:

(. . . وقد كانت «الحشمة الصعيدية» لا تفارقني بحكم العرف الذي نشأت عليه، وكنت أشهد مجلس والدي في صباي فلا أسمع خبراً من هذه الأخبار التي تدور على الحريم ، وكل ما يتصل به من سرٍّ أو علانية ، فإذا عرض اتفاقاً، فإنه يعرض ليصرف على الأثر، ولا يُعاد إليه. . وكانت ميّ، رحمها الله، مولعةً بالإلحاح عليّ في هذه الأحاديث خاصةً وهي تنظر إلى

(١) مجلة «الأديب» - عدد ديسمبر سنة ١٩٦٤ - ص: (٥١).

تحرّجي من الخوض فيها نظر الحضري إلى الريفي «الخام» القادم من القرية صباح يومه...)[1].

وإذا كان يظهر في رسائله إليها التي نشرها ابن أخيه عامر العقاد في كتابه: «غراميات العقاد» بعض الغزل الرقيق مع الاحترام الشديد فعلى أي شيء استند الكاتب ليؤكد أن ميّ كانت بعمه مشغوفة، وبحبه متيّمة؟ أين رسائلها إليه التي (كان يكفي لحسم الموضوع نشر خطاب واحدٍ بخط ميّ - وليس فقط بحروف المطبعة - ليعرف الناس مدى العلاقة بينها وبين العقاد، وهو ما لم يحدث حتى الآن، وخط ميّ معروف جداً، وانشاؤها الأدبي ولغتها العربية مما لا يمكن تقليده)[2]. كما قال الأستاذ توفيق الحكيم في حديثه للصحفي كمال الملاّخ حول مسلسل العملاق الذي زيّف التاريخ، وتجنّى على أعلامه!.

وقد روى العقاد في روايته «سارة» أنه كان يلتقي بميّ أحياناً فيذهبان معاً إلى دور السينما، فما هو الضرر، تُرى، في أن يذهب هذان الصديقان إلى مكانٍ عام معاً؟ فأورد ابن أخيه الخبر في كتابه المشار إليه، وعلّق عليه ليلقي الشك بسلوك عمه وسلوك ميّ في نفوس القراء، وليدهشهم برواية عن غراميات عمّه «العملاق» التي تفوق غراميات «دون جوان» فقال:

(... ففي ذهاب الآنسة ميّ إلى دار السينما، الموجودة في حديقة إحدى الكنائس بحي الضاهر بالقاهرة، وقت الأصيل، قبل بداية العرض بمفردها، وانتظارها العقاد فيها أمر لا يثير الشك فيمن يراها تقصده، لا سيما وأنها كانت تعتنق العقيدة المسيحية، وذهاب الفتاة المسيحية إلى الكنيسة أمر عادي لا يستغربه أحد...)[3].

---

(١) رجال عرفتهم - عباس محمود العقاد - ص: ٢١٤.

(٢) الاهرام - ٦ - ٢ - ١٩٨١ - من مقالة بقلم كمال الملاخ عن: «توفيق الحكيم وكلمة أخيرة عن العملاق والكاتبة ميّ».

(٣) غراميات العقّاد - عامر العقّاد - ص ٥٤ - ٥٥.

كما أنه لم يتورّع عن تزييف الحقائق، وأن يرسل الكلام على عواهنه فيمحو وجود جبران خليل جبران من حياة ميّ، وحبها الكبير له، ويعزو المقالات الوجدانية التي كتبتها من وحي هذا الحب ومنها: «أنت أيها الغريب» و«نشيد إلى ينابيع روما» إلى حبّها الذي توهّمه لعمّه العملاق!! فيقول: (والذي نرجّحه أن مياً كانت تقصد بذلك «الغريب» عباس العقاد الذي يعيش في القاهرة غريباً عن الأب والأم، وبينه وبين بقية أسرته آلاف الأميال التي يقطعها القطار في يوم وليلة... ولا سيما وكانت العلاقة بينهما في هذه الفترة قد امتدّت شوطاً كبيراً...)[1].

كما نقل عامر العقاد الحادثة التي رواها الأستاذ العقاد نفسه في روايته سارة فكتب ما يلي: (وهي الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها، ففوجىء بها، وتوقّع منها عتباً تبدّى له في صمتها واضطرابها وقولها له: «لست زائرة ولا سائلة!» قال: «إذن؟» ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم، وانحدرت من عينيها دمعتان. فما تمالك نفسه أن تناول يدها ورفعها إلى فمه ليقبلها فمانعته، ولم تكفّ عن النظر إليه. ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفةً وهي تتمتم هامسةً: «دع عنك يدي ودعني!» وانصرفت بعد أن سكن جأشها، وزال من صفحة وجهها أثر الدموع)[2]. ولا بد من الإشارة إلى أن الأستاذ العقاد أورد هذه الحادثة مستغرباً موقف ميّ منه، وهو حقاً موقف غريب، وعلّق عليه بقوله: (لو جاءت هذه الزيارة و«همام» في بداية علاقته بسارة لما كان بعيداً أن تقضي على تلك العلاقة، وأن تصبح سارة عنده اسماً مغموراً في عالم النساء)[3] والواقع هو أن زيارة ميّ جاءت في إثر تورّطه بحب سارة الذي شغله قليلاً عن تفقّدها؛ لذا أضاف يقول، في

---

(١) غراميات العقّاد ـ عامر العقّاد ـ ص: ٥٤.

(٢) و (٣) سارة ـ عباس محمود العقاد ـ ص: ١٦٩ ـ ١٧٠، واما اسم «همام»، بطل الرواية، فهو الاسم الذي انتحله العقاد لنفسه في روايته.

روايته أيضاً، إنه لم يشعر بتأنيب الضمير، فمضى بحبه لسارة لأن علاقته مع «هند» أي «مي» لم تكن ارتباطاً عاطفياً يفرض عليه الانقطاع عن معاشرة النساء لأنه كان حراً في حياته العاطفية، ولأن ميّ كانت تعرف ذلك. ولو علم الأستاذ العقاد بأن ألوذ الناس به، وهو ابن أخيه عامر أحمد محمود العقاد، سينسج بعد موته رواية غرامية مثيرة عن علاقته الشريفة بميّ، وعلاقتها به ، وأنه سيفتري على سمعتهما معاً ، رحمهما الله ، لاستنكف عن ذكر هذه الحادثة في روايته «سارة» التي أوضح فيها تزمّت ميّ في الحب، وبراءتها من التورّط فيه، سواء معه أو مع غيره!.

لقد قال العقاد شعراً جميلاً بميّ ، ربما كان من أجمل شعره ، فكان يكنيها تارة باسم « هند » وأخرى باسم « حسن » ومنه قوله بعد أن أهدت إليه ساعة يد :

أرى قيدَيْك في قلبي وزندي
فنعم الأسرُ من حبٍّ ورفدِ،
أحب هديةً ما كان فيها
دليل الحب في قربٍ وبُعدِ
تعدّ الوقت إما غبتِ عني،
وتحكي القلب في خفقٍ ووعدِ،
وأنساها، وأنسى كل وقتٍ
يدور بها إذا أمسيتِ عندي،
هي التذكار حين أروم ذكراً،
وأنتِ، إذا حضرتِ، بلاغ قصدي

وكتب إليها وهي تزور روما : [الرمل]

أنتِ في روما وفي مصر أنا
بَعُدَتْ شُقَّتُنا لولا النجاء

أنت يا حسنُ، وهل أنت سوى
حلم في يفظةِ القلب أحناء؟

ولما كانت عروس شعره وأحلامه أنشد يقول:

أعروس أحلامي وملهمتي
معنى الحياة وفتنة السحر
أدعوكِ دعوة عابدٍ وصبٍّ
يزجي الصلاة لمريم الطهر،
كوني، إذا ما شئت، منعمةً
حوريتي في مقبل العمر!

وكتب إليها، حين عزته بموت أخيه «مصطفى العقاد» غرقاً:

تبكينَ! والهف الفؤاد يذيبهُ
ذاك الحنين يذوب في خَدَّيْكِ
أيراكِ باكيةً وأنت ضياؤه،
ونعيم عيشي كله بيديكِ
لو أستطيع جمعت كل ذخيرةٍ
في الدهر من ضحكٍ يروق لديكِ
ونغّمت أطرب شدوه، وجعلته
بين الكؤيس العذب من شفتيكِ
فيضجّ مزدهياً بفيك، وتنتشي
فرحاً قلوب الناظرين إليكِ
ما أحسن الحسن المهذّب ضاحكاً،
وأحبّ جلباب السرور عليكِ!![1]

---

(١) ديوان أشجان الليل ـ عباس محمود العقّاد ـ الطبعة الأولى ـ ص: ٢٩٥ ـ وقد ذكر =

ولا بد لنا من قول كلمة أخيرة عن صلة العقاد بميّ التي أثارها مسلسل «العملاق» وهو أن الأقلام الشريفة انبرت في مصر وسائر الأقطار العربية للدفاع عنهما، بعد ظهوره على شاشة التلفزيون سنة ١٩٨٠، واستنكرت تحريف الحقيقة، وتلفيق الأحداث، والغدر بعلمين من أعلام النهضة بعد أن أضحيا في ذمة الله! لقد كتب رجاء النقاش يقول: (بدت ميّ في هذا المسلسل عاشقة رخيصة تتحكّم فيها عاطفة سطحية حتى أصبحت ـ والعياذ بالله ـ وكأنها من أبطال أفلام الدرجة الثانية المصرية العاطفية التي تقوم على المبالغة والافتعال. فهذه صورة غير صحيحة، ولا يمكن أن تكون صحيحة لأن ميّ استطاعت في الثلث الأول من هذا القرن أن تنشىء صالوناً أدبياً يتّجه إليه أعظم أدباء العصر ومفكريه، واستطاعت أن تحظى باحترام الجميع وتقديرهم ومحبتهم، كما استطاعت أن تحافظ على كرامتها في جميع الظروف. ولو كان العقاد حياً لرفض هذه الصورة المرسومة لها في هذا المسلسل الهزيل)[1].

ووضعت الكاتبة آمال فريد الأمور في نصابها، فأوردت آراء معاصري العقاد وميّ التي تنفي أية علاقة غرامية مشينة بين هذين العملاقين ثم قالت: (كانت ميّ تبادل بعض الشخصيات أرق عواطف الاعجاب، وفي مقدمتهم العقاد، لكنها كانت تعتبر نفسها «زعيمة» لا يليق بها أن تتردّى فيما يتردّى فيه غيرها من النساء. أما العقاد فلم يكن الرجل الذي يلهث وراء النساء، وهذا ظاهر في نثره وشعره حينما كان يتحدث صادقاً عن شعوره نحو الجنس الآخر، وكذلك كانت ميّ)[2]. وقدّم الأستاذ محمد خليفة التونسي دراسة

= عامر العقاد في كتابه «غراميات العقّاد» ص: ٨٠ ان عمه سجل مشهد دموع ميّ يوم قابلته في مكتبه في هذه القصيدة، في حين أنه أرسلها اليها بعد ان تسلّم منها رسالة تعزية بغرق أخيه.

(١) مجلة الدوحة ـ قطر ـ عدد فبراير سنة ١٩٨١ ـ ص: ٢٤.

(٢) مجلة الهلال ـ عدد فبراير ١٩٨١ ـ ص: ٨٠.

قيمة، موثّقة، نشرها في جريدة القبس الكويتية بعنوان (أبلغ تكريم لذكرى العقاد كتابة تاريخه بأمانة وصدق). صحّح فيها مغالطات كثيرة وردت في كتابيّ عامر العقاد: «لمحات من حياة العقاد المجهولة» الذي صدر سنة ١٩٦٨، و«غراميات العقاد» الذي صدر سنة ١٩٧١، ووردت بعد ذلك في كتب طاهر الطناحي، ومن حذا حذوهما من الصحفيين، وصحّح كذلك تاريخ لقاء ميّ بالعقاد، والفارق في العمر بينهما، وكتب يقول: (كان العقاد، كما عرفناه مباشرةً خلال معاشرة اثنتين وثلاثين سنة مثلاً عالياً في الوقار والرصانة ورعاية الحرمات، والحرص على كرامته في كل موقف إلى حدّ الصرامة. وكان يبدي لميّ اعجابه بها، ومودّته لها في خطاباته إليها فكان يراسلها بالنثر والشعر، ونظمه فيها أحرّ عاطفةً من نثره لأنه يحتمل ما لا يحتمل النثر، كما تدلّنا رسائله إليها، ومراجعة ديوانه الرابع «أشجان الليل» وديوانه الخامس: «وحي الأربعين»[1]. ومن ثم قال عن ميّ: (لقد افترى على ميّ كثيرون اتهموها بحبها هذا وذاك وذلك، والذين عرفوا أخبار ميّ من مصادرها الصحيحة، ونفذوا من وراء ذلك إلى أخلاقها وسرائرها يجزمون بأنها كانت «قدّيسة»، وكانت في تصرفاتها تحرص أشدّ ما تحرص القديسة على طهارة ظاهرها وباطنها. ولا شك في أن القديسات، ومثلهن القديسون غير مبرّئين من نزعة الحب الذي لا سلطان لصاحبه عليه، فإنهم من لحمٍ ودمٍ، يخامرهم كل ما يخامر البشر من خواطر، ولكنهم يكبحون أهواءهم عن أن تحوم حول أصغر الحرمات. ومن كانت مثل الآنسة ميّ تسيطر عليها وساوس التطهّر فلا بد أن تكون أبعد من كل ريبة. ولكن ذلك لا يمنعها من أن تخلص في صداقتها لأحد حتى تظن أن هذه الصداقة حباً، وأن يتّسع عقلها وتعاطفها مع كل من حولها فتقابل المودّة منهم بالمودّة، بل تقبل ما يشبه ذلك من تلميحات غزلية، وتغفرها لصاحبها سماحةً وعطفاً، وحرصاً عليه، حتى يرتدع عن محاولاته التي يمليها عليه ضعفه من جانب، واعجابه بها من جانب

---

(١) جريدة «القبس» ـ الكويت ـ العدد ٣١٢٥ ـ تاريخ ٣ ـ ٢ ـ ١٩٨١ ـ ص: (٩).

آخر، ويبقى كل من الطرفين حيث هو، قريب بعيد، كأنهما الخطان المتوازيان لا يلتقيان، مهما امتدّا!)[1].

هذا هو الكلام الفصل في هذا الموضوع عن الجانب العاطفي في حياة ميّ الذي استأثر باهتمام عدد كبير من الكتاب والصحفيين منذ نصف قرن ، وما زال يغري أقلامهم بتجيير الفصول ، وسرد الروايات . . ولا بد من الإشارة إلى أن الأستاذ العقاد شارك ميّ في أحزانها، بعد موت والديها وجبران، وكان الصديق الوحيد في مصر الذي أطلعته على ما نابها من اضطهاد أبناء عمها لها وإلحاحهم بمقاسمتها تركة أبويها، فنصحها باستشارة محامٍ كبير من أصدقائه، كما بيّنا في فصل: «أحزانها وبداية مرضها»، ثم كانت آخر زيارة قام بها لتفقدها سنة ١٩٣٥ يوم مرضت ووقعت فريسة الوساوس، فقد ذكر العقاد تلك الزيارة في المقدمة التي كتبها لكتاب طاهر الطناحي عنها سنة ١٩٦٢ وعنوانه: «الساعات الأخيرة»، ووصف تسلّط الخوف والأوهام عليها بحرقةٍ، ولم يرها بعد ذلك إلى أن ماتت سنة ١٩٤١ . وكانت قد ردّت إليه رسائله، ورفضت مقابلته، بعد رجوعها إلى مصر سنة ١٩٣٩ في إثر انتصارها على أقربائها الذين اتهموها بالجنون، لشدّة عتبها عليه، يقيناً منها بأنه كان في جملة الذين صدقوا اشاعة جنونها، ونسوها في محنتها. لقد حزن العقاد عليها حزناً بلغ درجة التفجع، وكان أحد الذين شيعوها إلى مثواها الأخير وهم يغصّون بالدموع، كما رثاها في حفلة تأبينها بالقاهرة بقصيدة خماسيّة مؤثرة للغاية، أجهش بالبكاء مرتين في أثناء قراءتها يومذاك، وعنوانها: «آه من هذا التراب!»:

سائلوا النخبة من رهط الندى
أين ميّ؟ هل علمتم أين ميّ؟

---

(١) جريدة القبس ـ الكويت ـ عدد ٣ ـ ٢ ـ ١٩٨١ ـ ص : (٩).

الحديث الحلو، واللحن الشجيّ
والجبين الحرّ، والوجه السنيّ
أين ولّى كوكباه؟ أين غاب؟

أسف الفن على تلك الفنون
حصدتها، وهي خضراء، السنون
كل ما ضمته منهن المنون
غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات، ويأس، وعذاب

أتراها بعد فقد الأبوين
سلمت في الدهر بين شجوٍ وبين
وأسى يظلمها ظلم الحسين
ينطوي في الصمت عن سمعٍ وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب

رحمة الله على «ميّ» خصالا
رحمة الله على «ميّ» فعالا
رحمة الله على «ميّ» جمالا
رحمة الله على «ميّ» سجالا
كلما سُجّل في الطرس كتاب!

تلكم الطلعة ما زلت أراها
غضة تنشر ألوان حلاها
بين آراءٍ أضاءت في سناها،
وفروع تتهادى في دجاها
ثم شاب الفرع والأصل غاب،

غاب والزهرة تؤتي الثمرات،
ثمرات من تجاريب الحياة
خير ما يؤتى حصاد السنوات
بعثرتهن الرياح العاصفات
ورمتهن تراباً في خراب
ردّ ما عندك يا هذا التراب
كل لبٍّ عبقريٍّ أو شباب
في طواياك اغتصابٌ وانتهاب
خلقاً للشمسِ أو شُمٍّ القباب
خلقاً لا لانزواءٍ واحتجاب
وَيْكَ! ما أنت برادٍّ ما لديك،
أضيعُ الآمال ما ضاعَ عليك
مجد «ميّ» غير موكول إليك،
مجد «ميّ» خالص من قبضتيك
ولها من فضلها ألف ثواب![1]

(كما أن للعقاد فصلاً في كتابه (أنا) عن فلسفته في الحب بسط فيه رأيه، وحلّل مشاعر المحبين فقال وليس الحب بالشهوة لأن الإنسان قد يشتهي ولا يحب ، وقد يحبّ وتقضي الشهوة على حبه! وقد يخلو الحب من كل شيء إلا من شيء واحد وهو الاهتمام)[2].

---

(١) ديوان أعاصير مغرب ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ١١٢ .
(٢) «أنا» ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ١٨٧ ـ ١٩١ .



إسماعيل صبري باشا

ميّ واسماعيل صبري :

« كان اسماعيل صبري من شعراء الطبقة الأولى في عصر النهضة ، ومن شيوخ الإدارة والقضاء، درس الحقوق في فرنسا، وعُيِّن محافظاً للاسكندرية. كان شديد الحياء، كثير التواضع، يكتب الشعر على هوامش الكتب والمجلات، فينشره أصدقاؤه خلسةً... كما كان بارع النكتة، سريع الخاطر، وهو من مواليد سنة ١٨٥٤، وبعد أن توفي سنة ١٩٢٣ جُمعت أشعاره في ديوان». هذا ما جاء في قاموس الأعلام للشاعر الأستاذ خير الدين الزركلي عن اسماعيل صبري الذي كان أول المكتشفين نبوغ ميّ سنة ١٩١٢ بعد صدور ديوان شعرها الفرنسي «أزهار حلم ـ Fleurs de Rêve» بسنةٍ، وكانت ميّ يومئذٍ في عمر صغرى بناته بينما كان هو على مشارف الستين من العمر! منذ ذلك التاريخ تعرف إليها شخصياً في بيت والدها الياس زيادة، صاحب «المحروسة»، واقترح عليها انشاء ندوة أدبية أسبوعية تأسست تحت رعايته. نعم لقد أحب اسماعيل صبري باشا ميّ حباً أبوياً روحياً، وأعجب بنفحات

أدبها، وثقافتها الرفيعة ونبوغها، فقال فيها شعراً جميلاً للغاية انتشر في المحافل الأدبية إذ ذاك، وكان أول ما ذاع من أشعاره فيها قوله: [البسيط]

روحي على بعض دور الحيّ هائمة
كظامىء الطير توّاقاً إلى الماء

إن لم أمتع بميّ ناظري غداً
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء!

وأرسل إليها تهنئة شعرية يوم عيد رأس سنة ١٩١٣ تنبىء عن حبه لها الممزوج بالودّ والتقدير:

يا غرَّة العامِ جوزي الأُفْقَ صاعِدةً
إلى السماءِ بآمال المحبينا

إني سألتُ لكِ الأيامَ صافيةً
يا «ميّ» قولي معي بالله آمينا!

وكان يرى في لقاءاته معها، واستمتاعه بحديثها الساحر، ورقتها وذكائها ذروة السعادة:

يا ظبيةً من ظباء الأنس رائعةً
بين القصور، تعالى الله باريكِ

هل النعيم سوى يوم أراك به،
أو ساعة بتّ أقضيها بناديكِ،

وهل يَعُدُّ عليَّ العمرَ واهِبُهُ
إن لم يجمّلهُ نَظمُ الدُّرِّ فيك؟

إن قابَلَتْكِ الصبا في مصر عاطرةً
فايقني أنها عني تناجيكِ

وأنها حملت في طيِّ بُرْدَتِها
قلباً بُعثت به كيما يُحييك

كانت ميّ تدعو اسماعيل صبري: «الرئيس»، وتستشيره في انتقاء الموضوعات التي تُطرح على البحث في ندوتها، وتنظر إليه باحترام نظرة الشابة الطموح إلى المثل الأعلى لوقار العلم المتجلي في شخصيته الجميلة، ودماثة الخلق، والبراعة في النكتة عندما يحين وقتها بأسلوب رصين وأخاذ. وقد وصفت لنا بعض ما دار من مطارحات أدبية وشعرية بقلمها، وأوردت بعض ذكرياتها معه في ندوتها، ومنها أنها قرأت في صحيفةٍ عربية كانت تصدر خارج القطر المصري أبياتاً «للرئيس» أي لاسماعيل صبري من قصيدة لـه عن «الساعات» فاحتفظت بها لتطلعه عليها يوم انعقاد الندوة فقالت:

(ولما كان يوم الثلاثاء جاء مساءً كعادته مع قريب له أظن اسمه سليم بك محمد، ومعهما الشيخ الليثي وهو شاعر أيضاً بشهادة صبري باشا، وبشهادة الأبيات الكثيرة التي كان ينظمها الأسبوع تلو الأسبوع، زد على ذلك أنه نجل الشيخ علي الليثي الشهير بين شعراء الجيل الأسبق، جيل البارودي، وفكري وعبدالله النديم وغيرهم. وكان صبري باشا وصاحباه يقطنون متجاورين فقلما افترقوا في السنوات الأخيرة . قلت ملوّحة بالصحيفة : « خبر جديد يا باشا ! » قال : « خيراً ؟ » فتلوت الأبيات فإذا بمعنى وجهه يتغيّر من الرضى والابتسام إلى الاستياء والعبوس، وكانت الجهامة من «الرئيس» شديدة الوقع في نفس من أَلِفَ في ملامحه أنساً ووداعة ملازمين، ثم قال: «مسخوها، والله مسخوها!» ومضى يلقي الأبيات على ما هي في حافظته، متذوقاً معانيها، متأنياً لإظهار جمال ألفاظها، وتعريف إحكام توقيعها، إذ كان شديد الشغف بشعره. فتناولت قلم رصاص ودوّنتها وهو يمليها وهذه هي: [السريع]

كم ساعةٍ آلمني مسُّها ... وأزعجتني يدها القاسيه

فتّشت فيها جاهداً لم أجد ... هُنَيْهةً واحدةً صافيهْ،

وكم سقتني المرَّ أختٌ لها ... فرحت أشكوها إلى التاليهْ

فأسلمتني هذه عنوةً ... لساعةٍ أخرى، وبي ما بِيَهْ

وَيْحَكَ يا مسكينُ، هل تشتكي ... جارحةَ الظفرِ إلى ضارِيهْ؟

حاذر من الساعات ! وَيْلٌ لِمَنْ يَأمَنْ تلك الفئة الطاغيهْ!
وإن تجد من بينها ساعةً جُعْبَتُها من غُصَصٍ خاليهْ
فالهُ بها لَهْوَ الحكيمِ الذي لم يُنسِه حاضرُهُ ماضِيَهْ
وامرح كما يمرح ذو نشوةٍ في قلبه، من تحتها الهاويهْ،
فهي وإن بشَّت، وإن داعبت: قتالةٌ، فتاكةٌ، عاديهْ
عناقها خنقٌ، وتقبيلها كما تَعَضُّ الحيَّةُ الباغيهْ
هذا هو العيش فقل للذي تجرحه الساعة والثانيهْ :
يا شاكي الساعات اسمع! عسى تنجيك منها الساعة القاضيهْ!)[1]

كان عنوان المقالة التي روت فيها ميّ هذه الذكريات «اسماعيل صبري باشا» وقد كتبتها بعد وفاته سنة ١٩٢٣ ، فنشرتها أولاً في مجلة «المرأة الجديدة» (عدد أيلول ، سبتمبر) من تلك السنة ، ومن ثم في كتابها الصحائف ، ورثته بأسلوبها المشرق النابع من أعماق حزنها عليه، مُنتقدةً الخطب الطنانة، خطب المناسبات التي ألقيت في حفل تأبينه فكتبت ما يلي:

(كان صبري باشا كوكباً، وكان شمساً، وكان حديقة، وكان بحراً! هذا ما قيل في أدبه وخلقه وعلمه التشريعي وفضله، وأيّ ميتٍ لا يقال عنه ذلك في مختلف الأقطار الناطقة بالعربية؟ ولكن أيذنب القائل أن صبري باشا في شعره ينبوعٌ صغيرٌ بلوري المياه، عذبها؟ ينبوع يرشح مرةً البيت والبيتين والثلاثة أبيات، وينتظمُ مرةً أخرى تسلسله اللماع الملوّن، على أنه غير فياض لا يدهش بروعته، ولا يرهب بجلاله، إنما يجذب بحسنه المأنوس، ويرضي ببساطته المتناهية، ويدخل الطرب على النفس الطروب برقة عواطفه، وسلاسة ألفاظه، واتقان نظمه. وهل ألطف من الينبوع الصغير في تدفّقه الموزون بلا تهوّر، وهل أقرب منه إلى إرواء الظمأ؟ هذه هي الصفات التي يسيطر عليها

---

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٣ ـ ١٠٥ .

دواماً الذوق الدقيق المصفّى والتي جعلت من صبري باشا، على بضاعته الشعرية المحدودة، شاعراً كبيراً)[١].

وفي نهاية مقالتها تحدثت عن حنينها إلى (تلك الشخصيات الكبيرة التي كنا بالأمس نسعد بمجالستها، ونستفيد بأحاديثها، غير عالمين أنها ستسبقنا قريباً إلى حيث لم تكن تدري، ولا نحن ندري الآن. صمت صبري باشا آخر أعوام حياته، والمرجح أن الأبيات التالية هي آخر ما نظم، فلها بذلك قيمة خاصة، عدا عن كونها حاوية لجميع خصائص فنه:

يا مقرَّ الغزال، قد صحَّ عندي
اليوم أني اقتحمتُ منك عرينا،
حسب عيني ما رابها من قلوبٍ
بات يغري بها السواد عيونا،
وضلوع جاءتك وهي خوالٍ
ثم عادت ملأى هوىً وشجونا
ما الذي يبتغي غزالُك مني
بعد كوني عبداً له ـ أن أكونا؟
كلما قلتُ قد أبَلَّ فؤادي
ساورته الذكرى فزاد جنونا!

خيالات في الحياة تروح وتغدو، ونحن المتخلفون نُعرِّف منها النبل والعظمة بما تؤدي من خدمةٍ في محيطها، حتى إذا حمّ القضاء، وامتثلت للنظام الأعلى تلمّسنا عظمتها ونبلها في ما تخلّف من نبرة حماسةٍ، وإشارة استنهاض. وقد ترك صبري باشا هذه الإشارة، وتلك النبرة في قصيدة من أمهات قصائده وهي «فرعون وقومه»)[٢].

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٠٧ ـ ١٠٨.
(٢) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ١١٢ ـ ١١٤.

كانت ميّ تجمع أشعاره التي تسمعها منه وتحفظها، فسألته يوماً: «متى تجمع قصائدك في ديوان؟» فأجابها: «أحبّ ما عليّ، لكنِ يا بنتي والله ما بيطلعوا ديوان!» وقد حزِنَتْ عليه «تلك البنت الروحية الوفية» حزناً عميقاً يشوبه التأسي على نفسها التي أضحت يتيمةً بعد فراقه، وفراق أمثاله من أصدقائها ومحبيها الأجلاء!.

ومن غريب ما روي من مغالطات عن شعر اسماعيل صبري هو ما ورد في مقالة كتبها الأستاذ خليل الخوري عن ذكرياته مع ميّ، ومفادها أن أحدهم غازلها شعراً في بطاقةٍ بعث بها إليها فقال:

أهاجرتي أطفئي لواعج لا تنتهي
مضت في هواك السنون وما نلت ما اشتهي

فأجابته ببطاقةٍ كتبت عليها الأبيات التالية:

زمانك قبلي انتهى ولا يرجع المنتهي
فحسبك أن تشتهي وحسبي أن أزدهي)[1]

لم يذكر الأستاذ الخوري اسم الشاعر، وإنما لمح به، ولكن الرواية غير صحيحة لأن ميّ لم تكتب الشعر باللغة العربية في يوم من الأيام، ولأن الشعر المذكور هو لشاعر النيربين خير الدين الزركلي، صاحب قاموس الأعلام، والأديبة الرائدة: الكسندرة أفيرينو ـ ١٨٧٢ ـ ١٩٢٧، فقد أرّخ لها الزركلي في قاموسه وقال: (أديبة كان لها في أيامها شأن، ولدت ونشأت في بيروت وانتقلت إلى الاسكندرية مع أبيها فتعلمت في مدرسة الراهبات وجيئت بأستاذ علمها العربية وتزوجت بايطالي يدعى «ملتيادي دي أفيرينو». أصدرت مجلة «أنيس الجليس»، شهرية، عدة أعوام، وأنشأت بمصر مع مجلتها العربية مجلة «اللوتس ـ Lotus» بالفرنسية مدة. كان من المعجبين بها

(١) جريدة الهدف البيروتية ـ العدد ٥١٧٨ ـ تاريخ ١٧ ـ ١ ـ ١٩٦٧.

والمؤازرين لها في مجلتها الشعراء اسماعيل صبري وولي الدين يكن ونجيب حداد، ونشرت شعراً كثيراً بامضائها وأطلعتني على مجموعةٍ شعرية مخطوطة قالت إنها «ديوانها» وعليها بيتان بقلم الرصاص ذكرت لي أنهما من خط اسماعيل صبري كتبهما على أثر تصفحه المجموعة وهما:

مُـعَـذِّبَـتـي أَطْـفِئـي لـواعـجَ لا تـنـتـهـي
مَضَتْ في هـواكِ السنونُ ومـا نلتُ ما أشتهي!

وتحتهما بيتان قالت إنها أجابته بهما:

زمـانـك قبلي انـتهـى ولا يـرجـع المـنـتـهي
فحسبي أن أزدهـي وحسـبـك أن تشـتهـي)[1]

لقد ذكرتُ أن البيتين الأولين هما للزركلي، رحمه الله، وذلك باعترافه إليّ في بيروت قبل وفاته بأشهر قليلة سنة ١٩٧٦، مع أنه أوردهما في قاموسه على أنهما من شعر اسماعيل صبري!.

ميّ و ولي الدين يكن:

وليّ الدين يكن أمير ثائر، وشاعر وناثر ولد في الآستانة سنة ١٩٧٣ من أب أرنؤوطي وأم شركسية، وتزوج فتاة يونانية. عاش في القاهرة، وتعلم العربية وعشقها، وكان يعرف الفرنسية والانكليزية والتركية واليونانية. اشتغل بالسياسة، وعارض الطغيان العثماني فنفاه السلطان عبد الحميد ست سنوات في سيواس. وقد نشأ في بيت مجدٍ وثراء، وكان يعشق الحرية ويدافع عن الفقير والمظلوم والمستضعف. وقد استأنف نشاطه في مصر منذ سنة ١٩٠٨، بعد رجوعه من المنفى، ونشر قصائد حماسية في أمهات الصحف والمجلات، وكافح من أجل الحرية والاصلاح والاستقلال، وكان «في طليعة الأدباء

(١) قاموس الأعلام ـ خير الدين الزِّركلي ـ الجزء الأول من الطبعة الثالثة ـ ص: ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

والشعراء نزاهةً، وشرف نفس، وكرم عنصر «كما وصفه الأستاذ انطون الجميّل بعد وفاته سنة ١٩٢١». وكان طبيعياً أن يتعرّف ولي الدين إلى ميّ، ويعجب بها وبشمائلها، كما كان طبيعياً أن تعجب بشعره وبرقته وسموّ أخلاقه، ومناصرته لقاسم أمين، وعلمه وتواضعه الجم، فزارها في مكتبها الزيارة الأولى سنة ١٩١٢ وأرسل إليها في أعقابها قصيدة هذا مطلعها:

(يا ميُّ بين الأقلامِ والكتبِ
كالشمسِ بين الأقمارِ والشهب
أَحْيَيْتِ عَهْدَ القريضِ والأَدَبِ
جَدَّدْتِ للعَصْرِ رونَق العَرَب)[1]

وأرفقها برسالة تنضح عباراتها بالتقدير والرقة والتبجيل دعاها فيها (ملكة دولة الإلهام) ثم قال لها: (... إني لأشفق من أن أحييكِ بغير الابتسامات. إني أخاف أن أعنيك بغير المسرات، والآن عندي قبلة[2] هي أجمل زهرة في ربيع الأمل أضعها تحت قدميك، إن تقبليها تزيدي كرماً، وإن تردّيها فقصاراي الامتثال. وبعد فإني بانتظار بشائر رضاك، وسلام على الوالد الكريم والوالدة المصونة، وطاعة لك واخلاص.

تحت قدميك: ولي الدين يكن)[3]

تجاوز اعجاب وليّ الدين يكن بميّ حدود الاعجاب فأضحى حباً روحياً جميلاً تجلى في رسائله إليها وأشعاره فيها، واتسم بتهذيب واحترام شديدين لتأثره بالآداب التركية والتقاليد الاجتماعية التي اقتبسها في تربيته وبيئته. وقد جرى في مخاطبتها على أسلوب هذه الآداب والأعراف مما حدا بمعاصريه أن يقولوا إن هيامه بميّ دفعه إلى ذرف الدموع، وتقبيل اليدين والقدمين! ولكن

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٩.

(٢) و (٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٦، وقد رمز بكلمة «القبلة» الى القصيدة التي أشرنا اليها.

هذا الأسلوب كان جزءاً من شخصيته المرهفة الشعور ، الرومنطيقية الفطرة ، لذا كانت ميّ تبادله إعجاباً باعجاب، وتتقبل غزله فيها المشوب بالتهذيب دونما حرج، وتعرب عن مشاعرها نحوه، واحترامها له في أحاديثها ومقالاتها عنه.

كان وليّ الدين مصاباً بالربو، ضعيف البنية، قوي الشكيمة، مفرط الحساسية، ومفرطاً في الشجاعة، عندما يحين وقت الجهاد، وكان مغرماً بالموسيقى والزهور والطبيعة ككل فنان أصيل، كما كان زاهداً بالمجد الموروث، عفَّ القلم واللسان فلم يهج أحداً في ديوان شعره. سألته ميّ مرةً متى يعزم على مناقشة كاتب يتهجّم عليه في الصحف فأجابها: (وكيف يمكنني أن أناقش رجلاً يدمج في مقالٍ واحد عشرين مرة كلمة «أيضاً» ولا يموت؟ إذا جاوبته أقول له: «ما لي ولك، يا أيضاً؟»)[1].

وذات يوم ردّت على إحدى رسائله بأسلوبها الأخاذ فكتب إليها ما يلي في ١٢ - ٢ - ١٩١٥:

(سيدتي: لو سُطّر كتابك بدمع المظلوم على ضمير الحرّ ما كان أكثر تطريباً، ولا أثبت أثراً. لله نغماتكِ! بلغتِ بها ما لا تبلغه الظنون، ولو صحّ لمثلي أن يقرّ بالعجز عن بيان ما في نفسه لأقررت، ولكن وقاري أبى أن يكون أشدّ المعجبين من أهل العجز.

مشاغلي كثيرة، لا أجد فرصة للتفكير ولا للتخيّل، غير أن خيالك معي وهو معيني على مغالبة المشاغل، يمليني إذا أردت أن أكتب، ويحمل إليّ الوحي إذا شئت أن أنظم، وينفذ بي من مدارع هذا الوجود إذا سرت على نسمةٍ من نسمات الشوق. صديقنا الأديب الكاتب أنطون الجميل بلّغني الرسالة، وأدى واجبه من حمل سلامك الطيب. وبعد فماذا أقول؟ عسى أن

---

(١) الصحائف - ميّ زيادة - ص: ٨٠ من مقالة لها بعنوان: شيء عن ولي الدين يكن.

يسمح الزمان بفرصةٍ فأجلس في ناديكِ، نادي الفضل، وأنشد وتسمعين. ولعل ذلك قريب، وما يعرف مثلي النسيان.

إجلال، واعظام، وشوق ووفاء: المخلص: وليّ الدين يكن)[1]

وكانت بين وليّ الدين، وخليل مطران، واسماعيل صبري، وأنطون الجميّل، والدكتور شبلي شميل، وميّ مساجلات أدبية وشعرية طريفة أوردنا ذكر بعضها في فصل «ندوة الثلاثاء». وقد تحدّث وليّ الدين عما دار في مجلس لم تحضره ميّ، في رسالة بعث بها إليها في ١٣ ـ ٩ ـ ١٩١٦ فقال:

(... كان كاتب هذه السطور في مجلس ازدان صدره بملك المعالي اسماعيل صبري باشا، فأنشدوا علينا أبياتاً كدنا نطير لها طرباً. ولكن تأملات في محاسنها هدتنا إلى صوابها، فإذا هي مسروقة من مستجاد شعر القدماء... فعجبنا لجرأة الناس كيف يقدمون على سرقة هذه الدرر، ورأينا أن تشاركينا في الطرب.

أسأل الله أن يَفُلَّ سجية الشعر في طباع الناس، وأن يتوب على عباده الجناة من اتخاذ أبياته مسكناً لأوهامهم. أما أني لوددت أن أكون متّ قبل أن أعلم أن في خلق الله من يقول مثل هذا.

وبعد فتحيتي تحية العبد لسيدته. أقبل يديك، وأقدم احترامي لوالديك الكريمين.

وليّ الدين يكن)[2]

لقد تحدثت ميّ ملياً عنه في مقالة مطولة نشرتها في عدد أكتوبر من مجلة «الفجر» سنة ١٩٢٠ ذكرت فيها الفواجع التي أصيب بها في حياته ومنها وفاة ابن له وهو في السادسة عشرة من العمر، ووفاة والدته، وشقيقة له كان شديد التعلق بها ثم قالت:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٠.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٧.

(ورغم ما نزل به من الرزايا كان مجلسه مجلس ظرف وأدب، وتكاد النكتة تبرز في كل جملة يقولها. وكما أن كرهه ونفوره شديدان فكذلك حبه واعجابه، فهو معجب بالرسم الذي تعلم مبادئه في المنفى فلا يندر أن يكتب أبياتاً يرسم فيها ذوات المعاني مثل غرّد الطير، فهو يكتب «غرّد» كتابة، ويرسم الطير رسماً)[1].

أما شعره بميّ فإنه يذوب رقة ومع أنها كانت تتجاهل، حين لقائه، كل ما كان يرسله إليها من أشعار، إلا أنها كانت تغتبط بها ليقينها بأنها تعبير عن حبّ روحي صرف، فوق كل الغايات. علم ذات يوم أنها متوعكة الصحة فأرسل إليها هذه الأبيات:

أتسقمُ ميٌّ وأبقى صحيحاً؟ ألا أنني الصاحبُ الخائنُ،
فيا ربِّ هَبْ لي مواجِعَ ميٍّ بأضعافِ ما يزِنُ الوازن،
وَهَبْ من حياتي حياةً لها وإني لأمثالها ضامن!

وأرسل إليها صورة له ضمن مغلف كتب إلى جانبها هذا البيت:

كل شيءٍ يا ميّ عندك غالٍ غير أني وحدي لديكِ رخيص..

وبقي ينشد الشعر فيها من وقتٍ إلى آخر، فإن ديوانه الذي نشره أخوه «يوسف حمدي يكن» بعد وفاته معطر بقصائد وأبيات من وحيها إذ كانت ملاك الرحمة، ومؤنسة الروح في حياته، كما نستشف من هذه القصيدة:

تمسين ناسيةً، وأمسي ذاكراً عجباً أشاعرةٌ تهاجر شاعرا؟
فهل الملائكُ كالحسانِ جواهراً إن الملائك لا يكن هواجرا
إن كنتُ لا أسعى لدارِكِ زائراً فلكم سعى فكري لدارِك زائرا
يا وَيْحَ ذي قلبٍ يناجي مثلَهُ يدعوه مؤنِسَهُ، فيبقى نافرا!

ولا بد من القول إن لوليّ الدين في حياته قصة غرام لا صلة لمي بها

---

(١) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧٩ ـ ٨٣.

اطلاقاً، ذلك أنه عشق فتاةً يونانية جميلة وتزوجها رغم غضب الأسرة «اليكنية» الارستقراطية إذ كان أبوه وأعمامه أبناءُ أخت محمد علي الكبير، وقد جلب له غضب ذويه متاعب كبيرة يعرفها معاصروه. وهذا ما جعله يعاني في حياته من مشكلاتٍ عائلية، وضائقة مالية، يضاف إليها مرض الربو، ولكنه ظلّ محافظاً على أناقته في ملبسه وحديثه وسلوكه، فارضاً احترامه ومحبته على الناس حتى النهاية. ولو كان وليّ الدين يكن ذلك: «العاشق الجسور» الذي أحب ميّ: «باشتهاءٍ وجسارة»[1] كما زعم كامل الشناوي في كتابه «الذين أحبوا ميّ» لكانت قطعت به كلّ صلةٍ في حياتها! ومن أعجب ما كتبه الشناوي في هذا الموضوع قوله:

(وفي ٦ مارس ١٩٢١ انطفأ اللهب في قلب وليّ الدين ليشبّ في قلب «ميّ» حريقاً.. فقد بكته بعنفٍ، وحزنت عليه، وكان خياله يطاردها في النوم واليقظة، ولبست عليه السواد عامين!)[2].

ولا ندري، ولا أحد يدري من أين استقى الشناوي هذه الأخبار الملفّقة، التي لم يذكر منها شيئاً معاصرو ميّ ووليّ الدين الذين كانوا أعرف الناس بهما، وكتبوا عنهما صفحاتٍ مشرفة لهما ولذكراهما، أمثال العقاد ومنصور فهمي وطه حسين والجميّل!.

إن الذي تناهى إلينا من أخبار موثوقة هو أنها زارته في بيته بحلوان بصحبة خليل مطران وأنطون الجميّل، عندما اشتدّ عليه المرض سنة ١٩٢١، وظلت تتلقّف أخباره من أخيه حمدي يكن، وبالتلفون، في حزنٍ وتلهّف، ولكن المنيّة وافته وهو في التاسعة والأربعين من العمر. وقد بكاه أصدقاؤه ومنهم ميّ، ورثاه أنطون الجميل في مجلة الهلال، واستمرّ نشاط ندوة الثلاثاء من غير أن يلحظ أحد أن ميّ لبست السواد عليه طوال سنتين!!!.

---

(١) الذين أحبوا ميّ ـ كامل الشناوي ـ ص: ٤٢.

(٢) الذين أحبوا ميّ ـ كامل الشناوي ـ ص: ٤٨.

ميّ والدكتور شبلي شميّل:

كان الدكتور شبلي شميّل (١٨٥٣ ـ ١٩١٧) الداروِيني الملحد المشهور من الذين عرفوا ميّ في مطلع شبابها وأعجبوا بنبوغها، وجاذبيتها، وأدبها كما يُغرم الأب المسنّ بفتاته اليافعة المتفوقة، وكما يغرم عالم وشاعر بالنبوغ والروح العالية المتجليين في أديبة لامعة شابة! وكان ملازماً لندوتها، وعلى اتصالٍ مستمر بها إما بالمراسلة وإما عبر المكالمات التلفونية، وقد كانت مساجلاته الشعرية معها باللغتين العربية والفرنسية، وجولاته الفكرية في ندوتها من أطرف ما سجله تاريخ الأدب المعاصر لما اتسمت به من الظرف والدعابة، والغرابة أحياناً. ولم تضن ميّ بأخبار هذه العلاقة على الصحافة المصرية آنذاك، بل كثيراً ما أوعزت لمجلة الهلال بنشرها، وكثيراً ما نشرت هي مقالات وقصائد حولها في الهلال وفي جريدة «المحروسة» التي كان يصدرها أبوها، وكانت المنبر الأول الذي سمع جمهور القراء صوتها منه. إننا نجد في شعر الشميّل المستوحى من حبه لميّ واعجابه بها كثيراً من الظرف والركاكة، ولم يكن ترحيبها الحار بالدكتور شميّل، وتقبلها غزله فيها إلا احتراماً لقدره، واعجاباً بخفة روحه، ودعاباته التي كانت تشيع في ندوتها الأسبوعية أنساً وبهجة كبيرين، يُستحسن أن تُطعَّم بهما الندوات الأدبية.

إن رسائل الدكتور شميّل إلى ميّ التي عثرنا عليها بخطه بين أوراقها في مصر لا تحمل تاريخاً، فقد نشرناها في كتابنا: ميّ زيادة وأعلام عصرها، مع مسودّات قصائده التي كان يرسلها معها[1]. والمرجح أنه بعث بها إليها ما بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٦ لأنه توفي سنة ١٩١٧. وقد كان خطه رديئاً، وظرفه بادياً فيها، أولم يقل لميّ في إحدى هذه الرسائل المرفقة بقصيدة إنها مصححة؟: (عزيزتي الصغيرة ـ أتمنى لك كل خير، ولسائر من حولك على رأس هذا العام. إذا عدتم طبعتم هذا اللّت[2] دعيهم يصلحون الغلط

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري من ص: ٢٠ الى ص: ٢٦.
(٢) كذا في الأصل، واللّث باللغة الدارجة هو الثرثرة...

المطبعي، ويُحكموا النقل على قدر الإمكان قبل أن تبعثي بالمسودّة إليّ. ويكون أفضل جداً أن تصحبيها في مجيئها فنتعاون عليها كلانا، ويكون لِي حظ التمتع بمشاهدتك ومحادثتك. وكلمة بالتلفون قبل ذلك تغني لأكون في انتظارك، وتباركين لي بالبيت الجديد. ولك مني أخلص حبي، صديقك.

شبلي شميّل[1]

أما القصيدة المرفقة بتلك الرسالة فإننا نكتفي بنشر صورة عنها..

عزيزتي الصغيرة

تمنى كل خير لك ولسائر
من حولك على رأس هذا
العام.

إذا عدتم طبعتم هذا الكتاب
[illegible] ديهم يصلحوا الأغلاط
المطبعية ويحكموا النقل على قدر
الإمكان قبل أن تبعثي بالمسودة
إليّ. ويكون أفضل
جداً أن تصحبيه في مجيئك
فتتعاونا عليه كلانا ويكون

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٢.

في حفظ الشعر بيت جديد لكم وما شئتم
وكلمة [illegible] يا لدالفون قيل ولكن نقول لا كون
وما ابتغيه إلا هو بين يديك يا بيت الجديد ومعك
من خلاص [illegible]

صورة [illegible] بيدك يا شبلك

Dr Shibli Schemeil

Caire

[illegible]

من قصتي من قصة أبو سعود ... ومن حب ذا المدينة يكن بعيد
مهرت شبل الطلق من عقاب ... إذا أحد فيك في صعيد الحديد

إذا أصغت من موكبات ظلي ... فكيف أصابها من لفتات جديد
وأنا لم يدنني نعزيه بغرد ... فهلا أنشى لزين عود
وبلاهات تطلع من كتيف ... وتتوعد تارها فوق الحدود
إلى نفير ترضع بابتسام ... إلى لفتات شردوكم إن بجيدي

في نوح الحمام من تغريد ... تكتب معه كل صيد يريد من
فما أصغت من صوت رخيم ... وما أصفاه من خلق ودود

قلتُ للقلبِ يومَ كانَ خفَقْ ... عليه انهد من ... الحديد

هذه ليس كان والسير ... قسم ... هل اجمع ان تمتز بالزهر صيحة ...

إذا ما حنت من كف عاتية ... تمكّن أقيه من الألم عنيد

كما تط دموع الأدمى سترا ... تنشق قلوبا تحت الجلود

وتمر ليعود بها من غير سلكه ... وتنطقها من رغم الجمود

إذا انبعثت حياة في فؤاد ... سرت كالبرق في الكهربيه

إذا قصبت النفس إلى التناهي ... آه جذريه

فهل دون التناهي من حدود بها

وما الكون الرحيب سوى حياة ... قوية تكمن او في خلود

حيوية في الحياة وليس موت ... خلود دائم وذا أسرار وجود

ونعود إلى ما نشرته مجلة الهلال تحت عنوان (بين الدكتور شميّل والآنسة ميّ ـ نشر صفحة مطوية ـ) لنقف على بدء الصلة بينهما:

(زار المرحوم الدكتور شميل منذ سنوات الكاتبة النابغة ميّ في منزل والديها لأول مرة فجرت بينهما محاورة فريدة من نوعها، فقد دخل الفيلسوف خدر الآنسة فما نفرت من جلال حكمته ، ولا فزعت من هيبة طلعته ، ولكنها قرأت في كتاباته عداءه للجنس اللطيف فأبى عليها وفاؤها لنفسها وبنات جنسها أن تبتسم لخصم لا يعرف الابتسام. . ولكنه أخذ يخفّف من روعها فقال:

ـ «منذ زمنٍ طويل أتشوق للتعرف إليك».

فأجابته وهي واجلة:

ـ «هذا التشوّق متبادل بلا شك، غير أني أخاف منك. . .».

قال:

ـ «أتخافين مني؟ لماذا؟ .».

قالت:

- «لأسباب متعددة أهمها أنك تكره السيدات، وأنك عالم مادي وأنا شاعرة روحية الميول».

فأحسّ هول التهمة الملقاة عليه، وانبرى لإثبات احترامه للجنس اللطيف، ففرحت ميّ إذ رأت الرجل العظيم من حزبها لا من أعاديها، ووجدته شاعراً بقدر ما كان عالماً. وفي الغد أرسل إليها قصيدة بليغة فأجابت بقصيدة باللغة الفرنسية، كستها أجمل حلّة، ووقّعتها باسم («ايزيس كوبيا» المستعار الذي وقعت به ديوان شعرها الفرنسي: «أزهار حلم»)[1].

وهذه بعض أبيات قصيدته الأولى فيها التي نشرتها «الهلال»:

رعب ميّ وطمأنتي لها: [الوافر]

أيا من رابها مني مقالي	فجاءت وهي تنفر كالغزالِ
تقول: «أخاف منك على خيالٍ	أرى في آيه كل الجمالِ»
كأن حقائقي ليست جمالاً،	وأن خيالها منها لخالِ!
إذا ما قمت أطري الحب يوماً	ألا تدرين أنك في خيالي؟

وكتبت ميّ مقالاً عن «الدكتور شبلي شميل الشاعر» نشرته في مجلة «سركيس» سنة ١٩١٣ (عدد أكتوبر) ثم في كتابها: «الصحائف»، تحدثت فيه عن الشعر والعلوم الطبيعية التي كان مختصاً بها، وضرورة الجمع بينهما وقالت: (ولقد كان الدكتور شميل من أول الهاتفين بيننا: «إن من العلم لسحرا»، ويا ليته اقتصر على هذا الهتاف الجميل، لكنه أردفه، «وقد خلط الأدباء بالمتأدبين، والشعراء بالمشعوذين، والعارفين بالمدعين، والمخلصين بالكاذبين»، بكتاباتٍ هذه خلاصتها: «فضونا من غلبتكم يا أدباتية، يا أولاد الكلب» وهذا كلامه حرفياً. وقد كان للأدباء المساكين أن يسألوه: «قلمك يقول إننا أبناء القرد، وصوتك يقول إننا أبناء الكلب، فأيّ الوجيهين جدّنا؟»

---

(١) الهلال - ج (٣٠) - عدد حزيران ١٩٢٢ (يونيو) - ص: (٨١٥ - ٨٢٢).

وقد فكرت طويلاً في أن أثأر من الدكتور شميّل فعثرت في كتاباته على سلاح أصوّبه نحوه الآن، وهو قولي إنه شاعر! وسأعرض له من مقالاته وقصائده ما يؤيّد هذا القول. لقد وجدت في بعض قصائده شيئاً غير البحر والسجع والرويّ، وجدت تعبيرات جميلة،وخيالات فخمة تتهادى بين أجرام المادة، أجل وجدت قوة شعرية، لا أقول غزلية، في تلك النفس التي تدّعي احتقار الفنون»[1].

وهكذا انتقمت ميّ من الدكتور شميّل «المتعصّب للمادة»، على حسب قولها، باظهار التناقض في شخصيته، «شاعريته المتوثبة من نزعته الفنية لا سيما عندما أسكره أنين العيدان، فأنشد هذين البيتين الجميلين:

(فـيـا نـوح الـحـمـام عـلى هـديـلٍ
بـكـيـنـا مـعـه كـل صـدٍّ شـريـدِ
فـمـا أحـنـاك مـن صـوتٍ شـجـيٍّ،
ومـا أوفـاه مـن خـلٍّ ودودِ[2]

مساجلات ومداعبات من هذا النوع انبثقت بين العالم الماديّ والكاتبة الظريفة من ندوتها، تذكرنا بمجالس الأدب التي كانت تعقدها في فرنسا «مدام دو رامبوييه» في القرن الثامن عشر، وبالدور الذي قام به الكاتب الساخر «فولتير»، روح تلك الندوات المتألقة، مما يشبه دور الدكتور شميّل في ندوة ميّ في القرن العشرين.

وكان لا بد لميّ من أن تتصالح مع صديقها الكبير العالم، «والشاعر رغم إرادته»، كما قالت، فأرسلت إليه قصيدة بالفرنسية عنوانها: «مصالحة - Reconciliation » مؤلفة من عشرين بيتاً ، استهلتها بوصف تسرّب الحياة في الأجسام بفضل المياه التي أغدقت على الأرض والكون كل ما فيهما من خيرات ، ثم خاطبت الشميل بهذه العبارات :

---

(١) و (٢) الصحائف - ميّ زيادة - ص: ٢٥ - ٢٨.

(إن كان ما تراه أنت عذباً، وأراه أنا مفجعاً،
وإن كنت تستشهد أنت بداروين، وأستشهد أنا بشيلي،
وإن كنت تضع الجماد في قالب الجمال، واضعه أنا في سرّ الأزهار،
وإن كانت ابتساماتك ساخرة، وابتساماتي أنا حزينة ،
وإن كان مبضع الجراح، ما زال يفتنك، وما زلت لذا أخشاك،
فماذا يتبقى أيها العلم في جوهر الوجود سوى الإنسانية في آلامها وبهائها، أولسنا جميعاً سواء في آمالنا وبحثنا الدائب عن الحقيقة؟.
ايزيس كوبيا)[1]

فردّ عليها الدكتور شميل بهذه الأبيات
(إلى الساحرة ايزيس:

تقولين إني أسير الثرى	وأنتِ تحومين حول السهى،
وأنكِ في ذا المحيط ترين	النفوس، وأني أرى الصدى،
فراعك مني نشيد تصابٍ	فأنشدتِ فينا اختلاف الهوى،
تظنين أني فُتنت بباد،	وليس افتتاني بهذه النهى
كأني نظرت بعينك فيكِ	وأنت نظرتِ بعيني أنا!)[2]

ومن ثم جاء ردّ ميّ عليه بأبيات باللغة الفرنسية، نشرتها الهلال في العدد المشار إليه، وهذه ترجمتها:
(تقول إننا ينظر كلانا بعين الآخر؟
وتنسى أيها الطبيب أن هذا أمر محال ،
فهل الزهرة التي داعب النسيم كيانها
تنسحق حقاً في التراب؟.
أما إذا تغاضت عينك عن الأحزان
وعما فيها من اضطراب وملذات،

(١) و (٢) الهلال ـ ج ٣٠ ـ ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ـ ص: ٨١٦ ـ ٨١٧.

وأبت أن تخضلّ بالعبرات
فإن عيني لتدمعِ إذا ما حركتها الأشجان. . .
وأما إذا انحنيتَ على روحي
لاكتشاف ما فيها من قلقٍ وأحلام
واستطعت سبر أغوارها الملتهبة
فلأن دمعة صافية تكمن في عينك أنت!.

ايزيس)

وكان الدكتور شميل يريد أن يرى صديقته الصغيرة وملهمته منشرحة الصدر، باسمة الحياة، فيؤنبها على إفراطها بالجد، وصرامتها أمام الجميع قائلاً بصوته الجهوريّ: «أرى من الأفضل أن أدعوك يا أم شبلي!. . .» ولا ريب في أنها أضفت على حياته، في شيخوخته، كثيراً من البهجة والسرور إذ كان شديد الحرص على حضور ندوتها، يحتمل المشقة في تسلّق درجات السلم العديدة التي توصل إلى شقتها في شارع المغربي، مع أنه كان مصاباً بالربو، غير آبهٍ بالتعب. وعندما اشتد عليه المرض سنة ١٩١٧ وحرمه من زيارتها زارته في بيته، ورثته بمقالة نشرت في «الأهرام» و«المحروسة» والمقتطف بعد حفلة التأبين التي أقيمت له في النادي السوري بالقاهرة، كان عنوانها: «فضل مصر على الشرق»، نقتطف منها هذه المقاطع:

(أجمل نعتٍ أعطي بالأمس إلى الدكتور شميّل جاء من حضرة صاحب المعالي أحمد حشمت باشا إذ دعاه: «رسول علم ونور».

سلام على رسول العلم والنور. سلام على تلك الروح الطاهرة التي استبقت من الطفل طيبته وبسمته في الحياة والموت.

سلام على من كان أنوفاً، أبياً، يربأ بنفسه عن مواطن الذلّ، ويتجافى بها عن مطارح الهوان. سلام على نفسٍ أبيّة زاهدة نفذ نظرها إلى قلب الإنسانية فتفطّرت لمشهد أوجاعها وحاجاتها، وأحبتها في جميع مظاهرها وأطوارها. أحبتها في فقرها ومرضها فحنّت عليها باهتمام الطبيب الحاذق.

وكم كان الطبيب من الدكتور شميل أباً، والعالم محسناً، والمصلح صديقاً، والمدمّر العاتي مؤاسياً رحيماً!.

كذلك كانت الكلمة المصرية بالأمس معبرةً عن حسرة النفس السورية.
فكيف نشكر مصر وهي ككل كريم لا تطيق الشكر، وإن أحبته؟ وعلام نحاول اظهار الامتنان وهي أدرى بما عليه القلب العربي من قوة الحب، وحفظ الجميل؟.

فماذا عسى أن يقول العربي للعربي؟ أليس القلب العربي الخافق في صدر السوري هو القلب العربي الخافق في صدر المصري؟ كفى بذلك الخفوق المتشابه بياناً بليغاً.

وأنت أيها الزعيم الراحل، لئن بَعُد على نعشك شاطىء سوريا الحبيبة، وتوارى جبلك الأشمّ، أيها اللبناني وراء نيران الحروب، ودخان المدافع، لئن تعذّر عليك الرقاد في المدافن اللبنانية تحت السنديانة الكبيرة، قرب العين المترنمة، فها قد ضمّتك مصر إلى صدرها الحنون. هذه تربة شرقية، ولها نحو الموتى لمسات ناعمة)[1].

وبعد أن ألممنا بجوانب علاقة ميّ بالدكتور شميّل الجميلة، البريئة في ظاهرها وفي باطنها، على ما بينها وبينه من فوارق في السن والعقيدة لكونه ملحداً يجهر بإلحاده مما حدا بحافظ ابراهيم أن يقول في قصيدة رثائه:

جزع العلم يوم متَّ ولكن   أمن الدين صولة الكفار...

نؤثر ألا نرد على الذين ألبسوا هذه العلاقة حلّة العشق العنيف، ونستشهد برأي شيخ النقاد والأدباء فيها، مارون عبود، الذي كتب يقول:

(... وهذا الدكتور شميّل يخاطبها بقصيدة لتلين، ويفرخ روعها، بعدما دخل خدرها محتشماً فأفزعها:

إذا ما قمت أطري الحب يوماً   ألا تدرين أنك في خيالي؟

---

(١) الصحائف - ميّ زيادة - ص: ٣٤ - ٣٩.

وميّ ترصد هذا الحساب الضخم بما أوتيت من فصاحةٍ ولسنٍ وشدة عارضة. كانت في ذلك المعترك، معترك العقول الكبيرة، لا الأحداق والمهج، كما يقول المثل اللبناني: «يا بحر ما يهزّك ريح!» وظلت شامخة كأنها سنديانة الكنيسة حتى اقتلعتها العاصفة الشمالية)[1].



انطون الجميل خليل مطران

ميّ وأنطون الجميل وخليل مطران:

لقد عرف كلّ من الجميّل ومطران ميّ في القاهرة قبل أن يسطع نجمها فيها شاعرة باللغة الفرنسية وصحفية وأديبة وصاحبة ندوة إذ ربطت بينهما وبين أبيها الياس زيادة، روابط الزمالة منذ سنة ١٩٠٩. وينبغي ألا يغرب عن بالنا أنهما لبنانيان متمصران أولهما رسّخ أقدامه في الصحافة وأسس مجلة

---

(١) جدد وقدماء ـ مارون عبود ـ ص: ١٤٥ ـ ١٤٦.

«الزهور» بالاشتراك مع أمين تقي الدين، ثم حرّر في الأهرام إلى أن تولّى رئاسة تحريرها وشغل مناصب حكومية رفيعة، والثاني، أي خليل مطران، احتلّ أرفع مكانة بين شعراء النهضة لما في شعره ودواوينه: «ديوان الخليل» و «الأسد الباكي»، «وآثار بعلبك» من سمات العبقرية ونفحاتها الرائعة. وقد صادقا والدي ميّ، وأعجبا بنبوغ ابنتهما منذ أن نشرت ديوان شعرها «أزهار حلم» إذ كانا يتقنان الفرنسية مثل أهلها، وأضحيا راعيين لنبوغها). وليس مستغرباً أن يكون أنطون الجميل، وهو من مواليد ١٨٨٧، وخليل مطران، وهو من مواليد ١٨٧١ قد رغبا بالاقتران بها،وأخفقا في تحقيق تلك الرغبة اذ ظلا في حياتهما عزبين مثلها.. وكانت ميّ تودّ كل واحد منهما وداً عميقاً كودّهما لها، مع الفارق في أنها كانت أقرب إلى الجميّل في السن والطبع والتطلعات الفكرية. وإذا شئنا أن نقف على نوع علاقتها بكل منهما فلنقرأ ما كتبه الأستاذ العقاد في هذا الموضوع:

(... والأستاذ الجميّل كان كصديقيه شبلي شميل وداود بركات في هذه الأبوة الأدبية لميّ ولكنه كان يؤثر نصيحتها برعاية صحتها وراحتها على النصيحة بالتحرّر والانطلاق من قيود التحرّز والاحتجاز. أما الأستاذ خليل مطران فقد كان دوره في الأبوة الأدبية كهذا الدور بعينه ولكن من ناحيته الفنية الشاعرية، ولعله كان دور «الأب» الممراح في صورةٍ من صور أبطال «موليير». كانت طريقته معها طريقة الدعابة السمحة، والنقد المباح)[1].

ولا ريب في أن ميّ وجدت في صداقتها لأنطون الجميّل المتبادلة، المبنيّة على الاعجاب والودّ متعة كبيرة في حياتها، مثلما وجدت في الزمالة الأدبية له، ولا سيما في كتبه عن «شوقي الشاعر» و«ولي الدين يكن» و«أبطال الحرية» وتراجمه عن الأدب الفرنسي الممتازة ومنها: «الفتاة والبيت»، متعة فكرية مكّنت ما نشأ بينهما من محبة والفة. أما الجميّل فقد كان يتلقّف مقالاتها ومن ثمّ خطبها وكتبها بالاعجاب والاهتمام، ولا يكتفي بمحاورتها في ندوة

---

(١) رجال عرفتهم ـ عباس محمود العقّاد ـ ص: ٢١٧.

الثلاثاء، إنما يبعث إليها برسائل جميلة يعرب فيها عن مشاعره بأسلوب راقٍ ينمّ عن علمه الغزير، واعتزازه بها الكبير، كقوله لها في رسالة كتبها في ١٥ ـ ٤ ـ ١٩١٥ .

(يا ميّ :

قرأت اليوم ما كتبته في «يوميات فتاة» عما جال في صدرك من الأفكار والعواطف أثناء تلك الدقائق الوجيزة التي قضيتها بين مشاهير الكتاب في إحدى غرف الجامعة المصرية. وتلوت على مهل، كمن يتلو صلاة، أو يترنّم بأنشودة، ما أوحى إليك من الإلهام منظر أمراء الفكر مصوّرين على الجدران من ديكارت، وكورناي، وراسين، وموليير، إلى فولتير وهوجو. ما أجمل هؤلاء الرجال، بل أنصاف الآلهة، تذيع مفاخرهم بعد أجيال فتاة شاعرة، وتمجّد أرواحهم بلغةٍ لم يعرفوا منها إلا الاسم).

نشر هذه الرسالة وغيرها من رسائل انطون الجميل إلى ميّ الكاتب طاهر الطناحي في مجلة الهلال سنة ١٩٤٨، وباذن من الجميّل، بلا ريب، إذ كانت ممهورة «بصورٍ عن مخطوطاتها»، وذلك بعد وفاة الجميل بسنة، وقد جعل عنوانها: (الحب الروحي بين ميّ وانطرن الجميّل). كنا قد ذكرنا في فصل «ندوة الثلاثاء» تعاون الجميل وميّ في اعداد يوبيل المقتطف الذهبي، وأوردنا مقطعاً من رسالته إليها، بعد نجاح الاحتفال، التي أعرب فيها عن حبوره باكتشاف مزايا كبيرة فيها، ووقّعها بكلمة المخلص، فقد علّقت عليها الآنسة علا المستكاوي في دراسة نشرتها عن حياتها وصداقاتها الفكرية بهذه العبارات: (... فهو، أي الجميّل، كان صادقاً حينما وقع كلمة المخلص في نهاية خطابه إلى ميّ، فقد عاش عزباً، وملأ قلبه حبها، ولعل الالفة قد زادت بينهما أثناء الإعداد ليوبيل المقتطف)[1].

وكثيراً ما تجلّت هذه الالفة في رسائلهما وما كان يتخللها من مداعبات

---

(١) مجلة آخر ساعة ـ صفحات مجهولة من حياة الأديبة الغامضة ميّ ـ ص: ٤٥.

ومزاحٍ لطيف، وتبادل أخبارهما الشخصية، كقوله لها في إحداها تنهفاً على صحتها بعدما أخبرته عن التهاب طفيف أصاب عينها:

(ساءني جداً ما أصاب عينك اليمنى، سلمت عيناك اليمنى واليسرى، بل سلمتِ في كلياتك وجزئياتك. وقد تجدين في هذا الدعاء الخالص، وهذا التمني الصادق شيئاً من الأنانية، ما دمت تعتقدين أن الأنانية أساس جميع أعمالنا وعواطفنا، فليكن ذلك... أليس ورم جفنك الذي أخّرك عن الكتابة فحرمني من التمتع بكتابك قبل اليوم؟...)[1].

وقد دعاها، في الرسالة ذاتها: أيتها الطفلة الوليدة: «يا بيبي» حيث قال: «أستودعك الله يا بيبي» على أمل لقائك بخيرٍ وعافية، وقد أصبحت أنا:

لوتر بيبي)

أي الطفل الوليد الآخر... فما أروع الصداقة عندما تمتدّ جذورها في قلبيّ امرأة ورجل منسجمين فتنعش الفكر والروح وهما في سنّ الكهولة، كما كانت تنعشهما في سنّ الشباب، وتخلع عن نفسيهما الأقنعة الاجتماعية المرهقة، وتعيدهما إلى صفاء الطفولة وجمالها وطهارتها!!! فلقد ران الصفاء على صداقة ميّ وأنطون الجميل سنوات طويلة، ولكن ما يحزن كثيراً هو الفراق المفجع بينهما يوم توالت المصائب على ميّ واستبدّ بها الحزن على أبويها وجبران ففرضت على نفسها عزلةً مريرة عن سائر الناس، ومرضت وألّمت بها محنة «العصفورية» المروّعة... كان الجميّل في طليعة الذين توسّلوا إليها أن تخرج من عزلتها، وتخفّف عن نفسها وطأة الأحزان، ولكن محاولاته باءت بالفشل، وكان عناد ميّ هو الذي أفلح، بسبب انغلاقها الشديد على نفسها، ونزوعها الفطري إلى الاكتئاب! وقد رفضت زيارة الجميّل ومقابلته بعد انفراج المحنة، ورجوعها إلى القاهرة سنة ١٩٣٩، حتى قيل إنها أغلقت الباب في وجهه

---

(١) الهلال - ج ٥٦ - عدد أيار - مايو - ١٩٤٨ - ص: ٦٩ - ٧٦.

عندما طرقه لتفقّدها لما وقر في ظنها من أنه أهملها في أيامها السود، وصدّق إشاعة جنونها! ولكنها لم تذكره، لا هو ولا غيره من أولئك الأصدقاء «العاقين» في رأيها، بكلمة سوء إذ كان شعارها في العلاقات الإنسانية قول الإمام الشافعي:

وعاشر بمعروفٍ، وسامح من اعتدى
وفارق ولكن بالتي هي أحسن!

وأما علاقتها بخليل مطران فقد كانت علاقة صداقة متينة، واعجاب واحترام متبادلين، منذ أن اكتشف موهبتها الشعرية والأدبية في بواكيرها، ورعى دراستها اللغة العربية، وأطرى قصائدها باللغة الفرنسية كما ذكرنا في فصل: «ميّ الشاعرة». لقد كان مفتوناً بسجاياها، ومعتزاً بثقافتها وتسلقها درجات سلّم المجد الأدبي، فعبّر عن مشاعره نحوها في أحاديثه وأشعاره، ومنها قصيدة مؤلفة من ستة وثلاثين بيتاً نشرها في مجلة الهلال سنة ١٩٢٨ بعنوان: «ايزيس أو الحسن الخالد» وقد صوّر فيها مشاعره أمام تمثال الآلهة إيزيس فقال:

(لقد غَبَرَتْ حِقب لا تُعد ... يدول النعيم بها والشقاء
تزول البلاد وتفنى العباد ... وايزيسُ تزهو بغير ازدهاء
لبثتُ أفكر في شأنها ... مطيفاً بها هائماً في العراء
فلما براني حَرُّ الضحى ... وأدركني في الطواف العياء
أويت إلى السمح من ظِلّها ... وفي ظلها الروحُ لي والشفاء
فما أنا إلا وتلك الآلهة ... ذات الجلالة والكبرياء
قد اهتزّ جانبها وانتحت ... تخطر بين السنى والسناء
وترمقني بالعيون التي ... تفيض محاجرها بالضياء

(١) كانت ميّ تزين جدار بهو بيتها بقصيدة الامام الشافعي التي منها هذا البيت.
(٢) الهلال - ج (٣٦) - عدد ابريل ١٩٢٨ - ص: ٦٥٦ - ٦٥٧.

وقـالت بـذاك الفـم الكـوثـريّ ... الـذي رصّعتـه نجـوم السمـاء
أيـا نـاشـد الحسن في كـل فنّ ... رصينِ المعـاني، مكين البنـاء
لقـد جئتَ من آهـلات الـديـار ... تحُـجُّ الجمـال بهـذا العـراء
فـلا يـوحشَنَّـكَ مـن حـولـه ... سكونٌ يحـاكي سكـون الفنـاء،
فـإن الـرسـوم لـحـالٌ تحـولُ ... وللحسن دون الـرسـوم البقـاء،
لـه صـور أبـداً تـسـتـجـدُّ ... وجـوهـره أبـداً فـي صفـاء
بـكـل زمـان، وكـل مكـانٍ ... ينـوّع في الشكـل لـلأتـقيـاء
رفعت لـك الحجب المسـدلاتِ ... وأبـرحت عن نـاظـريـك الخفـاء

ويحلّق الشاعر الكبير على أجنحة الخيال التي تحركها العاطفة، وعبادة الحسن أينما تجلى، فيصغي إلى حديث التمثال وعبره، ومواعظه، ويتصوّره فيلسوفاً حكيماً ينبّهه إلى حسن آخر يتجلى بصـديقته الحبيبـة ميّ، ايزيس الثانية، فيخاطبه قائلاً:

بـلاد الـشـآم الـتـي لـم تـزل ... بـلاد الـنـوابـغ والأنـبـيـاء
فـفي سـفـح لبـنـان حـوريّـةٌ ... تـفـنّـن مـبـدعُـهـا مـا يـشـاء
إذا مـا بدت من خبـاء العفـاف ... كـمـا تـتـجلى صـبـاحـاً ذُكـاء
تـبيَّـنـتَـهـا، وهـي لـي صـورةٌ ... أعيدت إلى الخَلْق، بعد العَفَـاء
فـتعـرُفـهـا وبـهـا حِـلْيـتـاي: ... سِحْـرُ الجمـال، وسِرُّ الـذكـاء)

هذا هو نوع تعلّق خليل مطران بميّ، وهذا هو نوع غزله الخجول بها الذي لم يعبّر عنه بهمسةٍ أو حديث، إنما كان يعبّر عن اعجابه بـالحسن الفتان، والموهبة الأدبية الممزوجة بالطهر والعفاف بمثل هذا الشعر الراقي العذب. وكان طبيعياً أن تحزنه النهاية الأليمة التي آلت إليها حياة تلك الأديبة النابغة التي رعاها رعاية المعلم المحبّ منذ نشوئها، وأن يرثيها بقصيدة

نستشفّ من أبياتها الجميلة عمق ذلك الحزن، وتلك الحسرات:

(أن يلمّ الردى بميّ وأن
يطفىء مصباحها، أليس غبينا؟
طالع السعد كيف بدّل نوءاً
يبعث الريح والسحاب الهتونا،
فإذا ما أقرّ أمس عيوناً،
قرّح اليوم بالدموع العيونا!
نعمة ما سخا بها الدهر حتى
آب كالعهد سالباً وضنينا،
أيهذا الثرى ظفرت بحسنٍ
كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسي على حجى عبقري
كان ذخراً فصار كنزاً دفينا!
أقفر البيت، أين ناديك يا ميّ
إليه الوفود يختلفونا؟
صفوة المشرقين نبلاً وفضلاً
في ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً،
ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهي عراث
من ثمار العقول ما يشتهينا
في مجال الأقلام آل إليـ
ـكِ السبق في المنشآت والمنشئينا،

وحي قلبٍ يفيض بالحب للخَيْـرِ، ويهدي إليه من يهتدونا،
ويودّ الحياة عزاً وجهداً، لا يودّ الحياة خسفاً ولينا،
فهو آناً يبثّ بثاً رقيقاً يملأ النفس رحمةً وحنينا
وهو آناً يثور ثورة حُرٍّ عاصفاً عصفة تدكّ الحصونا
ينصر العقل، يكشف الجهل يوحي العَـدل، يرعى الضعيف والمسكينا
ذاك في العيش ما شغلت به والغيدُ تلهو وأنتِ لا تلهينا
لم ترومي إلا الجليل وجانبت الأباطيل، واتقيت الفتونا،
وجعلتِ التحصيل دأباً، وآتيتِ جناه فطاب للمجتبينا،
فعليكِ السلام ذكراك تحيى وبرغم البعاد لا تبعدينا)[1]

(١) ذكرى فقيدة نابغة الأدب ميّ - كتاب الاتحاد النسائي المصري عن مجموعة الخطب والقصائد التي ألقيت في حفلة تأبين ميّ سنة ١٩٤١ - ص: ٤٤ - ٤٦ - ولا بدّ من الاشارة الى ان قصيدة شاعر القطرين مطران مؤلفة من ثلاثة وأربعين بيتاً، اقتطفنا هنا الأبيات المنشورة، واخترنا منها أبياتاً أخر في فصل: «موت ميّ وتكريم الأدباء لها».



لطفي السيد

ميّ ولطفي السيّد:

ومن لا يعرف اسم هذا الرجل العظيم ومكانته في تاريخ مصر الحديث، وأثره في النهضة الأدبية والفكرية والسياسية في مطلع القرن العشرين؟ ولعل أفضل تعريف به، وأكثره ايجازاً هو ما جاء في كتاب الدكتور حسين فوزي النجار عنه: «أحمد لطفي السيّد: أستاذ الجيل»، حيث كتب ما يلي: (نستطيع أن نردّ حركة الاستنارة في مصر إلى رفاعة الطهطاوي، ولكن المصلح الحكيم الشيخ جمال الدين الأفغاني هو الذي انتقل بها من السلبية إلى

الايجابية، وفلسف مناهجها، وكشف عن وسائلها وأهدافها، وحمل الحركة بعده الإمام الشيخ محمد عبده، ومن بعده لطفى السيّد. وقد كان كل منهم مكملاً للآخر وجاء كل منهم في الوقت المناسب تماماً، فلم تصدم آراؤهم الجيل الجديد أو المجتمع)[1]. وإذا كان لا بد من لمحة سريعة عن أعماله نقول إنه من مواليد سنة ١٨٧٢، تعلم في مصر ثم درس الحقوق والفلسفة وأسهم في الحركة الاصلاحية الاجتماعية والدينية في أواخر القرن التاسع عشر، وأنشأ في القاهرة جريدة «الجريدة» سنة ١٩٠٧ كما ألّف مع زملائه مؤسسي الجريدة حزب الأمة، وكان من أول الداعين إلى انشاء الجامعة المصرية، ومن الشخصيات البارزة التي تولّت تأسيسها، ومن أصدقاء قاسم أمين الداعين إلى تحرير المرأة. كما تولى إدارة الكتب المصرية سنة ١٩١٥، ثم رئاسة الجامعة المصرية ووزارة المعارف ورئاسة مجمع اللغة العربية، ونشر كتباً قيمة نذكر منها ترجمته لكتاب «الأخلاق» لأريسطو، و«الكون والفساد» و«الطبيعة»، وكتابا: «السياسة» و«قصة حياتي» الذي صدر سنة ١٩٤٧وقد نجح في أن يصل بفكره إلى خاصة المثقفين، وأن يكون صاحب مدرسة سياسية هامة قررت ثورة ١٩١٩. وظلّ يناضل ويتبوأ مكان الصدارة إلى أن بلغ الثمانين من العمر، وقد توفي سنة ١٩٦٣ عن عمر ناهز التسعين عاماً!! والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن قبل كل شيء هو: «كيف عرف لطفي السيّد ماري زيادة، قبل أن تصبح الكاتبة النابغة ميّ، وأين؟» حصل التعارف بين هذا الرجل الكبير وميّ في فندق بسّول ببيروت سنة ١٩١١ حيث التقيا صدفةً في بهوه وهو يتناول الشاي بمفرده، بينما كانت هي جالسة مع أمها ورجل أجنبي تتحدث إليه عن النهضة العربية في مصر ولبنان وسورية. ولندع لطفي السيد يكمل الصورة بنفسه:

(لما وصلت إلى بيروت أقمت في فندق بسول وفيما أنا جالس مساء ذات

---

(١) أحمد لطفي السيد: استاذ الجيل ـ الدكتور حسين فوزي النجار ـ سلسلة «اعلام العرب» ـ ص: ٦٠ ـ ٦٤.

يوم ٍ في القاعة سمعت حديثاً بين رجل افرنجي وفتاة في الزي الافرنجي، وسمعت الرجل ينحي باللائمة على المصريين، والفتاة تدافع عنهم دفاعاً أدهشني منه أنه مبنيّ على خبرةٍ واطلاع واقناع. كان حديثهما باللغة الفرنساوية، فسألت من تكون هذه الفتاة فقيل لي إنها سورية تقيم في مصر، فوفّقت في الاهتداء إلى من جعل بيننا صلة التعارف، وإذا بها الآنسة ماري كريمة زميلنا صاحب جريدة المحروسة الياس أفندي زيادة، وهي التي اشتهرت بعد ذلك باسم «ميّ» في عالم الأدب. ومنذ ذلك الحين تعاظم اعجابي بها، فشاركت الذين وُفِّقوا قبلي إلى معرفتها!)[١]

كان ينبغي أن يقول: «وشاركت الذين أعجبوا بها وأحبوها حباً روحياً أسمى من كل حب»، ذلك أنه زارها في بيت والديها بالقاهرة وكان من أوائل الذين انضموا إلى ندوتها الأسبوعية عقب تأسيسها، ومن الذين وجّهوها إلى تقوية لغتها العربية، وإلى الانتساب إلى الجُامعة المصرية سنة ١٩١٤. ولم تنس ميّ فضله الكبير عليها، بل كانت تعترف به في أحاديثها الصحفية، وتكنّ «لأستاذ الجيل» أخلص مشاعر المحبة والاجلال. فقد أدلت بحديث إلى مجلة «الهلال» سنة ١٩٣٠ ذكرت فيه فضله يوم قال لها: (لا بد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم لكي تقتبسي من فصاحة أسلوبه وبلاغته» . فقلت له: «ليس عندي نسخة من القرآن». فقال: «أنا أهدي إليك نسخة منه». وبعث إليّ به مع كتبٍ أخرى فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربي، وما في القرآن من روعةٍ جذابة ساعدتني على تنسيق كتابتي)[٢].

كما قالت ميّ في حديث آخر لها نشرته جريدة المكشوف في بيروت: (أما اللغة العربية فقد تعلمتها في القرآن على لطفي السيّد بك. كان، كلما

---

(١) الهلال ـ ج ٢٨ ـ عدد يناير ١٩٢٠ ـ من مقالة عنوانها: حديث المجالس، بقلم سليم سركيس. ص: ٣٣٣.

(٢) الهلال ـ ج ٣٨ ـ عدد فبراير ١٩٣٠ ـ ص: ٤٠٠ ـ ٤٠١.

زارنا مرةً، انزويت وإياه والدكتور شميل في ركنٍ من بهو الاستقبال، وراح يقرأ عليّ القرآن ويفسّره، ويشرح لي العويص من كلامه. ثم أهدى إليّ أول كتب عربية قرأتها: «النسائيات» لباحثة البادية، ومجموعة أشعار البارودي، و«تحرير المرأة» لقاسم أمين)(١).

وهذه ميّ تحدّث صديقها الكبير أمين الريحاني عن لطفي السيّد في رسالة بعثت بها إليه بتاريخ ٢٤ ـ ٩ ـ ١٩١٥ فتقول له:

(. . . وعلى ذكر قاسم أمين هل علمت أن المكتبة الخديوية التي أصبحت المكتبة السلطانية تطهّرت نهائياً من ميكروبات الألمان؟ الخبر أن حكومتنا (السنيّة طبعاً) عينت لدار الكتب هذه مديراً مصرياً هو لطفي بك السيّد. ألعلّك لا تجهل لطفي بك، وقد كان صديقاً حميماً لقاسم بك أمين، وقد أصابت الحكومة كل الإصابة في هذا التعيين)(٢).

لقد آمن لطفي السيّد بنبوغ ميّ، وسعد بتفوقها في الكتابة باللغة العربية بسرعة، وعرّفها بالدكتور طه حسين الذي أضحى من أصدقائها المعجبين بأدبها وحديثها العذب، ولكن فاته، وهو نصير المرأة النافذ في الحكومة، أن يدعوها لحضور حفلة تأبين كبرى أقيمت لفتحي زغلول باشا . . . وإذ بميّ تكتب إليه رسالة مفتوحة رائعة على صفحات جريدته كان مما جاء فيها :

(في نفسي كلمات جائلات منذ ثلاثة أيام أرفعها إليك لأنك كتاب حيٌ يرجع إليه الباحث في ساعة الحيرة والتردد . ولقد جرّأني على إبداء رأيي أني وجدت في خطبتك الجميلة ذكراً لوالدة فقيد مصر ، وذكرت من أجلها جميع الأمهات القرويات الساذجات اللائي أعطين لمصر أعاظمها . لم تضرب صفحاً عن جهلهن وبساطتهن ، ومع ذلك اعترفت بأنهن مهذِبات فتحي باشا

---

(١) المكشوف ـ العدد ١٤٨ ـ ١٦مايس (أيار) سنة ١٩٣٨ ـ ص: ١٢.

(٢) الريحاني ومعاصروه ـ جمع وتحقيق البرت الريحاني ـ ص: ١٦١.

وأمثاله . أما سؤالي فها هو: لماذا لم يكن للنساء نصيب في حضور حفلة التأبين ؟) [1] .

وبعد أن دافعت عن النساء، وعتبت عتباً لبقاً على الرجال لإهمالهم نصف الأمة في حفلاتٍ عامة، وإن كانت تأبينيّة قالت:

(لو حضر النساء هذا الاجتماع لأخذن منه أمثولة جيدة، وحفظن منه في نفوسهن أثراً جليلاً!)[2].

وردّ لطفي السيّد على «الكاتبة الفاضلة» على صفحات «الجريدة» معترفاً لها بصواب الرأي، ومعتذراً عن تقصير لجنة الاحتفال في إشراك النساء بحفلة التأبين، علماً بأن مقصوراتهن محفوظات في دار الأوبرا لمشاهدة حفلات التمثيل والغناء، لأن العادة جرت في مصر على إقصاء النساء عن احتفالات المآتم التي تقوم على الرجال والنساء معاً في كل مكان... وختم رسالته بقوله:

(... اضطراب في الفكر، ولكنه اضطراب طبيعي قضت به حال الانتقال التي نحن فيها. تلك الحال نرجو أن يذهب بها المستقبل القريب. وحسبنا أن نغتبط بهذه الروح الجديدة التي تدفع الجنس اللطيف عندنا للحرص على حقوقه ونثبت للآنسة «ميّ» في ذلك سعياً مشكوراً)[3].

وكما كان التراسل في عصر ميّ ملازماً للقاءات الاجتماعية بين الأدباء كان لطفي السيد يكتب إلى صديقته الساحرة رسائل جميلة إذا غاب عن القاهرة، أو تغيّب عن حضور الندوة، يبثّها فيها حبه الروحي، ويسترسل مع هواه حيناً، ثم يعتذر عن هذا الاسترسال خشية أن يكون قد تجاوز حدوداً لا يحق له أن يتجاوزها فيقول:

(... فاعذري قلباً حساساً، غيوراً، طماعاً يجري إلى ما يحبّ كالسيل

---

(١) و (٢) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٤٧ ـ ١٥١.

(٣) الصحائف ـ ميّ زيادة ـ ص: ١٥٢.

المتدفق، لا يبالي صادف سهلاً، أو اصطدم في وعرٍ، أو حُبس في حيّز. إنه لا يعنيه إلا ما يحبّ من غير أن يفكر. ليس له عذر إلا في صدقه، وكفى بالصدق عاذراً، وكفى بالصدق شفيعاً)[١].

ويبدو أن ميّ كانت تغضب من صراحته وإفراطه في مدحها، ووصف مزاياها إذ قال لها في إحدى رسائله الأولى: (عبس في الوجه لا يقلّ في جماله عن الابتسامة الفاتنة، وإعراض كالدلال في الإقبال، وتوقّد في العينين كأنه مدٌّ في حلاوة النظر، فما أشبه نظرها الشزر بلحظها الرحيم في اللعب بقلب الحكيم، ثم قطع للرسائل، وهجر جميل...)[٢].

كما يظهر من رسائله الغرامية الصريحة أنه كان، على وقاره، شديد التأثر بالحس الأنثوي... سريع الوقوع في شرك الهوى، يبديه ولا يخفيه، فيبثّ لميّ، التي ملكت عليه فكره ومشاعره، ما كان يخالجه من وجدٍ، وشوقٍ وحنين، غير آبهٍ لصدّها وغضبها! ذهب إلى بلدته «برقين» فكتب إليها في ٢٩ ـ ٤ ـ ١٩١٤ رسالة بوحٍ من رسائله الغرامية التي تصوّر الجانب العاطفي من شخصيته الفذّة فقال، بعد أن حدثها عن حزنٍ ران عليه لبعده عمّن يحب في عرس الربيع، واصِفاً تغاريد الطيور وهديل الحمام في بستانه:

(أنا لا أطرد الطيور إكراماً لخاطر كنارك الصغير، ولا أهيج الحمام إكراماً لما اشتهر به من معنى الوفاء، وحسن العشرة... أفٍ لهذا الإنسان ولكنه لا يستحي، وأنا أيضاً إنسان ومع ذلك استحي من ابداء الشوق المبرّح إلى لقائك، وأرجوك ألا يخدعك قولي فتظنين أني فوق الإنسان العادي، كلا، فطالما أصليت صغار الطير ناراً حامية من بندقيتي لا لآكل لحمها، بل لألعب بالنفوس البريئة التي هي مثلي لها حقّ في الحياة! ومن الحمق أن أطيل القول في هذه المعاني إليكِ، إليكِ أنت التي قد لا تلعبين بالنفوس الصغيرة، ولكنك

---

(١) الهلال ـ ج (٧٠) ـ عدد يناير ١٩٦٢ ـ ص: ١٩ ـ ٢٢.

(٢) الهلال ـ ج (٧٠) ـ عدد يناير ١٩٦٢ ـ ص: ١٩ ـ ٢١.

تلعبين بالنفس الكبيرة... إني حرّمت قتل الطير من زمان غير قريب، فهل تحرّمين على نفسك، يا أمّي القاسية، أن تسيئي لي بإعراضٍ ترينه هيّناً، وأراه عسير الحمل، فعّال الأثر؟..)[1].

لا ريب في أن ميّ شعرت بحرجٍ كبير إزاء رسائل أستاذ الجيل المشبوبة، ولكنها كانت، حسب عادتها، «تتجاهل الأمر»، وتسكت عن الجواب، حتى في مواضيع الفكر والأدب التي كان يثيرها ثم ينتقل منها إلى الإفاضة بما في نفسه، إلى أن يرتدع عن الإسراف في التغزّل والبوح بالافتنان بها... وتقول الآنسة علا المستكاوي (إن سكوت ميّ في أثر هذا الخطاب كاد يصل إلى حدّ المقاطعة بينهما... وقد سافر لطفي السيّد إلى «بني سويف» سنة ١٩١٥ وهزّه الشوق إلى الكتابة إليها، فوجّه إليها في ٩ يونيه خطاباً كان مما جاء فيه هذه العبارات: (... ما لي ولهذه اللغة الجافة التي ليست من رقة العواطف، وحسن المجاملة، وطيب العشرة. أظن أن هذه العصبية مسبّبة على أنه صعب عليّ منكِ أن تسكتي عني، لا لذنبٍ آخر غير مقابلة سكوتي بالسكوت، أو الجفاء... وهذا خُلُق، وإن كان عادلاً، فهو على كل حال غير لطيف. اكتبي إليّ واكتبي كثيراً، وثقي بأن كتابك لي أقرأه خير عندي من أكبر لذائذي في الدنيا وهي الطعام... ستضحكين مني؟.. «الله يبسطك»، ولكن هذا هو الواقع من الأمر)[2].

إننا نستجلي من مضمون هذا الخطاب تراجع لطفي السيّد عن إسرافه بالتغزل بميّ بعد أن شعر بأنها تأذّت منه، ونستجلي حرصه على صداقتها من رسالة لاحقة وجهها إليها من أوروبا في ١٥ - ١٠ - ١٩١٩ حيث رافق الوفد المصري إلى باريس ولندن للمطالبة باستقلال مصر فلقد حدثها عن القضية الوطنية ثم قال:

---

(١) الهلال - ج (٧٠) - عدد فبراير ١٩٦٢ - ص: ٤٨.

(٢) مجلة آخر ساعة - عدد ٧ يناير ١٩٨١ - ص: ٤٩ - من مقالة علا المستكاوي: «صفحات مجهولة في حياة ميّ - قصة الفيلسوف العاشق وكيف بدأت».

(. . . ولكني لِمَ لا أكتب إليكِ في هذا الوقت والإنسان أحوج ما يكون لصديقه حين يعوزه الاكتفاء بنفسه من الأغيار، والاستقلال باحتمال آلامه الحسية والمعنوية. أليس في ذلك الإثبات التام للحاجة إلى الصداقة؟).

وبعد أن طمأنها على حسن سير المفاوضات، وأعرب لها عن ثقته في صداقتها ختم رسالته بهذه العبارات:

(وهل لي أن أعلم، بالإجمالِ إن شئتِ لا بالتفصيل وأنا أيضاً صديق: أسعيدة أنتِ؟ أحب، وأحب كثيراً أن تكوني كذلك، ولا أظن نفسك الجميلة إلا سعيدة في كل ظرف. اكتبي إليّ طويلاً وكثيراً، اكتبي على عنواني المسطور في صدر هذه الصحائف، وهم يرسلون كتبك المتتابعة إليّ في «لندرة»، وقدمي تحياتي إلى حضرة الوالد وحضرة الوالدة ودومي لصديقك.

(لطفي)[1]

وعندما نشرت ميّ سيرة «باحثة البادية» سنة ١٩٢٠ أرسلت نسخة من كتابها إلى عنوانه في لندن حيث كان موجوداً مع الوفد المصري وتلقت منه رسالة جميلة حقاً هنأها فيها على عملها الممتاز الذي «تجلّت فيه نفسها الكبيرة الحساسة» على حد تعبيره، «فغطّت بجلالها آثار» صديقتها الباحثة. وبعد أن ذكرها بأن أستاذه وأستاذها، وهو القرآن الكريم، علّمه بأن الله لا يحب كل مختالٍ فخور أضاف يقول: (. . . أتَفَلْسُفٌ يا أستاذي؟ . . . ستقولين ذلك، لا يا ابنتي، ولكن طبعي معك أن أرسل قلمي على حريته يخطّ ما يرد في نفسي من الخواطر من غير احتراس، ولا تكلف، وكم أنا سعيد بأن أراك قريباً. لا . . . أنا لا أحب كثيراً يوم الثلاثاء، لا لأني، كما تظنين بالباطل، لا أحب الشوام زوّاركم . . . ولكني أحبّ أن يكون الحديث دائراً على ما نريد، لا على ما تريد أية سيدة من السيدات اللواتي يجلسن على الكنبات ويتركننا

---

(١) مجلة آخر ساعة ـ عدد ٧ يناير ١٩٨١ ـ ص: ٤٩.

على الكراسي... لهذا أحب أن أجلس على الكنبة مرتاحاً، وأناقشك الحساب في كل ما تقولين... أهكذا؟ نعم هو كذلك.. واعملي ما شئتِ أن تعملي فإني في حماية الوالدة، ولست معترفاً بالحماية لأحدٍ غيرها مطلقاً لأننا سننال الاستقلال! إليك أقدم احتراماتي الخالصة وتحياتي القلبية، صديقك المخلص.

لطفي)[1]

لقد نشر طاهر الطناحي رسائل لطفي السيّد إلى ميّ في مجلة الهلال (أعداد يناير وفبراير سنة ١٩٦٢) مع صور لمخطوطاتها، وبعد الاستئذان منه بدليل قوله: (هـذه بعض الخطابات العاطفية التي كتبها أحمد لطفي السيد إلى أديبة الشرق الأنسة ميّ منذ واحد وخمسين عاماً، أنشرها لأول مرة لأن كاتبها لطفي السيّد سيبلغ التسعين من عمره المبارك في ١٥ يناير الحالي)[2]. أما علا المستكاوي فقد ختمت مقالتها عن هذا الموضوع التي أدرجت فيها بعضاً من رسائل «أستاذ الجيل» إلى نابغة الشرق بقولها:

(وهكذا كانت قصة الفيلسوف العاشق مع الأنسة ميّ، وحبه الأدبي الطاهر من خلال رسائله إليها. وهكذا كانت قطعةً من الفلسفة وعيون الأدب العربي)[3].

إن ما لا بد من ذكره في معرض العلاقة التي كانت بين أحمد لطفي السيّد وبين ميّ هو أنه عارض في نشر الرسائل التي تبادلتها مع أعلام عصرها من عرب وأجانب يوم تولى صديقاها انطون الجميّل وخليل مطران فحص هذه الرسائل وتنسيقها لإعدادها للنشر سنة ١٩٤٧، وأنه وافق على نشر رسائله إليها سنة ١٩٦٢!!!.. عارض لطفي السيد بشدة نشر تلك الرسائل وغيرها

---

(١) و (٢) الهلال ـ ج (٧٠) ـ عدد يناير ١٩٦٢ ـ ص: ٢٢ وعدد فبراير سنة ١٩٦٢ ـ ص: ٤٨.

(٣) مجلة آخر ساعة ـ عدد ٧ يناير ١٩٨١ ـ ص: ٤٩.

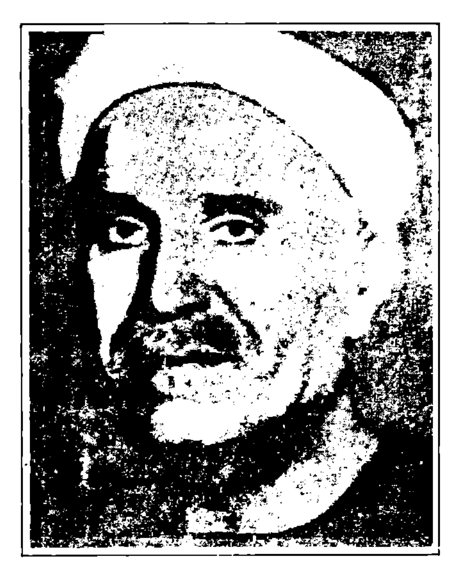
محتجاً بأنها ملك لميّ ولمرسليها، لا يحق لأحد أن يتصرف به، وعارضه كلّ من الجميل ومطران لاعتقادهما بأنها وثائق أدبية مهمّة ينبغي نشرها كما هي لخلوّها مما يسيء إلى سمعة ميّ، أو سمعة الذين كتبوها. وكان الدكتور طه حسين محبذاً نشرها لأنها ثروة فكرية إنسانية ينبغي نشرها خدمةً للأدب والتاريخ. أما عباس محمود العقاد فقد كان يرى أن نشرها ضروري وواجب ولكن بعد انقضاء مدة من الزمن على وفاة ميّ وأصدقائها الكتاب والشعراء الذين أحبوها أي «عندما يصبح هوانا العفيف تاريخاً يجب أن يُسجل»[1]. وإن ما ينبغي أن يذكر أيضاً هو أن ميّ لم تجد حرجاً في نشر مقتطفاتٍ من رسائل جبران خليل جبران، الرجل الوحيد الذي أحبته حقاً، بعد موته مباشرة سنة ١٩٣١ في مجلة «الحديث» الحلبية، وفي جريدة الأهرام، كما سنبيّن في فصل: «ميّ وجبران». ولو كانت تجد فيها تلقت من رسائل الأدباء الذين عاصروها وأحبوها، أو فيها كتبت إليهم ما يخدش سمعتهم وسمعتها لكانت أتلفتها في حياتها. ولكن شاء الحظ أن تحتفظ بها، وأن يحفظها ورثتها، فنُشر منها عدد كبير حتى غاية اليوم يُعدّ من روائع أدب النهضة الحديثة. وكان من حسن الحظ أن يتلقف القراء هذه الرسائل بالتقدير والاهتمام، وأن يتناول موضوع علاقات ميّ بالذين أحبوها وعرفوها وزاملوها كتاب ومؤرخون من وزنٍ كبير أنصفوها وأنصفوهم، فقد ورد في كتاب الأستاذ فتحي رضوان «عصر ورجال» فصل خاص بأدب ميّ وندوتها وصلاتها بكتاب عصرها ورجالاته وشعرائه وضع فيه الأمور في نصابها بأسلوب ينمّ عن عمقٍ في التفكير، ورصانة في التعبير فقال:

(والحق أنه لشيء يثير الدهشة أن تكون ميّ قادرة على إلزام عشاقها ومحبيها حدوداً لا يتجاوزونها، وقيوداً لا يكسرونها، فهي بلا جدال لم تقع في حب واحد من هؤلاء الأدباء الذين كانوا يحيطون بها ـ إلا إذا صدقنا قصة

---

(١) الذين احبوا ميّ ـ كامل الشناوي ـ ص: ١٩.

حبها الفاشل للعقاد. . . ولذلك كانت تتلهى وتستعيض بالحب الصادق، بهذه الباقة من العواطف يقدمها لها أكبر رجال الفكر الذين يحفون بها، ويسارعون إلى إهداء أرق العبارات إليها، متنافسين على خطب ودّها، وكسب رضاها في معركة صامتة لا يُظهر فيها أحد منهم سيفه إذ لا أمل في الكسب، فراحت أجمل وأغرب معركة في تاريخ الحب. . ولا عجب فقد كانت في الشرق العربي، وكانت قيود المحافظة ومراسمها (مرعية للغاية)[1].



الشيخ مصطفى عبد الرازق

ميّ ومصطفى عبد الرازق:

كان هذا العالم الجليل من أصدقاء ميّ ورواد ندوتها الذين أحبوها وقدروها، وكرموها في سائر مراحل حياتها، حباً بالنبوغ، وتقديراً للأدب والثقافة ورقة السجايا، وتكريماً للخدمات التي أسدتها لنهضة الصحافة

---

(١) عصر ورجال ـ فتحي رضوان ـ ص: ٣٣٤.

والمجتمع، وللبيان العربي في كتاباتها. ولد هذا الرجل العظيم في مصر سنة ١٨٨٥ وتتلمذ على الشيخ محمد عبده، وتخصص في الشريعة والأدب ثم أكمل دراسته في فرنسا فأتقن اللغة الفرنسية، وأطلع على تيارات الثقافة الأوروبية. وقد درّس الفلسفة الإسلامية في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٧، ثم عيّن شيخاً للأزهر سنة ١٩٤٥ بعد أن كان وزيراً للأوقاف بعدة سنوات. كان هادىء الطبع، جميل الطلعة، متواضعاً وقوراً، نقي الأسلوب في بيانه، أديباً ومحاضراً ومن كبار المثقفين في عصره، ويكفي أن نذكر من كتبه: «محمد عبده في سيرته» و«تمهيد لتأريخ الفلسفة الإسلامية»، و«الدين والوحي والإسلام»، و«البهاء زهير في ترجمته وشعره» و«مذكرات مسافر»، ونقده لترجمة: «رسالة التوحيد» إلى اللغة الفرنسية التي وضعها «برنارد ميشيل». ولم يتجاسر أحد من الذين جمح بهم الخيال ونسجوا قصصاً غرامية وروايات ملفّقة عن هيام أقطاب عصر النهضة بميّ على تزوير الحقيقة في المشاعر التي كان يكنها الشيخ مصطفى عبد الرازق لميّ، بل كان جلّ ما كتبه كامل الشناوي هو «أنه أحبها في عفةٍ وحياء»... وأضاف يقول إن انطون الجميّل يعتقد بأن هذا الشيخ الجليل عبّر عن حبه لها «بالكلمة المكتوبة، وليس بالكلمة المسموعة»[1] ـ فلننظر في رسائل هذا الصديق المحب إلى صديقته الغالية بأنفسنا فقد أرسل إليها رسالة من باريس يوم قام برحلة إليها فقال لها: (إني أحب باريس، إن فيها شبابي وأملي! ومع ذلك فأنا أتعجّل العودة إلى القاهرة لأن فيها ما هو أحب إليّ من الشباب والأمل!)[2] هذا كلام جميل يمكن أن نأخذه بسماحة فكر فنرى فيه مجاملةً وودّاً ومحبة رائعة، كما يمكن أن نضخمه، ونجنّح كلماته فنرى فيه هياماً وشغفاً جميلين. ويبدو من رسالةٍ عثرنا عليها بخطه أن ميّ أهدت إليه باقة زهرٍ في عيد الفطر فأجابها بهذه العبارات:

---

(١) و (٢) الذين احبوا ميّ ـ كامل الشناوي ـ ص: ٤١.

(مصر ٨ ابريل ١٩٢٧

وصلتني تهنئة سيدتي الآنسة بالعيد إذ أنا ملازم، بأمر الطبيب، فراشي. وقد زاد ذلك رسالتك الخيرة طيب موقع، وحسن أثر. وإذا كنتِ، يا سيدتي، جعلتِ الزهرة اللطيفة سفير تهنئتك فهل تسمحين، بكل ما يحمل هذا القلب من اخلاص، أن يكون زهرةً بين يديك تعبّر عن أصدق العواطف وأعمقها، وعن الشكر كل الشكر.

مصطفى عبد الرازق)[1]

وفي ٩ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٢٧ هنأته ميّ بتوليه تدريس الفلسفة الإسلامية في الجامعة المصرية فكتب إليها، في اليوم ذاته، هذه الرسالة الرائعة:

(سيدتي الآنسة العزيزة

إن لم تكوني وزيرة - يا سيدتي - ولا من المستوزرات عن طريق النهضة النسوية، فإنك أميرة هذه النهضة النسوية في الشرق، بل أنت أميرة النهضة الشرقية على الاطلاق. ويا ليت كل إمارة كانت كإمارتك المحبوبة الجميلة المخيّرة!.

أما كلماتك السامية فقد شجعتني حقاً في الميدان الذي يدفعني إليه القدر من جديد. وإني لهيّوب في الحياة، وقد كنت هيوباً إذ أسعى لإلقاء أول درسٍ من دروسي في الجامعة المصرية فيرسل الله إليّ كتابك مدداً روحياً من تلك الفيوضات القدسية التي تتنزّل بها ملائكة الرحمة، فتملأ النفس ايماناً ونوراً.

وأزجي في الختام إلى ساحتك، ساحة الفضل والأدب، طيب الحمد، وخالص الودّ، وعظيم الاجلال.

مصطفى عبدالرازق)[2]

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٣٩.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٤٢.

وظل هذا الرجل العظيم حافظاً للودّ، مقدراً الفضل وفياً لميّ، غيوراً عليها. لقد زاملها في لجنة الإعداد للاحتفال بعيد المقتطف الخمسيني سنة ١٩٢٥، وكان يحرص على حضور ندوتها فيشيع فيها من علمه ولطفه وأدبه وحديثه العذب سحراً علوياً. وعندما توالت عليها المصائب وفقدت والديها حاول مع العديد من أقرب أصدقائها، التخفيف عنها، وخشي عليها، مثلهم، عواقب التشدّد في الحداد، والعزلة التي فرضتها على نفسها. ثم تناهى إليه أنها مرضت وسافرت إلى لبنان مع قريب لها للاستشفاء، ومن ثم صُعق عندما علم بأنها جُنّت وأُدخلت مستشفى الأمراض العقلية والعصبية (العصفورية) في بيروت.. ولكنه تنفّس الصعداء، إذ علم من أمين الريحاني، وأصدقائها المنقذين في لبنان، أنها كانت ضحية مؤامرةٍ دنيئة، وأنها نجت من سجن العصفورية، بأعجوبة، واستردّت عافيتها، وألقت محاضرة في الجامعة الأميركية ببيروت في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٣٨ كان لها دويّ هائل في كل مكان. ورجعت ميّ إلى القاهرة سنة ١٩٣٩ دون أن تعلم بأنه سعى بوصفه وزيراً للأوقاف آنذاك لرفع الحجر الذي ألقي عليها في مصر أيضاً، لذا رفضت زيارته ظناً منها أنه صدّق إشاعة اختلالها العقلي، وهذا ما لم تغفره لأحد... ومع ذلك شوهد في قاعة الجامعة الأميركية في القاهرة بين المستمعين الذين أموها للاستماع إلى محاضرةٍ ألقتها فيها، بعد رجوعها من لبنان، وهو يمسح دموعه بمنديله عندما رآها على المنبر وقد شاب شعرها، ونحل جسمها، وغاضت نضارتها!! وكانت خطبته في رثائها مؤثرةً للغاية، ونابعة من أعماق وجدان رجل عظيم يقدّر العظماء، وعالمٍ جليل يحترم المرأة ويبجّلها، وصديقٍ كريم بارٍّ بالصداقة ووفيّ للأصدقاء، وقد استهلها بقوله، وبصوته المحزون:

(شهدنا مشرق ميّ، وشهدنا مغيبها، ولم يكن طويلاً عهد ميّ، على أن مجدها الأدبي كان طويلاً في الحياة عريضاً!).

وختمها بهذه العبارات:

(ومنذ أشهر معدودة كنت أشهد حفلة في قاعة الجامعة الأميركية،وانتهى الاحتفال، وأخذ الناس يتبادرون إلى الانصراف متزاحمين بالمناكب، وإذا بسيدة في سمات وقار تأبى الزحام فتستأني. هذه «ميّ» ولم أكن رأيتها منذ سنين، اشتعل رأسها شيباً، وبدت تجاعيد وهنٍ وألمٍ في وجهها السمح يكاد ابتسامها يخفيها ويكاد يخفيها الشعاع المنبعث من نظراتها.

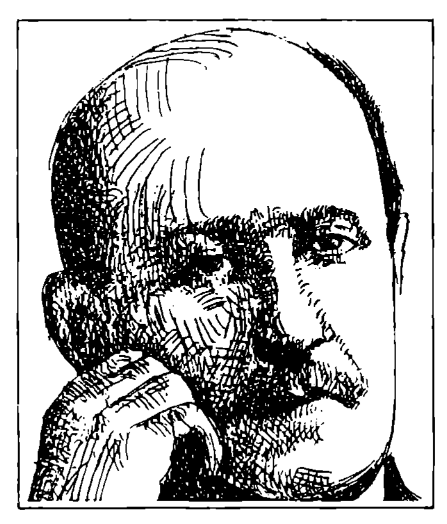
وفارقت «ميّ» بعدما حيّيتها وتحدثت إليها حديثاً قصيراً، ثم أتاني نعيها غير بعيد. كانت ميّ أديبة جيل. وكانت صديقة كريمة. سلام على ميّ!)[1].

ميّ والدكتور يعقوب صروف:

إذا كان عباس محمود العقاد من أعزّ أصدقاء ميّ في حياتها، وأقربهم إلى فهمها وتفكيرها لتقارب السن بينهما، فإن الدكتور يعقوب صروف، العالم والأديب الرصين، صاحب «المقتطف» كان أعز أصدقائها، وأحبهم إليها، وأكثرهم تأثيراً في تألّق مجدها وإسعادها في فترةٍ هامة من حياتها تجاوزت عشر سنوات، ما بين ١٩١٦ و١٩٢٧، سنة وفاته. والدكتور صروف لبناني الأصل ولد في «الحَدث» سنة ١٨٥٢ وتعلّم في «الكلية الأميركية» ببيروت فامتاز بالرياضيات والفلسفة وعلم الفلك، وبعد أن درّس مدة من الزمن في معاهد لبنان، انتقل إلى مصر حيث أسّس «المقتطف» مع فارس نمر وشاهين مكاريوس سنة ١٨٧٦ في الاسكندرية، ثم نقلوها إلى القاهرة سنة ١٨٨٥،كما أنه شارك في إصدار جريدة المقطم سنة ١٨٨٩ ، واعتُبر من مؤسسي النهضة الفكرية الحديثة، ومن أئمة المترجمين عن اللغة الانكليزية، نذكر من كتبه: «سير الأبطال والعظماء» الذي تعاون في ترجمته إلى العربية مع زميله وصديقه فارس نمر، و«سر النجاح» و«بسائط علم الفلك» و«الحرب المقدسة»، و«الحكمة الإلهية»، كما أنه نشر في مجلته «المقتطف» أبحاثاً ودراسات متعددة

(١) ذكرى فقيدة الأدب النابغة ميّ ـ مجموعة الخطب والقصائد التي ألقيت في حفلة تأبينها بدار الاتحاد النسائي المصري في ٤ ـ ١٢ ـ ١٩٤١ ـ ص: ٢٣ ـ ٢٤.

قيمة عن نوابغ الشرق والغرب، وعشرين قصة منها: «فتاة مصر» و«أمير لبنان».



يعقوب صرّوف

لقد سمع الدكتور صروف بسطوع نجم ميّ في الصحافة والأدب، وأعجب بما قرأه لها في مجلة الهلال وجريدتي «المحروسة والأهرام»، وبمحاضرتها: «المرأة والتمدّن» التي ألقتها في النادي الشرقي بالقاهرة في ٢٣ - ٤ - ١٩١٤ وأرسلتها إلى مجلته فنشرت فيها[1]. أما التعارف الشخصي بينه وبينها فقد تمّ في حفلة تأبين الدكتور شبلي شميل التي أقيمت في النادي السوري بالقاهرة في ١٠ - ٢ - ١٩١٧، فتحدثا طويلاً عقب الحفلة، ودعاها إلى التحرير في «المقتطف» باستمرار فاتحاً أمامها بذلك صفحات أكبر مجلة ثقافية وعلمية في الوطن العربي كله. كانت سعادتها بالتعرف إليه، وبما لمسته

(١) المقتطف - ج (٤٤) - عدد يونيو ١٩١٤ - ص: ٥٤٣ - ٥٤٩ - وقد نشرت ميّ هذه المحاضرة مع خطب لها ومحاضرات اخرى في كتابها: كلمات وإشارات - الجزء الأول - ص: ٢٩ - ٤١.

من تقديرٍ لكتاباتها، وتشجيعٍ لها تعادل سعادته بلقائها إذ وجد في شخصيتها النبوغ الأدبي متمثلاً في فتاةٍ عربية، ساحرة في حديثها، ورائعة في طلعتها ورصانتها وثقافتها. لقد حدثنا الدكتور فؤاد صروف عن «ميّ والمقتطف» في كتابه: «على الطريق» فقال:

(وكانت الصلة الأدبية بين هذه الأديبة العبقرية والفيلسوف الشيخ قد أخذت تتوثّق، فكان يرعى انتقالها من الكتابة باللغة الفرنسية إلى العربية أدق رعاية، شأنه في ذلك شأن كبار الأدباء والشعراء في ذلك العصر أمثال أحمد لطفي السيّد، واسماعيل صبري. وكان معجباً بذهنها المتوقّد، واطلاعها الواسع، ودأبها على المطالعة المجدية في كتبٍ صُنّفت بلغاتٍ شتى)[1].

كان حرص الدكتور يعقوب صروف على متانة أسلوب ميّ باللغة العربية كبيراً، لذا كانت تخاطبه في رسائلها إليه قائلة: «أستاذي العزيز» وتعمل بنصائحه، وتتقبّل ملحوظاته بالرضا، فقد قالت له في ٩ ـ ٧ ـ ١٩١٨ في مستهلّ رسالتها إليه:

(أستاذي العزيز، فرغت الساعة من كتابة مقالتي، ولئن أخجلني ما فيها من الضعف فإني سعيدة لأن يدك ستمرّ عليها لتنقّحها).

وكانت تمدحه في رسائلها إليه، وتمازحه، وتناقشه في موضوعات أدبية وعلمية، فيزداد بها حباً واعجاباً ويجد في رسائلها إليه متعة كبيرة كان يستعيض بها عن المشاهدة، مع أنه كثيراً ما كان يترك أعماله في عشيات أيام الثلاثاء لينضمّ إلى رواد ندوتها، غير عابىء بتسلّق السلّم الطويل للوصول إلى البيت الذي كانت تستقبل فيه، ويقع في الدور الخامس من عمارة كبيرة لا وجود للمصعد فيها.. أضحت ميّ بعد أن تعرّف إليها شخصياً «جوهرة ثمينة»، ومع أن الكتاب الذين استأثر الجانب العاطفي من حياتها باهتمامهم

---

(١) على الطريق ـ فؤاد صرّوف ـ ص: ٢١١ ـ ٢١٢.

في الدرجة الأولى عفّوا عن اتهامها بأنها عشقته ، ولم يجعلوه من عشاقها ، فإننا نرى أنه أحبها حباً جماً ، حبّ العالم الشيخ لأديبة شابة تجمعت فيها محاسن النساء جميعاً ، ومفاتن الأديبات كافةً ! أوَلَمْ يقل لها : في إحدى رسائله الجميلة الأولى إليها في ١٧ - ١٠ - ١٩٣٨ ، بعد أن خاطبها بقوله : « عزيزتي الامبراطورة » : (لقد صدقت أنني صرت كثير النسيان فقد ذهبت أمس وغرضي الأول الشكر الجزيل لما رأيت من انشغال بالك عليّ ، وللاحتجاج على رفضكِ الزيارة إذا كانت قصيرة . لقد أحببتك وأكرمتكِ ، وأعجبت بكِ لما أريته من واسع علمك ، ورجحان عقلك ، وسحر حديثكِ ، وروائع أدبكِ ، وكنت أشعر دائماً أن لك قلباً كبيراً شديد التأثر . وقد رأيت دليله الحسي فيما أبديتِهِ من القلق عليّ يوم مرضي . هذا الاتصال القلبي لا ينفصم عراه إلى الأبد إن شاء الله ! إن مكانتك من نفسي يعلم مقدارها علام الغيوب) [1] .

فتح العالم الجليل قلبه لصديقته الشابة المحبوبة، وأخذ يصوّر لها مشاعره ببساطة رائعة، لا يعادلها في الصدق والروعة إلا ما في قلوب الأطفال من صدق وبساطة وبراءة. كان قد أرسل إليها كتاباً باللغة الانكليزية للعالم «أوليفر لودج»، وبعض مجلدات المقتطف لكي تطالعها، ويبدو أنها أعلمته بأنها فرغت من قراءتها، وأوشكت أن تردّها إليه لذا أضاف يقول، في الرسالة ذاتها:

(... فلما قلتِ البارحة إنك ستردّين لي مجلدات المقتطف وكتاب «لودج» شعرت كأنك تريدين قطع سببٍ من أسباب هذا الاتصال. شعرتُ وتألمت، ووقفت مبهوتاً، ولا بد من أن تكوني لحظتِ ذلك، ولُمْتُ نفسي لأنني تهاملت حتى الآن في تحضير المجلدات كلها بخزانةٍ تليق أن توضع في مكتبتك، وعذري الوحيد كثرة أشغالي، ولكنني سأفعل قريبا ليكون عندك

---

(١) - ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٦٥ .

تذكار مني يذكّرك بي بعد زوالي. وما دمتُ في قيد الحياة فإني أجتهد حتى أكون لك دائماً أعز صديق. وإذا وفق الله، وصحّ حلم يجول في نفسي فقد أبقى قريباً منكِ إلى أن تقفي على قبري، وتؤبّنينني)[1].

إن لدينا أدلةً كثيرة على عمق «الحب الأبوي والصداقة الغرامية» التي أنعشت روح الدكتور يعقوب صروف، وغذتها، وألهمتها صفحاتٍ من أدب الرسائل بعث بها إليها على مدى تسع سنين، بفضل عثورنا على تسع عشرة رسالة مخطوطة منه إلى ميّ، وإحدى عشرة رسالة مخطوطة منها إليه حققناها ونشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها». وهي بحقٍ وثائق أدبية هامة كلما أعاد الإنسان قراءتها وجد فيها إشراقةً فكريةً جديدةً، وأسلوباً بليغاً، وترسّلاً لا كلفة فيه، يدنيه من فكر كاتبها وروحه وقلبه. ففي ٢ ـ ١٠ ـ ١٩١٨ وجّه إليها خطاباً ممتعاً حدثها فيه عن أشغاله الكثيرة في المجلة ثم قال:

(أما أنت وكتابُكِ يا حبيبتي فقد رفعاني من بين هذا الحطام إلى «الأتوبيا» التي نحلُمُ بها. أمريضة أنتِ؟ هذا الذي كنت أخشاه، وهذا أشدّ ما يؤلمني، لأنه لا شيء يؤلمني مثل أن أرى نفسي عاجزاً لأحوالٍ وعاداتٍ أودّ أن ألغيها من الوجود. لماذا أُمنع من الجلوس إلى جانب سريرك، وأعمل كل ما في الطاقة لإزالة المرض؟ ولكنني أرجو أن يكون الأمر عرضاً زال، أما كتابُكِ، وكل مكاتيبكِ وأحاديثكِ ففوق ما كنت أنتظر، وما يحقّ لي أن أنتظر، ولولا الغبطة التي أشعر بها كلما فكرت بأنه قامت من بين بنات سورية فتاة تبوّأت أعلى منزلةٍ بين فتيات المسكونة لكان سروري بأحاديثك ومكاتيبك لا يلبث أن يعقبه ما يوازيه من ألم النفس التي تطلب المزيد)[2].

وبعد أن أخبرها بأنه سيزورها قبل السفر من القاهرة مع زميله فارس نمر إلى الريف أبدى تأسفه لاستحالة ذهابها معهما وقال:

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٦٥.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٨.

(هنيئاً للأوروبيين والأوروبيات الذين كسروا القيود القديمة الجائرة. تصوري كم تكون غبطتنا كبيرة لو ركبنا ثلاثة أفراسٍ، وجلنا في تلك الحقول الخضراء نرى غنى الطبيعة فنسمعه ونلمسه، وننظر في عجائب الخلق فنمجّد خالقها. كثيراً ما قلت أنا والدكتور نمر إننا لو لم نتعلم لغات الأوروبيين، ونطالع كتبهم، ونطّلع على أساليب معيشتهم لكنا أنعم بالاً منا الآن ونحن لا نستطيع أن نجاريهم في كل شيء!.

وأنا حالي معك كمن وجد جوهرة ثمينة وهو يعلم أنها ليست له، ولا يفتأ يحسب أن صاحبها آتٍ ليأخذها منه، فهل نعيش على وجلٍ من الافتراق في العالم الآخر كما نعيش في هذا؟ لا أدري، لا أدري! حفظك الله ووقاك من كل شرّ، ودمت لصديقك المخلص.

(يعقوب صروف)[1]

كان الدكتور يعقوب صروف متزوجاً من السيدة «ياقوت بركات» وعديلاً للشيخ ابراهيم الحوراني والأستاذ أسعد داغر، وكان أباً لأربعة أولاد: «نجيب» البكر، وثلاث بنات هن: «إدما» التي تزوجت سعيد باشا شقير، و«إلين» وقد ظلت عزبة، و«أليس» التي تزوجت «ألفرد تويني» في لبنان، وقد شاركته أسرته في حب ميّ، والإعجاب بها، وتبادلت الزيارات معها ومع والديها. لذا كتبت ميّ إليه رسالةً مطولة في ١٥ ـ ١ ـ ١٩١٩ أرسلت في مطلعها تحية للدكتور «هورد بلس» رئيس الجامعة الأميركية ببيروت عامئذٍ، لكي تحيّي في شخصه الكلية التي: (أنجبت لنا من أنجبت، الكلية التي تعلمت أنتَ فيها أبجدية النور، فما كان يومٌ وليلة حتى صارت بلادنا تُحسب بلاداً، وصار لسوريا صروفها وفارِسُها. ولكن الدكتور غادر مصر فاسترجع قوس الغمام ألوانه، وجئتُ أندب إليك فقري... ولكن سوف أحييه يوماً لأني أثق بصحة ما قاله أحد حكماء الهند: «إن ما تشتاقه الأرواح تبلغه

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٥٩.

الأرواح». نعم، سوف أحيّي رئيس الكلية يوماً لأن رغبتي في ذلك أكيدة، ولأن لديّ كلاماً لذلك اليوم في منتهى الجمال. وليس هذا الجمال بصادرٍ عني ولكنه كامن في موضوعي المفعم أنواراً)[1]. هذا ما قالته ميّ في مستهل رسالتها قبل أن تقدّم لصديقها شكرها العميق على هديته الثمينة: مجموعة المقتطف، منذ صدوره، بكامل مجلداته محفور عليها اسمها، وخزانة جميلة من خشب الجوز المحفور لكي تُحفظ فيها مع المجلدات اللاحقة! ثم أضافت تقول:

(أأفصح لك عن كل ما في نفسي؟ إني أعتبر هذه الهدية آتيةً ليس منك وحدك، بل من شخصٍ آخر هو امرأة! إن معرفتي بمدام صروف ضيقة جداً من حيث إنها معرفة اجتماعية، ولكني أعرفها معرفةً أكثر صحةً من معرفة الاصطلاح والاتفاق.. إن رجلاً مثلك لا ينتخب إلا امرأةً من طبقته المعنوية، وإن لم تكن شخصيتها كشخصيته بالضبط فهي مكملةٌ لها. فيكفيني أن تكون أنت قد انتخبت هذه المرأة الكبيرة القلب والعقل، وأن يكون لها في نفسك المقام السامي الذي تحفظه لها لكي أقدّرها قدرها، وأعطيها احترامي واخلاصي. فلا تلمني إذا نظرت إلى كل عملٍ تقوم به أنت كأنه عملها. كل ما أتمناه لك من الخير والغبطة أتمناه لها، وكل شكر أهديه إليك إنما هو يعود إليها لأنها موحية جميع أعمالك، وشريكتك فيها)[2].

وقد بلغت ثقة يعقوب صروف بصديقته الشابة مبلغاً دفعه لأن يوصيها بإعادة طبع آثاره بعد موته: (فما دمتِ يا عزيزتي أصحّ مني حكماً فعسى أن تهتمي بجمع ما تستحسنين جمعه من رسائلي ورواياتي، وتعيدي طبعها ونشرها، وسأوصي أولادي أن يقبلوا حكمك)[3].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٧٠.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٧١.

(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٦٧ ـ ٦٨.

إن للدكتور يعقوب رواية قومية نشرها سنة ١٩٠٥ بعنوان «فتاة مصر» وطبعت عدة طبعات، وقد قرأتها ميّ وأعجبت بها فاقترحت عليه إعادة طبعها سنة ١٩٢٢، وصدرت الطبعة الرابعة منها تحت إشرافها. كما أنه كتب مقدمة كتابها القيّم عن حياة ملك حفني ناصف (باحثة البادية) ونضالها من أجل تحرير المرأة سنة ١٩٢٠، بعد أن كانت قد أعدّت فصوله بطلبٍ منه، ونشرتها في المقتطف الواحد في إثر الآخر.

وفي سنة ١٩٢٥ وجدت أن منِ واجبها أن تقوم بعملٍ تكرّم فيه صديقها الغالي فتولّت بنفسها الإشراف على تنظيم الاحتفال بيوبيل المقتطف الخمسيني، وقد انتخبت سكرتيرة اللجنة المكلفة بهذا العمل، فاستغرق الاهتمام به والإعداد له سنة كاملة، وكان لها موقف مشهود في نجاحه، كتب عنه الدكتور فؤاد صروف، ابن أخيه ما يلي:

(كانت ميّ قطب الجماعة الكريمة التي احتفت بانقضاء خمسين سنة على انشاء «المقتطف» فاجتمع في دارها، تلبيةً لدعوتها، نحو ثلاثين كاتباً وأديباً وشاعراً ووزيراً للتشاور فيه، وفي طليعتهم أقطاب العلم والفكر في ذلك العهد. وقد اختيرت أمينة سرّ اللجنة فوقع عليها عبء العمل، ولم تفتر لها همّة)[1].

ولا بدّ من الإشارة إلى أن جهود ميّ وزملائها تكلّلت بالنجاح إذ أقيم الاحتفال في صيف عام ١٩٢٦ تحت رعاية الملك فؤاد، وألقت فيه كلمةً تليق بالمقام، ثم أصدرت مطابع المجلة كتاباً ذهبياً جمعت فيه الخطب والقصائد التي ألقيت في الاحتفال فوجّه إليها الدكتور يعقوب رسالة شكر تفيض بالمحبة والتقدير أعلمها فيها أن أعضاء اللجنة زاروه في بيته، ووزّع عليهم الكتاب الذهبي مجلداً تجليداً حسناً، ثم أضاف: (وجلّدنا ثلاث نسخ تجليداً مذهباً

---

(١) على الطريق ـ فؤاد صرّوف ـ ص: ٢١٦.

واحدة لكِ، وواحدة لرفعت باشا وزير المعارف، وواحدة لتقدم إلى جلالة الملك وعليها الشعار الملكي)[1].

كان تاريخ هذه الرسالة ٢٣ ـ ١١ ـ ١٩٢٦ وقد دعاها فيها «عزيزتي الامبراطورة». وفي ٦ ـ ١٢ ـ ١٩٢٦ وجه إليها خطاباً جميلاً دعاها فيه: «سيدتي ملكة البلاغة» وركّز على موضوع الرسائل المتبادلة بينهما فقال:

(ولا أدري يا ميّ، لا أدري يا عزيزتي هل حان الوقت لنشر هذه الرسائل مع ما يلزم أن ينشر معها من رسائلي إذا كانت لا تزال محفوظة عندك، أو الأولى والأحكم ترك ذلك إلى ما بعد وفاتي، وحينئذٍ تنشرين ما يحسن نشره من هذه وتلك لعلّ فيه فائدة للقراء)[2].

لم يكن هذا العالم الوقور يجد حرجاً في نشر رسائله إلى ميّ ورسائلها إليه لما فيهما من «مزاحٍ مهذب، ومداعبات فكرية طريفة، وصدق في الترسل، وجمال في الأسلوب»، وهنا ينبغي أن نقول إن الدكتور يعقوب تغزّل بميّ وبجرس صوتها الساحر، وحديثها العذب وهو في السبعين من العمر ليقينه بأنها كانت تتقبل منه العتب والمزاح والمديح لثقتها بعواطفه الأبوية الصادقة، واعتزازها بمحبته لها وغيرته عليها. أما رسائلها إليه فلا نحسب أن ميّ كتبت أجمل منها وأرق وأظرف في حياتها، إنها صفحات من الأدب الرفيع مطعّمة بمشاعر المحبة والإعزاز، وروح النكتة، ونكهة المزاح الرقيق لأنها وجدت فيه حدب الأب، وكرم العالم، وغيرة الموجّه، ونصح المعلم العظيم. لقد أطلعته على همومها الفكرية، ومشاريعها الأدبية، وحتى على أسرار حياتها الشخصية لشدة ما ارتاحت إليه وأحبته. كانت تخاطبه بقولها: «أستاذي قيصر القياصرة»، و«يا ذا التاج والصولجان» و«أستاذي فرعون»، وتوقّع رسائلها إليه باسم: «توت عنخ آمون» أحياناً تحبباً إليه ومداعبة. ومن يتبصّر بما ورد في

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٣٤.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٣٥.

تلك الرسائل تدهشه براعتها في الانتقال من البحث في موضوع فلسفي أو أدبي إلى الاسترسال في حديث ودّي، ومجاملةٍ رقيقة في الرسالة الواحدة. كما يرى في عباراتها مدى ارتياحها إليه وثقتها به عندما أفاضت إليه بالخلاف الذي وقع بينها وبين أمها بسبب عزوفها عن الزواج[1]، وفي اطلاعه على صلتها بجبران عبر المراسلة، وهذا ما لم تفعله مع أحد غيره من أصدقائها، فقد جاء في رسالة بعثت بها إليه مؤرخة في ١٢ ـ ٥ ـ ١٩٢١ ما يلي: (... أتعلم أنه جاءني البارحة رسالة من صديقي وصديقك جبران يخبرني فيها أنه مريض بسبب الاجهاد؟ فخلتني منذ تلك الساعة سائرة حتماً إلى ذلك لكثرة ما أسرف من قواي!)[2].

كما أننا نستجلي خفة روحها وظرفها من رسالة أخرى كتبتها إليه يوم عيد الربيع «شمّ النسيم» وهي من الرسائل التي نشرها الدكتور جميل جبر، فقالت له إن معاكسات كثيرة منعتها يومذاك من مغادرة البيت للتنزه للأسباب التالية: (... فأمي تشكو من ذراعها، وأبي يشكو ألماً في ضرسه، والتلفون «ملخبط زيّ عقل عفريت...» كما يقول البربري... وهذه من الدواهي الصماء حقيقةً... وأنا شكّتني ابرة غليظة تحت ظفر إبهامي، ثم رأت مدموازيل «توتو» أن تتحفني بصداقتها، وتعالجني بطبّها الخاص فعضّت على الإصبع المريضة، ومزّقتها بمخالبها، فقلت ضاحكةً: «ما أشبه القطط بالفلاسفة أحياناً!...)[3].

كانت آخر رسالة بعث بها العالم الفيلسوف إلى صديقته ميّ مؤرخة في ٦ ـ ١٢ ـ ١٩٢٦، قبل وفاته ببضعة أشهر فقط، وقد أعلمها فيها أنه ذهب إلى الريف يوم الجمعة وتمنى لو كانت معه لتستمتع مثله بجمال الطبيعة قرب

---

(١) لقد أوردنا جزءاً من الرسالة المشار اليها في فصل «حياتها العائلية». من هذه السيرة.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٤٠

(٣) رسائل ميّ ـ جميل جبر ـ ص: ٤٩.

بحيرة قارون، ثم رجع إلى مكتبه فأخذ يقلّب رسائلها إليه: فقال: (وقد قضيت أكثر من ساعتين لا في التفتيش بل في المطالعة، أفتح الرسالة، أظنها ما أقصده، فلا أقرأ بضعة أسطر منها حتى تستهويني إذ أرى فيها عقلك وقلبك، وما فِقْت به من ذكاءٍ وأدبٍ ولطف. واستعرضت الأيام والسنين التي مضت بين سرورٍ وحسرة)[1].

ومات يعقوب صروف في صيف عام ١٩٢٧ عن عمر يقارب الثمانين فحزنت ميّ عليه حزناً لا يقل عن حزن زوجه وأولاده إذ فقدت بموته صديقاً كبيراً ليس كالأصدقاء، وأستاذاً وسنداً ونجيّاً، وأبنّته يوم تشييعه بكلمةٍ نقتطف منها المقاطع التالية:

(مات صروف يا آل صروف! فجعنا وإياكم فيه ففقدناه من حظيرة بني الإنسان، فهل رأيتم خطباً تجمّعت فيه خسارات أكثر من هذه الخسارات؟.

مات صروف، يا أبناء صروف وإخوانه وأقاربه وأصدقاءه وتلاميذه! فقولوا هل من أبٍ وأخٍ، وقريب وصديق وأستاذ أحق منه بالإكبار والإجلال؟.

مات صروف يا سوريا! فهل بين أحرارك الذين شرّدهم الظلم والاضطراب والشقاء من هو أطهر جناناً، وأعفّ لساناً، وأسمى امتيازاً، وأحصف فكراً، وأصدق نظراً وحكماً؟.

مات فتاكَ يا لبنان! فتعالى بقممك وغاباتك وأرزك، وهدير أنهارك، وقِفْ حيال هذا النعش مسائلاً بصوتك: «أليس هذا الذي أنجبت بين أفذاذ الأمم»؟)[2].

وبعد أن نعته لمصر معددةً خدماته لنهضتها، وللعالم العربي، وحتى

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٣٥.

(٢) المقتطف ـ ج (٧١) ـ عدد أغسطس ١٩٢٧ ـ ص: ١٨٩ ـ ١٩١ وقد ضممنا

للغرب حيث نشر كنوز قومه بلغته، ونقل إلى قومه خير ما اكتشفت مدنية الغرب، وأبدعت، نعته لعلماء العالم، وللحقيقة مناشدةً إياها أن تقف أمام نعشه وتقول: «هذا هو ولدي! وهذا من صميم أبنائي». ثم قالت: (مات البارحة والبدر سادر في الفضاء يلقي على الظلام غلالة الضياء فكان بذلك رمز الخدمات التي أداها إلى اللغة والعلم والشرق والإنسانية، ودليل على أن الخادم النبيل أدى كل واجبه، وأن الزارع الجليل نثر لقومه جميع الحبوب التي جمعتها الحياة في قبضة يده). وكان هذا النداء ختام كلمتها: (أيها الصديق! أيها الأستاذ! أيها الكاتب والخطيب أيها العلامة الحكيم! يا رجلاً فاضلاً الفضل كله! أيها العظيم بوداعتك وبساطتك، عظمتك بعملك وامتيازك! أنت بجمودك وسكوتك تقول: «وداعاً أيها الأحياء»، ونحن نقول بتفجّعنا ودموعنا: إلى اللقاء في حضن الله!)[1].

تولى الدكتور فؤاد صروف رئاسة تحرير المقتطف بعد وفاة عمه فامتدت صداقتها لآل صروف والمقتطف حتى آخر أيام نشاطها الأدبي. وقد طلعت على قراء هذه المجلة العظيمة بدراسة قيمة عنها وعن صاحبها العالم الراحل، وعن علمه الغزير، ومعتقده الديني، وفلسفته في الوجود وفي الموت كان عنوانها: (الجزء الأول من المقتطف بعد الدكتور صروف). وقد أبى تفجّعها عليه إلا أن يظهر في ختام مقالتها حيث قالت:

(ولكني في الختام لا يسعني إلا أن أذكر أن بين الجزء السالف وهذا الجزء من المقتطف انفتح هناك في مصر القديمة قبر أودعناه عزيزاً. ولا يسعني إلا أن أقرر أن هذا الشهر شهر نوفمبر، شهر الموتى، شهر الذكرى للراحلين. لا يسعني إلا أن أذكر أنه كان الصديق العاقل الوديع العطوف في هذه الحياة التي كثر عندها اسم الصداقة، وندر معناها الصميم.

= هذا الرثاء إلى باقة من مقالات ميّ وخطبها ومحاضراتها لم تكن قد جمعت في كتاب ونشرناه في الجزء الثاني من كتابها: كلمات وإشارات ـ ص: ٧٣ ـ ٧٦.

(١) كلمات وإشارات ـ الجزء الثاني ـ ميّ زيادة ـ ص: ٧٦.

أذكر أننا لن نرى بعد اليوم وجهه الصالح الباسم، ولن نرغد بعد وجوده المحسوس، ومظاهر عطفه، فننقلب هؤلاء الناس الضعفاء الذين تخنقهم العبرات...)[1]



مصطفى صادق الرافعي.

ميّ والرافعي:

حب مصطفى صادق الرافعي لميّ، ورواية حبها له قد شغلا الكتاب والصحفيين في حياتها وبعد مماتها كما لم تشغلهم علاقة حب في تاريخ الأدب المعاصر، وقد صدر كتابان في مصر كبيرا الحجم عن هذه العلاقة أولهما سنة ١٩٣٩، وقد كان عنوانه «حياة الرافعي» بقلم محمد سعيد العريان، وكان قد نشر فصوله في مجلة «الرسالة» سنة ١٩٣٧، بتاريخ ٨ و١٥ و٢٢ نوفمبر

(١) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة - ص: ٨٠ - وكانت هذه المقالة قد نشرت في المقتطف - ج (٧١) - عدد نوفمبر ١٩٢٧ - ص: ٢٦٠ - ٢٦٢.

(الأعداد رقم ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) بصورة مقالات كانت عناوينها بالتسلسل: «هو وهي»، «وهي وهو» و«شعر وفلسفة وحب وكبرياء»، تبسّط فيها بوصف حب أديبة مرموقة لم يذكر اسمها، وحبّ الرافعي الشيخ الأديب. وكان ثانيهما بقلم الأستاذ عبد السلام حافظ هاشم، وعنوانه «الرافعي وميّ» وقد صدر في القاهرة سنة ١٩٦٤، هذا عدا عن فيضٍ من المقالات والدراسات التي نشرت، وما زالت تنشر في الصحف والمجلات العربية حتى يومنا هذا، ومن أهمها كتاب حسين حسن مخلوف: «مصطفى صادق الرافعي حياته وأدبه» . وما أن صدرت مقالات سعيد العريان سنة ١٩٣٧ ، في حياة ميّ زيادة وبعد وفاة الرافعي ببضعة أشهر عن هذين الأديبين المرموقين حتى هبّ الدكتور زكي مبارك، صديق ميّ القديم، للدفاع عن الحقيقة فأرسل إلى صاحب «المكشوف» الأستاذ فؤاد حبيش خطاباً مفتوحاً من بغداد حيث كان يدرّس في جامعتها، هذا بعض ما جاء فيه، بعد أن استنكر ما نشرته «الرسالة» عن غرام ميّ بالرافعي: (وأنت تعرف أني لا أبالي المعارك الأدبية، ولكن موقفي من هذه المسألة دقيق لأني قد أتّهم الرافعي، رحمه الله، بالتزيّد وسوء الأدب، إن صحّت رواية العريان، ولكن القول بأن ميّ أحبته وأغرمت به، وتهافتت عليه، كلام لا يقول به إلا إنسان مخبول!.

بقي الكلام عن سرائر ميّ، وكانت لها سرائر من الحب الدفين، فهل ترى من الذوق يا سيد فؤاد أن نفصح عن هذه السرائر تلبيةً لما سمّيّتهُ أنت رغبة الأوساط الأدبية؟ لقد حدثتمونا أن ميّ لا تزال صحيحة فلتعرف في صحتها المنشودة أن في الدنيا أصدقاء نبلاء يبغضون اللغو والفضول. أعذرني أيها الصديق إذا طويت ما أعرف من شؤون الآنسة ميّ، وقد صحبتها أربع سنين في الجامعة المصرية يوم كانت أطيب من العطر، وأرق من الأملود المطلول! وغضبة الله على الأدب والأدباء إذا استطاعت الألسنة أن تمضغ ذلك العرض النبيل!.

أيها الزميل، أرجو أن تذكر أن الذي كتب ذلك الكلام هو أديب

«عريان»، وبعض أهل العري لا يستحون!)[1].

ما أجمل غضبة الدكتور زكي مبارك للحق والصداقة والأخلاق الكريمة! كان هذا الأديب الكبير أول من دافع عن صديقته التي كانت وقتئذٍ منكوبةً في صحتها ومالها وحريتها.

لنبدأ القصة، قصة هذا الحب الغريب المثير الذي ملأ الدنيا وشغل العقول من أولها: كان الرافعي أديب جيل النهضة بلا منازع وكان أسلوبه: (كله ذهب رنان) كما قال عنه الدكتور منصور فهمي، وكان بيانه (كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم) كما قال سعد زغلول عن كتابيه: «إعجاز القرآن»، و«تحت راية القرآن».

وكان الرافعي من طبقة المحافظين على القديم في أسلوب خاص به، ورائع في متانته وجماله وجدّة معانيه. وكان الرافعي، وهو من مواليد سنة ١٨٨٠ متزوجاً شقيقة الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، صاحب: «البيان» منذ سنة ١٩٠٤ ، وقد رزق منها البنات والبنين ، كما كان محباً لها وعطوفاً على أولاده ، وسعيداً في بيته . وكان الرافعي رجل دين متمسكاً به وبالتقاليد العربية ، ذا خلق كريم ، يعمل في دوائر طنطا القضائية ويقيم فيها ، ولكن عاهة الصمم التي بلي بها عقّدته نفسياً في حياته الاجتماعية ، وحالت دون طلاقة لسانه .

تمّ اللقاء الأول بينه وبين ميّ في حفلة تأبين أقيمت في القاهرة للكاتب : « فرح أنطون » وكان كل واحد منهما قد سمع بالآخر ، وقرأ له ، فدعته لحضور ندوتها الأسبوعية، فشكرها، وأهدى إليها ما كان قد نشر من كتب، وشكرته عليها برسالة مجاملة واعجاب. ولما كان الرافعي معجباً بأدبها، ولا سيما بحبها اللغة العربية، وبيانها السليم، فقد لبّى دعوتها، وزارها في أحد أيام الثلاثاء من سنة ١٩٢٣، فرحّبت به أجمل ترحيب، إجلالاً لقدره وعلمه

---

(١) المكشوف ـ ج (٤) ـ العدد ١٣٣ ـ تاريخ ٣١ ـ١٢ ـ ١٩٣٧ .

ومكانته، فتوهم أنها آثرته على سواه من رواد الندوة! لهذا كتب أحمد حسن الزيات، صاحب الرسالة الذي عرف ميّ جيداً، وعرف الرافعي جيداً: (لقد كان لمي ولصالون ميّ في أدب العصر آثار وسمات: ألهمت صبري، وأوهمت الرافعي، وألهبت جبران)[1].

وانصافاً لميّ لا بد من أن نقول إنها كانت تهتم اهتماماً زائداً بسائر الكتاب والشعراء من صفوة أعلام عصرها الذين كانوا يحضرون ندوتها، تلاطف كل واحدٍ منهم على حدة، وتؤانسه بحديثها العذب، وعباراتها الساحرة فيخرج من الندوة سعيداً، منتشي النفس، يحسب أنه حاز اعجابها، وظفر بمودتها أكثر من سواه! ويحسب (أنه بات أقرب ما يكون من عتبة الحبّ المنشود)[2] على حدّ قول الأستاذ فتحي رضوان الذي عرفها عن كثب، وتوهّم أنه ظفر بمكانة خاصةٍ عندها، ووجد في المجاملات التي كانت تدور في مجلسها غزلاً مستوراً، واجماعاً من أولئك الأقطاب على كسب ودّها في تحفظٍ واحتياط.

وكيف لا يقع مصطفى صادق الرافعي تحت سحر ميّ في حديثها، ولطفها، وجرس صوتها، وجاذبيتها، وعلمها ونطقها وهو الأديب الشاعر الفنان الذي كان للمرأة وللجمال سلطان هائل عليه؟ كان الرافعي يجد في الحب (ونؤكد هنا على نعتِ حبه بالسموّ والنبل) ينبوع الشعر، ومصدر الوحي، والحافز على استنباط الدرر من قلبه وفكره وقلمه. وكان، على وقاره، رائق النكتة في مجلسه ومفرط الحساسية بسبب عاهته، شديد الاعتزاز بنفسه وأدبه، عنيفاً في حبه وخصومته على حدٍ سواء. لذا خرج من أول زيارة للندوة مأخوذاً بميّ، مفتوناً بسحرها وقد سيطرت على قلبه ولبّه. وقد دام حبه لها حتى آخر حياته سنة ١٩٣٧، وظهرت نفحاته في ثلاثة كتب من أدبه الرفيع: «رسائل الأحزان»، الذي نشر سنة ١٩٢٤، و«السحاب الأحمر»، سنة

(١) وحي الرسالة ـ الجزء الثاني ـ أحمد حسن الزيات ـ ص: ٣١٥ ـ الطبعة السادسة.
(٢) عصر ورجال ـ فتحي رضوان ـ ص: ٣٣٥.

١٩٢٥و «أوراق الورد» الذي نشر سنة ١٩٣١. لقد أوحى إليه حبه لميّ رسائل عاطفية وفلسفية من آيات أدبه الرائق ضمّنها الكتب المشار إليها، وأخذ يرسل إلى ميّ خطابات يعرب فيها عن مشاعره المشبوبة بعد أن تمّ بينهما أول لقاء في ندوتها، فأذهلتها جرأته وحرارة عواطفه.. وقد عثرنا على خمس عشرة رسالة مخطوطة منه إليها مؤرخة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٣ جعلناها عمادنا في هذا البحث الدقيق الذي تناولته بعض الأقلام بالتحريف وبالتزييف أحياناً. كما أننا سنردّ على سعيد العريان وتخيلاته المثيرة للشك في أقدس مشاعر الرافعي من جهة، وفي سلوك ميّ معه من جهة ثانية، بعد استعراض مضمون هذه الرسائل الهامة. من المؤكد أن الرافعي أحب ميّ حباً روحياً عنيفاً، وأنه تمسّك بحبه لها، على الرغم من صدّها، لأنه وجد في الحب ينبوع إلهام، ولأنه كان يرى أن الحب مكمّلٌ للفن حتى ولو جاء من الهجر! وهذا بعض ما كتبه في مقدمة كتابه أوراق الورد:

(وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل كان كله نظرة أخذت تنمو، وبقيت تنمو. وهو حب قد كان من نمائه وجماله وطهره كأنما ازدهرت به روضة من الرياض، لا امرأة من النساء، وكان من مساغه وحلاوته ولذاته البريئة كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتصر الحلاوة في أثمارها أصابع النور)[1].

كان الرافعي رجلاً ذكياً فأحس بأن عاطفته الملتهبة نحو ميّ، تلك العاطفة التي غذت فكره وروحه، وأوحت إليه روائعه الأدبية، لم تلق عند الحبيبة أي صدى، فعاتب مرةً وغضب ورضي، وثار مراتٍ، ثم اعتذر واسترضى في هذه الرسائل المخطوطة التي ضمَّن بعضها أبياتاً من الشعر. ونحن نستجلي منها أن الحب غلبه في سائر الأحوال، وأنه لم يجد غضاضة من أن يبوح إليها بلواعج نفسه منذ أن تعرف إليها، فكان يبعث إليها بالرسالة تلو الرسالة من بلدة طنطا حيث كان يقيم، مع أنه كان يحضر ندوة الثلاثاء

---

(١) أوراق الورد ـ مصطفى صادق الرافعي ـ ص: ٢٢.

في كل أسبوع في سنة ١٩٢٣. وهذا نص الرسالة الأولى:

(سيدتي الآنسة النابغة:

لو أن في فصل الكلام عندنا «أما قبل» بدلاً من أما بعد لحسُن ذلك عندي إذ أشير إلى هنيّةٍ كانت في قصرها كحياة الزهر، وفي منفعتها كزاد الدهر. وأي بليغ يراكِ ولا يعرف منكِ فناً جديداً في حسن معانيه وبيانه، ويعرفكِ ولا يرى فيكِ أبدع البديع في ما يعانيه من افتتانه.

لله الحمد أن جعلنا نتلقى الماء، ولم يجشمنا أن نصعد من أجله إلى السماء، ولك الفضل إذا قبلتِ وصفك على قدر ما يُخطّ بالحبر، لا ما يخطر في الدماء.

قدّمت في البريد شيئاً من كتبي ولا ريب في أنها قد رأت في كتابتي إياها معنى من النقص، فاليوم يسرني أن أهديها إليك لتستمتع من نظرك إليها بمعنى الكمال.

وحفظك الله للفضل والأدب، وللمعجب بك.

مصطفى صادق الرافعي)[1]

لم يسبق لمي أن تلقت مثل هذا الغزل بمثل هذا البيان فردّت على رسالته معربةً عن اعجابها بأدبه، وشكرته على هديته الثمينة، ولم تنقض أيام معدودات حتى وجّه إليها رسالة ثانية مؤرخة في ١٢ ـ ٣ ـ ١٩٢٣ هذا مطلعها:

(سيدتي:

تلقيت رسالتك باليدين، وكنت أحسبني جئت باختراع في «أما قبل» فإذا بك أبطلته بما أتممتِ عليه وبما أبدعت من قولك أما قبل تبشّر بأما بعد. رأيت في خبرٍ عن بعض علماء الأندلس أنه أملى من حفظه ثلاثين كراساً على

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢١٠، وقد نشرنا صورة الرسالة المخطوطة في الصفحة ٢١١.

قول سيبويه: «هذا باب ما الكلم»، وبسط فيها الكلام على مائة وثلاثين وجهاً، على أن كلمتك يملى عليها ملء صدر لا ملء كتاب)[1].

واعلمها بأنها اتصلت بالتلفون مع الدكتور صروف وهو جالس عنده يتحدث عن فضلها وأدبها فقال (وما أعجبني شيء ما أعجبني هذا المعنى الصامت في ذلك المعنى المتكلم) كما هو واضح في صورة الرسالة....

سيدتي

تلقيت كتابك بالبريد وكنت أحسبني حقيقاً بأن أتبرع في ما قبل فإذا بك أبطلت بما أتممت عليه وبما أبدعت من قولك ما قبل تبشر بما بعد.

رأيت في خبر عن بعض علماء الأندلس أنه أملى سيبويه حفظه تلاميذه كراسة في قول سيبويه (هذا باب ما الكلم) وبسط فيها الكلام على مائة وثلاثين وجهاً على أن كلمتك يملى عليها ملء صدر لا ملء كتاب.

أما ما أثنيت به على المجرد المنزه، فإني أحمله على محمله من كرم نفسك وسمو أدبك إذ يأبى كل ما هو منك الآن يدل بظرفه وجماله على أنه [illegible] الاتفاق والمصادفة، كما وقع في يوم الجمعة الذي سلف إذ كنت عند شيخنا الدكتور صروف وبينما أنا من الكلام على فضلك وأدبك في مثل حال ذاكر الأندلسي مع كلمة سيبويه إذا بالتلفون وإذا أنت المتكلمة فيه. فما أعجبني شيء ما أعجبني هذا المعنى الصامت في ذلك المعنى المتكلم.

وإن الصمت عند هذه الكلمة ليعد من حسن الختام. وحفظك الله كما حفظ جمال الروض في خضرته، ورعاك كما رعى كمال الحسن في نضرته والسلام

طنطا في ١٧ ٣ سنة ١٩٢٢ — مصطفى صادق الرافعي

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢١٢.

قد تكون هذه المغالاة في المديح والتحبّب تقليداً مألوفاً في ذلك العصر، مستساغاً عند أبنائه، ولكن الإغراق في المديح ليس مقبولاً ولا محموداً في أي عصر من العصور لذا نستشفّ من رسالة الرافعي اللاحقة إلى ميّ أنها آثرت التوقّف عن الكتابة إليه، وذلك لما ورد فيها من عتبٍ ظاهر، ونوع من الامتعاض من سكوتها حين قال لها، في ٦ ابريل ١٩٢٣:

(سيدتي الفاضلة:

بعثت إلى المقتطف منذ أيام بمقال في شعر صبري باشا، رحمه الله، ثم علمت بالأمس أنه قدّم إليك أبياتاً من نتفه. فإن صحّ ذلك وكانت هذه الأبيات مما انبعث من روحه فإني أشكرك كل الشكر إذا تفضلت بارسال نسختها إليّ فقد تعبت في البحث عما لم يُنشر من شعره، ولقيت لذلك أكثر أصدقائه.

وأرجو ألا تذهبي في الضنّ بهذه الأبيات مذهبك مع كتابٍ أرسلته إليكِ فكان كلاماً لمن لم يقبله بذلناه، وسلاماً لمن لم يردّه أرسلناه، وقولاً يا ليتنا ما قلناه، والسلام.

(مصطفى صادق الرافعي)[1]

تذرّعت ميّ بالصبر إزاء حساسية الرافعي المفرطة والمتعبة وأرسلت إليه خطاباً مطولاً ضمنته أبيات اسماعيل صبري التي طلبها منها فهلّل لرسالتها وكبّر، وفرح ومجّد في جوابه عليها المؤرخ في ١٢ - ٤ - ١٩٢٣! هذا ما أدركناه من كلامه حيث قال:

(. . . وأما أبيات المرحوم صبري باشا فكتابتك إياها شعرٌ مع الشعر، وارسالها إليّ نوع من النوعين، ورأيته مقصّراً فيها وعذرته، وهو رحمه الله كان بيتاً وبيتين، وما عسى البيت والبيتان في مملكه)[2].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٢١٣.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٢١٥.

ويبدو أنها قالت له في رسالتها إنه من أهل «البحور والأوزان» فاستاء من هذا النعت، وردّ عليه بهذه العبارات:

(أرجوك أن تخففي من ايلامي باعتباري من أهل «البحور والأوزان» وأهل القريض، وما التفّ بهذا المعنى الذي دار في كتابك إلى جهات، فما كتبت ما كتبت من تاريخ الأدب وغيره إلا لأخرج نفسي من هذه الفئة، وهم على ما رأيت في بلادهم وفي أنفسهم سواء... ولست أكره إلا أفعالهم وطباعهم، ومن مشاهيرهم من لم أره حتى اليوم، وأشهرهم رأيته مرةً واحدة ولم أعد!)[1].

كان الله في عون ميّ في مداراة هذا الرجل الغريب الأطوار، ولا ريب في أنها بدأت تتضايق من كثرة رسائله إذ (تلقت أربعاً في غضون أقل من خمسة أسابيع بعد تعرفه إليها شخصياً، كما رأينا)، وتتضايق كذلك من عتبه السريع إذا ما تأخرت بالجواب، ومن تدقيقه في كل حرف وكلمة تخطها إليه، بدافع ارتيابه بمراميها.. ومن حقها أن تتضايق لأنه توهّم أنها فُتنت به كما فُتن بها، وأخذ يحاسبها على تقصيرها معه، وإهمالها خطاباته، وتجاهلها تلميحاته المحرجة كقوله لها في الرسالة ذاتها:

(وذكرت نشيد سعد، وحسبتني مَلَلْتُ انتظار شكركِ عليه، وما إياه عَنَيْت، وهل انتظر من سيدة القلم العربي في التاريخ كله أن تشكرني لمثل هذه الصفحات الملفّقة؟ ولكن ألم تنتهِ إليك رسالة ذكرت فيها يوماً كنت فيه عند الدكتور صروف؟ فهي هي، وما أدري كم يوماً أتى على ارسالها، ولكنها أيام من الآلام!)[2].

ودُهشت ميّ، «سيدة القلم العربي في التاريخ كله»، كما سماها، من آلامه، بل من أيامٍ من الآلام انقضت عليه منذ أن كتب إليها الرسالة المؤرخة في ١٢ ـ ٣ ـ ١٩٢٣. ومن حقها أن تُذهل لسؤاله، وإلحاحه، وأن

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢١٥.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢١٦.

تُشفق على عالمٍ وقور وأديب مشهور مثله، طيّر الحب صوابه، وأضحى به معذباً، كثير الشكوك والظنون، متألماً يأكل بعضه بعضه، وقد بلغ به التهوّر حداً غيَّر صورته في نفسها. لقد ساءها أن ينشغل عقله الكبير بأمور صغيرة تتمنى أن ينصرف عنها إلى ما هو أجدى، وعجبت لاعتقاده بأنها يجب أن تبادله هياماً بهيام، أشاءت أم أبت!! لقد كان الحكماء القدامى على حقٍ عندما قالوا: ويل للشجي من الخليّ!! وكان الرافعي نفسه محقاً عندما كتب في مقدمة كتابه: السحاب الأحمر، المستوحى من عشقه لها هذه العبارات: (لا يصحّ الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر: «يا أنا...» ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنف ما في الخصومة إذ هو تقابل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة... وأكثر خصمين في عالم النفس: محبان تباغضا)[1].

ذلك لأن الأمور تطورت بينه وبينها بسرعة فائقة، فتحوّل الصفاء في علاقتهما العجيبة إلى نكدٍ، والصداقة الغرامية إلى بغض، لأنه أخذ يلحظ فتوراً في سلامها عليه، والترحيب به في أيام ندوتها، بل أخذ يستشعر بأنها تبدو أكثر احتفاءً بأصدقائها الكتاب أمثال العقاد وطه حسين ولطفي السيد ومصطفى عبد الرازق، وأنهم كانوا يتهامسون فيما بينهم عندما يصل من طنطا إلى بيتها، فظن أنهم يتحاملون عليه، ويتغامزون، فكتب إلى الحبيبة من حديقة قصر النيل في القاهرة، عقب ارفضاض الندوة رسالة مسمومة نكتفي بنشرها ولكننا نلفت انتباه القارىء إلى الحاشية المكتوبة في أسفلها، وقد تبينّا أنها أضيفت على رسالة الرافعي بعد وصولها إلى ميّ وأنها بخط الدكتور يعقوب صروف إذا ما قابلنا خطها بخطّه في رسائله إلى ميّ. ومن هنا نستنتج أنها اطلعت صديقها الكبير صروف على رسالة الرافعي فأضاف عليها

---

(١) السحاب الأحمر - مصطفى صادق الرافعي - ص: ٢١ - ٢٢ - من الطبعة السابعة الصادرة عن المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٩٥٨.

الكلمات الظاهرة متمنياً لو قال الرافعي في الشطر الثاني من آخر الأبيات التي صدّر بها رسالته:

ليست تحبُّ سوى أن لا تحبَّ فما أعصى الدوا إن غدا من حبها دائي

حديقة قصر النيل في ٧ يوليو ٩٢٦

يا نسمةً في ضفاف النيل سارية
تسري التحية من ناءٍ الى نائي
يا ليت ريّاك هزّت قلب هاجرتي
فتشعر بمعنى رقة الماء
ليست تحب سوى أن لا تحبّ فما
أعصى الدوا إن يكن من حبها دائي[1]

هذا وإن النفس تنازعني إليك ولكني لم أتطفل على أحد من قبلك ولن أتطفل عليك مرتين.

تقول الشمس والقمر والنجوم فإذا أنتم تريدون أن نراكم من مرصد فلكي وتكون بيننا خطوات فإذا هي مسافات الفلك فيا ليت أما قبل لم يكن لها أما بعد والسلام

م. ر.

(١) حبذا لو قال في الشطر الثاني: «فما أعصى الدوا إن غدا من حبها دائي».

ليقين صروف وسائر رواد الندوة أن حبه لميّ التي لا تحب أحداً غدا داءه العضال!.

وما هي أسابيع حتى ضاق صدر الرافعي من صمت ميّ، وصدّها وإهمالها الكلي له فكتب إليها رسالة مقتضبة، خاطبها بقوله: «حضرة الفاضلة» ثم قال:

(كتبت إليك من أسابيع وكان للكتاب ناحيتان إن أغفلتِ إحداهما لم تستطيعي أن تغفلي الأخرى فإنك أديبة، وهذه إحدى الناحيتين.

لعلني كنت مخطئاً فيما فهمت منذ «أما قبل» لكنكِ أنتِ تركتني أخطىء الفهم، بل أردتِهِ، فلا ذنب لي.

وأما بعد، فقد حطمت تلك القيود وستعرفين ذلك، وتالله ما كنت أحسبك في أدبك ورقّتك ترمينني قبل هذا، ولكن كم تصنع الجرأة وكم تغرّ، ولعلنا ابتلينا بطه حسين مذكراً ومؤنثاً والسلام.

مصطفى)[1]

ترى هل أخذت ميّ كلامه هذا على محمل المسبّة، أو على محمل الإطراء؟ والمحبة؟ الأرجح أنها فهمت منه ما أراد لها أن تفهم لأنه كانت بينه وبين طه حسين، وحتى بينه وبين العقاد خصومة لاذعة، عرفها دارسو عصر النهضة ولم يشهدوا ما يماثلها في عنفها وإقذاعها. ولا بأس من اعطاء فكرة سريعة عن تلك الخصومة الفكرية بين هؤلاء الأقطاب الثلاثة فإنها تعود إلى سنة ١٩١٢ يوم كان كل من الرافعي والعقاد يكتب في مجلة «البيان» فحمل العقاد حملة شعواء على كتاب الرافعي: «إعجاز القرآن»، وهبّ الرافعي يهاجم العقاد وشعره في مقالاتٍ لاذعة كان ينشرها في مجلة «العصور» ثم جمعها ونشرها في كتابه المشهور: «على السفود». وأما الخصومة بين الرافعي وطه حسين فقد بدأت بشكل معركة كلامية سنة ١٩١١، بعد أن نشر الرافعي

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٢٩.

كتابه «تاريخ آداب العرب»، فقد كان طه حسين يومئذٍ طالباً فنشر مقالة ينقد فيها هذا الكتاب ويقول إنه لم يفهم صاحبه، لأنه عُرف شاعراً لا مؤرخاً.. وتخرّج طه حسين من الجامعة فبدأ يكتب مقالات في «السياسة الأسبوعية» شدّت انتباه القراء والأدباء لما فيها من أسلوب متين، وفكر مشرق، فانتقم الرافعي لنفسه ونشر مقالة ذمّ فيها أسلوبه، وعاب عليه التكرار، وتربّص الكاتبان كل منهما للآخر، إلى أن سنحت الفرصة لبدء المعركة الأدبية الكبرى بينهما سنة ١٩٢٤. ففي تلك السنة نشر الرافعي كتابه «رسائل الأحزان» فنشر طه حسين نقداً لاذعاً له في «السياسة الأسبوعية» رافعاً بذلك راية العداء، وردّ الرافعي عليه متهكماً، ساخراً، متحدياً، فذكّره ببيت المتنبي:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم!

وهكذا اندلعت شرارة الحرب بينهما، وأصابت حممها طه حسين بعد أن نشر كتابه: «في الأدب الجاهلي» سنة ١٩٢٥ إذ اعتبره الرافعي كفراً وضلالة، في مقالاتٍ نشرها في مجلة «كوكب الشرق» ألهبت النفوس، وانتهت بأزمةٍ سياسية وعقائدية كان لها دويّ كبير في أوساط الأزهر والجامعة المصرية والحكومة التي أمرت بسحب كتاب طه حسين من المكتبات، وأوصلت القضية إلى دوائر القضاء. ولا بد من ذكر كتاب الرافعي القيّم: «المعركة تحت راية القرآن» الذي نجم عن هذه المعركة، وتضمّن آراء الرافعي في القديم والجديد، وفي الأدب والدين، وقد ظلت الخصومة بين طه حسين والرافعي عنيفة حتى وفاة الرافعي سنة ١٩٣٧.

وإذا عدنا إلى ما كان بين ميّ والرافعي سنة ١٩٢٣ نرى أنه أعلمها بأنه لم يكن يحسب أن ترميه «بكل هذا»، وأنه «حطّم تلك القيود» منذراً بأنها «ستعرف ذلك» ومعلناً بأنه ابتلي بطه حسين مذكراً ومؤنثاً!! وإننا نرجّح أن جفاء ميّ معه وصدّها له كانا السبب في غضبه وتهجّمه عليها في تلك الرسالة، ويا ليت الأمر بينهما توقف عند هذا الحدّ، فإن ما حدث بعد ذلك يشير إلى أنه تفاقم وأدى إلى ازعاج الطرفين، والقطيعة بينهما، بسبب ارتياب

الرافعي بمشاعر ميّ نحوه، وظنه بأنها عنته شخصياً في مقالة نشرتها في مطلع سنة ١٩٢٤ عن « عائشة تيمور » . . . لقد جاء في هذه المقالة وصف لبيئة الشاعرة التيمورية ، وكلام عن المتطفلين والثقلاء ففار دم الرافعي وأرسل إليها في ١٩ يناير ١٩٢٤ الكلمة التالية :

(سيدتي :

لم أتناول مقتطف يناير إلا اليوم وقد كان منذ ورد في يدٍ أخرى. وقرأت مقالك فنفذ إليّ من بعضه كلام مسموم لا يكذبني فيه الحسّ أبداً، وما كنت أحسبني أقع منك هذا الموقع، ولا أنا ممن يمضغون هذا المضغ. فإن كان لا يرضيك في الاعتذار إليكِ إلا أن اعتذر حتى من معرفتي بك فتقبلي اعتذاري، ولك الفضل.

مصطفى)[1]

تلقت ميّ عبارات الرافعي بالاضطراب دون شك لأنها لم تكن من النساء اللواتي يتعمّدن التجريح بأحد، فكتبت إليه في الحال تبرّىء نفسها من الاتهام الذي واجهها به، وتنكر أنها عنته في مقالتها، ولقد أدركنا ذلك من ردّه على رسالتها المؤرخ في ٢٣ يناير ١٩٢٤ الذي نكتفي بنشر صورة عنه، وفيه تعبير صريح عن ثورة الرافعي ، ورغبته في ألا يكون المقصود بما قالت في مقالتها عن المتطفلين المزعجين. ويلحظ القارىء أن الرافعي تمنى ألا يكون المقصود بما نوّهت به ميّ عن ازعاج المتطفلين الثقلاء للناس وذلك عندما قال لها: (. . . استحلفك بحقك أنتِ ألم أكن في خيالك بعض تلك الأسطر أو كلها؟. وقد استحلفتكِ فأجيبي). كما تجلى تمنيه بأبيات الشعر التي ألحقها برسالته حيث عبّر عن حبه لها، وحزنه لمعاداتها له. فماذا ترى كتبت ميّ في تلك المقالة عن التيمورية ، وهل قصدت حقاً الرافعي به ؟ لقد ورد فيها بحث قصير عن إساءة بعض الناس إلى التيمورية في حياتها، وهم من المتطفلين

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٤٧.

الثقلاء بهذه العبارات: (. . . طبعاً هم كذلك أصدقاء المجتمع، والأصدقاء السطحيون، والآخرون المتقمصون في أثواب الأصدقاء، المتكلمون بلسانهم كيف يُركن إليهم؟)[1] وبعد أن أوردت بيتاً من الشعر للتيمورية عن اضطرارها لإخفاء أساها علقت ميّ عليه فقالت: (وقد تخفيه احتشاماً وصيانة لكرامة الألم، وقياماً بالواجب الذي يمتهنه أولئك الذين يكرهون الناس إكراهاً على مخاشنتهم، ومقاطعتهم، لأن الجفاء هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من تطفّلهم. يزعجون الناس بلا مراعاة فيخسرون حتماً عطف القلوب. يتجاهلون أن لكل شيء حداً طبيعياً، وأن أعصاب بني الإنسان ليست من حديد فلا تحتمل النواح والشكوى والإلحاح والمضايقة إلا لحين)[2].

ويبدو واضحاً أن ميّ نفّثت عما في صدرها في هذه العبارات، وعنت الرافعي بما قالت، وأن حدسه لم يخطىء.. وإذا أنعمنا النظر بأسلوب الرافعي في التعبير عن حبه لمي، وإلحاحه المتواصل لكسب ودّها، ورسائله المتلاحقة إليها المتعبة لما فيها من تلميح، وتدقيق، ومحاسبة، وعتاب، وشكوى فإننا لا نستغرب أن يكون صدرها قد ضاق، وفكرها قد اضطرب، وصبرها قد نفد! يضاف إلى ما نقول ما علمناه من المؤرخ الأستاذ عبد السلام حافظ هاشم حيث كتب يقول: (والرافعي بكبريائه في حبّه، وبغريزة حبّ التملك المعنوي للحبيبة لم يكن ليعجبه أن تنصرف إلى غيره في حضرته. . . وجاء اليوم الأخير لتركب رأسه الكبرياء وهو يرى «ميّ» منصرفة في حديث طويل مع أديبٍ مثله، وما كان ليسمع ما يدور بينهما، ولكنه توهّم أن زميله هذا في نشوةٍ، ولِمَ لا؟ فإن كل الأدباء كانوا يطوفون بالنادي الذي يشعّ بالظرف إلى جانب الأدب، والحديث الشائق. وكان يومها المجمع الوحيد الذي تهيئه امرأة

---

(١) و (٢) المقتطف ـ ج ٦٤ ـ عدد يناير ١٩٢٤ ـ ص: ٣ وقد جمعت ميّ مقالاتها عن عائشة التيمورية ونشرتها في كتاب يحمل اسمها عنواناً صدر في القاهرة سنة ١٩٢٥، والمقاطع المذكورة تقع في ص: ١١٣ ـ ١١٤ منه.

فأصبح لها فضل الهام الكثيرين، وما بها من ريبة، بل إنها المثل السامي للبراءة والأدب النسويّ الرفيع)[1].

وهدأت العاصفة قليلاً، عاصفة غضب الرافعي، ولكن حدّة غيرته النابعة من شدة هيامه، وحرصه على رضا الحبيبة لم تهدأ، فهو مصمّم على حبها، سواء أرضيت أم صدّت لأنها أضحت عروس إلهامه ولأنه لا يستطيع أن ينتج أدباً متميزاً بالجودة والإبداع بدون هذا الحب. وكانت ميّ قد نشرت كتابها «الصحائف» في أوائل عام ١٩٢٤ فأهدت إليه نسخة منه بدافع لباقتها وكرهها للخصومة، فتلقى الكتاب بفرح وكتب إليها في ١٥ ـ مارس ١٩٢٤ هذه الرسالة القصيرة:

(سيدتي، تلقيت هديتك الثمينة من كتاب «الصحائف» الذي زاد في صحائف حسناتك، ولا ريب في أن كل كتاب تضعينه يتحوّل كتاباً في الثناء على فضلك وأدبك فيغني عن كثير. على أنه إن فاتني ثناء أهديه لم يفتني واجب من الشكر أؤديه والسلام.

مصطفى صادق الرافعي)[2]

في تلك الأثناء كان الرافعي يهيء كتابه: «رسائل الأحزان» للطباعة، وهو من وحي حبه لميّ الذي ولّد الأحزان في نفسه الحساسة المرهفة، وقد أورد فيه رسائل على لسان حبيبته كانت من انشائه هو دون أن يصرّح باسمها حفاظاً عليها، وكتبه في ستةٍ وعشرين يوماً فقط، حسبما ورد في جوابه على نقد طه حسين له، في مقالة نشرها في السياسة الأسبوعية. وتنبغي الإشارة إلى أن العقاد تناول هذا الكتاب بالنقد العنيف على صفحات «البلاغ الأسبوعي»، كان فيه الكثير من التحامل والتجني، كما فعل طه حسين، لأنه كان لكل واحدٍ منهما ثأر عليه. . . ولكن «رسائل الأحزان»، وما نشر الرافعي

---

(١) الرافعي وميّ ـ عبد السلام حافظ هاشم ـ ص: ٤٥.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٥١.

بعده من وحي حبه لمي، ونعني «السحاب الأحمر»، ومن ثم «أوراق الورد» هي من روائع الأدب العربي في القرن العشرين، دبجها بريشته الملهمة، وضمنها فلسفته في الحب، ورأيه في استحالة الفكاك من أسره. ونحن لا نضيف جديداً عندما نقول إن الرافعي أثرى المكتبة العربية الحديثة بمؤلفاته المشار إليها لما في رسائله إلى الحبيبة، ورسائلها إليه التي ابتكرها من جمالٍ في التعبير، وغوصٍ على المشاعر في المضمون، فهي بحق من أبدع ما كتب العشاق المعاميد في أدب القرن العشرين. كان سعيداً في حبه، وحزيناً به، وكان قلبه مكسوراً في هذا الحب بدليل ما قال لمي، في ختام رسالة أخرى بعث بها إليها في ٦ مايو ١٩٢٤:

(. . . والآن والله عاودتني كلمات يناير، ومن شؤمها أنها لا تخطر إلا لرجل يقول بعض أجداده: «لو علمت أن شرب الماء يثلم كرامتي لتركته!» فلعلها خطرت لأقف عند هذا الحدّ والسلام.

وهذا القلم الذي أكتب به أيضاً مكسور)[1].

مصطفى)

وبعد أن أرسل هذا الخطاب بأيامٍ قليلة كتب إليها مجدداً من طنطا يستعجل جوابها على تسلّم كتابه «رسائل الأحزان» الذي سلّمه كما قال لصديق الطرفين فؤاد صروف بهذه العبارات:

(كانت النسخة الأولى التي خرجت من «رسائل الأحزان» هي التي سلمتها للصديق فؤاد صروف يرسلها إليكِ، وقد أرسلها كما أخبرني. غير أني ما زلت أخشى أن يكون خادمهم طمع فيها بتأثير اسم الكتاب عليه. . وإلا فإن كانت قد وصلت وقوبلت بهذا الصمت الطويل فذلك شرّ من فقدها)[2].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٥٩.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٦٠.

٦ مايو ١٩٢٤

وإذا لم أكن على الأرض كما قلت فإن الشر كذلك لا يبقى على الأرض وخاصةً إذا كان
من شر الكهرباء الذي منه ما يكون حريقاً ومنه ما يكون صاعقة.
أما هذه التهنئة البديعة التي تفضلت بها فإني لا أقدر الآن أن أقدرها تمام قدرها على أني إذ كنت لا أستحقها
وكنت أيضاً لا أنتظرها وهذا أحرى أن يضاعف فضل كرمك وشكرها مني
غداً أو بعد غد إن شاء الله يصل إليك الكتاب الجديد ووددت لو تعلمين من خبره فقد
كنت أفكر فيه من سنتين وكتبت منه قطعة نشرت في الصحف ثم أهملته إذ سئمت
الكتابة من غير باعث. فلما كنت في تأبين صاحب الجامعة أصبت الباعث الذي أريد
وقاومت لي مقاومة شديدة ولكنه خرج لي على ما كنت أقدر فظهر ولم يعد إلى أن
كان مقال بالرحمة [illegible] وسكوت كاتبه عنه بعد أن بينت له رسالته فانقلبت منه
نفسي في ثورة شديدة عنفت على أشد العنف وحينئذ جاء الكتاب كما جاء.
وقد كتبت فيه (أنا) مقدمة وخاتمة أما سائره فلذلك الصديق الذي أظنه أيضاً قد
طار بأثره ووقع ولكنه لم يكتب كلاماً خفيفاً (بأستاذي) كما فعلت أنا إذ تقدمت
إليك به .....
فإذا قرأت الكتاب رجوت أن تعرفيني رأيك فإني لا أعلم لأحد غيره. والآن وإليها ودرس
كلمات بالرحمة شؤونك أنها لا تخطر إلا لرجل يقول بعض أجداده « لو علمت أن زري
يعلم كرامتي لنزعته » فلعلك خطرت أوقف عند هذا الحد والسلام عليك
وهذا القلم الذي أكتب به أيضاً مكسور..

طنطا في ١٥ مارس ٩٢٤

كانت النسخة الأولى التي خرجت من «رسائل الأحزان» هي التي سميتها للصديق فقد أردت أن أرسلها إليك وتقديمها لك كما أخبرتني. فرأيت ما زلت أخشى أنه يكون خارجها طمع فيك تبادر اسم الكتاب بعلم ... والآن فإن كانت قد وصلت وتوسلت بهذا الصمت الطويل فذلك شر من فقدها.

كنت أحب أن أعرف رأيك في هذا الكتاب فإن ضننت به فذلك إليك على أن الناس قد سروا منه وبعضهم فيه مبالغة جرت في إدراكه — فمنهم من يقول لي إنه فلتة من فلتات الدهر فيقول: وحي الكتب صاحبنا الأديب النخل صاحب عبقرية وعبقري إنه معجزة. والجمهور الكتاب كأنما يظهر في الناس إنه معجزة ولكن من يدري لعل هناك من يرى أنه .. إنه ماذا؟ أظن أن أحسن تعبير وألطفه أن يقال إنه كلام سخيف يا أستاذ......

فإن يكن هذا فذلك هذا بيد أني لا أحب الآن أن يحيط بك شك ولا أشك يحيط بالأمر [illegible] لم يكن فيه إلا أنك فيه. والسلام مصطفى

ويتضح لنا من تتمة الرسالة المؤرخة في ١٥ مايو ١٩٢٤ أنه كان مزهواً بكتابه، وعلى أحرّ من الجمر لمعرفة رأيها فيه: (كنت أحب أن أعرف رأيك في هذا الكتاب فإن ضننت به فذلك إليك، على أن الناس قد سُرّوا به، وبالغوا فيه مبالغة حرت في ادراك سببها، فمن الأدباء من يقول إنه فلتة من الفلتات، وآخر يقول إنه وحي. وكتب صاحبنا الأديب الفحل «صادق عنبر» في «الأخبار» أنه معجزة، وأصبح الكتاب كأنما يطير في الناس بأجنحة، ولكن من يدري لعل هناك من يرى أنه .. أنه ماذا؟)[1].

ليس عسيراً أن نتصوّر ما أصاب ميّ من حرجٍ في صلتها بهذا الكاتب الجريء، ولكنها آثرت مداراته على الإغراق في مجافاته، وقد روت للكاتب أسعد حسني، في أواخر حياتها سنة ١٩٣٩، (بعد أن نشر سعيد العريان كتابه عن «حياة الرافعي» وذكر فيه قصة حبه لها المتبادل) كيف تعرّفت إلى الرافعي، وكيف رحّبت به عندما زارها، واضطرت لكتابة ما أرادت قوله له في مجلسها على وريقاتٍ بسبب صممه، ثم قالت له إنه راسلها وأجابت على بعض رسائله، ولم تتجاوز مجموعة الخطابات التي كتبتها إليه في شؤون أدبية عدد المؤلفات التي نشرها الرافعي... ثم أضاف الأستاذ أسعد حسني ما يلي:

(قالت لي ميّ ذلك والدهشة ترتسم على وجهها للجرأة على التأريخ التي أوحت إلى من أرّخ حياة الرافعي بكتابة ما كتب!!)[2]؟

لقد قاطع الرافعي ندوة ميّ سنة ١٩٢٤ وما بعدها ولكنه لم يقطع صلته بها، إنما ظلّ يراسلها، من حينٍ إلى آخر، وفي نفسه غصّة، وفي قلبه أمل باستعطافها واسترضائها. كان يفرح إذا ما بلغه أنها ذكرته بالخير في غيابه فرح الأطفال، أليس المحبون أطفالاً، كلمة طيبة تبهجهم؟ والدليل على ما نقول رسالة بعث بها إليها في شهر أيلول (سبتمبر) من تلك السنة فقال:

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص ٢٦٠.
(٢) مجلة العالم العربي - عدد مايو ١٩٥٥ - ص: ٦.

(سيدتي، قدم إلينا أخي محمود فأخبرني بما لقي من سلام التحية عندك وما وسعه من أدبك وفضلك، ثم وصف فأجمل، وأثنى فأحسن، ثم نقل إليّ تحيتك الغالية. وله لسان محامٍ يجعل الكلمة ألفاً فلا جَرَم إن أطال وأطاب، واستهلّ كالسحاب، وتكلم ملء كتاب. وقد جعلني مثابة شكره لك، وألزمني الكتابة في الشكر إليك، وقال إنه لا ماء بعد الشط، ولا يحسن خطه مع هذا الخط)[1].

يبدو أن ميّ ردّت على رسالته وتحيته بمثلها، وربما بأحسن منهما بدافع تهذيبها الجم، وحرصها على تجنّب الوقوع فريسة لسانه وقلمه اللذين لا يرحمان أحداً... فأجاب في الحال على رسالتها في ١٧ يناير ١٩٢٥ فقال في مستهلها:

(سيدتي الفاضلة، لو جاءت رسالتك من سنة لمنعت كتابين، وأرجّح أنها منعت ثالثاً كان يسوؤ ني جداً أن أكتب فيه...)[2].

إننا نكتفي بهذه العبارات دليلاً على أنه كان عازماً على تأليف كتابٍ ثالث يُفرغ فيه غضبه ويفصح عن تألمه من اهمالها له، وما توهّم من مناصرتها العقاد وطه حسين في التهجم عليه ومخاصمته علانية. وقد أفاض في الحديث عما ناله في العام الماضي من جرّاء سكوتها بعد أن صبّ حمم غضبه في إثر ما ورد في مقالتها عن عائشة التيمورية المنشورة في المقتطف، فقال: (فقدّري الآن بإحساسك الرقيق مبلغ ما رميتني به، وتأملي كيف تكون حالة من لم يجن عليكِ شيئاً. أترين تسميم الدم كله، ومرض ثلاثة أشهر، والأنفلوانـزا، و«الرسائل»... شيئاً كثيراً؟ على أني أصبحت أرى أنك لم تخطئي، وإنما كانت مادة القدر لا بد أن تُكتب، وقد كُتبت)[3].

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٦٤.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٧٤.
(٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٧٤.

وأخيراً حلّ السلام بينهما، وأدرك الرافعي أن ميّ لم تخطىء معـه، فارتاحت نفسياً، كما نتصوّر، بعد طول عناء وقلق وانزعاج لأن مشـاغلها الحياتية، وأعمالها الفكرية، وهمومها الشخصية كانت تغنيها عن تحمّل هموم عاشق ملحاح وكاتب كبير، لسانه سليط، يتخذ الحب وسيلة للوحي الأدبي والإنتاج الفني!!!

نعم لقد ران السلام على علاقتهما، وبقي الرافعي بحبيبة روحه هائماً، على ودّها مقيماً، ولمشاعره الصادقة نحوها معرباً، وها هو يكتب إليها من طنطا في ١٠ يوليو سنة ١٩٢٦ فيقول:

(ها أنذا أكتب إليك وما أنا وحدي كتبت بل هناك من يملي... إن الأفكار تلحّ عليّ شديداً. وقد جاء ذلك الطيف فعتب واستعتب، ورضي وأرضى، أفلا يؤخذ الموكل بما تكفّل به وكيله؟..

لا أريد لكِ ولا لي هذا الموقف المتعب بالرضا الغضبان، والغضب الراضي، فليتها لم تكن صداقة إذا كانت لا تبقى كما هي، ولا تنقلب كما تكون العداوة. وأنا واثق أني غير متطفل إذا قلت لك إني « في حاجةٍ للعودة إلى ذلك الينبوع الحيّ الكامن في داخلي». إن لك يا ميّ كلمات تكتبينها فلا تمسين الصفحة بقلمك بل تمسّين هذا القلب، ولقد بالغتِ في إيلامي بكثير منها لأنها تصنع في قلبٍ واحدٍ ألم قلبين.

هل قرأت كتاب طه[1]؟ وهل رأيت شيئاً مما كتبته عنه؟.

انتظر ردكِ فلا تسيئي إليّ وإليك معاً، وهبي الذنب كان مني فليكن منك الذي هو أحسن وأجمل، ولعل هذا يرضيك والسلام.

مصطفى)[2]

---

(١) يعني الرافعي كتاب طه حسين: «في الشعر الجاهلي».

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٣١.

وكان آخر ما عثرنا عليه من رسائله المخطوطة إليها كلمة تهنئة بعيد الميلاد، مؤرخة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ، هذا نصّها :

(أرجو أن تتقبلِي مني خالص تهنئتي بعيدك ما استزيد الله لكِ منه، واستديمه عليك داعياً أن يحفظك للعربية غرّةً لائحة في مجد آدابها، ودرّةً واسطة في عقد كتابها، والسلام.

مصطفى صادق الرافعي)[1]

إن من حسنات الرافعي، هذا الأديب الفذّ، صاحب الدين والأخلاق اغفال ذكر اسم ميّ في روائعه الثلاث المستوحاة من حبه لها، ومن حسنات ميّ أنها عالجت أمرها معه بحكمة، واعتبرت حبه لها صداقة، أما رسائلها إليه فمن المؤسف حقاً أنها لم تظهر حتى اليوم، مع يقيننا بأنها موجودة في مكان ما ، فقد اتصلنا بأهل الرافعي في مصر وعلمنا منهم أن أديباً عراقياً أخذها منهم لنشرها. وإذا تبصرنا بكتاب محمد سعيد العريان: «الرافعي وميّ» نجد فيه الغثَّ والسمين، والصدق والتلفيق، والإفصاح عن هوية ميّ، وهي ما زالت بعد على قيد الحياة! فلقد استعرض حياة الرافعي العاطفية، وروى قصة حبه الأول لفتاةٍ لقيها في مطلع شبابه على جسر «كفر الزيات» طاب له أن يسميها: «عصفورة»، وأوحت إليه أكثر قصائده الغزلية المنشورة في الجزء الأول من ديوان شعره. ثم روى أنه أحب نساءً غيرها على مثال حبه لها وكأنه كان يفتّش عن واحدة ليقول لها: «تعالي نتحابّ لأن في نفسي شعراً أريد أن أنظمه، أو رسالة أريد أن أكتبها! . . .» (ومن ثم أحبَّ أديبة شاعرة تُعجب بدقة التعبير، وجمال البيان، كانت تعقد ندوة أسبوعية في بيتها، كلّ ثلاثاء!)وهذه أوصاف ميّ بكل وضوح!! ويقول العريان إنه عرف الرافعي سنة ١٩٣٢، فتوطدت بينهما صداقة متينة، وأطلعه الرافعي على أسرار حياته العاطفية، فما هي مآخذنا على كتاب العريان؟ إنها كثيرة ولكن لا بد من إيجازها، ومنها أنه أسرف في الوصف والتزويق فتجاوز الحقيقة، وجنح

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤١٨.

للتخيّل، ولا سيما عندما قال: (سعى الرافعي إلى مجلسها يوم الثلاثاء، سعي الخليّ إلى اللهو والغزل، يلتمس فيه مادة الشعر وجلاء الخاطر، وصقّال النفس، ومجلسها هو ندوة الأدب ومجمع الشعراء، وجلس إليها ساعة، وتحدثت إليه وكان كل شيء منها ومما حولها يتحدث في نفسه. ولمسه الحب لمسة ساحرة جعلت في لسانه حديثاً، ولعينيه حديثاً. وطال انفرادها به عن ضيوفها فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه... وقامت تودعه إلى الباب وهي تقول: «متى تكون الزيارة الثانية؟» فنهى نفسه عن الهوى، ونسأ الأجل إلى غدٍ، ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد، ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان في أيامه، وكل من عرف، لتملأ هي نفسه بروعتها ودلالها وسحرها، وانتزعها هو من أيامها فما بقي لها من أصحابها وصواحبها غير مصطفٍ شغلةً في الليل والنهار. وهذا تصغير اسمه مصطفى على قاعدة الترخيم، وصوابه «صفّي»، والرافعي على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصاً على استعماله لأنها هي رضيته، وكانت تتحبّب به إليه... فلا كان سيبويه، ولا كان أبو علي، وأبو حيان إن رضيت هي!)[1].

وكيف لا يكون العريان متجاوزاً الحقيقة ومسرفاً في التزويق والتحريف وقد أكد أكثر الذين عاصروا ميّ ولازموا ندوتها، وأكثر الذين كتبوا عنها بموضوعية أنها لم تكن تنفرد بأحدٍ منهم لا إبان انعقاد الندوة ولا قبلها ولا بعدها، وأنها لم تكن تلك المرأة اللعوب اللاهثة وراء الرجال المتعمدة إغواءهم بدلالها وسحرها، وأنها لم تعشق الرافعي، فكيف يجوّز العريان لنفسه الافتراء على أديبة محتشمة، محترمة مثل ميّ شهد معاصروها وروّاد ندوتها جميعاً، على اختلاف أعمارهم ومراكزهم ونزعاتهم، بأنها كانت امرأة جديةً في سلوكها، مغالية في القسوة على نفسها، شديدة الحرص على سمعتها، فأنى لها أن ترفع الكلفة مع الرافعي وتناديه باسمه مصغراً تحبباً به وهياماً!؟ وأما قوله بأن

---

(١) حياة الرافعي ـ محمد سعيد العريان ـ ص: ٧٩ ـ ٨٠.

الرافعي وقع من نفسها كما وقعت من نفسه فهذا كلام مختلق، مثل رواية تصغير الاسم، ونستغرب أن يكون الرافعي قد قالها للعريـان، وإن كان يشتهي، في قرارة نفسه، أن تكون قد حدثت فعلاً . . . ناهيك عن أن ميّ كانت غارقة في حب جبران، مشغولة به سنة ١٩٢٣، وقبلها بسنوات! لهذا علقت الأديبـة وداد سكاكيني عـلى افتراء العـريان عـلى ميّ بأنها شغفت بصديقه، ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه فقالت:

(هـذا وهم من الـرافعي، وإن رواه صـديقـه العـريـان، وحسبـه حقيقة)[١].

كما ورد في كتاب العريان كلام كثير لا يمت إلى الواقع بصلة كقوله مثلاً: (وكان الـرافعي أول من يغشى مجلسها يـوم الثلاثـاء، وآخـر من ينصرف). وجوابنا عليه هو أن الرافعي لم يكن في يوم من الأيام آخر من كان ينصرف من مجلسها، في المرات المعدودة التي غشيه، ما بين سنة ١٩٢٣ و١٩٢٤ ، وإن كان أول من يقدم لحضوره ، لأن ميّ كانت تستبقي أصدقاء لها خلّص، في بعض الأحيان منهم الدكتور شبـلي شميّل، وأحمـد لطفي السيد، والدكتور طه حسين، في السنوات الأولى التي عقبت تأسيس ندوتها، فتقرأ لهم بعض مقالاتها،أو تعزف لهم على البيانـو، وتغني ألحانـاً غربيـة وشرقية، ومنها الأغنية القديمة المعروفة: «يا حنيّنة» كما ذكر الدكتور طه حسين في مذكراته[٢]، وفي حديثه إلى محمد عبد الغني حسن[٣]. ومن مآخذنا على سعيد العريان خلط الواقـع بالخيال في كتابة قصة هذا الحب حيث تخيّل حواراً بين ميّ وصديقه دار حول الحب وفلسفته ليشوّق القارىء ليس غير. . ومغالطات كثيرة وقع فيها، وتناقض عجيب في أقواله، وتزييف لما حدث بين هذين العلمين حيث قال إن القطيعة بينهما دامت ثلاثة عشر عاماً، وهذا ما

---

(١) ميّ زيادة في حياتها وآثارسا ـ وداد سكاكيني ـ ص: ١٢٦ .

(٢) مذكرات طه حسين ـ دار الآداب ببيروت ـ ص: ٤٧ ـ ٤٨ .

(٣) ميّ اديبة الشرق والعروبة ـ محمد عبد الغني حسن ـ ص: ١٨٠ .

تدحضه رسائل الرافعي إلى ميّ التي أوردنا مقاطع منها آنفاً، وكانت الأخيرة منها بتاريخ ١٩٣٣! أما عن رسائل ميّ إليه، فلا ندري لِمَ لم ينشرها العريان وهو يزعم أنه اطلع على بعضها: (... على أن الرافعي أقرأني رسالة أو رسالتين بخط «فلانة» إليه وهما، وإن لم تدلاّ دلالةً صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب، لا تنفيانها كذلك، بل لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النفي، والحذر من طبيعة المرأة)[1].

إن لدينا كتاباً آخر عن «الرافعي وميّ» صدر سنة ١٩٦٤ بقلم الأستاذ حافظ هاشم، أي بعد انقضاء سبعةٍ وعشرين عاماً على صدور كتاب العريان يجلو لنا الصراع الذي عاناه الرافعي بين قلبه وعقله ودينه، وخشيته من أن يوصف بخيانة زوجه لإشغال قلبه بغيرها. ويقول إن هذا الصراع هو الذي دفعه إلى مصارحة زوجه بما يخالج قلبه من عاطفةٍ روحية قوية نحو ميّ، فأصغت إليه بهدوءٍ، وقرأت رسالته إليها التي أعطاها إياها لتطلع على مضمونها، ثم طوتها، وسمحت بارسالها... (وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجته، كما قرأت رسالته، وصار هذا دأبهما من بعد، لا ترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف، ولا يرى على نفسه في ذلك ملامة ما دامت زوجته تعرف...)[2] وللكاتب مقالة في ذكرى الرافعي الثلاثين أكد فيها على أن الرافعي كان رجل تقوى وفضيلة، إلى جانب كونه من أعلام البيان في عصره، وإن زوجه كانت حقاً امرأة عاقلة، ومحبةً ومتفهمة، فقال: (ولقد عرفت زوجه المتكاملة كيف تفهم رجل الفكر وترعاه في كل جوانب حياته حتى أمدّته بذلك الهدوء النفسي المرجوّ لكل فنان، ووفّرت له وسائل الطمأنينة المنزلية، وجعلته يعيش لفنه ورسالته)[3].

---

(١) حياة الرافعي ـ محمد سعيد العريان ـ ص: ٨٠.

(٢) الرافعي وميّ ـ عبد السلام حافظ هاشم ـ ص: ١٣ ـ ١٤.

(٣) قافلة الزيت ـ الرافعي في ذكراه الثلاثين ـ عبد السلام حافظ هاشم ـ عدد مايو ١٩٦٧ ـ ص: ٢١.

وهنالك كتاب ثالث هام عن «الرافعي في حياته وأدبه» صدر سنة ١٩٧٦ بقلم الأستاذ حسين حسن مخلوف الذي عرف الرافعي شخصياً سنة ١٩٣١، وقد ردّ فيه على سائر ما كُتب عنه، وعلى مغالطات سعيد العريان ومبالغاته في كتابه «حياة الرافعي». وقد أنصف الأستاذ مخلوف كلاًّ من الرافعي ومي ووضع الأمور في نصابها، وجلى الحقيقة المشرّفة في صلة الرافعي بميّ مستنكراً اتخاذها وسيلة لرواية قصص خيالية حبّاً بالإثارة والتشويق، على حساب القيم الإنسانية، والأمانة التاريخية.

كما صدر للكاتبة المصرية الدكتورة نعمات أحمد فؤاد كتاب في مصر سنة ١٩٦٣ بعنوان: «دراسة في أدب الرافعي» ردّت فيها على سعيد العريان دفاعاً عن ميّ، وهاجمت فيها الرافعي ونقدت كتابه «أوراق الورد» فقالت: (ترى لو كان الرافعي يرى في نفسه الرجل الكفء لميّ الأديبة المرموقة وسيدة المجتمع المشهورة هل كان يعمد إلى كل هذه التخريجات والتركيبات والافتعالات في غزله؟ إن الرجل السوي القويّ بمركزه وصفات العقل والنفس فيه يستطيع بكلمة بسيطة طبيعية أن يرضي المرأة المحبوبة، بل إن هذه الكلمة منه تسعدها.. لهذا اعتقد أن المسألة بالنسبة للرافعي كانت عملية تغطية، عملية بَهْرٍ، ولكن المسكين خرج بعد الجهد المضني الذي بذله في «أوراق الورد» بنتيجة عكسية، فبدلاً من أن يبهر «ميّ» بهر سعيد العريان!)[1].

ولكن أفضل ما قيل في روائع الرافعي المستوحاة من حبه لميّ قولان: الأول لعبد السلام حافظ هاشم وهذا نصّه: (كان الرافعي آنذاك يستحضر أفكاره، ويستوحي كبرياءه، ويقبل على يراعه فيبثها أحزانه، وينفث إليها بخبره وشجونه وأوهامه في «رسائل الأحزان» نثراً وشعراً، وقد قال في تعريفها: «هي رسائل الأحزان، لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لأنها إلى

---

(١) دراسة في أدب الرافعي - الدكتورة نعمات فؤاد - ص: ١٢٨.

الحزن انتهت، ثم لأنها من لسانٍ كان سِلْماً يترجم عن قلب كان حرباً، ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة، وكان كالحياة ماضياً إلى قبرٍ. . .)[1].

أما القول الثاني فهو للأمير مصطفى الشهابي العالم والأديب، فقد كتب ما يلي: (وعندما أحبّ الرافعي الأديبة اللبنانية «ماري زيادة» التي عرفها الأدب العربي باسم ميّ، كتب عنها ثلاثة كتب كلها خطابات إليهـا. . . الكتاب الأول سماه «رسائل الأحزان» فلم ترد عليه ميّ بكلمة واحـدة، فاشتدّ حبه، وزاد حزنه، وأصبحت خطاباته دماً أحمر كما يقول هو، ثم جمعها في كتاب سماه: «السحاب الأحمر». وقد ظلّ ذلك السحاب الأحمر يغشى حياته حتى مات)[2].

هذه قصة ميّ والرافعي قصة حبٍ فريد في إغرابه شغل أديباً عظيماً فعاش خمسة عشر عاماً من عمره في ظلاله، ينهل من ينبوعه ليؤلّف كتباً في الحب وفلسفته بأسلوب هو خليط من أدب الجاحظ وابن المقفع وابن حزم، ونفحاتٍ شعرية تذكّرنا بأبي فراس الحمداني وابن زيدون برقتها وحنينها. وقد كان الفضل فيها للنابغة ميّ التي كانت في سلوكها الاجتماعي وصلاتها مع رواد ندوتها مثال العصمة والرقة في آنٍ معاً، كما كانت في علمها وأدبهـا مدرسةً بحدّ ذاتها تشرئب الأفكار إلى النهل من معينها عبر العصور.

ميّ وشبلي الملاط:

روى لنا هذا الشاعر الكبير الذي كان في طليعة شعراء العرب في النصف الأول من القرن العشرين في الفخر والغزل والوصف والشعر الروائي والوطنيات أنه تعرف إلى ميّ في لبنان فقال:

(ومن سنة ١٩١١ حتى سنة ١٩١٣ كانت لنا في مصايف لبنان مجالس

---

(١) الرافعي وميّ ـ عبد السلام حافظ هاشم ـ ص: ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) الهلال ـ عدد مايو ١٩٨٠ ـ ص: ٥٩.

أدب وشعر ونوادر، وكانت واسطة عقدها المحدثة الساحرة ميّ زيادة حين تغشى لبنان في الصيف، وتقطّع أيامه مرةً على نبع الصفا، وحيناً في زحلة، وأياماً في صوفر وضهور الشوير. ثم جمعتني بها في مصر الحفلة التي أقيمت في نادي الجامعة المصرية تكريماً لشاعر القطرين خليل بك مطران، وكنت يومئذٍ من المتكلمين على منبر الجامعة، وكلانا نجح ووجّه الأنظار. ومن أجل هذا النجاح حكم علينا منظم الحفلة سليم سركيس، صاحب مجلة «سركيس» الخفيف الروح، من قبيل القصاص، بانشاء عدد من مجلته نصفه بقلم الآنسة ميّ، والنصف الثاني بقلمي، وكان ذلك سنة ١٩١٣)[١].

إننا نحمد الله على نجاة ميّ ونجاة شبلي الملاط من تهمة العشق، ومن تلفيق روايات عنها! لقد أعجب بميّ، وسحره علمها وحديثها، كسائر الذين اتصلوا بها في عصرها، لكن تعبيره عن ذلك الاعجاب المبنيّ على مودةٍ صافية، واعتزاز بالنبوغ، كان تعبير شاعر مرهف،وأديب أصيل، ينضح بالرقة والغزل العفّ سواء في رسائله إليها، أو في قصائده المستوحاة منها.

لقد رافق ميّ ووالدتها في نزهة إلى القناطر الخيرية بالقاهرة سنة ١٩١٣، ومروا بجسر على النيل في طريقهم إليها، فكان لقاء أدبياً ممتعاً ألهم الملاط قصيدة من أرق الشعر الغزلي، عارض فيها قصيدة للحصري: يا ليلُ الصب متى غده، فقال:

يا أهل الوادي لي قمرٌ	بسماء الوادي مطلعه
وبجفني الساهر مسكنه	وبقلبي الذائب موضعه،
بنقاب الليل تحجّبه،	وبدرع الفجر تمنّعه،
والشاعر طوع ارادته	يمشي، والشاعر يتبعه
ما أنسى الرمل ومبسمه	بلآلىء البحر يرصّعه

(١) ديوان شبلي الملاط ـ الجزء الثاني ـ من المقدمة بقلم الشاعر ـ ص: ٣٣ ـ دار الطباعة والنشر اللبنانية .. بيروت ١٩٣٨.

مـا أنسى الـجسـر وسـائـلتي: هـل عـنـدك شيءٌ نـسمعُـهُ؟
يـا ميُّ حـديثي عـن دنـفٍ   قـد طـال وزاد تـلـوُّعُـهُ

وقبل أن يغادر مصر عائداً إلى لبنان زار الملاط مي في بيتها مودعاً ، وخرج منه مساءً بعد أن شاهد قمر شهر أيار (مايو) على محياها ، مسحوراً بحديثها فطاب له أن يرسل إليها بطاقته في البريد وعليها هذه العبارات :

(شبلي ملاط، مندوب لبنان الأدبي في مصر، مع الألم يودّع الآنسة النابغة صديقته ميّ، ويسرّه الاعتراف بأن بدر مايو الذي رآه على محياها الخلاسيّ الجبلي قد رافقته أنواره في شهر نوار، ويتمنى لو أنه بقي طيلة حياته على تلك الشرفة، شرفة إيزيس الساحرة!!)[1].

ولا ريب في أن ميّ كانت تتلقى هذه الأشعار والرسائل الجميلة منه ومن أمثاله بالابتسام المعبّر عن الرضا، إذ لا توجد في العالم امرأة لا تطرب لمثل هذا المديح والغزل العفّ ولا سيما إذا كانت الأديبة الشاعرة ميّ، وإذا كان هذا المديح والغزل آتياً من أصدقاء لها أدباء وشعراء، لا يرقى الشك إلى متانة أخلاقهم،وحسن نواياهم، ولكنها كانت تتجاهل ما يكتبون إليها، كما رأينا، وإن كتبت إليهم فإنها تجود عليهم بعبارات التقدير والتكريم لأدبهم، وتسترسل في المسامرات الأدبية. وقد أرسلت إلى شبلي الملاط، نسخة من كتابها: باحثة البادية بعد صدوره سنة ١٩٢٠، فقال الملاط:

(وانشأت ميّ كتاب «باحثة البادية» وأهدت إليّ نسخة منه فأكببت على مطالعته. وفي الكلمة التي شكرتها فيها على هديتها شكوت إليها أن كتابها شغلني يومين كاملين عن دغدغة طفليّ: شوقي ووجدي. . . ولقد أجابتني بقولها: «عرفت من ظرف الكتاب ذلك الخط الخاص الذي يرتسم فيه خيال الشاعر، وقوة الرجل معاً ، أما الرسالة الخصوصية التي أتحفتني بها فقصيدة منثورة لا يضيع رونقها ولا بجوار قصائدك المنظومة، ولكن لا سرور بلا

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٢٧ .

أسف كما يقول المتشائمون . . . . فقد أسفت إذ قرأت في رسالتك أن كتابي «باحثة البادية» كان سبباً في امتناعك عن مشاطرة صغيريك الجميلين ألعابهما مدة يومين متواليين . إني أستطيع أن أرى هنا نظرات العزيزين وهما يحقدان على من لا يعرفان، فأسألك أن تستغفر لي منهما، وتخبرهما أن آمالي عظيمة في أن يكونا يوماً في مقدمة الرجال الذين تقوم بهم كرامة لبنان ومنعته.

ذكرت لبنان ويا شوقي إليه، وإلى أهله، وعسى أن يسعدني العام المقبل بأن أتلمس نسمات الحياة على قممه المحبوبة، وأن أغسل روحي في مياهه المتدفقة، وأحلم أحلامي في ظلّ صخوره، وفي أفياء أفنانه.

ميّ)[١]

وللملاط رسالة أخرى بعث بها إلى ميّ في ٣ ـ ١ ـ ١٩٢٢ من النثر البديع والغزل الممزوج بالمدح نشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها»، أعرب فيها عن خشوعه وذهوله أمام جمال ميّ وذوقها وخطها، واتقان صناعتها الفكرية، وخفة روحها، ورقتها، ختمها بقوله:

(لك لله ما أجمل وأبدع ما صاغت يدان!.

أي ميّ، أي نابغة بلادي، أي سيدتي، أكلّ ما في حياتكِ جديد؟ علميني بربكِ، ولو بلفظةٍ، كيف يتأسى الإنسان وكيف يعالج داءه القديم!!!)[٢].

وفي أواخر عام ١٩٢٢ لبّت ميّ دعوة «عصبة الأدب» في بيروت فكانت حفلة الموسم، وشهدت ميّ يومئذٍ من آيات الحفاوة والتكريم ما يفوق كلّ تصوّر، إذ تعاقب الخطباء والشعراء من صفوة أدباء العصر على المنبر يمجدون

---

(١) ديوان شبلي الملاط ـ دار الطباعة والنشر اللبنانية ـ بيروت ١٩٣٨ ـ من المقدمة ـ ص: ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ١٨٥.

نبوغها، ويرحبون بقدومها، وكانت قصيدة صديقها شبلي الملاط رائعة من روائعه ومطلعها: [الوافر]

ألا حملوا إليـك حـديث مـيّ كـأزهـار الجنـائن في شـذاهـا

فكتب الشاعر في مقدمة ديوانه الذي أشرنا إليها ما يلي:

(وأقيم المهرجان في محلة الزيتونة، وحضره جلّة القـوم من سيدات وأوانس، ومن رجال فكر وأدب وعلم، وفي هذا الاحتفال أنشدت قصيدتي المثبتة في الجزء الأول من ديواني، وهي التي حفظ منها الحضور قولي: [الوافر]

كأنّ الله من سحرٍ ودرٍّ أتـاح لـمـيّ نـاظـرةً وفاها[1]

كما عثرنا على رسالة تعزية رقيقة بعث بها إليها بعد وفاة والدتها سنة ١٩٣٢[2] ومع أن شبلي ملاط عاش حتى سنة ١٩٦١ وأن الصداقة التي انعقدت بينه وبينها من أمتن الصداقات وأجملها فإننا لم نعثر على أي خبرٍ في الصحف والمجلات اللبنانية التي تحدثت ملياً عن مأساة ميّ في لبنان ما بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ يشير إلى موقفه منها، لا سلباً ولا ايجاباً. ولكننا لا نشك أبداً في أنه كان يتتبّع أخبار صديقته النابغة بلهفة، وأنه فرح بنجاتها من المحنة قدر ما حزن على وقوعها فيها.

ميّ والأب انسطاس ماري الكرملي:

كان هذا العالم الجليل واللغوي الذي تعلم اللاهوت في فرنسا، وترهّب في بلجيكا، وأدار مدرسة الكرمليين في بغداد، وعلّم اللغة العربية والفرنسية

---

(١) من مقدمة ديوان شبلي الملاط ـ ص: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٩٦.

فيها، وأنشأ مجلة (لغة العرب) سنة ١٩١١ في العراق من أصدقاء ميّ الذين تعرفوا إليها عن طريق ما نشرت من أشعار باللغة الفرنسية، وأبحاث بالعربية، ومؤلفات، فراسلها وراسلته، وكلاهما فخور بالآخر، سعيد بالاتصال به وتبادل الآراء معه. والكرملي رجل دين وعلم وفضل، ورجل من أظرف رجال الفكر، نشر مقالاتٍ كثيرة في مجلات مصر والشام والعراق اشتُهرت بجدة موضوعاتها، وتنوعها وعمقها، ومتانة بيانها، وكان يوقعها بأسماء مستعارة منها: «مهر الجابري»، و«مستهلّ» و«مبتدىء» و«متطفل» و«ابن الخضراء» ، كما كان يوقع بعضها باسمه الصريح. وهو لبناني الأصل، من مواليد ١٨٦٦، مثل ميّ، فقرأ لها وأعجب، ثم كانت بينهما مراسلة أدبية، وإن فاتنا العثور على رسائل ميّ إليه فقد حالفنا الحظ بالعثور على خمس رسائل مخطوطة منه إليها مؤرخة ما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٥، وقد أزالت كلّ لبسٍ وارتياب في نوع علاقتهما وصداقتهما السامية! إذ لولا تجرؤ بعض الكتاب العراقيين على اختلاق قصة حب الكرملي لميّ الواهية لما توسعنا في صلة الصداقة بين العالم البليغ الأب الكرملي وبين ميّ التي جعلوا لها عشاقاً ميامين حتى بين الرهبان والقديسين!! فقد نشر الكاتب «مير بصري» مقالة عن صلات ميّ ببعض كبار العلماء العراقيين في جريدة «الأيام» البغدادية سنة ١٩٦٤، وطلع على قرائها بخبر عشق الكرملي لميّ وهيامه بها دون شواهد أو اثبات، ظاناً أن المراسلة الأدبية بين المرأة والرجل لا يمكن أن تكون إلا غراماً!! والأغرب من هذا أن الأديب العراقي الرصين جعفر الخليلي أيّد رأي مير بصري فقال في مقالة نشرها: (أما كيف استدللت على أن الأب انستاس الزاهد الناسك كان من عشاق الآنسة ميّ، وهو لم يفض بعشقه إلى أحد كما فعل الرافعي، فذلك مما وقعت عليه عرضاً في أثناء استعراض الأستاذ مير بصري للروابط الأدبية بين ميّ والأب انستاس إذ قال: «ولم تقتصر صلات ميّ الاجتماعية والأدبية برجال مصر بل تعدتها إلى أدباء الأقطار العربية الأخرى والمهجر الأميركي عن طريق المراسلة. وممن راسلتهم بعد الحرب العظمى الأولى في بغداد كان المرحوم الأب انستاس ماري الكرملي، وقد

أطلعني على رسائل لها مؤرخة على ما أذكر في سنة ١٩٢٠ وبعدها تتضمن أموراً أدبية وعائلية مختلفة»[١].

وتشير تتمة المقالة المثيرة إلى أن الكرملي كتب إلى أحد رهبان مدرسة راهبات القاهرة، حيث وُلدت ميّ، يسأله مراجعة السجل لإعلامه بتاريخ ولادتها الصحيح، وأن الراهب أجابه بأنها ولدت في ١١ ـ ٢ ـ ١٨٨٦ وعُمّدت في كنيسة الناصرة بعد انقضاء شهر على ولادتها. وقد جعل الكاتبان بصري والخليلي من اهتمام الأب الكرملي بتاريخ ولادة ميّ دليلاً على عشقه لها الذي ألهب لواعج نفسه، وأثار فضوله للتحقق من موضع ولادتها، ولولا ذلك لكان كتب إليها مباشرة ليسألها عما يهمه من أمرها!!! ففي رأيهما أن (الحب هو الداعي الأول لهذه الاستفسارات)[٢] وأنه لا يوجد سبب آخر يدعو شيخاً راهباً إلى أن يثيره فضوله لمعرفة كل شيء عن الآنسة ميّ ليتلذّذ بذلك!!.

لقد نشرت مجلة دنيا المرأة هذا المقال بعنوان: «عاشق لمي جديد» وصدّرته بكلمة دعت فيها الكتاب والكاتبات إلى مناقشة الموضوع، وأعلنت أنها تنشره على مسؤولية كاتبه، ودعته لكي يتبعه بوثائق، تثبت صحة الاتهام لما في الموضوع من خطورة وغرابة. وقد ردّت على الخليلي أديبتان لبنانيتان فكتبت السيدة ليلى هشي كلمة عرضت فها حب ميّ لجبران، ثم أضافت ما يلي: (... بعدما تقدم أعود لكاتب المقال الأستاذ جعفر الخليلي، فأغلب الظن أن تفسيراته، مع احترامي له، اجتهاد شخصي، واستنتاج لواقع عاشه الأديب إثر عقدةٍ نفسية. أما ما نقله السيد جعفر عن الأديب مصطفى صادق الرافعي، وأدرجه في مقالته فذكر أن ميّ ضاقت به، وحارت بما تفعل فيه، بل لربما فكّرت في رفع شكوى ضده في المحاكم، فإننا نقول للسيد جعفر إن الرافعي هام حقاً بمي ولكن هيامه كان كناطح صخرة إذ بقي حبه دون

---

(١) و(٢) مجلة دنيا المرأة ـ ج (٥) ـ ص: ٦ ـ ٧ ـ العدد (١٠) من مقال جعفر الخليلي وعنوانه: (عاشق جديد).

تجاوب عاطفي من ناحيتها، وهذه ضربة قاضية في حلقة فارغة يدور بها حب الأديب الكبير. وأقول للأديب جعفر: من مقالك أدينك)[1].

وقد ختمت مقالتها بعبارات انصفت فيها ميّ التي (لم تكن تلك الفتاة اللعوب التي تقذف قلوب الرجال بيمينها لتتلقاها بيسارها، بل كانت أديبة ذات رسالة توجيهية تجلجل في آذان الدهر ما بقيت العيون تقرأ)[2].

وأما الردّ الثاني فكان بقلم السيدة ايلين عبود التي صدمها عنوان مقالة «جعفر الخليلي» وقد جاء فيه ما يلي:

(ومما يؤسفني أن تصبح ميّ زيادة المشهورة بعصمتها وذكائها موضوع تخمين لمن يشاء من الكتاب أن يختلق قصص الغرام حولها لمجرد وقوعه على رسائل منها لا تتعدى حدود المجاملات الأدبية، والمباسطات الفكرية بينها وبين المعجبين بعبقريتها)[3].

وختمت مقالتها، بعد أن أفاضت بالدفاع عن الحرمات والمقدسات، واستنكرت سيطرة الوهم، وحبّ الإثارة والتشويق الواضحين في كتابات رجال معروفين بالرصانة الأدبية، فقالت:

(ولو أن أدباءنا، أعزهم الله، تحولوا عن البحث بما يتعلق بعشاق ميّ إلى البحث في تراثها الأدبي على ضوء الحقبة التي عاشت فيها لأسدوا إلى روحها جميلاً، وأسدوا فضلها إلى الناشئة من فتيات وفتيان جلهم يجهلها أديبة عربية لها مؤلفاتها القيّمة، وخواطرها الرائعة)[4].

أما رسائل الأب الكرملي الخمس التي نشرناها في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها»[5] فليس على القارىء المشكّك إلا أن يطلع عليها لِيَمْحو

---

(١) و (٢) مجلة دنيا المرأة ـ ج (٥) ـ العدد ١١ ـ ١٩٦٤ ـ ص: ٢٢.

(٣) و (٤) مجلة «دنيا المرأة» ـ ج (٥) العدد ١٢ ـ ١٩٦٤ ـ ص: ٢٣.

(٥) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ الصفحات ١١١ ـ ١١٤ ـ ١١٩ ـ ١٧٢ ـ ٢٩٠.

كل أثر للريبة في مشاعر الكرملي نحو ميّ، وحتى في مشاعرها نحوه فهي تحفة أدبية ولغوية، ووثيقة تاريخية أدبية تشرف الأديبة النابغة، وتكرس للكرملي العالم منزلته بين المفكرين واللغويين العظام. وإننا نستجلي منها تقديره لإنتاجها بالعربية، وشعرها بالفرنسية، وإكباره لخلقها الرفيع، وخدماتها الجلى للفكر والنهضة، ونطلع على أنه زارها في بيتها بالقاهرة وبـاركها وأعجب كذلك بوالدتها ووالدها، وأنه كان يدعوها: «ابنتي العزيزة» أحياناً و«حلية الزمان» أحياناً أخرى. وقد زارته في حيفا في سنة ١٩٢٥ حيث اتفق وجودهما فيها في آنٍ واحد إذ شكرها على تلك الزيارة في رسالته المؤرخة في ٦ ـ ٦ ـ ١٩٢٥، واستجاب إلى دعوتها للمشاركة بالاحتفال الذي كانت مهتمةً بإعداده، وهو العيد الخمسيني لمجلة «المقتطف».

ميّ وسلامة موسى:

تعرّف هذا الكاتب ذو الميول اليسارية إلى ميّ في مكتب جريدة أبيها «المحروسة» سنة ١٩١٣، وكان يومئذٍ يُصدر في القاهرة مجلة «المستقبل». كان صحفياً معروفاً، وأديباً طموحاً فوجد في ميّ زميلة تتقن فن أدب المقالة، وتطمح إلى احتلال أعلى المراكز في دنيا الصحافة والأدب، وقد كتب عنها مقالة في مجلته أطنب موهبتها الكبيرة ومزاياها المتعددة، معترفاً بتفوقها ونبوغها فقال إنها (من الشخصيات الفذة التي عرفتها قبل الحرب الكبرى). ثم حرّر في المحروسة بعد اقفال مجلته، وكانت ميّ تقدر فيه الأديب الشاب الطموح، وإن لم تكن تشاطره الرأي في نزعته الاشتراكية الثورية. وعندما نشرت كتابها: «بين الجزر والمدّ» قبلت أن يضع مقدمة الكتاب في طبعته الأولى التي صدرت عن دار الهلال سنة ١٩٢٤. كما أنه خصّص لها فصلاً مطولاً في كتابه: «تربية سلامة موسى» الذي صدر بعد موتها بعدة سنين سنة ١٩٤٧، ذكر أن أحاديثها المطعّمة بثقافة عالية، والمتميزة بأسلوب أخاذ أفضل من كتاباتها، وادّعى في مقالاته عنها أنهما تزاملا في الصحافة، وبقيا صديقين حتى

آخر حياتها. ولكن ما يدعو إلى الاستغراب إن لم نقل إلى الاشمئزاز هو تنكّره لها إبان محنتها، وإقدامه على تشويه صورتها في أذهان الناس عندما جار عليها الدهر، ومرضت وهرمت، وشابت قبل الوقت، في إثر مأساتها. فقد كتب في وصفها يقول أنه رآها في أحد الأيام متبذّلة، بل في رثاثةٍ شاذة وهي تحمل «كرنبة» كبيرة وتسير بها نحو بيتها، «وإنها صامت عن الطعام في أيـامها الأخيرة فكانت تبوّل، و... في أنحاء المسكن، وعلى الفراش والأثـاث، وماتت جوعاً وإن لم تحسّ أنها ماتت جائعة » .

إن ما كتبه سلامة موسى عن زميلته وصديقته المعجب بها وبأدبها يتنافى مع الواقع أولاً، ومن ثم مع الصداقة والذوق والأخلاق الكريمة! فالواقع المتصل بمرض ميّ وموتها مغاير لما كتب دون تحرّج، وبدافع الشماتة، وذوق الأديب ووفاء الصديق الحق لا يسمحان مطلقاً بالتشهير والتجني، على أحدٍ، كائن من كان، بهذا الأسلوب النابي، وهذه العبارات المستهجنة. زد على ذلك أنه حسب إهمال ميّ هندامها، ونزولها إلى السوق لشراء حاجتها من خضارٍ وفاكهة بنفسها من ظواهر اضطرابها العقلي!!! لذا علّقت السيدة وداد سكاكيني على موقفه البشع ممن سماها «صديقته القديمة» فقالت: (... وما أقسى كلماته وهو يصف مياً في أطوار قلقها واضطرابها! لقد أراد أن يثبت أنها مجنونة فكيف دعاها للمحاضرة في جمعية الشبان المسيحية، وهو يؤكد أن علتها «مانيا»، وقد ألقت محاضرتها وهي على أحسن ما كانت من الرصانة والتفكير؟)[1].

ميّ وزكي مبارك:

كان الدكتور زكي مبارك أصغر من ميّ سناً حين لقيها طالبة علم مثله

---

(١) ميّ زيادة في حياتها وآثارها ـ وداد سكاكيني ـ ص: ١٣٠ ـ ١٣١.

في الجامعة المصرية سنة ١٩١٤، لأنه من مواليد سنة ١٨٩١. وها هو يصف ذلك اللقاء وتلك الزمالة بقلمه:

(إن الجامعة المصرية لذلك العهد لم يكن فيها من الجنس اللطيف إلا فتاة واحدة هي الآنسة ميّ، وكانت نعمة الله ساقتها إلينا في تلك الأيام، وكنا جماعة من المحرومين لا نعرف الجمال إلا إذا قرأنا كتاب تزيين الأسواق أو مصارع العشاق. وفي إحدى الأمسيات جاءت الآنسة ميّ تسأل عن الحجرة التي تلقى فيها دروس الفلسفة العربية، فتحاشت أن تسألني لأني فيما يظهر كنت «غلباوياً» ولأني كنت نشرت كتاباً عن حب عمر بن أبي ربيعة الفاجر الملعون... وكذلك لم تجد الآنسة ميّ أوقر من الشيخ علي أبي درّة في لحيته المستديرة، وقفطانه الفضفاض، وهو رجل فاضل من المدرسين بالأزهر الشريف وقد اتصل بالجامعة المصرية وكانت هذه المحاورة:

الآنسة ميّ: «أين حجرة الفلسفة العربية يا أستاذ؟».

الشيخ أبو درة: «نعم يا مولاتي، نعم يا مولاتي، نعم يا مولاتي!».

ولم يستطع الشيخ أن يتجاوز هذه الجملة، فتقدمت إلى الآنسة ميّ فدللتها على السبيل، ثم عدت إلى الأستاذ أبي درّة فقلت له:

- «فضحتنا يا أستاذ، يا سيدنا الشيخ، ما هذا الهذيان؟».

وانتظر الشيخ لحظة حتى أفاق من ذهوله ثم قال:

- «سبحان الله! أنا يا مبارك لا أستطيع مقاومة الجمال!».

وقد وصلت هذه الحكاية إلى مسامع المرحوم اسماعيل بك رأفت، وكان رجلاً غزلاً هدّه عبء الستين، فلما لقيني قال: «تعال يا مبارك أجب على هذا السؤال: ما معنى كلمة ميّ؟» ففكرت طويلاً ولم أهتد إلى الجواب. فقال: «ميّ معناها الخمر، وهيّ كلمة فارسية، والفرس يسمون الخمارة: ميّ خانة». فقلت: «الشكر لك يا سيدي الأستاذ، ولكن «ما مناسبة هذا السؤال؟» أجاب: «قدّرت فقط أنك قد تبحث عن معنى هذا الاسم فأردت أن أعفيك من عناء البحث عن معناه...».

فيا أيها القراء اعلموا أن ميّ معناها الخمر، وأن الآنسة ميّ معناها المدموازيل صهباء!)[1].

ومعروف أن الدكتور زكي مبارك ردّ رداً عنيفاً على سعيد العريان بعد أن نشر كتابه «حياة الرافعي» سنة ١٩٣٩ في حياة ميّ، ورماه بالتزوير فيما أورد عن شغف ميّ به ، وسعيها للقائه خارج أيام الندوة ! فقد نشرت كريمته مقالة في هذا الصدد ذكرت فيها أن أباها أحب ميّ هو الآخر، ولكنه أخفق في حبّه لأنها كانت تحب جبران فقط، وأنه قال فيها شعراً سمعته منه في حياته، وكتبته على ورقة، ثم رأت هذا الشعر مطبوعاً في ديوانه الأول الذي طبع سنة ١٩٣٣ تحت عنوان: «إلى . . .» فسألته: (هل هذه القصائد للأديبة ميّ؟ » وصمت ، وشرد بذهنه ثم أخذ يردّد :

ما الذي أنكرت مني في مساءِ الثلاثاء؟
حين نام الدهر عنا وتولى الرقباء؟
أنا لا أذكر شيئاً يقتضي هذا الجفاء)[2]

كما نشرت كريمته مقالة أخرى عن أبيها بعد صدور كتاب جديد له يتضمن رسائله الشخصية، فعادت إلى ذكر حبه لميّ الذي كان من طرفٍ واحد،لتنشر أبياتاً من الشعر قالها من وحي ذلك الحب الفاشل وهي :[البسيط]

(مودة لم أظفر بزينتها
تقطّع في آثارها قطعا
وزادني كلف في الحب إن منعت
أحب شيء إلى الإنسان ما مُنعا

(١) البدائع ـ زكي مبارك ـ ص: (٩٠) من الطبعة الأولى.

(٢) مجلة الثقافة ـ العدد (٤٠) ـ يناير ١٩٧٧ من مقالة عنوانها: «أيامي مع زكي مبارك»، بقلم «كريمته»، ولم تذكر اسمها. . . ص: ٨٧.

وهناك قصيدة أخرى تحت عنوان: إلى:

فيا ويلاه من حبٍّ حملت بلاءه وحدي
أعدّ لحمله جهدي فيصعق بطشه جهدي)[1]

وظلّ زكي مبارك، الأديب المجدّ الذي وضع نحواً من ثلاثين كتاباً من أهمها: «ليلى المريضة في العراق»، و«التصوف الإسلامي»، و«الأخلاق عند الغزالي»، و«ملامح المجتمع العراقي»، و«عبقرية الشريف الرضي» و«الأسمار والأحاديث» و«ذكريات باريس»، وديوان «ألحان الخلود»، ظلّ صديقاً وفياً لميّ، معجباً بعبقريتها وقدرتها على جمع صفوة أعلام عصرها في بيتها طوال عشرين عاماً والإبقاء على حبهم واحترامهم لها رغم ما كان بينهم من تنافس على كسب ودّها. وقد مات زكي مبارك سنة ١٩٥٢، وكان من الذين حزنوا كثيراً على ما ناب ميّ من نوائب متلاحقة في السنوات العشر الأخيرة من عمرها، منذ موت جبران خليل جبران، وموت أمها من بعده، وتشدّدها في الحزن، واعتزالها الناس والمجتمع.

ميّ وطه حسين:

لقد أوردنا في فصول هذه السيرة الكثير عن اعجاب طه حسين الكبير بميّ منذ أن عرّفه بها أحمد لطفي السيّد سنة ١٩١٤، فقد كتب عنها في مذكراته، وذكر أنه وقع تحت سحر حديثها وجرس صوتها منذ أن سمعها تخطب في حفلة تكريم خليل مطران في القاهرة سنة ١٩١٣. وقد كان يزداد اعجاباً بها وتقديراً لمواهبها مع تعاقب السنين، ويواظب على حضور ندوتها، ولكن الظروف القاهرة التي قضت بأن يفترقا في أواخر حياتها ولّدت في نفسه حسرةً أعرب عنها في أحاديثه لمحمد عبد الغني حسن التي أوردناها، وفي الكلمة الرائعة التي رثاها بها يوم حفلة تأبينها. وتحاشياً للتكرار نكتفي بهذه الإشارة وننتقل إلى استعراض صداقات أخرى انعقدت بين ميّ وبين زملاء

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد ٤٢ ـ مارس ١٩٧٧ ـ ص: ٩٩.

لها من كبار كتاب العصر أمثال إميل زيدان والدكتور منصور فهمي ، والأستاذ داود بركات ، وعبدالعزيز فهمي وفؤاد صروف ، وفيليكس فارس ، وحمدي يكن، شقيق وليّ الدين يكن الذي كانت له دالة عليها بسبب الصداقة الحميمة التي كانت تربط بينها وبين أسرته، مما شجعه لمعاتبتها في إحدى رسائله الجميلة على تأخرها بمراسلته ، وألهمه أبياتاً ضمّنها تلك الرسالة المؤرخة في ٧ - ٨ - ١٩٢٣ :



طه حسين

(سيدتي العزيزة الآنسة ميّ :

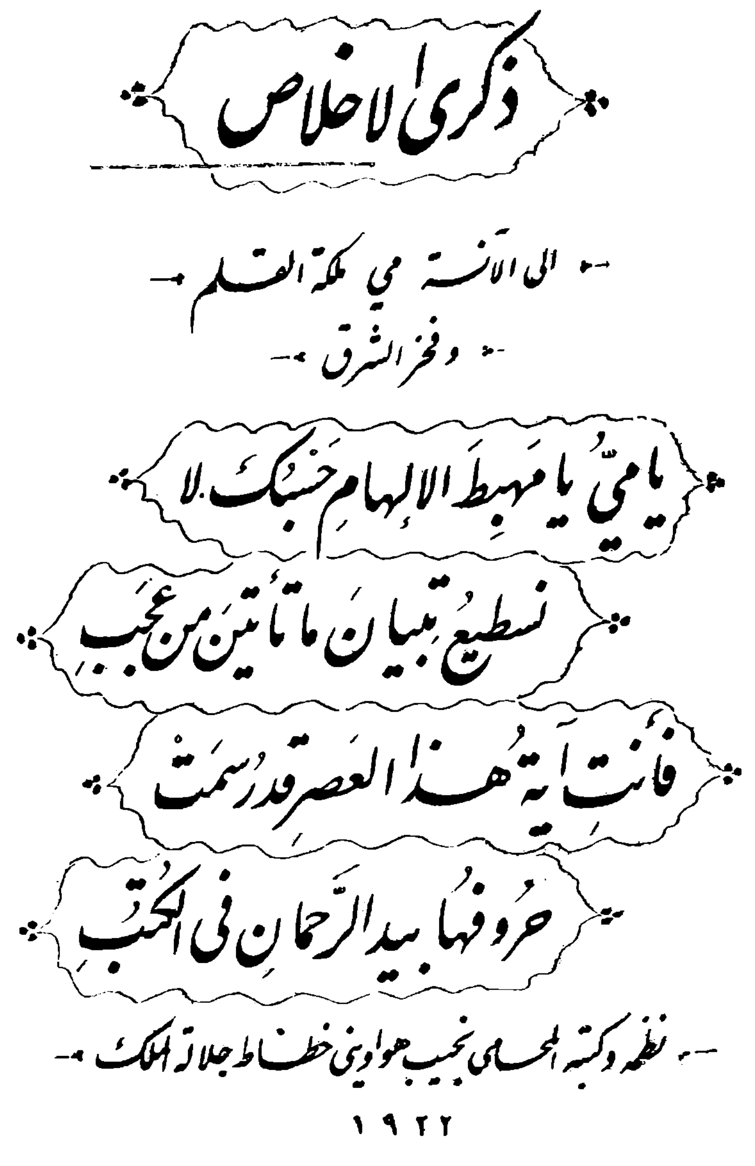
كنت اليوم أفكر فيك. كنت أقول: أتنوي سيدتي أن تطيل السكوت في هذه المرة، كما سكتت في المرة الأولى شهوراً، فلا تكتب إليّ إلا بعد أن أنسى أني كتبت إليها، وقلت:

(أترى ميّ بعد ساكتة ... ليس كل السكوت من ذهب
كل قولٍ لميّ يطربني ... ما لها لا يسرّها طربي؟
يا كتابُ أيقنتُ أنك لم ... تُعتبر عندها من الكتب...)[1]

وينبغي ألا ننسى أصدقاء أخر لمي في مصر، كان نجيب الهواويني

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ٢٣١ .

خطاط ملك مصر، الدمشقي الأصل، أقدمهم إذ تعرف إليها وإلى والديها منذ قدومهم إلى القاهرة في سنة ١٩٠٧. وقد عثرنا على لوحة بخطه في بيت نسيب ميّ السيد نجيب زيادة بالقاهرة مهداة إليها، وقد نظم فيها شعراً. كانت ميّ تسميه: «صديقي المزمن...» وتحرص على وجوده دائماً في أيام ندوتها إذ كان يشيع فيها جواً من الظرف والمرح، وهذه صورة عن اللوحة المذكورة:



وقد رثاها بقصيدة مؤثرة تدلّ على شدة اعجابه بها، وحرقته على موتها، نشرها في جريدة المقطم:

وقفتِ يا ميّ فوق العود خاطبة
كبلبل الروض يشدو فوق أغصان
يدير تغريده خمراً معتّقةً
من البلاغة في أقداح ندمان
أقوالك الغرّ آيات بحكمتها
كأنها صادرات عن سليمان
حَرَّمْتِ جفنك طيبَ النوم قاصدةً
نفعاً وفخراً لاخوان وأوطان
فَرُحْتِ تسعين سعياً لا كلالَ به
بدافع الصدق في عزم وايمان
وفي يديك تجلّى خافقاً علم
رمز التنافس في ساحات عمران
لو كنتُ في نظم عقد الشعر مقتدراً
كحافظ أو شوقي أو كمطران
لكنت أنزع دراً من بحورهم
أصوغ منها لميّ خير تيجان[1]

---

(١) المقطم ـ عدد ٥ ديسمبر ١٩٤١.

وينبغي أن نذكر صديقاً كبيراً لميّ تمّ التعارف بينها وبينه في مصر بعد الثلاثينات، لغيابه عنها في العراق حيث كان يدرّس الأدب العربي هو الأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات، صاحب «الرسالة» وصاحب القلم المبدع. وقد أخطأت السيدة وداد سكاكيني حين جعلت الزيات من أقدم أصدقاء ميّ ومن الذين (عرفوها منذ ظهرت في حياتها الأدبية)[1] ولكنه كان حتماً من أعزّ أصدقائها، ومن أكثرهم اعجاباً بمواهبها ومواقفها الأدبية، وخدماتها الفكرية، ومن أوفاهم إليها حيث كتب عنها مقالاتٍ قيمة في حياتها، نشرها في «الرسالة»، ومن ثم في كتابه: «وحي الرسالة» كما رثاها بمقالة عنوانها: «بعض الكلام عن ميّ» جعلها افتتاحية عدد مجلته الذي صدر في ٨ ـ ١٢ ـ ١٩٤١، وكانت دراسة وافيةً لأدبها وأثرها في النهضة بأسلوبه البليغ. لقد أنشأ الزيات «الرسالة» سنة ١٩٣٣، كما هو معروف، بعد رجوعه إلى مصر من بغداد، فزار ميّ، ورجاها أن تعتبر المجلة مجلتها، وفي ١٦ ـ ١ ـ ١٩٣٥ كتب إليها ما يلي:

(أستاذتي الجليلة :

اغفري لي هذا الفضول فإني حريص كل الحرص على توثيق العلاقة بينك وبين « الرسالة » . وفي اعتقادي أن الكاتبة الوحيدة التي أسفرت عنها النهضة الحديثة يريد لها النبوغ الموهوب أن تؤدي رسالتها إلى أخواتها وأخوتها، وإن كانت في الواقع أدّت منها جزءاً كبيراً، له في بنائنا الأدبي أثر ظاهر. أنا أرجو بل أتمنى أن تكون صلتك بالرسالة صلة المالك بما يملك. ولا تزال الرسالة تعاني النقص الشديد ما دامت محرومة من معونتك . فهل تُدنين أملي من الفوز، وتمنّين على رجائي بالإجابة؟ أهدي إلى الآنسة الفاضلة خالص تحياتي، وأطيب تمنياتي، وموفور شكري.

المخلص ـ أحمد حسن الزيات)[2]

---

(١) ميّ زيادة في حياتها وآثارها ـ وداد سكاكيني ـ ص: ١٣٤.

(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٤٤٢.

فأرسلت ميّ إلى الرسالة مقالة رائعة بعنوان: «كلمات في الصداقة» نُشرت في عدد ١١ فبراير ١٩٣٥، أهدتها (إلى أحمد حسن الزيات، وإلى الدكتور طه حسين، وإلى أصحابهما جميعاً)، في أثر موقف لها معهما عظيم إذ جمعتهما في بيتها لكي يتصافيا كما ذكرنا في فصل: «ندوة الثلاثاء» كما أننا نشرنا هذه المقالة لميّ مع خطب لها ومقالات كانت منشورة في الصحف هنا وهناك في كتاب أضيف إلى أعمالها الأدبية، وجعلنا عنوانه: «كلمات وإشارات - الجزء الثاني»، وذلك في سنة ١٩٨٣. وقد قالت ميّ فيها: (أيها الذين ربطت الحياة بينهم بروابط المودة والإخاء والتآلف الفكري، والنبل الخلقي، حافظوا على صداقتكم تلك، وقدّروها قدرها! فالصداقة معين على الآلام، ومثار للمسرات، وهي نور الحياة وخمرتها،وكم تكنّ من خيرٍ ثقافيّ وعلمي للنابهين). وفي ختامها قالت: (وبممارستكم أساليب الصداقة إنما تكونون خميرة الصفاء والصلاح والوفاء!)[1].

كما أرسلت إلى مجلة الرسالة ثلاث مقالات أخرى من أجود ما كتبت قبل مرضها ومأساتها، نشرناها كذلك في الكتاب الذي ذكرناه آنفاً وهذه عناوينها: «مساجلة الرمال»[2]، و «هو ذا الربيع»[3]، و «أمبير جلوا، رمز الشبيبة المعذبة»[4].

كان تاريخ المقالة الأخيرة في ١٧ - ٥ - ١٩٣٥، وانقطعت ميّ بعد

---

(١) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة جمع وتقديم وتحقيق سلمى الحفار الكزبري - ص: ١٢٧ - ١٣١.

(٢) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة - جمع وتقديم وتحقيق سلمى الحفار الكزبري - ص: ١٣٨ - ١٤٢.

(٣) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة - جمع وتقديم وتحقيق سلمى الحفار الكزبري - ص: ١٤٣ - ١٤٦.

(٤) كلمات وإشارات - الجزء الثاني - ميّ زيادة - جمع وتقديم وتحقيق سلمى الحفار الكزبري - ص: ١٤٧ - ١٥٦.

ذلك عن الكتابة لتوعّك صحتها في صيف القاهرة القائظ ، ولمشكلات عائلية بينها وبين أبناء عمها تفاقمت فجأةً ، فأقلقتها وأمرضتها . لذا كتب الزيات إليها هذا الخطاب الرقيق في ١٧ - ٧ - ١٩٣٥ .

(عزيزتي الأستاذة ميّ

بينك وبين الرسالة عذول ولا شك ! كلما وفقت بينكما باستثارة الحنان والعطف في قلب الأديبة الرقيقة الشاعرة عاد هذا الخبيث فانتصر، ولا أدري بأيّ حيلة! فهل للآنسة الفاضلة أن تدلني عليه حتى أفزع إليه فلعل فيه شيئاً من النبالة فيتخلّى عن نصيبه منك للرسالة؟ المخلص الشاكر الذاكر.

أحمد حسن الزيات)[1]

ومنذ ذلك التاريخ انقطعت الصلة بين ميّ وصاحب الرسالة بسبب ما حلّ بها من نكبات أليمة.

وما دمنا تحدثنا عن أصدقاء ميّ في مصر والعراق نـرى من واجبنا أن نذكر أصدقاءها في سورية ولبنان وفي الغرب ، ولا نقول المعجبين بها لأنهم كانوا أكثر من أن يحصوا ، يراسلونها ، وتراسلهم ، ويعربون عن تقديرهم لثقافتها وأدبها وشخصيتها. كان في طليعة هؤلاء الذين أسعفوها أيام محنتها، وكانت لهم اليد الطولى في انقاذها منها أمين الريحاني ، وفارس الخـوري وشقيقه خليل الخوري، والآنسة بدرية الأيوبي وشقيقتها السيدة سنية ووالدهما عطا بك الأيوبي، والأمير مختار الجزائري وزوجه الأميرة سامية،وشقيقه الأمير خالد وزوجه الأميرة زهراء، ومارون غانم الرجل الشهم الذي يعود إليه الفضل في نشلها من جحيم العصفورية . فقد أتينا على ذكرهم ، ونشرنا بعضاً من الرسائل التي تبادلتها معهم في الفصول الأخيرة من هذه السيرة. كان جلّ هؤلاء المنقذين أصدقاء جدد لميّ عرفوها شخصياً إبان محنتها وأحبوها وهبّوا لنصرتها ماعدا فيلسوف الفريكة أمين الريحاني الذي كانت تربطه بها صداقة قديمة رائعة.

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٤٤٨ .



أمين الريحاني

ميّ والريحاني:

قرأت ميّ كتاب الريحاني: «الريحانيات» سنة ١٩١١ يوم كانت تصطاف في لبنان مع والديها بعد أن نشرت ديوان شعرها: «أزهار حلم» باللغة الفرنسية فأعجبت بالكتاب وبمؤلفه اعجاباً كبيراً حملها على زيارته في معقله «الفريكة» في كسروان، ومنذ ذلك اللقاء انعقدت بين الكاتب الفيلسوف والأديبة الشابة صداقة فكرية وشخصية كان لها أثر عميق في حياة كل منهما. وقد كتب الريحاني مقالاً عنوانه: «ذكريات قديمة عن صاحبة الكوخ الأخضر»[1] في إبان مأساة ميّ سنة ١٩٣٨، وصف فيه لقاءه الأول بها فقال:

(من أطيب ذكريات الفريكة زيارة الآنسة ميّ منذ سبعٍ وعشرين سنة. هبطت إلينا من ضهور الشوير مع والديها حيث كانوا يصطافون. كانت الآنسة ميّ يومئذٍ في... في... دون العشرين على ما أظن[2]، ولا أزال أتصوّرها في ثوبها الأبيض، وقبعتها المزدانة بالزهور، وفي ابتسامتها الساحرة،

(١) الكوخ الأخضر هو العرزال الذي نصبه بعض أدباء لبنان في ضهور الشوير لكي تكتب فيه ميّ وتتأمل وتطالع سنة ١٩١١.

(٢) كان عمرها سنة ١٩١١ خمسا وعشرين سنة لأنها من مواليد ١٨٨٦.

وروحها الزاخرة بالنور- نور الحماسة والكياسة والطموح- هبطت إلينا من علٍ ، وهي يومئذٍ تدنو من باب الحياة الأدبية بخطوات ثابتة، وقلبٍ مفعم بالآمال والأحلام، تريد دخول البيت لتملأه من النور الذي منحتها مشعله يد إلهية. كان قد ظهر الجزآن الأول والثاني من «الريحانيات» وفي الأول مقالي: «وادي الفريكة»، وكانت ميّ قد طالعت «الريحانيات» وأعجبت خصوصاً بالمقال المذكور فأحبّت أن تهبط الوادي تستشفّ مواطن الوحي فيه، فنزلت معها إلى آخر بيتٍ بالفريكة، وأطللنا من سطحه على الوادي الذي يجري فيه نهر الكلب، وعلى المغارة التي تتدفق منها المياه المسخّرة لاحياء أهل بيروت)[1].

وقد افترقا في ذلك اليوم على وعود بتوطيد أواصر هذه الصداقة الجميلة المبنية على الاعجاب المتبادل، وذهب كل منهما في طريق، يعمل بجدٍّ ويناضل، يكتب ويخطب ويحاضر، وزهرة الصداقة تنمو وتقوى، وتشعّ البهجة في النفس. كانت ميّ تقدّس الصداقة الحقة، وتبذل الجهد المتواصل لرعايتها، وهي التي قالت: (إن الصداقة تزرع الحياة أزهاراً). وبينما كان الريحاني يجوب آفاق الشرق والغرب مجاهداً في سبيل النهضة العربية، مدافعاً عن حقوق الأمة العربية، ومعرفاً الغرب بتراثها وقيمها ووثبتها، كانت ميّ تكتب المقالات في الصحافة المصرية، وقد اتخذت لنفسها اسم ميّ، بدلاً من اسم ماري، وتدرس في الجامعة المصرية، إبان الحرب العالمية الأولى، وتقف خطيبة بليغة أمام الجماهير تدعو بحماسة إلى التمسك بلغة بني قومها، والاعتزاز بالهوية العربية، وتحثّ النساء والرجال على العلم والتعاون لتدعيم النهضة الحديثة. وقد ابتدأت المراسلة بينها وبين الريحاني في سنة ١٩١٥، واستمرت حتى آخر حياة الريحاني سنة ١٩٤٠، ورسائلهما هي صفحات من الأدب الرفيع، والفكر الثاقب، نشرها الأستاذ ألبرت ريحاني، شقيق الأمين، في كتابين بعد وفاة أخيه: «رسائل الريحاني»، و«الريحاني ومعاصروه».

---

(١) المكشوف- العدد ١٤٨ - تاريخ ١٦ - ٥ - ١٩٣٨ - ص: ٢.

كانت ميّ تعتبر نفسها تلميذة لصديقها العزيز الجليل، وتفخر بذلك، تناقشه في الأمور الأدبية والقومية، وتتابع مقالاته في اللغة الانكليزية، وتتلقّف أخبار نشاطه في الولايات المتحدة الأميركية بفرح، وتعلق عليه في رسائلها التي تدلّ على حبها له لما كان يتخللها من مداعبات بريئة لذيذة. أولـم تقل له في رسالتها المؤرخة في ٢٩ ـ ٢ ـ ١٩١٦ بعد أن أعلمته بما يحزنها في حالة الشعوب الصغيرة القلقة إبان الحرب:

(... لا تضحك من سفسطتي أيها الشاعر الفيلسوف، لا تضحك لا، بل لا يشق عليك أن تفهم كم دمّرت هذه الحرب في نفوسنا الوهاجة من اعتقادات كنا نظنها ثابتة إلى الأبد)[1]، ولم يكن يرضيها أن يثني فقط على كتاباتها إذ كتبت إليه تقول بعد أن تلقى كتابها عن «باحثة البادية» وأطراه، في ١٧ ـ ١١ ـ ١٩٢٠:

(أشكرك على أسطرك الأنيقة،وما حملته من ثناءٍ وإطراء. لقد تقبلتها بخجل وسرور: الخجل لأني شعرت كم عليّ أن أجاهد لأصير أهلاً لها، أما السرور فلأن استحسانك ليس بالشيء القليل، بل هو من تلك العوامل القيمة الدافعة بالمرء إلى الأمام على رغم منه. ولكن لماذا تضنّ عليّ بانتقادك؟ أتستطيع أن تقنعني بأن ليس لديك من تعليق أو اعتراض على بعض تلك الصفحات؟)[2].

وكثيراً ما كانت تحدثه عن اعجابها بطه حسين، ومحبتها للدكتور يعقوب صروف، وعن توقها للتعرف إلى زوجته الأجنبية حيث قالت له مازحةً، في نهاية الرسالة المذكورة: (... فاذكرني لها، واشكر لها رغبتها في التعرّف بي، وقل لها إن المتوحشة الإفريقية الصغيرة لا ترغب في التعرّف لأنها تعرفها. إن زوجة أمين الريحاني لا تستطيع أن تكون إلا على ذلـك الجمال الفكـري والروحي الذي ترسمه لها مخيلتي، وتؤكد وجوده بداهتي)[3].

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ١٦٥.

(٢) و (٣) الريحاني ومعاصروه ـ ص: ١٧٩ ـ ١٨٣.

وعندما زار الريحاني مصر سنة ١٩٢٢ أقامت ميّ حفلة تكريم له في منزلها دعت إليها صفوة الكتاب والشعراء وألقت خطبة نشرتها المقتطف بعد الحفلة، هذا بعض ما جاء فيها:

(. . . فيا ريحاني الوادي ، إن نحن احتفينا بقدومك مرحبين ، كل منا بأسلوبه الخاص، فإنما نحتفي بنفسنا الشرقية، وبما يتحرك فيها من وراثة سحيقة، ويهيجها من ذكريات العزّ الماضي، وآمال التقدم المنشود. بالأمس قطعت فينيقيا البراري، وخاضت البحار مشيدةً على الشواطىء الفضية المدائن والعواصم ، بالأمس كانت مصر معلمة العالم ، تلقي عليه دروس الادارة والهندسة والفنون والفلسفة الروحانية الخالدة. بالأمس فتح سيف الإسلام القارات الثلاث ناشراً فيها حضارةً أوجدها القرآن، وكأن الشرق، أنّى ذهب، يرفع الجبهة ويناجي الشعوب قائلاً: «ها أنذا جئتكم بمواهبي أستخدمها بنبلٍ لمصلحة بني جنسي وبني الإنسان»)[١].

من أجمل ما كتبت ميّ لصديقها الكبير رسالة مؤرخة في ٣ مارس سنة ١٩٢٥ شكرته فيها على رسائله الشيقة وعلى كتابه «ملوك العرب» الذي أهداه إليها ، ولما يصل بعد ، فقالت أنها تترقب وصوله « لكي تحياه مع مؤلفه » ، وإنها أسرعت في الكتابة (إلى «مسيّر مواكب الملوك» وختمت خطابها قائلة: (. . . وصلّ أنت لأجلي على نحو ما يصلي الشاعر والفيلسوف في محراب وادي الفريكة تحت حفيف الغصون، وألوان الغروب)[٢].

وعندما حلّت بميّ المأساة المروّعة في لبنان سنة ١٩٣٦ كان الريحاني في الولايات المتحدة الأميركية غير أنه عاد إلى لبنان في سنة ١٩٣٧، فصدّق ما تناهى إليه عن جنونها وأمسك عن زيارتها في مستشفى الدكتور ربيز ببيروت الذي تمّ نقلها إليه من العصفورية. . . ثم أنّبه ضميره ، وقام بـزيارتهـا

---

(١) المقتطف ـ ج (٦٠) ـ عدد مارس ١٩٢٢ ـ ص: ٢٥٥ .

(٢) الريحاني ومعاصروه ـ جمع وتحقيق وتقديم ألبرت الريحاني ـ ص: ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .

فرفضت التحدث إليه لشدّة عتبها عليه، وتألمها من موقفه المستغرب والمستهجن منها. وقد ذكرنا تفصيلاً عن ذلك، وعن قيام الريحاني بواجب الصداقة المقدس تكفيراً عن إهماله السابق لميّ في فصل «المأساة» كما أن كتابه: «قصتي مع ميّ» الذي نشره أخوه الأستاذ البرت الريحاني سنة ١٩٨٠ كان أفضل وأصدق وثيقة لكتابة ذلك الفصل ، ولنخوة فيلسوف الفريكة وتطوعه مع رهطٍ من أهل النخوة في سورية ولبنان لإنقاذ ميّ من محنتها . وقد شاءت الأقدار الرحيمة بها أن تظفر بحريتها ، وتسترد كرامتها سنة ١٩٣٨ ، وأن تقضي ما ينوف على خمسة أشهر بجوار هذا الصديق العظيم في الفريكة . وقد ظلّ معجباً بها وفياً لها حتى آخر حياته ، وظلّ ذكره ووجوده « موسم فرح » لها في حياتها ، كما كتبت إليه في رسالتها المؤرخة في ١١ ـ ٧ ـ ١٩٣٩ [١] . ونحن إذا أنعمنا النظر في معطيات صداقتها لأمين الريحاني ، وصداقته لها نرى أنها تشبه في عمقها وصدقها وبهجتها ووفائها الصداقة الكبيرة التي انعقدت بينها وبين الدكتور يعقوب صروف ، وأنها حزنت على كليهما حزناً أمرضها بعد أن غيّبهما الردى ، إذ مات فيلسوف الفريكة في حادثة دراجة ببلدته في صيف سنة ١٩٤٠ فوقع عليها نبأ موته وقع الصاعقة .

إن سلسلة أصدقاء ميّ الذين أعجبوا بها وراسلوها طويلة، إذا شئنا أن نقف عند كل حلقة من حلقاتها نكون قد وقعنا في خطأ الإسهاب لذا نقتصر الحديث، ونركّز على الذين اعتبرتهم أصدقاء بحق، فنذكر الأستاذ جبر ضومط الذي كان يعتز بمؤلفاتها وبشخصيتها، ويكثر من الرسائل إليها[٢]، والأمير شكيب أرسلان الذي كان يدعوها « كاتبة العصر ونادرة الدهر»، والذي قال لها عندما استأذنته بجعل كلمته في كتابها «المساواة» مقدمة له في طبعته الثانية:

---

(١) الريحاني ومعاصروه ـ جمع وتحقيق وتقديم ألبرت الريحاني ـ ص: ٣٥٨ ـ ٣٦٢.

(٢) بلغ عدد الرسائل التي وجهها الأستاذ ضومط الى ميّ مما عثرنا عليه عشر رسائل نشرناها في كتابنا «ميّ زيادة وأعلام عصرها» كما نشرنا فيه ثماني رسائل من ميّ اليه.

(أما وضع كتابتي عن «المساواة» في مقام مقدمة للكتاب، وأنك تستأذنين مني: «هل ترضى بجعلها مقدمةً له في طبعته الثانية؟» فهو أشبه باستئذان أحدٍ يقال له: «هل ترضى أن نضع هذا التاج على رأسك؟»)[1].

والشاعر خليل مردم بك، والدكتور مرشد خاطر والشاعر القروي، سليم رشيد الخوري الذي نعت إليه بنفسها أباها فأرسل إليها رسالة تعزية من سان باولو لا تقل في جمال سبكها، وصدق عاطفتها عن قصائده الإنسانية، وختمها بالأبيات التالية:

(لا تراعي يا ميّ فالأصل للتربةِ
والفرع للهواء الطليق
هو في راحةٍ فلا تقلقيهِ
رُبَّ برٍّ مشبهٍ بالعقوقِ
إنما القبر للخلود سبيل
ما سبيل المحيطِ غير المضيق)[2]

كما ينبغي أن نذكر الكاتب اللبناني المعروف الذي كان يقيم في باريس ويكتب في جريدة: «الزمن ـ Le Temps» السيد خير الله خير الله، والزعيم السوري الأستاذ فارس الخوري، وشقيقه القاضي الأستاذ خليل الخوري، والأستاذ فؤاد حبيش، صاحب المكشوف، والدكتور فؤاد صروف والدكتور قسطنطين زريق والسيد خليل سكّر وزوجه ابنة الدكتور جبر ضومط، والأستاذ أنيس ناصيف ابن أخت الدكتور يعقوب صروف وعائلته، والدكتور كنعان الخطيب، والأستاذ بشر فارس، وانطون سعادة، والصافي النجفي، وشبل الخوري، وجورج نقولا باز، والأستاذ إميل زيدان، صاحب الهلال، والأستاذ نوفل الياس والأدباء: راجي الراعي، وخليل تقي الدين، وتوفيق

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٢٤.
(٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

يوسف عواد، والمحامي الكبير الأستاذ مصطفى مرعي والسيدة نور حرمه، والأستاذ حسين ادريس، رئيس المجلس الحسبي في القاهرة سنة ١٩٣٩، والأديب الأستاذ أسعد حسني.

بقي علينا أن نشير إلى صديقات ميّ اللواتي راسلنها وراسلتهن في حياتها، وجلّهن من الكاتبات الرائدات، والسيدات الراقيات في عصرها، وهن: «باحثة البادية»، ملك حفني ناصف، ولبيبة هاشم، وهدى شعراوي، وجوليا طعمة دمشقية، وروز عطا الله شحفة، وماري يني عطا الله، وروز اليوسف، وحبوبة حداد، وايمي خير وجهان غزاوي عوني، وليلى نفاع، وجميلة العلايلي، ونعيمة الأيوبي، ومنيرفا عبيد، وأديبة الأقصر. كما ينبغي أن نشير إلى أنه كان لميّ أصدقاء من كبار المستشرقين الأوروبيين، بعضهم درّس في جامعة القاهرة وتتلمذت عليه كالمستشرق الإسباني «الكونت دي غلارزا» الذي راسلها وراسلته مدة طويلة، بعد الحرب العالمية الأولى، وكان يدعوها في رسائله: «يا أختي في الفلسفة»، وبعضهم تعرف إليها في القاهرة كالمستشرقين الايطاليين: «كارلو الفونسو نللينو»، و«ميجيلانجلو غويدي»، و«آنا ماريا نللينو»، والمستشرق الألماني: «جوزيف شاخت»، وبعضهم الآخر قرأ مقالاتها وكتبها فراسلها مبدياً اعجابه بأدبها وعلمها، وترجم بعض آثارها كالمستشرق الألماني: «إيولد فولز» والمستشرق الايطالي: «ايتوري روسي». كما كان أعلام الاستشراق في الغرب ومنهم: «لويس ماسينيون»، و«السير هاملتون جيب» يجلّونها ويراسلونها[١]. وقد لحظنا من رسائل «إيتوري روسّي» المتعددة التي عثرنا عليها أنه تعرّف إليها عبر كتابها «ظلمات وأشعة» ومقالاتها المنشورة في «المقتطف» و«الهلال»، ومن ثم قرأ «باحثة البادية» و«بين الجزر والمد» فكتب إليها مهنئاً، وواعداً بتعريف قراء الايطالية بالآداب العربية. كان هذا الباحث في الآداب الشرقية شاباً يومذاك لأنه من مواليد سنة ١٨٩٤، يتقن

---

(١) جميع رسائل هؤلاء المستشرقين الى ميّ منشورة في كتابنا: «ميّ زيادة وأعلام عصرها» ـ ومترجمة الى العربية عن اللغات التي كتبت بها.

اللغات العربية والفارسية والتركية، ويحرّر في مجلة: «الشرق الحديث» في روما، فترجم بعض مقالاتها ونشرها مع نبذة عن شخصيتها، ثم قابلها في روما لدى زيارتها لها سنة ١٩٢٥ وأخذ بسحرها ورقتها فأعرب عن مشاعره في رسائله الممتعة إليها. . ولكننا نستشفّ من مضمونها خشيته من غضبها إذا ما سالت على قلمه عبارات الودّ والاعجاب، فقد كتب إليها في ٢١ - ١٠ - ١٩٢٥ يقول:

(ترى ماذا سيكون وقع كلامي إذا بحت لك بأني أحلم بك أحياناً، وأن ذكراكِ تؤاسيني، وتجعل مني انساناً أفضل؟)[١].

وفي ٢٩ - ١٢ - ١٩٢٥ كتب إليها رسالة شكرٍ وتقدير لتعريفها قراء العربية بروائع ايطاليا، موطنه، فقال: (وما هي سوى بلادك أيضاً لأن مواطن الفن والشعر هي ملك للناس كافةً)[٢]. ثم قال لها:

(ذكراك ماثلة أبداً في ذهني تلازمني بعذوبة، ولولا خشيتي من إثارة غضبتك النبيلة، وحكمك عليّ كطفلٍ بلغ الواحدة والثلاثين من العمر، لكنت رغبت في التعبير عنها بشجاعة أكبر)[٣].

إن كلام هذا المستشرق الشاب يدلّ على توقيره لميّ المتحفظة في معاملة الشرقيين والغربيين على السواء، ويدلّ كذلك على أنها كانت تأسر القلوب برقتها وجاذبيتها بعد أن تجاوزت سن الشباب إذ تجاوزت يومئذٍ الأربعين من العمر. ولكن هذا الواقع لا يمنعنا من أن نقول إن صلتها بايتوري روسي، وصداقتها معه كانت ممتعة ومفيدة، وشبيهة برشّة عطر في حياتها لأننا شممنا أريجه عندما كتب إليها في ٢٤ - ٣ - ١٩٢٦ يشكرها على رسالتها الودّية إليه، وتذكيرها إياه بالنصائح التي أسدتها إليه في السابق، وعلى الوعد الذي قطعته على نفسها لتعريفه بصديقها الكبير أمين الريحاني. ولقد ختم

---

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣٠٧.

(٢) و (٣) ميّ زيادة وأعلام عصرها - سلمى الحفار الكزبري - ص: ٣١١.

قائلاً: (أذكر أنني، لسنةٍ خلت، وفي الخامس من نيسان إن لم تخني الذاكرة، كان لي شرف التعرف إليك. واسمحي لي بأن أقول لك إنني اعتبر ذلك اليوم من أسعد الأيام، وتقبلي تمنياتي الودية بعيد الفصح المقبل)[1].

وهكذا نرى أن الذين صادقوا ميّ وأحبوها، في الوطن العربي وفي الغرب، الشيوخ منهم والشباب، سعدوا بصداقتها، وسعوا لإحراز محبتها واعجابها، ووجدوا في صلاتهم بها ملاذاً وينبوعاً ثراً لإلهام قرائحهم. كما نرى أنها كانت قريبة منهم جميعاً وبعيدة في آنٍ واحد، تلاطف الجميع دون تمييز، ولا تسمح لأحد منهم بتجاوز حدود اللياقة، فإذا دنا أحدهم منها، يحدوه الأمل بأن يفرض نفسه وحبه عليها، وجد بينه وبينها هوةً سحيقة! كانت ميّ نفحة الإلهام في أقلام أدباء عصرها وشعرائه، ولا نحسب أنه وُجدت أديبة نابغة في تاريخ الأدب أوحت إلى الشعراء الذين عرفوها ما أوحت به ميّ في حياتها من نثرٍ وشعرٍ رائعين، وإذا أردنا أن نستعرض ما أنشده شعراء عصر النهضة في وصفها وتمجيدها والتغزل المحتشم بسجاياها فإننا نحتاج إلى سفرٍ خاص بهذا الموضوع الشيّق، لذا نكتفي بالإشارة إلى أقوال شعراء فيها لم نأتِ على ذكرهم في هذه السيرة، وهم بدوي الجبل الذي عرفها في زحلة سنة ١٩٢٢ فألهمته قصيدة عنوانها: ميّ في وطنها، مؤلفة من عشرين بيتاً، هذا مطلعها:

(يا أرز لبنان وقد أقبلت
ميٌّ وسرب الغانيات الملاحِ
وانحنت الأرؤسُ من هيبةٍ
لمجدك البادي بتلك البطاح
أما قرأت الحبّ في سورةٍ
خُطت على تلك الوجوه الصباح؟

(١) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣٣٠.

وفيها أنشد يقول:

يا بردى الشام وقد أقبلت
مَيّ الفتاة الغادة الشاعرة
لا تنكر الشوق فقد صفّقت
من طربٍ أمواهك الطاهرة!
خاطبها الماء، ولا بدعة
فإنها يا بردى ساحرة!)[1]

والشيخ كاظم الدجيلي[2] الذي نظم فيها قصيدة بعنوان: «هل أنت شاعرة فإني شاعر»، هذا مطلعها:

(قلبي بكل هوى لحبكِ ذاكر
هل أنتِ شاعرة؟ فإني شاعر
يرتاح للذكرى ويطرب كلما
وافاه طيف من خيالكِ زائر
يا من تحدثت الرجال بفضلها
وبها النساء النابغات تفاخر)[3]

والأب رفائيل نخلة اليسوعي العالم الشاعر الذي كان يتقن عشر لغات، وكان كبير الاعجاب بميّ، يرى أن (نثرها العربي شعر لا ينقصه سوى الوزن والقافية، بل هو غناء موقّع على أوتار قلبها الخافق أمام كل

---

(١) ديوان بدوي الجبل ـ مطبعة العرفان ـ صيدا ـ ١٩٢٥ ـ ص: ٨١.

(٢) الشيخ كاظم الدجيلي ـ ١٨٨٤ ـ ١٩٧٠ ـ شاعر عراقي وأديب كبير تتلمذ على محمود شكري الألوسي، وجميل صدقي الزهاوي، وأصدر مع الأب أنسطاس الكرملي مجلة «لغة العرب» سنة ١٩١١، ودرس اللغة العربية في جامعة لندن ما بين ١٩٢٤ ـ ١٩٣٠ ـ وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

(٣) الهلال ج (٢٨) ـ عدد مايو ١٩٢٠ ـ ص: ٧٢٧.

محاسن العالم، وخصوصاً أمام كل آلام البشر)[1]. وقد أرفق إحدى رسائله الممتعة إليها، والتي كانت تدور حول اللغة والأدب والشعر بقصيدة عنوانها: «أيا ميّ غني» وذلك من جزين في لبنان الجنوبي، في ٢ يناير «كانون الثاني» سنة ١٩٢٦، وقال فيها:

(أيا ميّ غنّي!

أيا ميّ، قد وهبتك السماءْ

غناءَ ملوكِ الغِنا العظماء

يثير القلوب، ويُجري الدماء

كذلك ظني،

فغني دواماً، لخير الملا

غناءً بحبكِ مستكملا،

فما أعظمَ الفرضَ، ما أجملا

أيا ميّ غنّي،

هوى مُعْظمِ الناس نُعمى ومال

ألا درّسيهم سفْرَ الجمال

لعل هواهم إلى الحسن مال

بطول التأني،

ألا أقرئيهم كتاب الطبيعة

ونورَ زهورٍ أضاءت ربيعه

وزهرَ كواكب حلّت رفيعة،

أيا ميّ غني)[2]

كما أن الأديب الكبير أمين تقي الدين وصفها بهذين البيتين: [الكامل]

---

(١) و (٢) ميّ زيادة وأعلام عصرها ـ سلمى الحفار الكزبري ـ ص: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

«مـــيٌّ» ومـــا «مـــيٌّ» ســـوى قَبَسٍ

لِلْحُسْنِ مَـزَّق نــورُهُ الـشُّـهُـبـا،

إنـــي أُحـــيّـــي فــيــكِ نـابــغــةً

حَــسَــدَ الأعــاجــمُ عــنــدهــا الــعَــرَبـا!

وما دمنا قد تحدثنا عن أصدقائها المعجبين بها إلى حدّ إنشاد الشعر في مزاياها ينبغي ألا نغفل ذكر كتاب وشعراء مغمورين أعربوا عن اعجابهم بأدبها ، وحبهم لها، في قصائد وجدناها بين أوراقها التي عثرنا عليها في مصر،ونكتفي بنشر صورٍ عنها لأنها مكتوبة بخطٍ جميل، ويلحظ القارىء أن «محمد توفيق علي» بعث إليها برسالتين من «الواسطي» في مصر، الأولى بتاريخ ٢٦ ـ ٧ ـ ١٩١٦ وقد سمى نفسه «شويعراً» من سكان الأقاليم، وفيها أبيات لطيفة في مدحها، والثانية بتاريخ ٢٥ ـ ٢ ـ ١٩١٧، وفيها غزل من «ريحان الشعر نظمه ناظمه تحية للربيع...».

سيدتي الأديبة الفاضلة الآنسة مي

شعوب من سكان الأقاليم يا سيدتي الأولى

سمعوا عنك ولم يروك بلغ أن لك ابتسامات ودموع

ولا يدري لقرويته كيف يتوصل إليك قال أبياتاً

ليمدحك ولينال بهذا الكتاب جائزة إنك

متفضلة إن شاء الله قال

صلى الإله عليك كل عشية

يا مي ما نثر الجواهر فوك

ما جئت معجزة الحسان ببلاغة

إلا والباشا النبي أبوك

إن الأولى أثنوا عليك فأطنبوا

لو أنصفوك مودة عبدوك

إني لأغبط من رآك وليتني

أعطى بنفسي ساعة تجلوك

عفتي على الحسناء ذكرك وانقضى

سمت الحسان بعهدك المبروك

لو أن غيلانا رآك وأقبلت

خرقاء (١) تبتسم لم يكن يسلوك

٢٦-٧-٩١٦ الواسطى — محمد توفيق علي

(١) خرقاء أحبها ذو الرمة بعد أن جفته مي وكانت بينهما قرابة من مكة فقال في ذلك - تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

١٠ مارس ٦٢ الموافق ٢٥ فبراير ٦٢

يا شاعري عصرها

يقولون ان الارواح قد تتعارف قبل الاشباح وهذا
شيء من ريحانة الشعر نظم ناظم تحية للربيع القادم
واحب ان يطلعك عليه تسلية وفكاهة قال

مال الدلال بعطفها فثناها
وسمت الى عرش الجمال فتاها
برزت تجد من براها أنه
قد زين الاكوان حين براها
خطرت تخفر بالملوكة التقى
وبه عرش الحب وقع خطاها
تا بعتها مستجليا حتى اذا
أبلغت عيني في النعيم مناها
قالت لصاحبة لها من يا ترى
هذا الكليم وانني لفتاها
عجبا اتنكرني وتجهل موقفي
والوحي اول ما يجول فناها
ارنو اليها والشجون تذيبني
ويدي تلامس كبدها وحشاها

ولو انني اعطيت مشوقا نائلا

نزلت بدور التم تلثم فاها

ما بالها قد اينعت جناتها

وتظل تجزل من برود جماها

ما كنت متجرا ولو متهيبا

أحدًا ولو متنكرا لولاها

::

لو شئ يشبه حسنها ولربما

حكت الربيع سائلا وحكاها

ولعله الفى عليها حلية

لما توهج واستعار حلاها

واذا البلابل في الرياض تغردت

فحديثها - بل تلك موسيقاها

::

ولقد نزلت على اراتك روضة

قد ازهرت وتفجرت أمواها

راعت مناظرها ورق نسيمها

وزكت منابتها وطاب شذاها

الواسطي - محمد فوزي ـــــ ستأتي البقية

حاشية

لولا انني من الغرباء الذين تابوا عن ايلامك مجانا بعد ان قرأوا الك وفضل دمع على الشرق ، لقلت ان قلبي العربي لا يزال نابضا بالعاطفة م

وختاماً لهذا الفصل يجدر بنا أن ننقل حديث الأستاذ ألبير أديب، صاحب مجلة «الأديب» الذي أحزنه ما صدر في المطابع العربية من كتب ومقالات عن حياة ميّ العاطفية حيث قال: (إن ما صدر من روايات وريبورتاجات عن علاقات مي العاطفية بأقلام كتاب أمثال عامر العقاد وكامل الشناوي، وأن ما زال ينشر حول هذا الموضوع بأقلام صحفيين وكتاب تفترض فيهم الأمانة والشهامة فيه الكثير من التجني والافتراء عليها، وعلى صفوة الكتاب الذين عاصروها)(1) . هذا ما حدثنا به الأستاذ ألبير أديب في منزله ببيروت سنة ١٩٧٨، وقد كان، رحمه الله، كاتباً كبيراً وإأً نبيلاً، وذلك قبل أن يطلع على مقالةٍ نشرها الصحفي جمال بخيت في أوائل عام ١٩٨١ في مجلة «صباح الخير» القاهرية، بعنوان مثير ومستهجن كُتب بالأحرف الكبيرة والحبر الأحمر: (ميّ: هل خدعت عشاقها؟(2)!! وقد قال فيها: (إن عبقرية ميّ كانت في قدرتها على الاحتفاظ بعدد وافر من العشاق دون إثارة حفيظتهم أو غيرتهم... وإنها سارت على حبال العواطف فحققت توازناً عجيباً عبقرياً تزايدت معه نبضات قلوب «المشاهدين» فتمنى كل منهم أن تسقط ليتلقفها في أحضانه المفتوحة عن آخرها)(3). إلى ما شاكل من هذه الترهات، والعبارات الملهبة للفضول، والمثيرة للشكوك، في سيرة ميّ الأديبة، والمرأة الرصينة التي كانت مدرسةً للعلم والأخلاق والفضيلة، والتي أفرطت في ارتداء ثياب الجدّ والحشمة في حياتها، دون أن ترتدي ثياب اللهو، كما زعم جمال بخيت، وأبناء مدرسته الصحفية الذين جعلوا شعارها: ترويج الاشاعات الكاذبة، وتلفيق روايات العشق والعشاق لكسب الشهرة،

---

(1) من حديث اجريناه مع الأستاذ الكبير ألبير أديب في بيته ببيروت بتاريخ ١١ - ٢ - ١٩٧٨.

(2) و (3) مجلة صباح الخير - عدد ٢٢ يناير ١٩٨١ - ص: ٤٧ - ٤٩ - وكان جمال بخيت قد نشر في عدد ٨ يناير ١٩٨١ من المجلة ذاتها رواية محاولة قام بها أمير جزائري لاختطاف ميّ، نقلا عن كتاب كامل الشناوي: الذين أحبوا ميّ!..

واصطياد القراء... ناهيك عن أن كامل الشناوي (نجح في أن يظهر ميّ وكأنها «جولييت» عصرها التي ترامى على أقدامها كل «روميو» في دنيا الأدب، ونجح في أن جعل منها بأسلوبه الشائق، وخياله البديع «عروساً زفّها إلى ألف حبيب...» ثم قصّ علينا قصة الأمير الجزائري الذي أراد اختطافها ليتزوجها.. ولو بالإكراه!)[1] بهذه العبارات علّق الكاتب الرزين أسعد حسني على روايات الشناوي، ونحن نورد تعليقه لموافقتنا عليه كلياً، ونتمنى مثله لو قصر هؤلاء الصحفيون والكتاب اهتمامهم على انتاج ميّ الأدبي، لأنها ستبقى الكاتبة الرائدة، والفكر المتوهّج الذي طبع عصر النهضة الأدبية والاجتماعية والقومية الحديثة بطابعه السنيّ الخالد!.

---

(١) مجلة العالم العربي ـ عدد مايو ١٩٥٥ ـ ص: ٣.

فهرس

المقدمة	٩
شخصية ميّ	٢٩
أهلوها ومنبتها	٥٣
الناصرة مهد طفولة ميّ	٦٧
طفولتها	٧٥
يفاعتها	٨٩
خطبتها	١١١
الهجرة من الناصرة إلى مصر	١٢٧
جريدة «المحروسة» في كنف آل زيادة	١٣٥
الشاعرة	١٤٧
ميّ الطالبة	١٧٧
الكاتبة	١٩٣
مؤلفاتها	١٩٩

خصائص أدب ميّ وأسلوبه وأثره	٢٢٥
مختارات من أقوال ميّ	٢٣٥
الخطيبة والمحاضرة	٢٣٩
ندوة الثلاثاء...	٢٨٧
حياتها العائلية	٣٢١
أصدقاؤها ومحبوها	٣٤١
ميّ والريحاني	٤٦١

للمؤلفة

١ - **يوميات هالة - ١٩٥٠** - دار العلم للملايين - بيروت.
٢ - **حرمان** - قصص - **١٩٥٢** - دار المعارف بمصر.
٣ - **زوايا** - قصص - **١٩٥٥** - دار المعارف بمصر.
٤ - **الوردة المنفردة** - شعر بالفرنسية - بوينس آيرس الأرجنتين - **١٩٥٨**.
٥ - **نساء متفوقات - ١٩٦١** - دار العلم للملايين - بيروت.
٦ - **عينان من أشبيلية** - رواية - **١٩٦٥** - دار الكاتب العربي - بيروت.
٧ - **نفحات الأمس** - ديوان شعر بالفرنسية - باريس **١٩٦٦**.
٨ - **الغريبة** - قصص - **١٩٦٦** - مكتبة أطلس - دمشق.
٩ - **عنبر ورماد** - سيرة ذاتية - **١٩٧٠** - دار بيروت للنشر.
١٠ - **في ظلال الأندلس** - محاضرات - **١٩٧١** - مطابع ألف باء - دمشق.
١١ - **البرتقال المرّ** - رواية - **١٩٧٥** - دار النهار للنشر - بيروت.
١٢ - **الشعلة الزرقاء** - رسائل جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة المخطوطة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي - **١٩٧٩** - دمشق - الطبعة الأولى.
١٣ - **جورج صاند: حبّ ونبوغ - ١٩٧٩** - مؤسسة نوفل - بيروت.
١٤ - **ميّ زيادة وأعلام عصرها - ١٩٨٢** - مؤسسة نوفل - بيروت.
١٥ - **الشعلة الزرقاء - ١٩٨٣** - مؤسسة نوفل بيروت - الطبعة الثانية.
١٦ - **حزن الأشجار** - قصص - **١٩٨٦** - مؤسسة نوفل - بيروت.



ميّ زيادة
أو
مأساة النبوغ

النبوغ والمأساة كلمتان تختصران حياة ميّ زياده في شروقها وغروبها.

قدرٌ رحيمٌ وقاسٍ رفع هذه الأديبة الرائدة إلى قمّة المجد ثم أرداها إلى هاوية الشقاء.

كاتبة فذّة أعطت للأدب والنهضة العربية الحديثة عمرها كله، ولم تحصل على شيء، إلا على أرفع مكانةٍ في تأريخ الأدب العربي.

نابغة شقيت بنبوغها كما لم يشق به أحدٌ غيرها عبر العصور: أحاط بها عظماء عصرها، وعلّقوا على هامتها إكليل المجد، وجفاها أهلوها، ثم جاراهم كثير من أصدقائها بعد أن أدبر سعدها مما يدعو إلى القول إن من المفارقات العجيبة في بلادنا أن يُحارب النبوغ، ويُهان صاحبه، ولا سيما إذا تجلّى في امرأة...

